دلائل الهدى

منارات على درب الإسلام

أ. د. السيد عبدالحليم محمد حسين

شبكة الألوكة
www.alukah.net

دلائل الهدى

منارات على درب الإسلام

الدكتور

السيد عبد الحليم محمد حسين

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع ٩٧٠٤ / ٢٠٠٢

شركة الأمل للتجهيزات الفنية
عامر شماخ وشركاه
ت: ٥٧٦١٩٦٢

شبكة الألوكة - قسم الكتب

تقديم

الحمد لله وليّ كل نعمة، ومصدر كل توفيق، وملهم كل خير. والصلاة والسلام على نبى الرحمة، وموئل كل بر. اللهم زدنا توحيداً لذاتك العليّة، وصفاتك السَّنية، وزدنا اللهمّ تبصيراً بآلائك الظاهرة والخفية. وزدنا شكراً لك عليها.

جنبنا اللهم عثرات القلب واللسان، وألهمنا الإخلاص لوجهك، واختم أعمالنا بأحبّ الأعمال إليك، حتى نلقاك وأنت عنا راض.

وبعد: فهذه سياحة فى واحة الشريعة الإسلامية الغراء، ورضاب الأدب ودوحته الفيحاء، وقوانين الفضيلة ومثل الأخلاق العصماء، وسِيرِ الكَمَلة النُّبلاء، من حملة الرسالات والدعوات، جرى القلم بتحريرها فى أغراض شتى، جامعة بين فصيح اللغة، وجميل صناعة الأدب، ومباحث وافية فى أصول الدين، وأحكام الشريعة القويمة، ونظم الاجتماع مع حقائق علمية، ودرر تاريخية.

وقد أريد بها إيقاظ الهمم الغافية، وإفاقة النفوس الغافلة، وشحذ الأذهان بروائع البيان، بفكر لا يتعصب لقديم، ولا يُفْتَتَنُ بجديد، ويعتمد الرأى حيث يثبته الدليل، ويتقبل الحكم متى لاحت بجانبه حكمة، ويثق بالرواية بعد أن يسلمها النقد إلى صدق.

وكأنى بالكرام الذين سلمت فطرتهم، واتقدت قريحتهم، أن يهبُوا «**دلائل الهدى**» قسطاً من وقتهم؛ ليلقوا عليها أشعة من ثاقب فكرهم، فإذا هم ينظرون إلى قلم أمين، يُطارحهم الحديث فى أسلوب حكيم.

وسيجدون - بعون الله - عودة إلى إيمان نقى، وأدب سنّى، فينفعون الأمة بجهدهم، وكمال رجولتهم، ويتمتعون بالحياة الطيبة المطمئنة فى أولاهم وآخرتهم.

والعالمُ اليوم على شفا جرف هار، وحضاراته المتداعية آخذة فى الانهيار، قد أطبق عليها الظلام ولم يُشْرِق عليها نهار، ولم يعد أمام عالم اليوم إلا الإسلام؛ ليقود سفينة النجاح، ويُبْحِر بَهِمْ إلى شاطئ الأمان.

وقد شاءت إرادة العليم الوهاب أن يتجه كثير من الأمريكان إلى دراسة الإسلام بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١م، وكان نسبة الذين أسلموا فى الشهر الأول من هذه الأحداث أربعة أضعاف الذين أسلموا فى الشهر الذى سبقه، وتلك من البشريات التى تعيد الإنسان إلى فطرته، وتدفعه للتفكير الجاد إلى سبب وجوده وخلقته.

والإسلام الذى أعاد الموازين الصحيحة للبشرية فى الماضى، كفيل بأن يرسى دعائمها فى الحاضر، ويُشعَّ على العالم أضواءها من جديد.

ولكن التبعة تبقى على أبنائه، وحكامه وعلمائه، ودعاته ورجالاته.

●● والسؤال:

هل سيستيقظون؟

هل سيفيقون؟

هل سيحملون مشاعل النور؟

هل سيتخلصون من حياة النفاق؟

هل سيؤثرون الآخرة على الفانية؟

هل سيحبون الموت أكثر من حبهم للحياة؟

اللهم اهْد قومى فإنهم لا يعلمون.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الدكتور: السيد عبدالحليم محمد حسين

نيويورك
١٠ شعبان ١٤٢٢هـ
٢٦ أكتوبر ٢٠٠١م

الباب الأول

البَعْثة وانتشار الإسلام

١

قضاء البعثة المحمّدية على المزاعم الباطلة

بعث الرسول الأعظم – صلوات الله عليه – بالدعوة إلى الإصلاح الذى تصل به الأفراد والأمم إلى الحياة الطيبة فى الدنيا، والسعادة العظمى فى الأخرى، ونواحى هذا الإصلاح ترجع إلى العقائد والأخلاق والعبادات المقربة إلى الله جل جلاله، والمعاملات الجارية بين الناس.

وهناك ناحية أخرى هى تنقية النفوس من المزاعم الباطلة (*)، والتعلق بالعادات المستهجنة، قد اتجهت إليها دعوة الرسول.

بعث رسول الله ﷺ فوجد العرب فى ظلمات من الجهالة، ومن هذه الظلمات ظلمة التخيلات المزرية، والعادات الممقوتة، فأقبل ينبه على بطلان هذه التخيلات، وقبح ما ابتنى عليها من العادات حتى نبذها المسلمون بحق، وبمثل هذا كانوا خير أمة أخرجت للناس.

وبسط الحديث عن هذه المزاعم والعادات يستدعى مقاماً أوسع من هذا المقام، فنكتفى بأن نسوق إلى حضراتكم طائفة منها على سبيل التمثيل، وندفع استيفاء البحث عنها إلى فرصة أخرى.

وإذا تحدثت فى هذه الكلمة عن العرب، فلأنهم أول أمة تلقت هذه الدعوة الإصلاحية الشاملة، ووقعت منها موقع الدواء الناجع من العلل المزمنة.

ومن حديثى عن العرب، يعرف أثر دعوته عليه الصلاة والسلام فى تخليص سائر البشر من التخيلات الضارة، والسمو بها إلى المنزلة العليا فى البحث والتفكير، فإن الأمم غير العربية لم تكن فى تعلقها بالأوهام وانحطاطها فى العادات بأقل ولا أحقر من الأمة العربية قبل الإسلام، كما أنها كانت تضاهيها فى بطلان عقائدها واعوجاج سيرتها.

(*) ألقيت هذه الكلمة فى احتفال جمعية الهداية الإسلامية بذكرى مولد الرسول ﷺ.

ولعلك لا تجد زعماً باطلاً فى العرب إلا وجدته بنفسه، أو وجدت ما يضاهيه فى غير العرب، وإذا حط الشرك والاعتقاد بإلهية المخلوق رحاله فى قوم، فهنالك ترى البصائر فى ظلمة، وهنالك يبيض التخيل ويفرخ، وهنالك تسمع وترى من الأباطيل والخرافات ما يدلك على أن أشخاصاً أو جماعات يعدون فى الناس وهم لا يشابهون الناس إلا بأن أصواتهم تشتمل على حروف متمايزة.

كان العرب يتشاءمون بكثير من الأشياء: نحو الغراب والبومة، أو مرور الطير من ناحية الشمال، وقد نهى رسول الله ﷺ عن التشاؤم بإطلاق، فقال: «**لا طيرة**» ونبه على أن وجوه الخير والشر إنما تعرف من طريق الشرع أو العقل. ومن سوء عواقب التشاؤم بهذه المخلوقات أنها قد تصد الرجل عن وجهة لو مضى فيها لنال خيراً كثيراً أو قليلاً.

ومن المحزن أن ينهى رسول الله ﷺ عن التشاؤم، ويزيحه من طريق العاملين المجدين، ويضع عقيدة التوكل على الخالق مكانه، ثم لا يلبث وباؤه الخبيث أن يعود، ويتفشى فى نفوس كثير من جماعات المسلمين، فهذا يتشاءم بمن يعوده وهو مريض فى يوم الأربعاء، وذاك يتشاءم بتناول سكين أو مقراض من يد صديق له، بل لايزال كثير من الناس يتشاءمون بما كان الجاهلية يتشاءمون به من نحو رؤية البوم والغراب. والبصائر المشرقة بنور الحكمة لا يحوم عليها التطير فى حال.

وكان العرب فى جاهليتهم يستقسمون بالأزلام، ذلك أنهم كانوا يتخذون ثلاثة أقداح يكتبون على واحد منها (افعل) وعلى الثانى (لا تفعل) ويتركون الثالث غفلاً، فإذا أراد أحدهم أمراً يهمه من نحو سفر أو نكاح أو تجارة، أجال هذه القداح، فإن خرج له قدح الأمر فعل، وإن خرج له قدح النهى ترك، وإن خرج له القدح الغفل أجال الأقداح مرة ثانية، ومن أثر هذا التخيل الفاسد أن الرجل قد يترك العمل وفيه خير كثير، أو يقدم على عمل وفيه شر عظيم. وكان هذا التخيل مما تناولته الدعوة المحمدية وجاء النهى عنه فى القرآن المجيد، ووضعت السنة الغراء مكانه الاستخارة الشرعية والاستشارة.

وإبطال الشريعة للأزلام يجرى حكمه فى كل ما يتخذ وسيلة للإطلاع على عواقب الأمور من غير طرقه الشرعية أو العلمية، مثل الاستخارة بالمصحف أو السبحة ونحوها، فكل هذا ما عدا الاستخارة الشرعية بدعة لا يجوز التعلق بها.

وكان للعرب غلو فى الاعتقاد بتصرف الجن فى نفع الناس وضرهم، وتعرضهم فى الفلوات لمن يمر بها، ومن هنا جاء اسم الغول والسعلاة، وذهب بهم هذا الغلو إلى مزاعم باطلة وعادات منبوذة كزعمهم فى بعض الحيوان أنها نوع من الجن، أو من مراكب الجن، مثل القنفذ والأرنب والظبى والنعام، وزعموا أن الجن قالوا فى أشعارهم.

وكل المطايا قد ركبن فلم نجد ... ألذ وأشهى من ركوب الأرانب

وللعرب فى الجاهلية رقية يعالجون بها من اعتقدوا أن به مساً من الجن، تسمى «النشرة» وقد سئل عنها النبى ﷺ فقال: «**هى من عمل الشيطان**». وكذلك ترى القرآن والسنة يحاربان إسراف العرب فى الاعتقاد بالجن، وينبهان على ما نشأ عن هذا الإسراف من المزاعم الباطلة، كما قال تعالى فى نفى أن يكون الجن يعلمون الغيب: ﴿**فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ**﴾ [سبأ: ١٤] وقال ﷺ فى إبطال ما يتخيلونه من الغول: «**لا صفر ولا غول**».

ومما يؤسف له أشد الأسف أن تعود الجماعات غير المهذبة إلى الإكثار من الحديث عن تصرفات الجن، ويتخذوا لمعالجتها أمثال ما كان فى عهد الجاهلية، كذلك الصنيع الذى يسمونه «الزار».

وما كنا لنجد فى تاريخ سلفنا الذين تهذبت نفوسهم ببعثة الرسول الأكرم صلوات الله عليه. ما نجده فى أزمنة متأخرة من المزاعم المتعلقة بالجن، كزعم اتخاذ زوجات منهم أو رواية أحاديث نبوية عن بعضهم.

ومن مزاعمهم الفاسدة أنهم كانوا إذا أجدبوا وحبس عنهم المطر، عمدوا إلى نوعين من الشجر يقال لهما السلع والعشر، فحزموهما وعقدوهما فى أذناب البقر،

وأضرموا فيها النار، وأصعدوها فى جبل وعر يستشفعون بها، وإلى هذا يشير الشاعر بقوله:

أجاعل أنت بيقوراً مسلعة ذريعة لك بين الله والمطر

وقد أبطلت الدعوة المحمدية هذه العادة المنكرة، ووضعت مكانها صلاة الاستسقاء التى هى عبادة لله خالصة.

ومن البلاء أن ترى أقواماً من العامة فى بعض البلاد يتخذون للاستسقاء وسائل تشبه ما يفعله الجاهلية كالخروج ببعض الأناشيد وآلات الطرب، ونحو ذلك من البدع التى لم يضعها الشارع الحكيم وسائل للاستسقاء.

ولنسق إلى حضراتكم مثلاً آخر من المزاعم التى حاربها الرسول عليه الصلاة والسلام هو اعتقادهم بنفع خرزات أو أحجار أو أعضاء بعض الحيوان، فكانوا يعلقونها على أنفسهم لأغراض مختلفة مثل اجتلاب المحبة، أو المنع من الحمل، أو السلو عن الحب، أو الحفظ من مس الجن. وقد نهى رسول الله ﷺ عن تعليق ما يماثل هذا من التمائم فقال: «**من يعلق تميمة فلا أتم الله له**»، وامتنع عليه الصلاة والسلام من مبايعة شخص كانت عليه تميمة، فأدخل الرجل يده فقطعها، فبايعه عند ذلك النبى ﷺ وقال: «**من علق تميمة فقد أشرك**» وقال: «**من علق شيئًا وكل إليه**».

وهذه الأحاديث وإن وردت فى تمائم الجاهلية، فإن السلف الصالح لم يعرفوا بتعليق التمائم، وإنما كانوا يستشفون بالقرآن الكريم على وجه الرقية كما ثبت فى السنة.

وإذا نظرتم إلى هذه المزاعم والعادات التى أبطلتها الدعوة المحمدية وجدتم بعضها أثراً من آثار عقيدة الشرك، وبعضها إنما هو أثر الجهل وضعف الفكر. فمن مزاعمهم التى هى وليدة الشرك أخذ الغلام لسنه إذا سقطت، ورميها فى وجه الشمس عندما تطلع، وقوله: «يا شمس أبدلينا سناً أحسن منها» وهذا أثر من آثار الاعتقاد بإلهية الشمس.

ومن المحزن أنا نرى هذه العادة الوثنية بعد أن طردها التوحيد، ونفاها من الأرض، ترجع وتنتشر بين الجماعات الجاهلة ككثير من مزاعم الجاهلية وعاداتهم.

ومن المزاعم الناشئة عن الجهل وضعف الفكر أن الواحد منهم إذا أراد السفر عقد خيطًا بشجرة على اعتقاد أنه متى أحدثت امرأته بعده أمرًا منكرًا انحل ذلك الخيط، وفى هذا الزعم الساقط ضرر كبير على صلة الزوجية، وعلى عرض المرأة فإن الخيوط التى تعقد فى الأشجار معروضة للحل أو الانحلال فى كل وقت.

فالحق أن من وقف على هذه الأوهام والخرافات التى كان العرب وغير العرب منغمسين فى أرجاسها، ازداد علمًا بعظمة رسول الله ﷺ وفضل بعثته فى إصلاح العقول، وتهيئة الأفكار للبحث فى العلوم والسير بها إلى غايات سامية.

ooooo

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٢

انتشار الإسلام في العالم وعوامل ذلك

أبلغ رسول الله ﷺ دعوته إلى العرب، ثم اتجه بإبلاغها إلى الأمم الأخرى من غير العرب، فبعث رسله بكتب إلى ملك الفرس، وملك الروم، وملك مصر، وملك الحبشة، يدعوهم إلى الإسلام.

فكتب إلى كسرى: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس».

وكتب إلى هرقل: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين (١) ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون».

وكتب إلى المقوقس ملك مصر: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبدالله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط. يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون».

وكتب إلى النجاشي ملك الحبشة: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة، أسلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك

(١) الأريسيون: الفلاحون والزارعون، والمراد إثم رعاياه الذين يتبعونه.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت به، فخلقه الله من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى، فإنى رسول الله، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتى، والسلام على من اتبع الهدى».

أما ملك الفرس فمزق الكتاب، وبلغ ذلك النبى ﷺ فقال: «**مزق الله ملكه**». وأما ملك الروم وملك مصر فقابلا الدعوة برفق وأناة، ولكنهما لم يجيبا إليها. وأما النجاشى فقبل الدعوة ودخل فى الإسلام (١).

وجه ﷺ الدعوة إلى تلك الأمم بدعوة ملوكها، فكان هذا من دلائل أنه مأمور بإبلاغهم الدعوة كما أبلغها العرب، فلم يتردد أصحابه - رضى الله عنهم - فى قصدهم لبث الدعوة بين الأمم ما أمكنهم، وكان من أبى بكر الصديق بعد أن أطفأ فتنة المرتدين ومانعى الزكاة فى البلاد العربية، أن وجه نظره إلى نشر الإسلام فى العراق والشام على طريق الفتح، وجاء عمر بن الخطاب فأتم فتح الشام، ثم فتح الفرس ومصر وطرابلس الغرب، وجاء عثمان بن عفان فأتم فتح الفرس، وفتح أرمينية والقوفاز.

وفى عهد بنى أمية فتحت تونس والجزائر والمغرب الأقصى وبلاد الأندلس، وانتشر الإسلام فى الهند على يد فاتحها السلطان محمود بن سبكتكين، ثم المغول الذين أسسوا فيها الدولة المغولية.

ووصل الإسلام إلى الصين منذ عهد قديم (٢) على أيدى الدعاة من التجار والمهاجرين الذين يرحلون إلى تلك البلاد بحراً من طريق الهند، أو براً من طريق ما وراء النهر. ودخل جزائر سومطره وجاوه منذ عهد بعيد على أيدى الدعاة أيضاً من

---

(١) هذا ما يوجد فى بعض كتب السيرة، وفى صحيح مسلم أن النبى ﷺ كتب إلى النجاشى، وليس بالنجاشى الذى صلى عليه، أى صلاة الغائب. انظر: زاد المعاد لابن القيم.

(٢) من مؤرخى الصين من يقول: إن أول وفد من المسلمين دخل الصين كان فى عهد الخليفة عثمان رضى الله عنه.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

التجار والوافدين عليها [١]، ووصل إلى جزائر سرنديب « سيلان »، وجزائر الفلبين، وسيام، واستراليا، والبرازيل، وبلاد أخرى من أمريكا.

وانتشر فى السودان، وبلغ بلاد السنغال وغيانا وساحل العاج وسيراليون ونيجيريا وساحل الذهب وتوجو والكمرون وجنوب أفريقيا « مستعمرة الكاب » ومدغشقر وزنجبار وبلاد الحبشة.

وانتشر الإسلام بالفتح العثمانى فى آسيا الصغرى والأستانة وشرقى أوروبا، وهو اليوم فى بولونيا ويوغوسلافيا وألبانيا وبلاد اليونان. وانتشر فى المغول « التتار » وبلاد روسيا بالدعوة الخالصة.

○ عوامل انتشار الإسلام:

انتشر الإسلام ذلك الانتشار الواسع المدى فى زمن غير بعيد بعوامل اقتضتها حكمة الله، وأول هذه العوامل متانة أصول الدين وسماحة شريعته، ووضاءة ما دعا إليه من أخلاق وآداب، فإذا صادفت الدعوة ذا فطرة سليمة، وعقل راجح، فنظر فيما يدعو إليه الدين من عقائد وأحكام وآداب، لم يلبث أن يتقبل دعوته، ويصير إلى إيمان لا تزلزله عواصف التضليل.

ففى خطاب العلاء الحضرمى عند دعوة المنذر بن ساوى ملك البحرين: « هذا النبى الأمى الذى والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول: ليت ما أمر به نهى عنه، أو ما نهى عنه ليته أمر به، أو ليته زاد فى عفوه أو نقص من عقابه، إذ كل ذلك منه على أمنية العقل وفكر أهل البصر ».

وكذلك قال المنذر فى جواب العلاء: « قد نظرت فى هذا الأمر الذى فى يدى فوجدته للدنيا دون الآخرة ونظرت فى دينكم فوجدته للآخرة والدنيا فما يمنعنى من قبول دين فيه أمنية الحياة وراحة الموت ».

ولما بلغ أبا ذر الغفارى مبعث رسول الله ﷺ أرسل أخاه إلى مكة ليسمع من

---

(١) من الكاتبين من ذهب إلى أنه دخل جاوة بدعوة تجار من الفرس، ومنهم من ذهب إلى أنه دخل بدعوة الحضارمة من العرب.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قول النبى ﷺ ويأتيه بخبره فانطلق إلى مكة وعاد إلى أبى ذر وقال له: «رأيته يأمر بمكارم الأخلاق» وكذلك قال المقوقس عندما جاءه كتاب رسول الله ﷺ بالدعوة إلى الإسلام: «إنى قد نظرت فى أمر هذا النبى فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى إلا عن مرغوب عنه».

* **وسلك الكتاب والسنة فى سبيل انتشار الدعوة كثير من الأصول والأحكام والآداب نبينها فيما يلى:**

أولها: طريق الاحتجاج لها وبيان الداعى لها: وما يترتب عليها من المصالح، لتزداد القلوب إيمانًا بصحتها، وتطمئن إلى أن دعوة هذا الدين دعوة قائمة على رعاية المصالح، كما قال تعالى فى الاستدلال على الوحدانية ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقال ﷺ فى علة النهى عن بيع الثمر قبل بدو صلاحه: «**أرأيت إذا منع الله الثمرة بم يأخذ أحدكم مال أخيه؟**» وقال لمن سأله عن الاستئذان على أمه: «**استأذن عليها أتحب أن تراها عريانة؟**».

ثانيها: استقامة الدعاة وتحليهم بما يدعون إليه من خير: وانظر إلى قول ملك عمان لعمرو بن العاص إذ أبلغه كتاب رسول الله ﷺ داعيًا إلى الإسلام: «إنه والله لقد دلنى على هذا النبى الأمى أنه لا يأمر بخير إلا كان أول من أخذ به، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له، وأنه يَغلِب فلا يبطر، ويُغلَب فلا يضجر، وأنه يفى بالعهد وينجز الموعود».

ومن نظر فى تاريخ الخلفاء الراشدين وجدهم يقتدون برسول الله ﷺ مثل الزهد فى الدنيا، والعدل فى القضاء، والجد فى العبادة، فكانوا دعاة للإسلام بسيرتهم قبل أن يدعوا إليه بألسنتهم، وفد على الخليفة الأول ذو الكلاع من ملوك اليمن، ولما شاهد ما كان عليه الخليفة أبو بكر من الزهد والتواضع، أخذ يتزيا بزيه حتى رئى ذو الكلاع وهو حامل لجلد شاة، فأنكر عليه بعض قومه أن يفعل هذا بين المهاجرين والأنصار. فقال: «أفأردتم أن أكون ملكًا جبارًا فى الإسلام؟ لا والله لا تكون طاعة الرب إلا بالتواضع والزهد!».

وانظر إلى ما كانوا يوصون به عمالهم من إنصاف أهل الذمة وعدم إيذائهم، ومن

شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذا ما رواه الطبرى فى تاريخه أن عمر كتب إلى أمير البصرة أن يبعث إليه جماعة من ذوى الرأى والبصيرة، فأرسل إليهم وفداً فيهم الأحنف ابن قيس، فسألهم عن أهل الذمة وقال: أيشكون ظلماً؟ فقالوا: لا. ولم يكتف بهذا حتى سأل الأحنف - وكان يطمئن له ويثق بخبره - فأجاب بمثل جوابهم. ثم صرفهم.

ومن نظر إلى تاريخ أمراء الجيوش الفاتحة للفرس والعراق والشام ومصر وإفريقية، رآهم على سير قيمة وآداب سنية، يكبرهم من أجلها المخالفون، وأقل ما يكون لها من الأثر أن تستدعيهم إلى النظر فى الدين الذى يدعو إليه هؤلاء العظماء. أرسل المقوقس رسلاً إلى عمرو بن العاص فحبسهم عمرو عنده يومين وليلتين ليروا حال المسلمين. فلما عادوا إلى المقوقس وصفوا له المسلمين فقالوا: « رأينا قوما الموت أحب إليهم من الحياة، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة، إنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد منهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويخشعون فى صلاتهم ».

وإن شئت شاهداً على أن استقامتهم كانت قائمة على خشية الله لا على الخوف من رئيسهم الأعلى، فذلك عمير بن سعد عامل عمر بن الخطاب على حمص: وفد على عمر وسأله عن أشياء ثم قال له: عد إلى عملك، فقال: لا تردنى إلى عملى فإنى لم أسلم منه حتى قلت لذمى « أخزاك الله » ولقد خشيت أن يخصمنى له محمد ﷺ، فقد سمعه يقول: «**أنا حجيج المظلوم فمن حاججته حججته**» ولكن ائذن لى إلى أهلى. فأذن له، فأتى أهله (١).

ثالثها: حكمة طرق الدعوة: فإن القرآن الكريم أرشد الدعاة إلى الأخذ بالحكمة والموعظة الحسنة، وأمرهم أن يتحروا فى مجادلاتهم أحسن الطرق. قال تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [النحل: ١٢٥].

---

(١) سراج الملوك للطرطوشى.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ومن ينظر فى سيرة النبى ﷺ، وجده يأخذ فى الدعوة بالطرق التى تجعلها مألوفة للعقول، قريبة من القلوب، فكان يعرضها فى لين من القول، ويخاطب كل قوم بما يفهمون، ولا يخاطب أحداً إلا بما يحتمله عقله، وينظر إلى النفوس وما يلابسها من علل وشبهات، ويضع كلامه موضع الدواء الناجع.

وانظر قصة دعوته عدى بن حاتم حين دخل عليه فى المسجد، فأخذ بيده وانطلق به إلى بيته وأخذ يدعوه إلى الحق، ويعالج ما فى نفسه من شبه، ويزيحها فى رفق. ومما يروى فى هذه القصة أنه قال له: «**لعلك إنما يمنعك من الدخول فى هذا الدين ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان فى غيرهم، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى» قلت: كسرى ابن هرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز»** (١) فأسلم عدى وكان من أصدق الناس إيماناً.

وقد تعلم الناس من القرآن والسيرة النبوية كيف يدعون إلى الدين والإصلاح على طريقة الحكمة، وكانت هذه الحكمة من وسائل نجاح الدعوة وذهابها إلى أقصى الشرق والغرب.

رابعها: بلاغة القول وحسن البيان: ذلك أن بلاغة الداعى مما يأخذ إلى قبول الدعوة، فإن إخراج الحق فى صورة واضحة جميلة يسرع بإلقائه فى النفوس، وإذا نظرت إلى الرسل الذين كان رسول الله ﷺ يبعث بهم للدعوة، وتدبرت فى المخاطبات التى كانت تجرى بينهم وبين الملوك أو غيرهم من المدعوين، وجدتهم من أبدع الناس بياناً، وأعرفهم بالطرق التى تنفذ منها الدعوة إلى القلوب المستعدة إلى الرشد.

وانظر إلى دعوة المهاجر بن أمية للحارث بن عبد كلال، فمما يقول فيها: «فإذا نظرت فى غلبة الملوك فانظر فى غالب الملوك، وإذا سرك يومك، فخف غدك، وقد

---

(١) انظر سيرة ابن هشام، وكتاب علامات النبوة من الجامع الصحيح للإمام البخارى.

كان قبلك ملوك ذهبت آثارهم وبقيت أخبارهم، عاشوا طويلاً، وأملوا بعيداً، وتزودوا قليلاً، منهم من أدركه الموت، ومنهم من أكلته النقم، وإني أدعوك إلى الرب الذى إن أردت الهدى لم يمنعك، وإن أرادك لم يمنعك منه أحد».

ثم انظر إلى دعوة عمرو بن أمية الضمرى للنجاشي، فمما يقول فيها: «إن عَلَىَّ القول وعليك الاستماع، إنك كأنك فى الرقة علينا منا، وكأنا بالثقة بك منك، لأنا لم نظن بك خيراً قط إلا نلناه، ولم نخفك على شيء قط إلا أمناه، وقد أخذنا عليك الحجة من فيك، الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد، وقاض لا يجور، وفى ذلك وقع المحن وإصابة المفصل، وإلا فأنت فى هذا النبى الأمى كاليهود فى عيسى ابن مريم».

وإذا عد بذل المال فى وسائل نجاح الدعوة فلأن الإحسان يزيل ما فى النفوس من نفور، فيهيئها للنظر فى أمر الرسالة والتأمل فى دلائلها، فإذا أذن الشارع بصرف جانب من المال لبعض من لم تطمئن قلوبهم بالإيمان فإنما أذن فى وسيلة من وسائل لفت النفوس المتجافية عن الحق إلى النظر فى أمره، لعلها تصل إلى العقيدة الصادقة. قال بعض من نفلهم النبى ﷺ من غنيمة هوازن: «لقد أعطانى رسول الله ﷺ وإنه لأبغض الخلق إلىَّ، فمازال يعطينى حتى إنه لأحب الخلق إلى».

أما سوء سيرة رؤساء الأمم غير المسلمة وعنف سياستهم، فذلك سبب لنفور أولئك الأقوام منهم، ووهن عزائمهم فى الدفاع عن عروشهم، فيصح أن يعد من ميسرات تلك الفتوح التى هى وسيلة من الاتصال بالشعوب، وذلك الاتصال وسيلة إلى اطلاعها على مزايا الإسلام ومحاسن آدابه، فتدخل فيه برغبة تملأ أفئدتها.

وانظروا إلى قصة المغيرة بن شعبة إذ دخل على رستم قائد جيوش كسرى، وجلس معه على سريره، فوثب عليه الجند وأنزلوه، كيف قال كلمة حق وكان لها فى الجند أثر، قال: «إنا معاشر العرب لا يتعبد بعضنا بعضاً، فظننت أنكم تواسون كما نتواسى، فكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونا أن بعضكم أرباب بعض!».

٣

ما يثار حول انتشار الإسلام من شُبه

يزعم بعض المخالفين غير المنصفين أن الإسلام انتشر بالسيف، وأن النبي ﷺ قد أكره الناس على قبوله، وهذا الزعم باطل،والحق أن دين الإسلام انتشر بالدعوة وانقاد إليه الناس من طريق الحجة وإليك البيان:

كان النبى ﷺ يجاهد فى مكة بالحكمة والموعظة الحسنة وقد عرفتم ما كان يلاقيه من المشركين من أذى، وما ينالون به أصحابه من سوء العذاب حتى هاجر بعض أصحابه إلى الحبشة، وهاجر هو وبقية المسلمين إلى المدينة المنورة، وهنالك تألف حوله حزب من المهاجرين والأنصار، وأصبح هذا الحزب بين أربعة أصناف من المخالفين: معاهدون وهم اليهود وبعض قبائل من العرب، كبنى مدلج وبنى ضمرة، ومنافقون وهم الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا للكفر، ومحاربون وهم كفار قريش ومن شاكلهم فى المجاهرة بالعداوة والسعى للقضاء على هذه الدعوة قبل ظهورها، ومتاركون وهم القبائل التى لم تتعرض لحربه ولم تدخل معه فى عهد.

وقد جرى حكم معاملاته صلوات الله عليه لهذه الأصناف الأربعة على مقتضى الحكمة، وهو رعاية حق المعاهدين ما استقاموا على عهدهم، والأخذ فى معاملة المنافقين بظاهر حالهم، ومسالمة التاركين ماداموا على حيادتهم وإعلان الحرب على من وقف موقف العدو الذى لا يرعى عهداً ولا يقبض يده عن شر.

ومن درس غزواته ﷺ وسراياه، وجدها إما حرباً لعدو لم يدع أذى وصلت إليه يده إلا فعله، كغزوة بدر، أو دفاعاً لعدو مهاجم كغزوة أُحد وغزوة حنين، أو مبادرة لعدو تحفز للشر كغزوة بنى قريظة وغزوة المريسيع، وغزوة دومة الجندل وغزوة ذات السلاسل، أو كسرا لشوكة عدو نقض العهد وعرف بمحاربة الدعوة، واتخذ كل وسيلة للانتقام من القائمين بها والقضاء عليها كفتح مكة.

حارب ﷺ أولئك الأعداء، وكان يحاربهم في جانب عظيم من السماحة، فنهى عن قتل النساء والأطفال والشيوخ، ونهى عن المثلة وكان يمضى كل تأمين يصدر من أحد من المسلمين لبعض المحاربين ولو صدر التأمين من امرأة أو عبدا (١)، وقال: «**ويسعى بذمتهم أدناهم**» وكان يوصى بالإحسان إلى الأسرى. وقد يُطلق سبيلهم من غير فداء كما أطلق سبيل سبعين رجلاً من المشركين هبطوا عليه في صلح الحديبية يريدون غرته، وقد أشار القرآن المجيد إلى هذه القضية فقال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ**﴾ [الفتح: ٢٤].

وإذا عقد مع قوم عهداً حافظ على العهد إلى أن ينقضوه بأنفسهم، ومن أظهر المثل التي نسوقها على هذا قصة أبي رافع الذي بعثه إلى قريش، فإنه لما لقي النبي ﷺ وقع في قلبه الإيمان، وقال يا رسول الله: لا أرجع إليهم. فقال النبي ﷺ: «**إني لا أخيس بالعهد ولا أحبس البرد، ارجع إليهم فإن كان في قلبك الذي فيه الآن فارجع**».

ونص الفقهاء على أنه لا يقتل المعتوه ولا الأعمى ولا الزمن، ومن الفقهاء من يقول: لا يقتل الأعمى والزمن ولو كانا ذوي رأي وتدبير.

ومازال ﷺ يدافع أولئك المعتدين على الوجه المذكور آنفًا إلى أن شرعت الجزية في السنة الثامنة أو التاسعة من الهجرة، ونزل قوله تعالى: ﴿**حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾ [التوبة: ٢٩] فأخذ الجزية من النصارى واليهود والمجوس، أخذها من نصارى نجران ومن اليهود الذين كانوا باليمن، ومن المجوس الذين كانوا بالبحرين، أما محاربته ليهود المدينة فكانت قبل شرع الجزية.

---

(١) أعطى عبد يدعى مكنفًا الأمان لجيش حاصرهم أبو سبرة فتمسك به الجيش وكتب أبو سبرة بذلك إلى عمر فكتب إليهم «إن الله عظم الوفاء فوفوا إليهم» فوفوا لهم وانصرفوا عنهم (تاريخ الطبري).

واختلفت أنظار الفقهاء فيمن تقبل منهم الجزية، وقد قرر جماعة منهم أن الجزية تقبل من كل مخالف ولو لم يكن من أهل الكتاب:

قال ابن حجر فى الفتح: «وقال مالك: تقبل الجزية من جميع الكفار إلا من ارتد، وبه قال الأوزاعى وفقهاء الشام».

وقال ابن القاسم من أصحاب مالك: (إذا رضيت الأمم كلها بالجزية قبلت منهم[1]) وإذا لم يرد أن النبى ﷺ أخذها من عبدة الأصنام فلأن مشركى العرب أسلموا قبل نزول آية الجزية لأنها إنما نزلت بعد غزوة تبوك، وكان رسول الله ﷺ قد فرغ من قتال العرب. واستوثقت كلها بالإسلام، فعدم أخذه الجزية من عبدة الأصنام لعدم وجود من يؤخذ منه، لا لأنهم ليسوا من أهلها[2] وفى صحيح مسلم أنه قال: «**إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى خلال ثلاث: فأيتهن أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم**» ثم أمره أن يدعوهم إلى الإسلام أو الجزية أو يقاتلهم).

فلا شبهة أن الدعوة انتشرت فى مكة بالحجة، ولاشك أن الأنصار من الأوس والخزرج أسلموا بمجرد الدعوة، وكذلك من أسلم من اليهود بالمدينة، فإنهم أسلموا وهم فى حماية العهد الذى كان بينهم وبين النبى ﷺ.

وأسلم قبل فتح مكة رجال كثير من قريش باختيار منهم، مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وطلحة بن أبى طلحة، ومن غير قريش مثل رفاعة بن زيد الجذامى وأبى موسى الأشعرى وأصحابه الأشعريين، وكذلك كان إسلام فريق من الحبشة.

ومن أسلم بعد فتح مكة من قريش قد أسلموا بعد أن أعطاهم النبى ﷺ الأمان بقوله: «**من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن**»، وبقوله صلوات الله عليه لقريش: «**لا تثريب عليكم اليوم**

---

(١) يقابل هذا مذهب الإمام الشافعى أنها لا تقبل إلا من النصارى واليهود والمجوس، وقال أبو حنيفة: تؤخذ من أهل الكتاب وغيرهم من الكفار وعبدة الأصنام من العجم دون العرب.

(٢) زاد المعاد لابن القيم جـ٣، ص٢٢٣.

اذهبوا فأنتم الطلقاء».. ونرى قبيلة ثقيف لم يدخلوا الإسلام يوم كان النبى ﷺ محاصراً لهم وهم بالطائف، ولكنهم بعد أن تركهم وعاد إلى المدينة جاءوا إلى المدينة فأسلموا بحق ثم عادوا إلى قومهم وأخذوهم إلى الإسلام بالدعوة فأسلموا، وكذلك كان الشأن فى القبيلة التى يسلم رؤساؤها من غير حرب، فإنه يتركهم يدعون بقية قومهم، ويرسل معهم من يدعو عامتهم بالحكمة والموعظة الحسنة.

ومن أسلم فى البلاد التى تقبل من أهلها الجزية لا يصح أن يقال إنه أكره على الإسلام، لأن له سبيلا إلى البقاء على دينه وعدم الدخول فى الإسلام، وذلك السبيل هو إعطاء الجزية، وليست الجزية بالشىء الذى يضطر الشخص إلى الخروج عن دينه، فإن النبى ﷺ أمر معاذاً إذ أرسله إلى اليمن أن يأخذ من كل محتلم ديناراً أو قيمته (١)، وهذا المقدار اليسير إنما يؤخذ من الرجل البالغ القادر على أدائه، ولا يؤخذ من امرأة أو صبى أو فقير عاجز عن الكسب.

وكذلك نرى الخلفاء الراشدين فى فتوحهم لم يحملوا أمة على الإسلام بل كانوا يخيرون الأمم بين الإسلام والجزية والمقاتلة، وفى حديث المغيرة بن شعبة لعامل كسرى «أمرنا نبينا أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله أو تؤدوا الجزية».

وماذا يقول هؤلاء الذين يزعمون أن الإسلام انتشر بالسيف إذا نظروا فى مسلمى الصين وجاوه وغيرهم من الأمم التى دخلت فى الإسلام؟ وقد اعترف بعض منصفى أوربا بهذه الحقيقة مثل السير توماس أرنولد حيث قال: «لا يعرف الإسلام بين ما نزل به من الخطوب والويلات خطباً أشد هولا من غزوات المغول، فقد انسابت جيوش جنكيز خان انسياب الثلوج من قنن الجبال، واكتسحت فى طريقها العواصم الإسلامية، وأتت على كل ما كان لها من مدنية وثقافة على أن الإسلام لم يلبث أن نهض من تحت أنقاض عظمته الأولى، وأطلال مجده التالد، واستطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ويحملهم على اعتناقه، ويرجع

(١) اختلف الفقهاء بعد فى تقدير الجزية، ومنهم من يقول - كالمالكية - تخفف عن الضعيف بقدر ما يراه ولى الأمر.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الفضل فى ذلك إلى حماسة الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصعوبات أشدها لمناهضة منافسين عظيمين: هما المسيحية والبوذية» (١).

وقال فى كتابه تاريخ انتشار الأديان: «إن اقتناع المسلمين بأن دينهم دين الحق قد غرس فى نفوسهم المران والاندفاع فى الدعاية إليه حيثما وجدوا، وآية هذه الدعاية فى ثلاثة عشر قرناً مضت ما نراه اليوم من استقرار الإسلام فى نفوس بضع مئات من ملايين البشر منتشرين فى كل بقعة من بقاع الأرض».

وقال: «بينما كان المغول يغيرون على بغداد وينهبونها عام ٦٥٦هـ ويحتلون بيت الخلافة من بنى العباس ويغرقونه بالدماء، وبينما كان فرديناند يكتسح بقايا المسلمين فى قرطبة عام ٦٣٤هـ ويرغم غرناطة وهى المعقل الأخير للمسلمين فى الأندلس على أداء الخراج - كان الإسلام يظفر فى خلال ذلك بالتقدم والانتشار فى جزائر سومطرة».

وقال سليمان نظيف بك التركى فى التعليق على هذا الذى كتبه السير أرنولد فى صحيفة صوت تلغراف: «فالترك السلجوقيون فى القرن الخامس الهجرى والمغول من بعدهم بقرنين إنما جاءوا إلى بلاد الإسلام أعداء مغيرين. فما لبثوا أن دخلوا تحت جناح هذا الدين، وصاروا إلى دعاته وناشريه» (٢).

فالحق أن الإسلام لم ينتشر بالسيف، وإنما انتشر بالدعوة والحجة، وإذا كان للفتح أثر فى انتشار الإسلام فمن جهة أن فتح البلاد يستدعى قصد كثير من المسلمين للرحلة إليها، والإقامة فى ربوعها، فيكثر اتصال أهل البلاد بالمسلمين فيقفون فى محادثتهم ومعاملتهم على جانب من حقائق الدين ولو لم يتعمدوا البحث عنها، ثم إن ظهور الدعاة بمظهر العزة والوجاهة يجعل العيون ترمقهم بإجلال، فتقرب منهم النفوس حتى إذا وجدتهم على دين أفضل من دينها، وشريعة أحكم من شريعتها، وآداب أرفع من آدابها، آمنت بما يؤمنون وسارت فى حياتها على ما يسيرون.

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى للدكتور حسن إبراهيم.

(٢) مجلة الزهراء: عدد شعبان.

الباب الثانى

صلاحية الشريعة الإسلامية لكل زمان ومكان وبيئة

١

الشريعة الإسلامية

○ **تمهيد :**

يقع في وهم من لا يدري ما الإسلام أن شريعته لا توافق حال العصر الحاضر، ويبني توهمه على أن القوانين إنما تقوم على رعاية المصالح، ومصالح العصور تختلف اختلافاً كثيراً، فالدعوة إلى بقاء أحكامها نافذة هي في نظره دعوة إلى خطة غير صالحة .

ذلك ما نقصد في هذا البحث إلى تفنيده وتفصيل القول في دفع شبهته، حتى يثبت بالدليل المرئي رأي العين أن الشريعة الغراء تساير كل عصر، وتحفظ مصالح كل جيل .

ولما كان التشريع الإسلامي يعتمد في معظم أحكامه على الاجتهاد استدعى البحث أن نصدره بكلمة في الاجتهاد، وفي هذه الكلمة ترى شيئاً من عظمة علماء الشريعة، ولا إخالك إلا أن تقرأ البحث بدقة فلا تأتي على آخره حتى تشهد بأنهم كانوا هداة مصلحين، ونأخذ بعد بحث الاجتهاد في تقرير الأصول التي جعلت الشريعة تسع مقتضيات العصور على اختلافها، وتقوم بحاجات الشعوب على تباعد ما بينها، ونسوق لك الشواهد على هذا من عمل القضاة ورجال الفتوى حتى لا يبقى في صدرك حرج من مزاعم أولئك الذين يكتبون أو يخطبون فيما لا يعلمون .

○ **الاجتهاد في أحكام الشريعة :**

شريعة الإسلام عامة فلا يختص بها قبيل من البشر دون قبيل، ودائمة فلا يختص بها جيل دون جيل، وأفعال البشر على اختلاف أجناسهم وتعاقب عصورهم لا تنتهي إلى حد، ولا تدخل تحت حصر، ومن أجل هذا لم تنزل أحكامها في نسق واحد من التفصيل والبيان، بل أرشدت الشريعة إلى بعضها

بدلائل خاصة، وقررت بقيتها فى أصول كلية ليستنبطها الذين أوتوا العلم عند الحاجة إليها .

يتمكن العالم من استنباط الأحكام بمعرفة أمرين :

أحدهما : الأدلة السمعية التى تنتزع منها القواعد والأحكام .

ثانيهما : وجود دلالة اللفظ المعتد بها فى لسان العرب واستعمال البلغاء .

ويرجع النظر فى الأدلة السمعية إلى : الكتاب والسنة والإجماع، ويتصل بهذه الأدلة أصول اختلفت فيها أنظار الأئمة كمذهب الصحابى، وعمل أهل المدينة، وشرع من قبلنا الذى لم يرد فى شريعتنا ما ينسخه، فإن الأخذ بهذه الأصول يرجع إلى التمسك بدليل منقول لا يدخل فيه العقل إلا على وجه التفهم كما يدخل فى غيره من نصوص الكتاب والسنة .

ويرجع النظر فى وجه الدلالات إلى : دلالة بالمنطوق، ودلالة بالمفهوم، ودلالة بالمعقول . ومن متناول دلالة المعقول ذلك الأصل الكبير الذى يسمونه القياس، ويضارع القياس فى هذه الدلالة أنواع جرى فيها الخلاف بين أهل العلم مثل : الاستصحاب، والمصالح المرسلة، ومراعاة العرف، وسد الذرائع .

ثم إن الأدلة قد تتزاحم فى نظر المجتهد ويراها واردة على قضية واحدة، وكل منها يقتضى من الحكم غير ما يقتضيه الآخر، فيحتاج إلى أن ينقب عن الوجوه التى يترجح بها جانب أحدها ليعتمد عليه فى تقرير الحكم .

فدخل فى الأركان التى يقوم عليها الاجتهاد، القدرة على الموازنة بين الأدلة وترجيح أقواها على ما هو دونه عند تعارضها، فمن كان على بصيرة من الأدلة السمعية ووجوه دلالتها وطرق الترجيح بين الأدلة عند تعارضها فقد قبض على زمام الاستنباط، واستعد لأن يجلس على منصة الاجتهاد .

فالاجتهاد بذل الفقيه الوسع لاستخراج الأحكام العملية من أدلتها التفصيلية .

○ شرائط الاجتهاد :

قلنا : إن الاجتهاد يدور على معرفة الأدلة السمعية، ووجوه دلالتها، وطرق الترجيح عند تعارضها .

أما معرفة الأدلة السمعية فتتحقق بمعرفة الكتاب والسنة والأحكام المشتركة بينهما كالعلم بالناسخ والمنسوخ، والأحكام الخاصة بالكتاب : كالعلم بوجوه القراءات، والأحكام الخاصة بالسنة كالعلم بأصول الحديث وأحوال الرواة .

وأما معرفة وجوه الدلالات فتتحقق بالفرق بين المنطوق والمفهوم، والمجمل والمبين، والنص والظاهر، والعام والخاص، والمطلق والمقيد، والحقيقة والمجاز، والمحكم والمتشابه، والصريح والكناية، والمعانى التى يدل عليها الكلام بنفسه، والمعانى التى يراعيها البلغاء، ويسميها علماء البيان بمستتبعات التراكيب .

فمن شروط الاجتهاد العلم باللغة والنحو والمعانى والبيان، ومجمل القول أن يكون عارفًا باللسان العربى ووجوه تصرفات ألفاظه ومعانيه معرفة ترفعه بين علماء اللغة وبلغائها مكانًا عاليًا .

أما طرق الترجيح فمنها ما يعرف بالنظر فى علوم الشريعة كتقديم ما يتلى فى الكتاب الكريم على ما يروى على أنه حديث، ومنها ما يعرف بالبحث عن حال الرواة كتقديم ما يرويه البخارى على ما يرويه غيره، ومنها ما يعرف بالنظر فى علوم اللغة كتقديم النص على الظاهر والمنطوق على المفهوم .

○ الكتاب :

ذكرنا فى شروط الاجتهاد العلم بالقرآن الكريم ولاسيما آيات الأحكام التى قدرها الغزالى وابن العربى بخمسمائة آية، واقتصروا فى تقديرها على هذا العدد لأنهم رأوا مقاتل بن سليمان، وهو أول من أفرد آيات الأحكام فى تصنيف، قد جعلها خمسمائة آية، وقد نازعهم ابن دقيق العيد فى هذا التقدير، وقال مقدار آيات الأحكام لا ينحصر فى هذا العدد بل هو يختلف باختلاف القرائح والأذهان،

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وما يفتحه الله من وجوه الاستنباط . والراسخ فى علوم الشريعة يعرف أن من أصولها أو أحكامها ما يؤخذ من موارد متعددة حتى الآيات الواردة فى القصص والأمثال .

وقد عنى طائفة من العلماء بآيات الأحكام بعد مقاتل، فألفوا فى تفسيرها خاصة كما فعل منذر بن سعيد البلوطى قاضى قرطبة المتوفى (سنة ٣٥٥هـ) وأبو بكر أحمد بن على الرازى الجصاص المتوفى (سنة ٣٧٠هـ) وأبو بكر العربى المتوفى (سنة ٤٦٨هـ) وعبدالمنعم بن محمد المعروف بابن الفرس المتوفى (سنة ٥٩٩هـ) .

○ السنـــة :

أوردنا فى شروط الاجتهاد العلم بسنة رسول الله ﷺ وقد اختلف أهل العلم فى القدر الذى فيه كفاية، فقال أبو بكر بن العربى فى كتاب المحصول : هى ثلاثة آلاف حديث . ونقل عن أحمد بن حنبل أن الأصول التى يدور عليها العلم ينبغى أن تكون ألفًا ومائتين، ويذهب ابن القيم إلى أن الأصول التى تدور عليها الأحكام خمسمائة حديث، وهى مفصلة فى نحو أربعة آلاف حديث .

والحق فى جانب من يقول : إنه لا يحق الاجتهاد إلا لمن كان عالمًا بما اشتملت عليه مجاميع السنة كالأمهات الست وما يلحق بها من الكتب التى التزم مصنفوها الصحة فيما يروون، إذ من المحتمل فيها ما يدل على الحكم صراحة ويأتى الاستنباط بما يخالفها، وكان أهل العلم فيما سلف إنما يرجعون بالواقعة إلى الاستنباط بعد أن يبحثوا جهد استطاعتهم فلا يظفروا بآية أو سنة تنص على حكمها . . فى كتاب القضاء لأبى عبيد أن أبا بكر الصديق كان إذا ورد عليه حكم نظر فى كتاب الله تعالى، فإن وجد فيه ما يقضى به قضى به، وإن لم يجد فى كتاب الله نظر فى سنة رسول الله ﷺ ، فإن وجد فيها ما يقضى به قضى به، فإن أعياه ذلك سأل الناس : هل علمتم أن رسول الله ﷺ قضى فيه بقضاء؟ فربما قام إليه القوم فيقولون قضى فيه بكذا وكذا . فإن لم يجد سنة سنها النبى ﷺ جمع رؤساء الناس فاستشارهم، فإذا اجتمع رأيهم على شىء قضى به، وكان عمر يفعل ذلك .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

والحديث الذى يرويه أحد الأئمة ويصله بما ينبئ عن صحته، يسوغ للفقيه متى عرف مذهب الراوى فى التعديل أن يعتمد على تصحيحه، ومن هذا القبيل ما يرويه البخارى ومسلم فى صحيحيهما، وأما ما يروى فى الكتب التى لا تخل من الضعيف، فلا بد له من النظر فى سند الحديث والبحث عن سيرة من يجهل حاله حتى يكون على بينة من أمره.

○ علوم اللغة العربية :

أخذنا فى شروط المجتهد أن يكون قائمًا على علوم اللغة العربية بحيث يبلغ فى فهم الكلام العربى مبلغ العرب الناشئين فى الجاهلية أو فى صدر الإسلام، قال أبو إسحاق الشاطبى : « لا غنى للمجتهد في الشريعة عن بلوغ درجة الاجتهاد فى كلام العرب بحيث يصير فهم خطابها طبعًا غير متكلف ».

وقد يقع فى خاطرك أن شرط الاجتهاد فى اللسان العربى يجعل رتبة الاجتهاد فى الشريعة بمنزلة المتعذر، فإنه يقتضى أن يسلك الفقيه فى البحث عن معانى الألفاظ وأحكامها ووجوه بلاغتها الطرق التى سلكها أئمة تلك العلوم، ولا يكفيه أن يأخذ من القاموس أن النكاح مثلاً يطلق على الوطء والعقد، ومن كتاب سيبويه أن الخفض يكون بالجوار، ومن دلائل الإعجاز أن تقديم المعمول أو تعريف المسند يفيد القصر، حتى يتتبع كلام العرب بنفسه ويقف على صحة إطلاق النكاح على الوطء والعقد، ويظفر بشواهد كثيرة يحقق بها قاعدة الخفض بالجوار، وشواهد أخرى يعلم بها أن تقديم المعمول أو تعريف الطرفين يفيد الحصر، وتكليفه بأن يبلغ فى علوم اللغة هذه الغاية يشبه التكليف بما لا تسعه الطاقة.

وجواب هذا :

أن المجتهد فى الشريعة لابد له من أن يرسخ فى علوم اللغة رسوخ البالغين درجة الاجتهاد، وله أن يرجع فى أحكام الألفاظ ومعانيها إلى رواية الثقة وما يقوله الأئمة، وإذا وقع نزاع فى معنى أو حكم توقف عليه فهم نص شرعى تعين عليه حينئذ بذل الوسع فى معرفة الحق بين ذلك الاختلاف، ولا يسوغ له أن يعمل على أحد المذاهب النحوية أو البيانية فى تقرير حكم إلا أن يستبين له رجحانه بدليل.

فالمجتهد فى أحكام الشريعة وإن ساغ له التقليد فى العلوم التى هى وسائل الاستنباط، يجب عليه أن يكون فى معرفتها بمكانة سامية؛ حتى إذا جرى اختلاف فى رتبة حديث أو قاعدة عربية احتاج إلى تطبيقها، جرد نظره لاجتلاء الحقيقة دون أن يقف وقفة الحائر أو يتمسك بأحد الآراء على غير بينة.

○ أصــول الفقه:

مسائل علم الأصول منها ما يستمد من النظر فى الكتاب والسنة، ومنها ما يستمد من النظر فى علوم اللغة العربية، فيمكن من تضلع من موارد الشريعة ورسخ فى فهم لسان العرب، أن يدرك هذه الأصول بنفسه كما أدركها الأئمة الذين نهضوا بالاجتهاد قبل أن يدون علم الأصول، ولكن الوصول إلى مسائل الأصول وهى مدونة أسهل على الطالب من أن يبذل جهده فى استقرائها ويرسل فكره فى اقتناصها، باحثًا عنها فى أبواب متفرقة، وموارد متشعبة، وعلى أى حال كان طالب الاجتهاد فى الأحكام لا يستقيم له هذا المنصب إلا أن ينظر فى الأصول نظر الباحث المستقل، بحيث لا يبنى فى الاستنباط على الاستصحاب أو سد الذرائع مثلاً، ولا يقرر الحكم اعتماداً على عمل أهل المدينة أو مذهب الصحابى، متابعة لمن يقول بحجيتها، فالاجتهاد فى الأصول بمنزلة الأساس للاجتهاد فى الأحكام، فلا يدخل فى قبيل المجتهد المطلق من يبنى فى تقرير الأحكام على أصول قررها إمامه وتلقاها منه بتقليد.

فالحق مع من لم يرض لمدعى الاجتهاد إلا أن يرسخ فى أصول الفقه ويبحث مسائله بنظر قائم بنفسه حتى لا يعتمد فى الاستنباط إلا على أصل رأى كيف تشهد به البينة وتقوم عليه الحجة.

○ الفقــه:

يظهر فى بادئ الرأى أن ليس من شروط الاجتهاد المطلق معرفة الأحكام التى استنبطها الفقهاء من دلائل الشريعة، ذلك لأنها صادرة عن اجتهاد فيجب أن يكون الاجتهاد متقدمًا عليها فى الوجود، فهل مستقل عنها، وجائز أن يتحقق

بدونها، ولو قدرنا ناشئًا درس علوم اللغة حتى أصبح فى ذوقه وفهمه لدقائق العربية كالعربى الخالص، ثم أقبل على التفقه فى الكتاب والسنة حتى عرف مقاصد الشريعة، لأمكنه استنباط الأحكام من دلائلها كما استنبطها العلماء من قبل أن تدون المذاهب والآراء، والتحقيق أن معرفة المذاهب ودرس أحكام الفقه مربوطة بأصولها مما يخطو بالعالم فى سبيل الاجتهاد خطوات سريعة لولا دراسة الفقه على هذا الوجه لأنفق فى بلوغها مجهودًا كبيرًا وزمنًا طويلاً. ثم إنه يأمن العثار والخطأ فى الفتوى أكثر مما إذا لم يدرس أقوال الأئمة من قبله، وهذا ما يراه طائفة من الأصوليين كأبى حامد الغزالى إذ قال: «إنما يحصل الاجتهاد فى زماننا بممارسة الفقه فهو طريق تحصيل الدربة فى هذا الزمان».

وهذا محمل ما ينقل عن السلف من حث الفقهاء على معرفة اختلاف أهل العلم من قبلهم، قال هشام بن عبدالله الرازى: من لم يعرف اختلاف الفقهاء فليس بفقيه. وقال عطاء: لا ينبغى لأحد أن يفتى الناس حتى يكون عالمًا باختلاف الناس، فإنه إن لم يكن كذلك رد من العلم ما هو أوثق من الذى فى يديه، وقال سفيان بن عيينة: أجرأ الناس على الفتوى أقلهم علمًا باختلاف العلماء. وقال سعيد بن أبى عروبة: من لم يسمع الاختلاف فلا تعده عالمًا.

ولا يقصدون بهذا حفظ مجرد الخلاف، بل القصد أن يعرف أقوال السلف ومداركها.

○ مواقع الإجماع:

يذكر الأصوليون فى شرط المجتهد أن يكون عارفًا بمواقع الإجماع، وهذا فى الواقع شرط لصحة الاجتهاد بالفعل، وليس بشرط فى بلوغ رتبة الاجتهاد، وإنما أخذوا هذا شرطًا لصحته لئلا يقرر الفقيه حكمًا يخرج به عن الإجماع، إذ كل فتوى يخرق بها صاحبها الإجماع هى فى نظر أئمة الدين باطلة، وقد خفف الإمام الغزالى فى هذا الشرط فقال: ليس من واجبه أن يحفظ المسائل التى وقع عليها الإجماع، فالواقعة التى علم أنها كانت موضع اختلاف، والحادثة التى يعرف من

حالها أنها وليدة عصره ولم يقع لها مثل فى العصور المتقدمة له أن يجتهد ويفتى فيهما بما قام الدليل على رجحانه وإن لم يكن ملماً بالمسائل التى انعقد عليها الإجماع.

فإن وقعت الواقعة ولم يكن قد بلغه أنه جرى فيها اختلاف، ولم يثق بأنها وليدة عصره بحث ما استطاع، فإن لم يقف على أنها مسألة مجمع عليها تناولها بالاجتهاد وفصل لها حكماً مطابقاً.

○ القيـــاس:

هل يعد فى شروط المجتهد أن يكون ممن يقول بأصل القياس؟

هذا ما يراه أبو إسحاق الإسفرائينى، وعزا إلى الجمهور أنهم قالوا: إن نفاة القياس لا يبلغون درجة الاجتهاد، وأخذ به إمام الحرمين وقال: علماء الشافعية لا يقيمون لأهل الظاهر وزناً.

ومن أهل العلم من لم يتمسك بهذا الشرط وعد الظاهرى الذى تحققت فيه الشروط الآنفة فى قبيل أهل الاجتهاد، وينبنى على هذا أن يكون خلافهم معتداً به، فلا إجماع فيما خالفوا فيه من الأحكام، وهذا ما ذكر الأستاذ أبو منصور البغدادى أنه الصحيح من مذهب الشافعية، وقال ابن الصلاح: إنه الذى استقر عليه الأمر، وسنسوق فى مقام آخر الأدلة على أن القياس أصل من أصول الشريعة الغراء.

○ العـدالة والاستقامـة:

ليست العدالة شرطًا لتحقق وصف الاجتهاد فى نفسه، وإنما هى شرط فى قبول فتوى المجتهد، إذ الفتوى من قبيل الإخبار، والنفس لا تركن إلى خبر الفاسق، ومن يعمل سوءاً يسهل عليه أن يقول زوراً، والتقوى هى التى تحمل المجتهد على التروى فى تفصيل الحكم، فلا يلفظ بالفتوى إلا بعد النظر فى الواقعة وما يترتب عليها من مصالح أو مفاسد، ثم يعود إلى قواعد الشريعة فيفصل لها حكماً يطابقها.

قال مالك بن أنس: ربما وردت على المسألة فتمنعنى من الطعام والشراب والنوم، فقيل له: يا أبا عبدالله، والله ما كلامك عند الناس إلا نقر فى حجر، ما تقول شيئاً إلا تلقوه منك. قال: فمن أحق أن يكون هكذا إلا من كان هكذا. وقال: ربما وردت على المسألة فأفكر فيها ليالى. وكان إذا سئل عن المسألة يقول للسائل: انصرف حتى أنظر فيها. فينصرف السائل ويجعل مالك يردد النظر فى المسألة فقيل له فى ذلك، فقال: إنى أخاف أن يكون لى من المسائل يوم وأى يوم! وكذلك كان السلف من الصحابة والتابعين يكرهون التسرع فى الفتوى ويود كل واحد منهم أن يكون غيره قد كفاه أمرها حتى إذا رآها قد تعينت عليه بذل جهده فى تعرف حكمها ثم أفتى.

○ بناء الشريعة على حفظ المصالح ودرء المفاسد:

القوانين العادلة هى التى تقوم على رعاية حفظ المصالح ودرء المفاسد، ولا يختلف علماء الإسلام فى أن أحكام الشريعة قائمة على رعاية هذين الأصلين، وإذا كانت المصالح والمفاسد قد تخفى فى بعض ما يشرع على أنه عبادة، فإن الأحكام المشروعة لغير العبادة من آداب الاجتماع ونظم المعاملات والجنايات لا تقصر العقول السليمة عن إدراك أسرارها، ومن الميسور تقريرها على وجه يظهر به فضل الشريعة السماوية على القوانين الوضعية.

يقرر الباحثون عن حكمة التشريع من علمائنا أن:

المصالح أربعة أنواع: اللذات وأسبابها، والأفراح وأسبابها، **ويسمون اللذات والأفراح بالمصالح الحقيقية**، وأسبابها: **المصالح المجازية**،

والمفاسد أربعة أنواع: الآلام وأسبابها، والغموم وأسبابها، كما يسمون الآلام والغموم المفاسد الحقيقية، وأسبابها: المفاسد المجازية.

ويذكر العلماء أن المصالح المحضة كالمفاسد المحضة نادرة الوجود، وأكثر الوقائع ما تجتمع فيه المصلحة والمفسدة، فما كان مصلحة محضة فحكمه الإذن قطعاً، وما كان مفسدة محضة فحكمه النهى بلا مراء، فأما ما يكون مصلحة من ناحية ومفسدة من ناحية أخرى، فالشارع الحكيم ينظر إلى الأرجح منهما ويفصل الحكم

www.alukah.net
شبكة الألوكة

على قدر الأرجحية، فما رجحت مصلحته على مفسدته أذن فيه على وجه الإباحة أو الندب أو الوجوب، وما رجحت مفسدته على مصلحته نهى عنه على وجه الكراهة أو التحريم.

○ التفقه فى الأدلة السمعية :

ذكرنا فيما سلف أن من أحكام الشريعة ما يدل عليه آية أو سنة صريحة: كتحريم الجمع بين الأختين، والقضاء للذكر فى الإرث بمثل حظ الأنثيين، والقصاص، وقطع يد السارق والسارقة، وهذا النوع من الأحكام لا يختلف أئمة الدين فى أنه شريعة عامة باقية، ولا يجوز لولى الأمر إهماله ولا أن يستبدل به غيره.

وربما دعت الضرورة إلى إرجاء إقامة الحد، كما أخر الإمام على - رضى الله عنه- القصاص من قتلة عثمان مرتقبًا وقتًا يتمكن فيه منهم وهو آمن من عصبيتهم، وفى سنن أبى داود أن النبى ﷺ نهى أن تقطع الأيدى فى الغزو، وروى أن عمر بن الخطاب كتب إلى الناس: أن لا يجلدن أمير جيش ولا سرية ولا رجل من المسلمين حداً وهو غاز حتى يقطع الدرب قافلاً، لئلا تلحقه حمية الشيطان فيلحق بالعدو.

وقد تطرأ حال عامة تجعل ولى الأمر فى ريب من أن تكون واقعة أخذ المال خفية من قبيل السرقة المفروض فيها حد القطع، فيكف يده عن إجرائه.. وقد روى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أسقط قطع يد السارق فى عام المجاعة لأن الحاجة كانت غالبة.. فمن المحتمل القريب وقتئذ أن يكون الدافع إلى السرقة اضطراره إلى ما يسد رمقه وينقذه من التهلكة.

ولا يلحق بمثل هذا الحال أن تعتل أذواق قوم تساورهم شهوات طائشة فيقيموا هذه الأذواق مقام العقل، وتلك الشهوات مقام المصلحة فينكروا ما فرض الإسلام على الزانى أو شارب الخمر من عقوبة، وعلى حكماء الأمة أن يعالجوا هذه الأذواق حتى تسلم من مرضها، ويقوموا تلك الشهوات حتى تعود إلى حال اعتدالها.

يدخل الاجتهاد الأدلة السمعية على النحو الذى ذكرنا، ويدخلها من جهة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الإطلاق والتقييد . أما الإطلاق فكما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ﴾ [آل عمران : ١٣٠] فأطلق الأئمة فى تحريم الربا، وعدوا قوله تعالى : ﴿ أضعافًا مضاعفة ﴾ من قبيل ما روعى فيه حال ما كانوا يفعلون وقت نزول الآية، ومن أدلة هذا الإطلاق قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٧٩] فهو صريح فى حرمة الربا كثيره وقليله .

ومن أمثلة هذا أن الله تعالى حرم على الرجل نكاح ربيبته فقال : ﴿ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾ [النساء : ٢٣]، وظاهر الآية أن المحرمة بنت الزوجة التى تكون فى حجر الزوج، ولكن الأئمة تفقهوا فى هذا الوصف فلم يظهر فيه أثر للتحريم فأولوه على أنه من قبيل الأوصاف التى ترد فى الكلام البليغ من جهة أنها الحال الغالبة فى الموصوف، وأفتوا بتحريم الربيبة على زوج أمها وإن لم تكن فى حجره .

وأما التقييد فكحديث النهى عن بيع الماء، فقد خصصه الإمام مالك بآبار الصحراء التى تتخذ فى الأرضين غير المتملكة، فيكون صاحبها الذى حفرها أولى بها فإذا قضى منها وطره ورويت ماشيته ترك الفضل للناس من غير ثمن، واستند الإمام فى هذا التخصيص وصرف النهى عن بيع الماء فى الأرض المملوكة إلى الأصل الذى ورد به السمع وانعقد عليه الإجماع، وهو أنه لا يحل مال أحد إلا بطيب نفس منه .

ومن أمثال هذا الباب حديث : « **شاهداك أو يمينه** » ، فظاهر الحديث أن اليمين حق على كل منكر، ولكن الإمام مالكًا قيده بحال ما إذا كان بين المتقاضين خلطة، وإنما قيده بقاعدة درء المفاسد، إذ أخذ الحديث على إطلاقه يجرئ السفهاء على أهل الفضل فيستطيعون أن يواجهوا عليهم متى شاءوا دعاوى، ويقفوهم للحلف إيلامًا وامتهانًا .

يقيد المجتهد النصوص أو يطلقها على ما تقتضيه الأدلة السمعية والأصول الشرعية، ولا يصرف نظره عن النص جملة إلا أن يثبت لديه أنه منسوخ، أو

يعارضه ما هو أقوى سنداً أو دلالة، أو يكون الحكم مربوطًا بشيء على أنه علة مشروعيته، وتزول هذه العلة فيتبعها الحكم وتدخل الواقعة فى نص آخر أو تحتاج إلى حكم من المجتهد يطابقها.

ومثال هذا أن النبى ﷺ ترك صلاة التراويح فى جماعة وقال فى وجه تركها: «**ولم يمنعنى من الخروج إليكم إلا أننى خشيت أن تفرض عليكم صلاة الليل فتعجزوا عنها**» وقد زالت بوفاته عليه الصلاة والسلام الخشية من أن تفرض عليهم، ولهذا أقامها عمر بن الخطاب بعد، وقال: «نعم البدعة هذه».

وقصر الحكم على حال وجود العلة متى كان منصوصاً عليها أمر واضح لا شبهة فيه، وقد يجيء الحكم مجرداً من ذكر العلة فيقررها المجتهد استنباطًا ويجعل الحكم مقصوراً على حال هذه العلة المستنبطة، ومن هذا القبيل أن المؤلفة قلوبهم قد ذكروا فى آية مصارف الزكاة: ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ**﴾ [التوبة: ٦٠].

فرأى بعض الأئمة أن علة جعلهم فى مصارف الزكاة الحاجة فى بداية الإسلام إلى تكثير أنصاره، أما حين قويت شوكته، وكثر أتباعه وحماته، فقد زالت الحاجة إلى تأليف المخالفين، وسقطوا من مصارف الزكاة.

ومن أقوال الرسول ﷺ ما يحمله المجتهد على أنه صادر منه بصفة الإمامة لا أنه حكم عام كسائر أحكام الشريعة التى يراد بها التبليغ، ومثال هذا قوله ﷺ فى غزوة حنين: «**من قتل قتيلاً فله سلبه**» فإن من الأئمة من يذهب فى هذا إلى أنه تصرف من جهة الإمام، وأنه منظور فيه إلى ما اقتضته المصلحة فى تلك الغزوة، فلقائد الجيوش من بعده أن لا يجعل سلب القتيل للقاتل حيث لم تدع إلى ذلك مصلحة، ولهذا النوع من أقواله ﷺ ناحية يرجع بها إلى التشريع، وهى أنه يجوز لولى الأمر أن يجتهد ويقول: «من قتل قتيلاً فله سلبه» أسوة برسول الله ﷺ، ولا يرده عن هذا القول أن السلب من الغنيمة، والغنيمة فى أصلها ملك للمجاهدين، أو أن هذه المنحة تنقص الإخلاص وتجعل بعض الجند يقاتل للسلب لا لإعلاء كلمة الله.

هذه من الوجوه التي يدخل فيها الاجتهاد الصحيح عند التفقه فى الأدلة السمعية، وها هنا قد تزل أقدام بعض الناظرين فى عجل، أو يفتضح بعض من يكيدون للشريعة من طريق التأويل، حيث يعمدون إلى بعض النصوص الشرعية ويذهبون فى تفسيرها مذهبًا يخرجون به عن مقاصد الشريعة، أو ينقضون به أصلاً من أصولها.

وجمهور أهل العلم على أن الأحكام المقررة بطريق السمع وليس للمجتهد أن يتعداها هى ما جاء فى كتاب أو سنة أو إجماع، وقول الصحابى فيما لا يقال بالرأى هو من قبيل المرفوع فهو داخل فى السنة، أما قوله الذى يمكن أن يكون اجتهاداً فليس بحجة تقطع غيره عن الاجتهاد، لأن الصحابى غير معصوم عن الخطأ ولأن الصحابة كانوا يختلفون فيما بينهم من غير إنكار، وما يقع فى موطأ مالك من ذكر قول الصحابى فى مقام الاحتجاج إنما يأتى به الإمام فى معنى التأييد لاجتهاده أو للترجيح بين الأخبار عند اختلافها..

قال القاضى أبو بكر بن العربى: (فى شرح حديث: «**عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين**»، من سنن الترمذى: «أمر بالرجوع إلى سنة الخلفاء، وهو يكون على أمرين: الأول التقليد لمن عجز عن النظر، والثانى الترجيح عند اختلاف الصحابة فيقدم فيه الخلفاء الأربعة وأبو بكر وعمر، وإلى هذه النزعة كان ينزع مالك، ونبه عليه فى الموطأ...

واعتماد الإمام مالك على عمل أهل المدينة فيما لا مجال للرأى فيه أو فيما كان طريقه النقل المستفيض كالصاع والمد والأذان والإقامة يرجع إلى الاحتجاج بالسنة، فإن العادة تقتضى أن يكون عملهم هذا من زمن النبى ﷺ إذ لو تغير عما كان عليه زمن الوحى لعلموه، وإذا قدم عمل أهل المدينة الذى هو فى معنى السنة على خبر الآحاد فإنما قدم على خبر الآحاد سنة يراها أمتن سنداً وأقوى). وأنكر بعض أصحابه أن يكون قد وقع منه تقديم عمل أهل المدينة على الحديث الصحيح، قال أبو بكر بن العربى فى كتاب العارضة: «ومن لا تحصيل له من أصحابنا يظن أن مالكًا يقدم عمل أهل المدينة على الحديث الصحيح، ولم يفعل ذلك قط، ولا ترك مالك قط حديثًا لأجل مخالفة أهل المدينة بعملهم وفتواهم».

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لا يدخل الاجتهاد فى النصوص المحكمة إلا بنحو الإطلاق أو التقييد على مقتضى الأصول الصادقة، وهذا واضح بنفسه فيما إذا كان النص قرآنًا أو سنة متواترة، أما خبر الآحاد فإن لم يره المجتهد معارضًا لأصل آخر وجب العمل به عند أئمة الدين بلا مراء، كما أخذ عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - بخبر عبدالرحمن بن عوف فى أخذ الجزية من المجوس، وهو قوله ﷺ: «**سنوا بهم سنة أهل الكتاب**» (١).

أما إذا ورد خبر الآحاد فيما يظهر معارضًا لقاعدة أو قياس صحيح فهذا موضع نظر أهل العلم واختلاف آرائهم، فمنهم من يقدم الحديث على الأقيسة والقواعد، يظهر هذا من قول الإمام الشافعى: «إذا صح الحديث عن رسول الله ﷺ فاضربوا بقولى الحائط». وقوله: «إذا صح الحديث عن رسول الله ﷺ وصح الإسناد به فهو المنتهى». وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة: لا قول لأحد مع رسول الله ﷺ إذا صح الخبر.

ونجد آثارًا كثيرة عن الصحابة تدل على أنهم كانوا يتركون القياس لخبر الواحد، كما ترك عمر بن الخطاب القياس فى الجنين لخبر حمل بن مالك فى إيجاب غرة عبد أو أمة وقال: «لولا هذا لقضينا فيه برأينا» (٢). وروى أنه ترك القياس فى تفريق دية الأصابع على قدر منافعها حين روى له حديث: «في كل أصبع عشر من الإبل».

ويقول بعض المتمسكين بالحديث فى كل حال: إنه لا يوجد حديث ثابت على خلاف القياس الصحيح، وحيث جاءت الشريعة باختصاص بعض الأصناف بحكم يفارق به نظائره، فلا بد أن يختص ذلك الصنف بوصف يوجب اختصاصه بالحكم ويمنع مساواته تلك النظائر، لكن الوصف الذى اختص به الصنف قد يظهر لبعض الناس ويخفى على بعض، فمن رأى شيئًا من الشريعة مخالفًا للقياس فإنما هو مخالف للقياس الذى انعقد فى نفسه لا للقياس الصحيح الثابت فى نفس الأمر، وقد جاء هؤلاء إلى كل ما جاءت به السنة من أحكام: كالمساقاة والمزارعة وبيع

(١) فى صحيح البخارى.

(٢) رواه أبو داود.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

العرايا (١)، وبسطوا فى بيان الفرق بينها وبين أفراد القياس الذى ادعى أنها جاء على خلافه.

والواقع أن الذين يسمون مثل المساقاة والسلم والمصراة (٢) خارجة عن القياس يعترفون بأنه انضم إلى هذه الأبواب ما جعلها تخالف سائر أفراد القاعدة التى يبدو لأول النظر أنها من مشمولاتها.

وهذا عز الدين بن عبدالسلام يقول فى قواعد المصالح: «أمر الله تعالى بإقامة مصالح متجانسة، وأخرج بعضها عن الأمر إما لمشقة ملابستها وإما لمفسدة تعارضها، وزجر عن مفاسد متماثلة، وأخرج بعضها عن الزجر إما لمشقة اجتنابها، وإما لمصلحة تعارضها».

ومن أهل العلم من يقدم القاعدة والقياس الذى تكون مقدماته قاطعة على خبر الواحد. وقد تردد أصحاب الإمام مالك فى مذهبه: فروى عنه أصحابه العراقيون تقديم القياس على الخبر، وروى عنه المدنيون والمغاربة تقديم الخبر على القياس، والتحقيق أن للإمام فى كل حديث يتعارض مع القياس نظراً خاصاً، فيقدم مثلاً الحديث الذى تعضده قاعدة أخرى كحديث العرايا: عارضته قاعدة الربا وعضدته قاعدة المعروف.

فقد أريناك – أيها القارئ النبيه – كيف كان علماء الإسلام يرعون عند التفقه فى الكتاب والسنة قاعدة حفظ المصالح ودرء المفاسد، وأن ما جاء به القرآن والسنة من الأحكام المفصلة كفيل بحفظ مصالح الوقائع أو درء مفاسدها، وفى استطاعة الراسخين فى العلم أن يبينوا ما حفظته من المصالح أو درأته من المفاسد بياناً كافياً.

وإذا كان من لازم الأحكام العادلة حفظ المصالح أو درء المفاسد، فليس من شرط كل حكم أن يتغير باختلاف العصور أو المواطن. فإن الواقعة قد تشتمل بطبيعتها على مصلحة أو على مفسدة لا يختلف حالها باختلاف العصور والمواطن، فيكون

---

(١) أن يهب الرجل لآخر النخلة ثم يتأذى بدخوله لها فيخرص ثمرها ويشتريه منها بتمر.

(٢) المصراة هى التى صرى لبنها أى حبس وجمع فلم يحلب أياماً، وقد جاء فى الحديث الشريف أن مشتريها متى احتلبها يكون بخير النظرين: إما أن يمسكها أو يردها وصاع تمر.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لها حكم واحد لا يتغير إلا أن يتغير حال الواقعة نفسها، ومن الذى يعقل أن يكون القصاص مثلاً زاجراً عن القتل مقللاً لوقائعه فى عصر أو موطن دون آخر؟

والحقيقة أن حكم الواقعة إنما يتجدد عندما تتغير طبيعة الواقعة، وأن الحكم المشروع للواقعة بحق قد يبقى حكمها العادل ولو مضت عليه أحقاب، حتى يعرض لها من الأحوال ما يستدعى تفصيل حكم غير ما شرع لها أولاً، ومن تيسر له أن يدرس ما فصلته الشريعة من أحكام محكمة - وهى فيما يرى أقل مما شرعته فى ضمن أصول وقواعد - عز أن يجد فيها حكمًا يتعلق بواقعة يختلف حالها باختلاف الزمان والمكان، وإذا وجد العالم الراسخ فى فهم مقاصد الشريعة واقعة علق عليها الشارع حكماً، ثم تغير حالها بعد إلى حال تقتضى تغير الحكم اقتضاء ظاهراً، كان له أن يرجع بها إلى أصول الشريعة القاطعة ويقتبس لها من هذه الأصول حكماً يطابقها.

ومثال هذا أن النبى ﷺ نهى عن منع النساء من الخروج إلى المساجد، فإذا نظر المجتهد إلى علة النهى عن منعهن وجدها المحافظة على مصلحة المرأة من سعيها إلى المسجد وحضورها صلاة الجماعة وانتفاعاً بما تسمع من قرآن أو خطبة، ولم يكن فى خروجها لعهده ﷺ مفسدة تستدعى المنع، فإذا جاء عهد يكثر فيه تعرض السفلة من الرجال للنساء. وحدثت وقائع تدل على أن سلطان الدين أصبح ضعيف الأثر فى نفوس هؤلاء وهؤلاء؛ فقد أخذت واقعة خروج المرأة إلى المسجد حالاً غير الحال التى كانت عليه فى زمن النبوة وانضم إلى مصلحة خروجها مفسدة. فللمجتهد أن ينظر فى هذه المفسدة ويقيسها بالمصلحة ليعلم أيهما أرجح وزناً. ثم يرجع بالواقعة إلى أصول الشريعة ويستنبط لها حكماً يراعى فيه حالتها الطارئة.

وربما نظر الفقيه فى مثل هذا نظرة مستعجل فيخطئ المرمى، وهذا ما جرى لمروان بن الحكم حين قدم خطبة العيد على الصلاة نظراً إلى أن الناس كانوا فى عهد النبوة والخلافة الرشيدة يجلسون بعد صلاة العيد لسماع الخطبة، فلم يكن فى تقديم الصلاة على الخطبة من بأس، ولكنهم صاروا بعد ذلك العهد يكتفون

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بالصلاة ويدعون سماع الخطبة، كما قال مروان معتذراً لأبى سعيد الخدرى: «إن الناس لم يكونوا يجلسون لنا بعد الصلاة فجعلتها قبل الصلاة». وقد خالفه الصحابة والأئمة من بعدهم فى ترك السنة لأنهم رأوا أن هذا تصرف فى أمر من قبيل العبادات التى يجب أن تقام كما وردت عن الشارع على أن مفسدة خروج الناس قبل سماع الخطبة يمكن درؤها بوعظهم وإرشادهم إلى البقاء بالمسجد حتى انتهائها.. وقد حضرت صلاة العيد فى السنة الماضية بأحد المساجد الكبيرة فى القاهرة فوقف الإمام قبل الصلاة وذكر الحاضرين بعدم الخروج قبل انقضاء الخطبة. فامتثلوا.

فالتفقه فى الكتاب والسنة على النحو الذى يحفظ الحقوق ويسير بالأمة فى أهدى سبل المدينة إنما يستطيعه من امتلأ بعلوم القرآن الحديث، وخاض فى حكمة التشريع وعرف مقاصد الشرع، وقدر المصالح والمفاسد بميزانها الصحيح.

○ الأصول النظرية الشرعية:

لم يختلف المسلمون فى أن الشريعة الإسلامية نزلت لتقرير أحكام الوقائع، فلا واقعة إلا لها حكم مدلول عليه بالنص أو بأصل من الأصول المستمدة من النصوص.

أما الأحكام المستفادة من النصوص فهى الأحكام المأخوذة من الكتاب والسنة كتحريم الميسر، ومنع القاضى من أن يقضى وهو غضبان، وجواز الشفعة للشريك، وقد أريناك بوجه عام أن كل ما قرره الشارع من أحكام مفصلة هو دائر بين حفظ المصالح ودرء المفاسد، وسنتناول - بإذن الله تعالى - القول فى هذه الأحكام بتفصيل كلما اقتضى المقام بيانها.

وأما الأحكام المدلول عليها بأصول عامة فيستبين أمرها بالنظر فى هذه الأصول، وهو ما أزمعنا البحث عنه منذ الآن، وسترى من هذه الأصول كيف تيسر للشريعة أن لا تدع واقعة من غير حكم، وكيف تتحرى بالأمة أرشد طرق المدنية وأعدل نظم القضاء، واحتواء الشريعة على أصول عامة. وتناول الأصول لما لا يتناهى من

الوقائع مما يزيدنا تفقهاً فى قوله عليه الصلاة والسلام: «**بعثت بجوامع الكلم**» ويضع فى أيدينا معجزة مازال كثير من الناس عنها فى غطاء، وهى شريعة سمحة حكيمة تتناول كل ما يمكن تصوره من الحوادث على تباعد المواطن واختلاف الأجيال، وما جاءت على هذا النحو إلا لأن رسالة المبعوث بها عامة كما قال الله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً**﴾ [سبأ: ٢٨].

ونحن نعلم أن الألفاظ وضعت للدلالة على ما فى النفس، فمتى أتى المتكلم بلفظ شأنه أن يدل على ما فى نفسه ويستبين منه المخاطبون قصده، وقف عنده سواء كانت دلالته بالمنطوق أو المفهوم، أو بمقتضى المعنى أو بقرينة حال أو عادة مطردة، ويكفى فى الخطاب الموجه إلى الناس كافة أن يفهمه القوم المستنيرون منهم، وهم الذين يبلغون سائر الطبقات ما فيه من أحكام وحكمة، وإذا كان هذا شأن المتكلم بلغة العرب بل شأن المتكلمين بألسنة غيرها فيما يظهر، فمن حكمة الشريعة العامة الخالدة أن تسلكه فى إرشادها وفيما تسنه من أحكام لا تنقضى وقائعها.

والأصول التى نريد البحث عنها فى هذا المقام هى: القياس، والاستصحاب، ومراعاة العرف، وسد الذرائع، والمصالح المرسلة، والاستحسان.

○ القيـــاس:

حقق علماء الإسلام أن لكل حكم شرعى حكمة تلائم شرعه، ومرجع الحكمة إلى رعاية المصالح والمفاسد، وقد قرر المحققون كأبى إسحاق الشاطبى وغيره أن أحكامه تعالى معللة بمصالح العباد، وهذا معروف باستقراء موارد الشريعة كقوله تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ**﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً**﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وقوله ﷺ في وجه طهارة الهرة: «**إنها من الطوافين عليكم والطوافات**»، وقوله ﷺ فى وجه منع بيع الثمرة قبل بدو صلاحها: «**أرأيت إذا منع الله الثمرة بم يأخذ أحدكم مال أخيه**».

وإذا كانت الأحكام المنصوص عليها قائمة على رعاية المصالح، فإذا قرر الشارع للواقعة حكماً ونبه فى الآية أو الحديث على وجه المصلحة المناسبة لتقريره أو كان ذلك الوجه ظاهراً ظهوراً لا تحوم عليه شبهة، صح للمجتهد أن يعمد إلى كل واقعة تحقق فيها ذلك الوجه من المصلحة ويسوى بينها وبين الواقعة المنصوص عليها فيما علقه عليه الشارع من حكم، وذلك ما نسميه بالقياس.

فالقياس أن يعمد المجتهد إلى حكم أمر معلوم فيثبته لأمر آخر لاشتراك الأمرين فى علة الحكم، ومثال هذا أن النبى ﷺ قال: «**لا يتناجى اثنان دون واحد**» وعلة هذا النهى أن الاثنين إذا تناجيا دون رفيقهما قد يقع فى نفسه أن حديثهما فى شأنه ويحدث له من الظنون ما يكدر صفو الإخاء بينهم، وللفقيه متى اطمأن إلى هذه العلة أن يقرر حرمة محادثة اثنين بلسان لا يعرفه الثالث متى كانا يحسنان لساناً يعرفه رفيقهما، لأن علة النهى متحققة فى هذه الصورة تحققها فى المناجاة.

فأى عالم يتلو قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ**﴾ [الجمعة: ٩] ولا يفهم أن علة الأمر بترك البيع عند النداء للصلاة كونه شاغلاً عن أدائها؟ وهذه العلة موجودة فى غير البيع نحو الإجارة بلا فارق، فيصح إلحاقها بالبيع فى منعها عند النداء لصلاة الجمعة.

وأى عالم يسمع قوله عليه الصلاة والسلام: «**لا يبيع بعضكم على بيع بعض**» ولا يفهم أن علة النهى ما يحدثه هذا البيع من التقاطع والعداء، ثم ينتقل بوسيلة العلة إلى حرمة استئجاره على إجارته؟

وإنما جعلنا القياس فى صدر البحث من نوع دلالة اللفظ بالمعقول، لأن اللفظ إذا دخل بمقتضى وضعه على حكم واقعة وعرفت علة الحكم، فإن العقل متى وجد هذه العلة متحققة فى واقعة أخرى. أدرك أن حكمها حكم الأولى نظراً إلى أن الشارع يسوى بين الواقعتين حيث اشتركتا فى الوصف المؤثر فى الحكم وتماثلتا فيه من كل وجه.

فالقياس أصل من أصول الشريعة، وبه اتسع نطاقها، وصارت تتناول من الوقائع

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ما لا يتناهى. قال الإمام أحمد بن حنبل: لا يستغنى أحد عن القياس. وقال إبراهيم النخعى: ما كل شىء نسأل عنه نحفظه، ولكنا نعرف الشىء بالشىء ونقيس الشىء بالشىء، وقال الشعبى: إنا نأخذ فى زكاة البقر فيما زاد على الأربعين بالمقاييس، وقال المزنى: الفقهاء من عصر رسول الله ﷺ إلى يومنا استعملوا المقاييس فى الفقه فى جميع الأحكام فى أمر دينهم، قال: وأجمعوا أن نظير الحق حق ونظير الباطل باطل. وقال ابن عقيل الحنبلى: قد بلغ التواتر المعنوى عن الصحابة باستعمال القياس وهو قطعى، وحقق أبو إسحاق الشاطبى أن أصل العادات (١) الالتفات إلى المعنى أى أنها معقولة الحكمة، واستدل على هذا بأمرين: **أحدهما**: الاستقراء فقال: إنا وجدنا الشارع قاصداً لمصالح العباد، والأحكام العادية تدور معها حيثما دارت، فترى الشىء الواحد يمنع فى حال لا تكون فيه مصلحة، فإذا كانت فيه مصلحة جاز. **ثانيهما**: أن الشارع توسع فى بيان العلل والحكم فى تشريع باب العادات، وأكثر ما علل بالمناسب الذى إذا عرض على العقول تلقته بالقبول، ثم قال: ففهمنا من ذلك أن الشارع قصد منها اتباع المعانى لا الوقوف على النصوص.

جرى العمل بالقياس لعهد الصحابة - رضى الله عنهم - ثم التابعين، وظهر العمل عليه فى العراق لعهد الإمام أبى حنيفة وأصحابه أكثر من ظهوره فى الحجاز فاستكثروا منه وبرعوا فيه، ومازال الناس يأخذون بالقياس إذا لم يجدوا فى الواقعة نصاً، حتى جاء إبراهيم بن سيار النظام المتوفى (سنة ٢٢١هـ) فأحدث القول بإنكار القياس زاعماً الاستغناء عنه بالنظر إلى ما يدعونه من وصف الفعل بالحسن أو القبح الذاتيين. قال أبو القاسم عبيد بن عمر فى كتاب القياس: «ما علمت أن أحداً من البصريين ولا غيرهم ممن له نباهة سبق إبراهيم بن سيار النظام إلى القول بنفى القياس والاجتهاد، ولم يلتفت إليه الجمهور، وممن خالفه فى ذلك فريق من زعماء المعتزلة كأبى الهذيل وبشر بن المعتمر وبشر المريسى.

وظهر بعد هذا داود بن على الأصبهانى المتوفى (سنة ٢٧٠هـ) ونشأ بظهوره

---

(١) يعنى بالعادات ما سوى العبادات.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

مذهب الظاهرية، وروى عنه أنه كان ينكر القياس إلا أن يكون جليًا وهو ما يكون المقيس فيه أولى بالحكم من المقيس عليه كتحريم ضرب الوالدين قياساً على التأفيف الثابتة حرمته فى قوله تعالى: ﴿ **فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ** ﴾ [الإسراء:٢٣] أو مساويًا كحرمة إتلاف مال اليتيم باللبس قياسًا على أكله الثابتة حرمته بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا** ﴾ [النساء:١٠] . وهذان النوعان يسميهما الأصوليون مفهوم الموافقة، وأجاز بعضهم القياس الذى وقع النص على علته خاصة وأنكروا ما كانت علته مستنبطة.

وجاء بعد هؤلاء أبو محمد على بن حزم الأندلسى(١) فوقف فى جمود وأنكر أن تكون أحكام الشريعة معللة، وبنى على هذا الرأى الجامد إنكار القياس جملة ولم يفرق بين جلى وخفى، وبين ما كانت علته منصوصة وما كانت علته مستنبطة، قال فى كتابه الأحكام: «ذهب أهل الظاهر إلى إبطال القياس جملة وهو الذى ندين الله به، والقول بالعلل باطل، وقال: لا يشرع الله شيئًا من الأحكام لعلة أصلاً، فإذا نص الله تعالى أو رسوله ﷺ على أن أمر كذا بسبب كذا أو من أجل كذا أو لأنه كان كذا فعندى أنه جعل ذلك سببًا للشىء فى ذلك الموضع خاصة ولا توجب تلك الأسباب شيئًا من تلك الأحكام فى غير تلك المواضع البتة».

وأغلظ القول على القائلين بالقياس وحمل عليهم حملة جافية. والناظر فى الشريعة بتدبر، القائم على سير الأئمة المجتهدين بيقظة يدرك أن ابن حزم سار فى غير سبيل، واعتمد على غير دليل.

تحدث أبو بكر بن العربى فى كتاب العارضة عن طائفة الظاهرية وقال: وَغرَّ بهم رجل كان عندنا يقال له ابن حزم، انتدب لإبطال النظر وسد سبل العبر، ونسب نفسه إلى الظاهر اقتداء بداود وأشياعه، واعتمد الرد على الحق نظمًا ونثرًا، ثم أورد القاضى أبو بكر أبياتًا فى الرد عليه.

---

(١) المتوفى (سنة ٤٥٦هـ).

ومما يقول فى الأبيات:

إن الظواهر معدود مواقعها ... فكيف تحصى بيان الحكم فى البشر
فالظاهرية فى بطلان قولهم ... كالباطنية غير الفرق فى الصور
كلاهما هادم للدين من جهة ... والمقطع العدل موقوف على النظر
هذى الصحابة تستمرى خواطرها ... ولا تخاف عليها غرة الخطر
وتعمل الرأى مضبوطًا مآخذه ... وتخرج الحق محفوظًا من الأثر

بالغ ابن حزم فى إنكار القياس وجحود أن تكون أحكام الشريعة معللة، وادعى أن نصوص الشريعة وافية بكل ما يحتاج إليه من أحكام، وقد خرج بهذه النزعة عن طريقة السلف، ولم يرتضها منه المحققون من الخلف.

وجمهور أهل العلم يتمسكون بأصل القياس وإن كانوا يختلفون فى بعض ضروبه، وهؤلاء اختلفوا فى تقدير الأحكام المستفادة من النصوص، فمنهم من يراها قليلة بالنسبة لما يؤخذ من طريق الأقيسة حتى قال إمام الحرمين: «إن النصوص لا تفى بعشر معشار الشريعة، وسائرها مأخوذ من طريق القياس»، وقال قوم منهم ابن تيمية: «إن النصوص وافية بمعظم أحكام العباد، والبقية مشروعة على طريق القياس».

وقد يكون اختلافهم فى هذا التقدير راجعًا إلى اختلافهم فى فهم النصوص وفيما تتناول من معان، فبعضهم لا يتعدى فى تفسير اللفظ صورة واحدة، وغيره يذهب فى تأويله إلى معنى واسع ويجعله شاملاً لصور شتى. فالخمر المحرمة بالكتاب مثلاً - يحملها بعضهم على عصير العنب خاصة - وعليه فما لا يكون من عصير العنب من المسكرات يرجع فى حرمته إلى دليل آخر كالقياس. ويذهب آخرون إلى أن الخمر فى القرآن يتناول كل مسكر، واستدلوا على هذا بحديث مسلم: «**كل مسكر خمر**» فعلم من الحديث أن لفظ الخمر لم يكن عندهم مخصوصاً بعصير العنب. فيكون المسكر من غير عصير العنب محرماً بنص الآية، سواء أكان الحديث مبيناً لمعنى الخمر لغة أم مبيناً له على مقتضى عرف الشارع،

فإن الشارع يتصرف فى اللغة، ومن تصرفاته فيها أن يستعمل اللفظ فيما هو أعم من معناه كما يستعمله فيما هو أخص منه.

ونحن لا ننكر أن من أنصار القياس من أوردوا فى الاستدلال على صحته ما يقصر عن أن يفيد علماً أو يكسب ظناً، كما أن منكرى القياس ساقوا آيات وآثاراً تعسفوا فى جعلها أدلة على بطلانه، وإنما يقصد بتلك الآيات والآثار الآراء التى لا تستند إلى علم، والأقيسة التى تتكئ على غير أصل كقياس الذين قالوا «إنما البيع مثل الربا».

وأما القياس بمعنى الحكم على الشيء بحكم نظيره الموافق له فى المعنى المقتضى للحكم بدون فارق فذلك ما لا يختلف أولوا الألباب فى صحته.

قال ابن قيم الجوزيه: وهل يستريب عاقل فى أن النبى ﷺ قال: «**لا يقضى القاضى بين اثنين وهو غضبان**»؟. .إنما كان ذلك لأن الغضب يشوش عليه قلبه وذهنه ويمنعه من كمال الفهم، ويحول بينه وبين إنعام النظر، ويعمى عليه طريق العلم والقصد، فمن قصر النهى على الغضب وحده دون الهم المزعج، والخوف المقلق، والجوع، والظمأ الشديد، وشغل القلب المانع من الفهم، فقد قل فقهه وفهمه.

فالقياس أصل فى الشريعة أصيل، وإذا تعرض له نفر بعقول غير راجحة أو بقلوب غير عامرة بالتقوى، فابتغوه وسيلة إلى أحكام تتبرأ منها الشريعة فقد بليت النصوص – وهى حقائق كالصبح إذا أسفر – بأمثال هؤلاء فخرجوا بها عن مقتضى الحكمة والبلاغة، وجاءوا فى تأويلها بما يشاكل عقولهم ويرضى شهواتهم.

وقال الإمام الشافعى – رضى الله عنه –: «ولا يكون لأحد أن يقيس حتى يكون عالمًا بما مضى قبله من السنن، وأقاويل السلف، وإجماع الناس واختلافهم ولسان العرب، ويكون صحيح العقل حتى يفرق بين المشتبه، ولا يعجل بالقول ولا يمتنع من الاستماع ممن خالفه لأن له فى ذلك تنبيها على غفلة ربما كانت منه أو تنبيها على فضل ما اعتقد من الصواب».

○ الاستصحاب:

يجد الإنسان فى نفسه أنه إذا تحقق عدم شيء أو وجوده كان على ظن من

استمرار ذلك الشىء على ما تحقق فيه من عدم أو وجود، ويبنى على ذلك الظن أعمالاً ليس من شأنه أن يفعلها فى حال ما إذا كان فى شك من استمرار الشىء على العدم أو الوجود، فإذا ناقش أحد فى مراسلة الشخص ممن عرف وجوده، وزعم أن مثل هذه المراسلة يكفى فيها أن يكون على شك من استمرار وجوده، فإنه لا يستطيع أن يناقش فى أن من اشترى حيوانًا غائبًا مثلاً كان قد رآه من قبل، ودفع ثمنه أنه اعتمد على ظن استمرار حياته، ولا يستطيع أن يناقش فى أن من اقتحم بصبيته مفازة مغبرة الأرجاء دون أن يحمل معه ماء كافيًا إنما اعتمد على ظنه بقاء ما عرفه فيها من آبار نابعة، ولولا ما يغلب على ظن الأب العطوف من حياة ابنه الغائب فى سفر لما كان يبيت إلا فى قلق وحيرة، وإنك لتجلس إلى الإنسان العاقل وتسأله عن شخص عرف أحواله ثم انقطع عنه شهرًا أو سنة فيتحدث عنها بكلام من لا يشك في أنها واقعة فى الحال. فيقول: هو موسر أو بائس. له ولد أو لا ولد له، بينه وبين فلان عداوة أو صداقة.

وظن الإنسان لاستمرار ما تحقق عدمه أو وجوده، منبه إلى أن الأصل فى عدم الشىء أو وجوده الاستمرار حتى يقوم الشاهد على انقطاعه، وهذا الأصل مما نظر إليه الفقهاء عند تقرير الأصل الذى يسمونه «الاستصحاب».

والاستصحاب: أصل من أصول الشريعة التى تجعل العلماء فى فسحة، وتخلصهم من مواقف الحيرة، وهو أصل متفق على العمل به فى الجملة وإن اختلفوا فى بعض ضروبه. قال القرطبى: «القول باستصحاب لازم لكل أحد لأنه أصل تنبى عليه النبوة والشريعة. فإن لم نقل باستمرار حال تلك الأدلة لم يحصل العلم بشىء من تلك الأمور»، واستمرار حال أدلة النبوة والشريعة من الاستصحاب الذى لا يختلف العقلاء فى صحته، ولا يتطرق إليه الريب فى حال.

ونحن لا نقصد فى هذا المقام إلى بسط القول بذكر مذاهب الفقهاء فى الاستصحاب وتقرير أدلتها فموضوع ذلك كتب الأصول، والقصد أن نتحدث عنه بمقدار ما يستبين القارئ حقيقة أصل من الأصول التى جعلت مجال الاجتهاد فسيحًا، وطريق الفتوى ممهدة، ولا تنجلى حقيقته إلا ببيان أقسامه وضرب المثل لكل قسم منها، وذلك ما نتحراه فى هذا المقال:

الاستصحاب: ثبوت أمر فى الزمن الحاضر بناء على ثبوته فيما مضى، فالأمر الذى علم وجوده ثم طرأ الشك فى عدمه فالأصل بقاؤه، والأمر الذى علم عدمه ثم عرض الشك فى وجوده. فالأصل استمراره فى حال العدم، فمن تزوج فتاة على أنها بكر ثم ادعى بعد البناء بها أنه وجدها ثيبًا لم تقبل دعواه إلا ببينة؛ لأن حال البكارة ثابت من حين نشأتها فيستصحب إلى حين البناء حتى تقوم على عدمه البينة، ومن اشترى طائرًا أو كلبًا على أنه يحسن الصيادة وادعى بعد أنه وجده غير متعلم لها، سمعت دعواه هذه إلا أن تدفع ببينة. لأن حال الحيوان فى الأصل عدم معرفة الصيادة حتى يعلمها. فإذا وقع فيها تردد استصحب الأصل حتى يقوم الشاهد على ثبوتها.

والاستصحاب كسائر الأصول التى يستخلصها المجتهد من استقراء جزئيات كثيرة من موارد الشريعة، ويرجع بمقتضى ما ذكره علماء الأصول إلى أربعة أقسام:

أحدها: استصحاب ما هو حكم الأشياء فى الأصل حتى يقوم الدليل على ما يخالفه: وبيان هذا أن كثيراً من أئمة الشريعة ذهبوا إلى أن الأشياء فى الأصل خالية من الحكم؛ أى أنها لا توصف بشىء من الأحكام الشرعية من الوجوب والحرمة والندب والكراهة والإباحة، ومقتضى هذا رفع الحرج والإثم عن الفعل والترك، ورجح فريق أنها على الإباحة، ومآل القولين واحد، فإن الحرج فى الفعل والترك مرفوع على كلا المذهبين، وإنما يمتاز مذهب الإباحة بأنه صريح فى التخيير، أما مذهب انتفاء الأحكام فغايته رفع الحرج، ورفع الحرج لا يستلزم التخيير فى الأمر لاحتمال أن يكون مكروهاً، ورأى آخرون أنها على المنع، وأدلة هذه المذاهب مبسوطة كما ذكرنا فى كتب الأصول.

وتظهر فائدة الخلاف فى الأشياء التى لا يجد المجتهد على حكمها من دليل. أو الأشياء التى تتعارض عندها الأدلة ولا يبدو له فى جانب أحدها وجه من الترجيح.

فهذه الأشياء يرجع بها كل فريق من أصحاب هذه المذاهب إلى استصحاب ما يراه أصلاً للأشياء، فهذا يستصحب فيها انتفاء الحكم فتلحق بما لا حرج فيه، وذاك

يستصحب فيها الإباحة فتكون من قبيل المخير فى فعله وتركه، والآخر يستصحب فيها المنع فتدخل فيما لا يجوز الإقدام عليه، وقد يسبق إلى ظنك أن القول بانتفاء الأحكام واستصحاب هذا الانتفاء فيما لا يطلع له المجتهد على حكم. يجعل بعض الأفعال خالية من أحكام الشريعة، فيدفع هذا الظن بأن المجتهد يصل به الدليل المعتد به فى نظر الشارع إلى أن ما لا يجد له حكماً فى نص أو قياس، يستصحب الأصل الذى هو انتفاء الأحكام الخمسة المقتضى رفع الحرج فيرجع إلى أن حكم الشارع فيه رفع الحرج فى الفعل والترك.

هذا: وقد اختار كثير من المحققين أن الأصل فى الأشياء الإباحة، فهى على التخيير حتى ينهض الدليل على ما سواه من كراهة أو حرمة أو ندب أو وجوب، فإذا عرض لهؤلاء أو للقائلين بأن الأصل انتفاء الأحكام أمر، اجتهدوا فى تعرف حكمه من الأدلة السمعية أو القياس، فإن لم يظفروا به هنالك استصحب الأولون فيه الإباحة، واستصحب الآخرون رفع الحرج والإثم، ومقتضى هذا الأصل أن كل ما يوجد فى هذا الكون من جماد أو نبات أو حيوان ولم يرد فى الشرع ما يقتضى النهى عن تناوله واستعماله يكون من قبيل المأذون فيه.

ثانيها: استصحاب ما دل الشرع على ثبوته: كملك الأرض أو البضاعة عند تحقق القول المقتضى له، وحل النكاح بعد امتلاك العصمة، وشغل الذمة عند التزام مال أو إتلافه، فإن عرض شك فى الملك أو حل النكاح أو شغل الذمة ألغى الشك وقضى باستمرار الملك حتى تقوم البينة على نفيه، وببقاء العصمة حتى يعلم انقطاعها وببقاء الذمة مشغولة بما التزمت، وقيمة ما أتلفت حتى تثبت براءتها بإقرار أو بينة.

والقضاء ببقاء الملك أو العصمة أو شغل الذمة مع عروض الشك فيها يستند إلى استصحاب ما دل الشرع على ثبوته قبل حال الشك، فصار بعد حال الشك بمنزلة المعلوم ولم يختلف أهل العلم فى العمل بهذا الضرب من الاستصحاب إلا أن يقوم تجاهه ما يراه المجتهد أقرب دلالة وأظهر حكماً.

ثالثها: استصحاب العدم الأصلى: كأن يدعى الشريك أو المضارب أن المال لم ينتج عنه ربح، فتقبل دعواه استصحابًا للأصل الذى هو عدم الربح إلا أن يثبت الربح ببينة، ومن أمثلته أن يشترى المضارب صنفًا من البضائع فيدعى صاحب المال أنه نهاه عن شراء هذا الصنف، وينكر المضارب، فالقول للمضارب استصحابًا للأصل الذى هو عدم النهى. وهذا الضرب من الاستصحاب لا يخالف فى العمل به أحد من أهل العلم إلا أن يصرفه عنه دليل أظهر منه وأقوى.

رابعها: استصحاب ثبوت شىء ثم وقوع الشك فيه: هو أن يعلم ثبوت أمر عقلى أو حسى بإحدى طرق العلم، ثم يقع الشك فى زواله فيستصحب بقاؤه وتجرى الأحكام على هذا الاستصحاب حتى يحصل العلم أو الظن بزواله، ومن أمثلته الدائرة أن يفقد شخص فيقوم بعض من شأنه أن يرثه مدعيًا وفاته مطالبًا بقسم ما ترك من مال، فترد دعواه بأن حياة ذلك الشخص كانت قبل الفقد معلومة، فتستصحب فيما بعد حتى يقوم الشاهد بوفاته.

وهذا الضرب من الاستصحاب يعمل عليه كثير من أئمة الفقه، وخالف فى حجيته أئمة آخرون، وذهبوا فيه مذاهب وسعتها كتب الأصول بحثًا واستدلالاً.

تلك أربعة أضرب من الاستصحاب، وهنا ضرب خامس يسمى استصحاب الإجماع، وهو أن يكون الأمر بحالة ويتفق فيه على حكم ثم يتغير إلى حالة أخرى. فيستصحب حكم الإجماع فى الأمر بعد تغيره حتى يقوم الدليل على أن له حكمًا غير ما انعقد عليه الإجماع.

والمثال الذى يوضحه: مناظرة جرت بين أبى سعيد البردعى وداود الظاهرى فى بيع أم الولد. قال داود الظاهرى: قد اتفقا على جواز بيعها قبل العلوق بالحمل، فمن زعم أن بيعها بعد الولادة لا يجوز فعليه الدليل. فقال أبو سعيد: قد اتفقنا على منع بيعها حاملاً. فمن زعم أن بيعها بعد الوضع جائز فعليه الدليل. فسكت داود ولم يحر جوابًا، وهذا النوع من الاستصحاب قبله بعض أهل العلم ورده آخرون.

ذلك الاستصحاب وتلك أقسامه، وقد استنبط الفقهاء استصحاباً آخر هو على عكس الأول ويسمى الاستصحاب المقلوب، وحقيقته ثبوت أمر فى الزمن السابق بناء على ثبوته فى الزمن الحاضر، وللمالكية فتاوى مبنية على رعايته. كمسألة الوقف الذى لا يدرى بعد البحث أصل مصرفه وشرط واقفه، ولكنا نجده فى الزمن الحاضر يصرف على حاله، إذا قالوا: إن الحالة تستصحب فيما قبله ويحمل على أن مصرفه فى الأصل هكذا. وتكون الحالة التى يصرف عليها صحيحة حتى تقوم البينة على عدم مطابقتها لما صدر من الواقف. وكمسألة الزوج يغيب عن زوجته دون أن يترك لها نفقة ثم يقدم فتطالبه بما أنفقت فى غيبته. فيدعى أنه كان فى مدة الغيبة معسراً، وتدعى هى أنه كان موسراً. إذ قالوا: إنه ينظر إلى حال قدومه من عسر أو يسر وتستصحب فى زمان الغيبة، فإن قدم موسراً عد فى الغيبة ذا يسار وقضى عليه بما تطلب الزوجة من النفقة، فها هنا ثبت أمر هو يسار الزوج فى الزمن السابق، أعنى زمن الغيبة بناء على ثبوته فى الزمن الحاضر أى زمن قدومه بالاستصحاب.

وإنما يعتمد المجتهد على الاستصحاب بجميع أقسامه بعد أن ينظر فى الحادثة ولا يجد لها حكما فى نص أو قياس، قال الخوارزمى فى كتاب الكافى: «الاستصحاب آخر مدار الفتوى، فإن المفتى إذا سئل عن حادثة يطلب الحكم فى الكتاب ثم فى السنة ثم فى الإجماع ثم فى القياس. فإن لم يجده يأخذ حكمها من استصحاب الحال فى النفى والإثبات، فإن كان التردد فى زواله فالأصل بقاؤه وإن كان التردد فى ثبوته فالأصل عدم ثبوته».

هذا صفوة ما يقوله أهل العلم فى الاستصحاب، وقد رأيته كيف يفتح للفقهاء طرقًا يصدرون بها الفتوى فى يسر، وينفذون منها إلى فصل القضايا فى سرعة علاوة على ما فيه من الدلالة على سماحة الإسلام، وأنه دين الفطرة الذى لا يشعر أولياؤه بحرج فيما شرع من أحكام.

○ مراعاة العرف :

للعادات أثر كبير فى شرع النظم والقوانين، فلا غنى للمشرع عن مراعاتها قليلاً أو كثيراً، ولها قسط وافر من عناية واضعى القوانين فى القديم والحديث، فأساس القانون الرومانى عادات كانت تجرى فى مدينة روما، وأساس القانون الإنجليزى عادات الكسوف والنورمان الذين فتحوا بلاد إنجلترا.

وكذلك الشريعة الإسلامية لم تقطع النظر عن العرف، وجعلت رعايته أصلا من أصولها العامة على شروط نذكرها فيما بعد، ومن القواعد التى تدور عليها أحكامها السمحة « العادة محكمة ».

والعرف والعادة ما يغلب على الناس من قول أو فعل أو ترك.

ومثال العرف القولى من باب الوقف: قول الفقهاء فى حبس يقول صاحبه: « هو حبس على ولدى » إنه يدخل فيه البنات إذا كان لفظ الولد يطلق على الذكر والأنثى فى عرف بلد الواقف أو لم يكن هناك عرف. أما إذا كان عرفهم إطلاقه على الذكر فقط فإنه يختص بالذكور ولا يدخل فيه الإناث، وإن كان معنى الولد لغة يعم الصنفين.

ويراعى العرف القولى وإن لم يوافق لغة العرب أو ما جاء فى لسان الشارع، وعلى هذا ينبنى قول بعض أهل العلم فيمن حلف لا يأكل لحمًا فأكل سمكًا: إنه لا يحنث حيث إن السمك لا يسمى فى العرف لحماً وإن سمى به فى قوله تعالى: ﴿ **وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا** ﴾ [فاطر: ١٢] كما أن من حلف لا يجلس على بساط لا يحنث بجلوسه على الأرض، لأنها لا تسمى فى العرف بساطًا، وإن كان لفظ البساط يتناولنا بمقتضى معناه فى لسان العرب كما قال تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا** ﴾ [نوح: ١٩].

يعتد بالعرف القولى متى كان عامًا لبلد أو قوم، وتحمل عليه ألفاظ المتكلمين من أهل تلك البلد بإطلاق سواء فى ذلك العقود والالتزامات والأيمان والنذور، أما إذا كان العرف القولى خاصًا بالمتكلم دون قومه أو أهل بلده. حمل لفظه عند

المالكية على عرفه الخاص فى الأيمان والنذور والطلاق، أما العقود فإنما يرجع فيها إلى العرف العام أو الوضع اللغوى إن لم يكن هناك عرف عام.

ومثال العرف الفعلى: الزوجان يختلفان فى المهر بعد البناء فيدعى الزوج أنه دفعه لها، وتنكر الزوجة ذلك، فقد قال الإمام مالك: إن القول للزوج لأن العرف بالمدينة كان جاريًا بدفع المهر قبل الدخول، وتطَّرِد هذه الفتوى فى كل بلد تجرى فيه العادة بدفع المهر قبل البناء، ومن هذا القبيل مسألة الحيازة عند المالكية، فمن حاز عقارًا عشر سنين ثم قام شخص يدعى استحقاق ذلك العقار، ولم يقم عذرًا عن سكوته تلك المدة بنحو غيبته عن البلد، أو عدم علمه بحيازة المدعى عليه للعقار، فإنه لا ينتفع بالبينة التى تثبت له أصل الملك، ذلك لأن العرف جار على أن الرجل لا يشاهد غيره يتصرف فى ملكه هذه المدة الطويلة ويسكت عنه. وكذلك أفتى الإمام المازرى فيما إذا جرت عادة قوم بقدر الصداق وعرفها المتعاقدان أن هذه العادة بمنزلة التسمية ويحكم بذلك القدر المتعارف، ولا يكون النكاح من قبيل نكاح التفويض.

هذا هو الشأن فى العرف الفعلى العام لقوم أو أهل بلد، أما العرف الفعلى الخاص بفرد فقد حكى شهاب الدين القرافى الإجماع على عدم الاعتداد به فلا تخصص به العمومات ولا تقيد به المطلقات، وأنكر عليه بعض الفقهاء المالكية حكاية الإجماع وأوردوا مسائل فى المذهب تدل على التخصيص بالعوائد الفعلية وإن كانت خاصة. ومما ساقه بعضهم مثالا لهذا الضرب من العرف مسألة الرجل يوكل آخر على شراء ثوب فيشترى له ما لا يناسب عادته أو عادة خدمه، فقد أفتوا بأن ما اشترى غير لازم للموكل بل هو لازم للوكيل.

ومثال العرف الجارى: بالترك تسامح الناس فى ثمر الغصن الخارج عن حدود البساتين، فمن وجد شيئًا منه واقعًا على الطريق مثلاً؛ ساغ له الانتفاع به دون توقف على الإذن الصريح من صاحبه لأن أصحاب البساتين يتسامحون فى مثله ولا يتعرضون لمن يلتقطه.

والعرف ثلاثة أقسام:

أحدها: ما يقوم الدليل الخاص على اعتباره كمراعاة الكفاءة فى النكاح.

وثانيها: ما يقوم الدليل على نفيه كعادة الجاهلية فى التبرج وطوافهم بالبيت عراة ومناصرة الأخ وإن كان ظالمًا.

ثالثها: ما لم يقم الدليل الخاص على اعتباره أو نفيه، وهذا موضع نظر المجتهدين فيذهب كثير منهم إلى مراعاته ويجعلونه أصلاً من أصول الشريعة يبنون عليه فتاوى وأحكامًا، وأكثر ما تجد هذه الفتاوى فى كتب المالكية والحنفية والحنابلة.

وصلة العادة بالشريعة على وجهين:

أحدهما: أن يغلب على الناس أمر فيقرره الشارع ويجعله حكمًا يقضى به عند الاختلاف، ومثال هذا من الشريعة الغراء وضع الدية على العاقلة ومراعاة الكفاءة فى النكاح، والتحقيق أن الشريعة العادلة لا تجعل نفس العادة قانونًا إلا أن تكون العادة معقولة صالحة.

ثانيهما: أن يغلب على الناس معنى فيراعيه فى تفصيل حكم الواقعة حتى إذا تبدلوا بذلك المعنى عرفًا آخر كان على المفتى إعادة النظر فى الواقعة لتقرير حكم يراعى فيه العرف الطارئ، وهكذا يتجدد النظر فى الواقعة ما تجددت العادات.

ومثال هذا: أن يجرى العرف فى بضاعة بدفع ثمنها نقداً، فإذا اشترى أحد شيئًا من هذه البضاعة ووقع فى حيازته ثم قام البائع يدعى أنه لم يقبض ثمنها وادعى المشترى أنه سلم له الثمن حسب العادة الجارية، فأصل مراعاة العرف يقضى بأن يكون القول للمشترى مع اليمين متى عجز البائع عن إقامة البينة. فالحكم الذى بنى على العرف فى هذا المثال هو جعل القول للمشترى حيث صدقه العرف حتى يكذبه البائع ببينة.

ومن أمثلته: أن العادة جارية فى كثير من البلاد على أن الرجل يستودع زوجته

المال فإذا سلم أحد إلى آخر وديعة فوضعها عند زوجته فضاعت منه لا يكون ضامناً لها نظراً إلى هذا العرف، وكأن صاحب المال لعلمه بالعرف فى إيداع الرجل المال عند زوجته يعد راضياً بإيداع المال عند الزوجة، وإنما يضمن المودع إذا تصرف فى الوديعة على وجه لا يرضى عنه صاحبها.

هل يراعى العرف الفاسد؟

إذا جرى عرف الناس ببعض العقود الفاسدة مثلاً فهل يراعى هذا العرف فى بناء الأحكام أو إنما تبنى الأحكام على العرف الجارى على وجه صحيح؟

ذهب كثير من فقهائنا إلى عدم مراعاة العرف الفاسد، وذهب آخرون إلى مراعاته، وما ينبنى على هذا أن يجرى عرف قوم ببعض العقود الفاسدة شرعاً، ويختلف المتعاملان فيدعى أحدهما أن العقد وقع على الوجه الفاسد. يروم نقض البيع، ويدعى الآخر أنه وقع على الوجه الصحيح، فالقائلون بصحة مراعاة العرف الفاسد يرون العرف هنا شاهداً بصدق مدعى الفساد فينقض البيع إلا أن يقيم الآخر البينة على أن المعاملة جرت على وجهها الصحيح.

قال عبدالمنعم بن الفرس فى كتاب أحكام القرآن: «وإذا تنازعا فى بيع أو إجارة وادعى أحدهما الصحة والآخر الفساد، وكان الفساد الذى ادعاه جارياً بين الناس فالمشهور أن القول قول مدعى الصحة، ومن أصحاب مالك من يقول: القول لمدعى الفساد وتفسخ المعاملة».

والقائلون بمراعاة العرف الفاسد ينظرون إلى أن المعنى الذى اقتضى جعل القول لمدعى الصحة فيما إذا جرى العرف على الصحة حاصل فى العرف الفاسد، وهو غلبة المعنى على الناس يقتضى غلبة الظن بصدق من اقترن هذا المعنى بدعواه.

وبمراعاة العرف فى كثير من الأحكام صح أن تختلف أحكام بعض الوقائع باختلاف المكان والزمان، لأن العادة قد تجرى فى موطن دون آخر وتطرأ فى عصر وتنقطع فى عصر، ولا يعد اختلاف الأحكام باختلاف العادات اختلافاً فى أصل خطاب الشارع، بل معنى هذا الاختلاف أن العادات إذا اختلفت اقتضت كل عادة حكماً يلائمها، فالواقعة إذا صحبتها عادة اقتضت حكماً غير الحكم الذى تقتضيه

عندما تقترن بغيرها من العادات. فإذا جرت عادة قوم باستقباح كشف الرأس فى جماعة كان للقاضى أن يعزر من استحق التعزير الخفيف بكشف رأسه فى ملأ من الناس. فعمل من استحق التعزير قد اقترن بعادة استقباح كشف الرأس فكان التعزير بكشف الرأس مجزئًا، وإذا لم يكن كشف الرأس فى عادة قوم مستقبحاً، امتنع أن يكون طريقًا كافيًا للتعزير، ولا بد للقاضى من اتخاذ طريق آخر يكون له وقع الألم فى نفس المستحق للتعزير. فخطاب الشارع الذى تعلق بالواقعة المقتضية للتعزير حال صحبتها لعادة استقباح كشف الرأس. غير الخطاب الذى يتلعق بواقعة مثلها تصاحب عادة عدم استقباح ذلك.

ولاختلاف الأحكام باختلاف العرف ترى فقهاء المذاهب لا يأخذون بفتاوى أئمتهم القائمة على رعاية العرف؛ متى تحققوا أن العرف قد تغير وأن الواقعة أصبحت تستحق حكمًا آخر غير ما قرره الأئمة من قبل، فلفقهاء المالكية: كأبى عبدالله بن عتاب والقاضى أبى بكر بن العربى وأبى الوليد بن رشد وأبى الأصبغ بن سهل والقاضى بن زرب - فتاوى عدلوا فيها عن المشهور فى المذهب وبنوها على رعاية العرف وجرى باختيارهم عمل أهل القضاء والفتوى من بعدهم. قال شهاب الدين القرافى فى قواعده: إذا جاءك رجل من غير أهل إقليمك يستفتيك لا تجره على عرف بلدك والمقرر فى كتبك. فهذا هو الحق الواضح، والجمود على المنقولات أيًّا كانت إضلال فى الدين وجهل بمقاصد المسلمين والسلف الماضين.

وكذلك ترى فقهاء الحنفية يخالفون ما نص عليه أبو حنيفة فى مسائل بناها على عرف كان جاريًا فى زمنه. وقالوا فى وجه هذه المخالفة: إن أبا حنيفة لو كان فى زمنهم لما وسعه إلا أن يفتى بما أفتوا به. ولم يعدوا التصرف فى الأحكام القائمة على العرف خروجًا على المذهب وإنما هو الأخذ بأصل إمامهم الذى يقتضى الرجوع إلى العرف فى الأحكام.

يراعى العرف فى القضاء والفتوى وليس للفقيه أن يفتى أو يقضى بما جرى به العرف المخالف لأصل من أصول الشريعة إلا أن تدعو ما جرى به العرف ضرورة فيكون الحكم مبنيًا على مراعاة الضرورة ويدخل فى قبيل الرخصة التى يقررها الفقيه على سبيل الاجتهاد.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فشأن الفقيه أن ينظر فى المعاملات المخالفة لأصل من أصول الشريعة فإن وجدها ناشئة عن ضرورة كان له أن يستثنيها من أصل المنع ويجعل الضرورة علة استثناها من ذلك الأصل، فإن كانت ناشئة عن جهالة أو هوى غالب فما له إلا أن يفتى بفسادها ويعلم الناس وجه المعاملة الصحيحة، ولا يصح جعل ما يجرى به العرف الفاسد أمرًا مشروعًا ويفتى بصحته دون أن تدعو إليه ضرورة يحسن العارف بمقاصد الشريعة تقديرها. قال العلامة أبو عبدالله بن شعيب أحد علماء تونس فى القرن الثامن: «وغلبة الفساد إنما هى من إهمال حملة الشريعة، ولو أنهم نقضوا عقود الفساد لم يستمر الناس على الفساد» وقال الأستاذ الشيخ إبراهيم الرياحى التونسى فى إحدى فتاويه: «والعرف المعتبر هو ما يخصص العام ويقيد المطلق، وأما عرف يبطل الواجب ويبيح الحرام فلا يقول به أحد من أهل الإسلام».

فإذا أفتى بعض الفقهاء بصحة عقد مخالف لأصل شرعى وظهر من عبارته أنه استند فى إفتائه إلى جريان العرف بهذا العقد، فاعلم أن العبارة لم تفرغ فى قالب التحقيق، أو أنه لم يزن الفتوى بقسطاس الشرع المستقيم.

وقد يذكر بعض الفقهاء العرف فى سياق الاستدلال على جواز أمر ويريدون ما كان جاريًا فى عهد النبوة أو بين أهل العلم، وليس الدليل فى الحقيقة نفس العرف وإنما هو إقرار النبى ﷺ أو الإجماع الذى لا ينعقد إلا على دليل، ومثال هذا أن الإمام مالكًا خص قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] بغير ذوات الأقدار والشرف، وقال: لا يجب على الشريفة إرضاع ولدها لأن العادة جارية بذلك، ولا يريد الإمام أن مجرد جريان العرف يسوغ هذا التخصص. وإنما أراد جريان العرف مع عدم إنكار أهل العلم من السلف فيرجع إلى الاستدلال بالإجماع، وقال بعض أهل العلم عدم إرضاع الشريفة لولدها عادة عربية، واستمر الأمر فيها بعد الإسلام إلى زمن مالك رضى الله عنه.. ومن هذا القبيل اكتفاؤهم فى صحة البيع بالمعاطاة مستندين إلى العادة. وقالوا: إن استمرار هذه العادة يشهد بصحة نقلها خلفاً عن سلف، ويغلب على الظن أنها كانت

شبكة الألوكة - قسم الكتب

جارية فى عهد رسول الله ﷺ (١). وقد نبه ابن السبكى على ما قلنا من أن العادة لا تخصص العام بنفسه فقال فى جمع الجوامع: «والأصح أن العادة بترك بعض الأمور تخصيص إن أقرها النبى ﷺ أو الإجماع».

هذا أصل من الأصول التى يستند إليها المفتى أو القاضى فى تفصيل أحكام الحوادث فتجئ صالحة عادلة. وبمثل هذا الأصل يعلم أن الشريعة الإسلامية ملائمة لكل زمان ومكان، وليست كما يزعم خالى الذهن من تعاليمها أنها ضيقة المجال فلا تفى بأحكام الحوادث، أو أنها قديمة العهد فلا تحفظ مصالح ما تجدد من الأزمان.

○ سد الذرائع:

من أعمال الإنسان أو أقواله ما يشتمل على المفسدة بنفسه. كالغصب يحرم الإنسان من الانتفاع بماله، وكالقذف يلوث عرض البرئ، ويسقط مكانته من النفوس.

ومن الأعمال أو الأقوال ما لا تنشأ عنه المفسدة مباشرة بل يكون وسيلة إلى عمل أو قول فيه مفسدة، كمناولة السكين لمن يسفك بها دماً معصوماً، فالمناولة فى نفسها عارية عن المفسدة، وإنما هى وسيلة إلى ما فيه المفسدة وهو سفك الدم بغير حق، وكدلالة الظالم على مكان شخص برىء يريد الظالم أن يناله بأذى. فليس فى نفس الدلالة مفسدة تقع بوقوعها، وإنما المفسدة فيما كانت الدلالة وسيلة إليه، وهو إصابة النفس البريئة بالأذى. ويدلك على أن مثل مناولة السكين، ودلالة الظالم على مكان البرىء لا تحمل فى نفسها مفسدة، أنها توجد فى بعض الأحيان دون أن ينشأ عنها فى الخارج فساد. كأن يقوم مانع من استعمال السكين فى معصوم الدم. أو ينصرف الظالم عن أذية من دل على مكانه، وتخلف المفسدة عن الوسيلة لعارض لا يرفع الإثم عن فاعلها. لأن الإثم منوط بفعل الوسيلة مع العلم بما شأنها أن تفضى إليه من فساد.

---

(١) البحر المحيط للزركشى.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومن حكمة التشريع الإسلامى أنه لم يقصر النظر على ما يحتوى المفسدة بنفسه بل وجه نظره إلى وسائل ما فيه المفسدة فمنعها، والنصوص الواردة فى الكتاب والسنة للنهى عن وسائل ما تقع المفسدة بوقوعه غير قليلة، ومن شواهد هذا قول تعالى: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**﴾ [النور: ٣٠] فالأمر بغض البصر من ناحية أن النظر يثير الهوى. والهوى يدفع إلى ارتكاب مفسدة هتك الأعراض واختلاط الأنساب.

ومن هذه الشواهد قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا**﴾ [البقرة: ١٠٤] منع المسلمين من أن يقولوا «راعنا» مع قصدهم إلى طلب الرعاية سدا لباب كان اليهود يدخلون منه إلى سب النبى ﷺ إذ يستعملون هذه الكلمة ولا يقصدون منها طلب الرعاية، وإنما يقصدون بها معنى اسم الفاعل المأخوذ من الرعونة.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾ [الأنعام: ١٠٨] قد نهى عن سب معبودات المشركين وهم يسمعون، وأشار إلى أن وجه النهى عن هذا السب إفضاؤه إلى ما فيه المفسدة، وهو إطلاق ألسنتهم بسب الله تعالى، ويضاهى هذا الشاهد قوله ﷺ: «**إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه**» قيل يا رسول الله: وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «**يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه**»(١) فجعل الرجل شاتمًا لوالديه ولم يصدر منه شتمهما، وإنما تعاطى وسيلة هذا الشتم، وهو شتمه لأبى الرجل الأجنبى أو أمه فدل على أن فاعل الوسيلة بمنزلة فاعل ما يتبعها.

وفى الشريعة أحكام كثيرة تقوم على إعطاء الوسائل حكم ما من شأنه أن يوجد بعدها من ضروب الفساد تراها قد منعت نكاح المرأة قبل أن تنقضى عدتها حذراً من اختلاط الأنساب، ثم منعت خطبة المعتدة باللفظ الصريح لأنها تفضى إلى تسرع المعتدة بالإجابة وادعاء انقضاء العدة قبل انتهاء أجلها، وقبول الهدية مأذون

---

(١) صحيح الإمام البخارى.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فيه ولكنه يحرم على المقرض قبول هدية من المقترض كراهة أن تتخذ الهدية طريقًا للربا، وكذلك القاضى لا يجوز له قبول الهدية حذراً من أن تتخذ وسيلة لموبقة الارتشاء. قال ربيعة: «إياك والهدية فإنها ذريعة الرشوة».

وإذا أقبل القاضى على أحد الخصمين دون الآخر وبش فى وجهه، انكسر قلب خصمه، وضعف بيانه عن إقامة الحجة فيضيع حقه. فيحرم هذا الإقبال لأنه وسيلة إلى ضعف البيان الذى هو سبب ضياع كثير من الحقوق.

وقد تلقى تبعة الضمان على فاعل الوسيلة إذا أفضت إلى ما فيه المفسدة كربان السفينة يخرج فى تصريفها عن المعتاد، ويسير بها فى خطر وهو قادر على اجتنابه فإنه يضمن ما يضيع بغرقها من الأموال والنفوس وإن لم يقصد إلى إغراقها، وجاء فى فتاوى علمائنا أن من حفر بئراً فى طريق شخص قاصداً هلاكه فوقع فمات كان جزاؤه القصاص.

ولا تختص الذرائع التى يجب سدها بالأفعال بل يعد فى قبيلها ترك الأفعال التى تحمى بها نفوس أو أموال. فمن وجد رضيعاً بمكان خال، وتركه بحاله وهو قادر على إنقاذه عالم بأن تركه يفضى إلى موته، فمات عد تركه للطفل فى موقع التهلكة جريمة، إذ كان من وسائل الفساد التى يجب سدها ومعاقبة من يرتكبها، وجاء فى فتاوى الفقهاء أن من منع فضل مائه مسافراً وهو عالم أنه لا يحل له منعه، وأنه يموت إن لم يسقه فمات حقت عليه عقوبة القصاص، وكذلك الحارس ينام اختياراً فى غير الوقت الذى اعتاد فيه النوم فيضيع شىء مما أقيم لحراسته، فإنه يضمن ما ضاع وليس نومه إلا تركًا للحراسة، وكان هذا الترك وسيلة إلى ضياع المال.

لم يختلف العلماء فى أن سد الذرائع من أصول الشريعة، وإنما يختلفون فى بعض الفروع يذهب بها بعضهم نحو سد الذرائع، ويرجع بها آخرون إلى أصل غير هذا الأصل.

قال أبو إسحاق الشاطبى: «إن سد الذرائع أصل شرعى قطعى متفق عليه فى

الجملة وإن اختلف العلماء فى تفاصيله، وقد عمل به السلف بناء على ما تكرر من التواتر المعنوى فى نوازل متعددة دلت على عمومات معنوية، وإن كانت النوازل خاصة ولكنها كثيرة» يريد الشاطبى أن السلف جروا فى تفصيل بعض الأحكام على أصل سد الذرائع، ومستندهم فى تحقيق هذا الأصل ما ورد فى الكتاب والسنة من الأحكام العائدة إلى هذا الأصل، وهذه الأحكام وإن كان كل واحد منها متعلقاً بنازلة خاصة، قد بلغت من الكثرة مبلغ ما يدل على قصد الشارع إلى سد ذرائع الفساد. فتكون هذه الأحكام الكثيرة بمنزلة قول عام يرد فى القرآن أو السنة مصرحاً ببناء الأحكام على سد الذرائع.

والذرائع ثلاثة أقسام:

أحدها: ما أجمع العلماء على سده وهى الوسيلة التى تفضى إلى ما فيه مفسدة على وجه القطع أو الظن القريب منه كإلقاء السموم فى الأطعمة، وحفر الآبار فى الطرق. فإلقاء السم فى الطعام يفضى علي وجه القطع أو الظن القريب منه إلى موت من يتناول الطعام، كما أن حفر الآبار فى الطرق يفضى إلى وقوع السائرين بها فى غفلة أو ظلام.

ومن هذا القسم صنع الخمر والاتجار بها فإنه يفضى إلى مفسدة تعاطى شربها قطعاً أو ظناً غالباً ويدلكم على وجوب سد هذه الوسائل حديث أنس فيما رواه الترمذى «**لعن رسول الله ﷺ فى الخمر عشرة: عاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وساقيها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها، ومبتاعها، وواهبها، وآكل ثمنها**» وللحاكم المسلم أن يمنع بمقتضى هذا من زرع المخدرات والاتجار بها ويضع على ذلك عقوبة رادعة.

ثانيها: ما أجمعوا علي إلغائه وعدم الالتفات إليه وهو الوسائل التى يكون إفضاؤها إلى المفسدة نادراً، ومثال هذا زرع العنب فإنه يكون وسيلة إلى اتخاذ الخمر وتناولها شرباً، ولكن هذه المفسدة نادرة بالنسبة إلى الانتفاع بالعنب من حيث إنه ثمرة طيبة، فلا تمتد الحرمة من تعاطى الخمر إلى وسيلته التى هى زرع العنب، بل تبقى منوطة بنحو تحويله إلى خمر أو تعاطى ما أسكر من عصيره.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقد يكون اتخاذ الخمر من العنب فى بعض البلاد كثيراً، ولا تقتضى هذه الكثرة المنع من زرع العنب، فإن فى هذا المنع حرماناً للناس من منافعه الطيبة، وقد جعل الشارع لموبقة الخمر عقوبة، متى تولى القيام عليها حازم رشيد، طهرت البلاد من خبث المسكرات، وباهت سائر البلاد برجال لا يخالط عقولهم كدر، ولا يمس نشاطهم كسل، ولا يدنو من جدهم هزل.

وإذا فرض أن أمة تبلغ فى السفاهة أن يكون اتخاذ الخمر هو الغالب على أعنابها بحيث يكون انتفاعها من العنب فى غير هذا الوجه نادراً، كان للعارف بأصول الشريعة وسياستها النظر فى هذه الحالة ليقرر لها حكمًا مطابقًا لها.

وفى صناعة الطب مصلحة الشفاء من أمراض كثيرة، وقد تكون المداواة وسيلة إلى إتلاف بعض النفوس، وهذه الحالة نادرة بالنسبة إلى ما تفضى إليه من الصحة والسلام فتلغى الحالة النادرة، وتبقى المداواة مأذونًا فيها بإطلاق وليس على الطبيب ضمان ما أتلف إلا أن يتبين تفريطه وعدم نصحه فى العلاج.

وفى تسيير السفن فى البحر منافع لا تحصى، وقد يفضى تسيير السفينة إلى غرقها وهلاك ركابها، ولكن الغرق نادر بالنظر إلى السلامة. فتلغى الحالة النادرة ويبقى تسيير السفن مأذونًا فيها بإطلاق، وليس على ربان السفينة متى غرقت من ضمان إلا أن يتصرف فيها على وجه يتبين فيها تفريطه.

ويلحق بهذا الضرب اتخاذ السيارات والطيارات والغواصات فإنه قد ينشأ عن استعمال هذه المخترعات إتلاف بعض النفوس البريئة، ولكن هذا الضرر قليل بالنسبة إلى ما يترتب عليها من نحو مصلحة الدفاع وقطع المسافات البعيدة فى أقرب زمان، فلا تمتد الحرمة من إتلافها لبعض النفوس إلى أصل استعمالها، بل تبقى الحرمة مقصورة على استعمالها بدون روية واحتراس، وهو المفضى إلى نحو إهلاك النفوس أو الأموال.

ثالثها: ما يتردد بين أن يكون ذريعة إلى مفسدة، وبين أن لا يكون وهذا موضع اختلف فيه أهل العلم، فمنهم من قال بالمنع من هذا القسم نظراً إلى ما قد يفضى

إليه من المفسدة، ومنهم من ذهب إلى الإغماض عنه وعدم عده في الذرائع التي يجب سدها، ومثال هذا: استناد القاضي في الحكم إلى ما يعلم من حال القضية ترفع إليه، فمن أهل العلم من منعه، وأوجب على القاضي الرجوع إلى البينات والوقوف عندها، مخافة أن يتخذ القضاة الذين لم تشرب قلوبهم التقوى الاستناد إلى العلم ذريعة إلى الجور في القضية، فيفصل فيها اتباعاً للهوى، بزعم أنه يعلم منها ما لم تعلمه البينة.

فاستناد القاضي إلى علمه متردد بين أن يكون وسيلة إلى حفظ الحق، وأن يكون ذريعة إلى مفسدة الجور في القضاء، والمحققون على سد الذريعة في مثل هذا الفرع، والقاضي الذي يعلم من القضية خلاف ما قامت عليه البينة، يصرف الحكم فيها إلى غيره ويشهد لديه بما يعلم، فتجرى عليه أحكام الشهادة فإما أن يقبل وإما أن يلغى.

ومما يساق في الحديث عن هذا القسم أن الشريعة تحرم على الإنسان أن يقرض آخر عشرة دنانير - مثلاً - على أن يردها إليه خمسة عشر ديناراً، فإن هذه العقدة هي الربا بعينه، ولو باع زيد سلعة لعمر بخمسة عشر مؤجلة، ثم اشتراها منه بعشرة نقداً، لكان مآل هذا البيع والشراء إلى أن زيداً دفع إلى عمرو عشرة نقداً وأخذ منه بعد أجل مسمى خمسة عشر، ومثل هذه الصورة قد يقصد فيها زيد وعمرو إلى البيع والشراء على وجه البت، ثم يبدو لزيد أن يشترى ما باع. فيكون هناك عقدان كل منهما مستقل عن الآخر فيفارق هذا البيع والشراء عقدة الربا.

فإن قصدا من البيع والشراء إعطاء عشرة ليؤخذ بدلها خمسة عشر عند الأجل فقد جعلا هذه المعاملة وسيلة إلى ما حرم من الربا، لأنها وإن جرت بألفاظ البيع والشراء فإنها تشتمل على معنى الربا من جميع أطرافه.

ومن كبار الأئمة من يمنع هذه المعاملة حيث يكثر قصد الناس فيها إلى القرض بمنفعة، ويستند في هذا المنع إلى قاعدة سد ذرائع الفساد.

وقد بلغ بعض الفقهاء في مراعاة سد الذرائع أنه كره فعل بعض المندوبات إذا

كان إظهارها والمواظبة عليها وسيلة إلي اعتقاد العامة سنتها أو وجوبها، وكان الإمام مالك - رضى الله عنه - يكره المجىء إلى بيت المقدس خيفة أن يتخذ الناس ذلك سنة، وقال سعيد بن حسان: كنت أقرأ على ابن نافع فلما مررت بحديث التوسعة ليلة عاشوراء، قال لى: حرق (١) عليه، قلت ولم ذلك يا أبا محمد؟ قال: خوفًا من أن يتخذ سنة، وقد ذكرنا فيما سبق أن الإمام مالك كره إتباع رمضان بصوم ستة أيام من شوال مخافة أن يعتقد العامة أنها فى حكم صوم رمضان، ومن لا يجيزون ترك المندوب لخوف اعتقاد وجوبه أو سنيته، يعتمدون على أن من واجب العلماء تبيين أحكام الشريعة وآدابها للناس، وإزاحة ما يحوم بأذهانهم من الأوهام الباطلة، وهذا هو الوسيلة التى يكتفى بها شر اعتقاد العامة لسنية الأمر المندوب أو وجوبه.

وكما نظر الشارع إلى وسائل الفساد فسدَّها نظر إلى وسائل ما فيه صلاح ففتحها بالإذن فيها والحث عليها، ومثال هذا تسعير ما يباع فى الأسواق من نحو الأقوات فإنه ذريعة إلى حماية العامة من أن يغبنوا ويغلى الباعة عليهم ما يحتاجونه، فالإذن فى التسعير فتح ذريعة إلى مصلحة اقتصادية لا يستهان بها. فلولى الأمر أن يجمع وجوه أهل السوق، ويحضر غيرهم استظهاراً على صدقهم فيسألهم كيف يشترون، وكيف يبيعون، ويضع للحاجيات أثمانًا محدودة فيها ربح للباعة، ولا تجحف بالعامة.

ونرى الشريعة تأتى إلى الأمر يكون له وجه من الضرر فتأمر به حيث يكون ذريعة إلى ما فيه مصلحة أكبر من ذلك الضرر، ومن هذا القبيل بذل المال لفداء الأسرى، فالمال المبذول للعدو يزيده قوة، وحرام على المسلمين أن يمدوا عدوهم ولو بوزن ذرة من ذهب أو فضة. ولكن هذا البذل ذريعة إلى مصلحة يصغر فى جانبها ضرر البذل، والمصلحة هى إنقاذ المسلمين من أيد تسومهم سوء العذاب أو الهوان.

وفى حلف الشخص بالله كاذبًا إثم كبير، ومقتضى هذا أنه لا يجوز لصاحب الحق - متى أنكر المدعى عليه - أن يطالبه باليمين، لأنه يدفعه إلى ارتكاب الإثم الكبير، ولكن الشارع الحكيم أذن لصاحب الحق فى تحليف المنكر مع علمه بأنه

(١) كذا فى الاعتصام للشاطبى، ويطلق التحريق بمعنى الحك والبرد بالمبرد.

سيحلف بالله كاذبًا إذ كان التحليف ذريعة إلى ظهور الحق فى كثير من الأحيان، حيث يحمل المدعى عليه على الإقرار لأول الأمر، أو على الرجوع إليه بعد الإنكار، فهذه المسألة من المواضع التى أغمض فيها الشارع عن وجه الفساد، وفتح بها الذريعة إلى مصلحة ذات شأن خطير.

وملخص المقال أن الشريعة الإسلامية قد بنت كثيرًا من أحكامها المنطوق بها فى الكتاب والسنة على رعاية سد الذرائع، وقد استخلص الفقهاء من هذه الأحكام الكثيرة أن من أصول الشريعة سد ذرائع الفساد، واستمدوا من هذا الأصل أحكامًا حالوا بها بين الناس وبين ما يفضى إلى كثير من مواقع الفساد. فقاعدة سد الذرائع قاعدة محكمة، وفيها شاهد واضح على أن الشرع الإسلامى صالح لكل زمان ومكان.

○ المصالح المرسلة:

من اطمأن قلبه إيمانًا بأن الشريعة وحى نزل بها الروح الأمين على أفضل الخليقة لم يرتب فى أنها قائمة على حكمها، وأن الخير فى الاقتداء بها والوقوف عند حدودها يقطع بهذا كل من صادفت فيه دلائل النبوة فطرة سليمة أو ألمعية ثاقبة، ويزيد المتفقه فى الشريعة بعد هذا الاعتقاد الذى اقتضاه أصل الإيمان أنه يرى حق اليقين كيف قامت أصولها وفصلت أحكامها على رعاية المصالح فى الحياتين: العاجلة والآجلة، ولم يختلف أهل العلم فى أن كل حكم شرعى مربوط بحكمة، وأن الحكمة هى التى دعت إلى تقريره، ومرجع هذه الحكم إلى المصالح والمفاسد، ومن هذا الأصل الذى دل على أن الله تعالى قد شرع الأحكام على طريقة جلب المصالح ودرء المفاسد، نشأت قاعدة المصالح المرسلة.

لا نزاع فى بناء الأحكام على المصالح التى قام الدليل الشرعى على رعايتها، ومثال هذا: حفظ العقل الذى دل على رعايته تحريم الخمر وإقامة الحد على شاربها، فإذا عرض للمجتهد مطعوم لا يسمى خمرًا، ولكنه يفعل بالعقل ما تفعله الخمر لم يتردد فى تحريمه أخذًا بالدليل القائم على اعتداد الشارع بمصلحة حفظ العقل،

وبنائه بعض الأحكام على رعايتها، وهذا هو أصل القياس فى الشريعة، فإنه مبنى على التفقه فى بعض الأحكام المنصوصة ومعرفة قصد الشارع فيها إلى مصلحة بعينها، حتى إذا وجدت هذه المصلحة فى واقعة أخرى أخذت حكم الواقعة المصرح بها.

ولا نزاع فى عدم الاعتداد بالمصالح التى قام الدليل الشرعى على إلغائها، والشارع الحكيم لا يلغى مصلحة إلا إذا عارضتها مصلحة أرجح منها، أو استتبعت مفسدة لا يستخف بأمرها، ومثال هذا: الاستسلام للعدو، قد يبدو أن فيه مصلحة حفظ النفوس من القتل، ولكن الشارع رأى أن هذه المصلحة مغمورة بالمفاسد من كل جانب، فلم يعتد بها وأذن فى دفاع العدو نظراً إلى مصلحة أرجح منها، وهى احتفاظ الأمة بالعزة والكرامة والتمكن من المسابقة فى مضمار الحياة.

ومن هذا الباب تعدد الزوجات: يتبعه من الضرر أن تتألم المرأة من أن تشاركها فى صلة الزوجية امرأة أخرى، ففى ترك التعدد مصلحة هى قطع وسيلة استياء الزوجة، ولكن الشارع ألغى هذه المصلحة مكتفياً بما اشترطه من العدل بين الزوجات، وأباح التعدد نظراً إلى ما قد يترتب عليه من المصالح كتكثير النسل، ومساعدة الرجل على تجنب الحرام الذى قد يقع فيه صاحب الزوجة الواحدة إذا عرض مانع من التمتع بها مثل المرض والنفاس.

وما يدخل فى هذا المسلك قصة أمير الأندلس عبدالرحمن بن الحكم إذ باشر إحدى نسائه فى رمضان، ثم ندم على ما فعل، وجمع الفقهاء وسألهم عما يكفر به، فقال له يحيى بن يحيى الليثى: تكفر بصوم شهرين متتابعين. فلما خرجوا قال له بعض الفقهاء: لم لم تفته بمذهب مالك، وهو التخيير بين العتق والصيام والإطعام؟ فقال: لو فتحنا له هذا الباب سهل عليه أن يباشر كل يوم ويعتق رقبة، ولكن حملته على أصعب الأمور لئلا يعود.

وقد أقيمت هذه الفتوى على رعاية مصلحة لم يعتد بها الشارع، ففى حمل الملك على الصوم مصلحة منعه من اتباع الشهوات، ولكن الشارع ألغى هذه

المصلحة مكتفيًا بالنهى عن الإفطار وتأثيم من يرتكبه، وجعل الكفارة العتق أو الإطعام أو الصيام من غير فرق بين الملك وغيره.

ويبقى النظر فى المصالح التى لم يقم دليل معين على رعايتها أو على إلغائها وهذه هي التى تسمى «المصالح المرسلة» وقد اعتد بهذه المصالح كثير من الفقهاء، وبنوا بعض الفتاوى على رعايتها، والجارى على بعض الألسنة والأقلام أنها أصل من أصول المذهب المالكى، والواقع أن لها يدًا فى سائر المذاهب المعول عليها، وللمالكية القسط الأوفر فى استثمارها، قال ابن دقيق العيد: الذى لاشك فيه أن لمالك ترجيحًا على غيره من الفقهاء فى هذا النوع ويليه أحمد بن حنبل، ولا يكاد يخلو غيرهما عن اعتباره فى الجملة، ولكن لهذين ترجيح فى استعماله. وقال البغدادى فى «جنة النظار»: لا تظهر مخالفة الشافعى لمالك فى المصالح، فإن مالكًا يقول: إن المجتهد إذا استقرأ موارد الشرع ومصادره أفضى نظره إلي العلم برعاية المصالح فى جزئياته وكلياته، وأن لا مصلحة إلا وهى معتبرة فى جنسها، لكنه استثنى من هذه القاعدة: كل مصلحة صادمها أصل من أصول الشريعة، وما حكاه أصحاب الشافعى لا يعدو هذه المقالة.

ولهذه القاعدة أمثلة مسوقة فى كتب الأصول من فتاوى السلف وأقضيتهم، ومن هذه الأمثلة: قضاء الصحابة - رضى الله عنهم - بتضمين الصناع. فالرجل ينصب نفسه لصناعة كالخياطة أو الصبغ فيدفع إليه شخص ثوباً ليخيطه أو يصبغه. فيدعى ضياعه ولم يقم بينة على أنه تلف بغير سبب منه، فيقضى على الصانع بضمان الثوب أخذًا بقاعدة المصالح المرسلة، ووجه المصلحة فى هذا المثال أن الناس فى حاجة شديدة إلى الصناع، وهم يغيبون بالأمتعة عن أعين أصحابها، وليس من شأنهم الاحتياط فى حفظها، فمن المصلحة القضاء بضمانهم حتى لا تضيع أموال كثيرة، وهذا معنى قول على كرم الله وجهه: «لا يصلح الناس إلا ذاك» يعنى تضمين الصناع.

ومن أمثلته: قتل الجماعة بالواحد، فإن القصاص الوارد فى النص هو قتل النفس بالنفس، فإذا اشترك جماعة فى قتل شخص واحد، فهي قضية لم يوجد لها دليل

معين وقد ذهب الإمامان مالك والشافعى إلى قتل الجماعة بالواحد . وهو ما يروى عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - والمستند فى هذا قاعدة المصالح المرسلة، ووجه المصلحة أن عدم أخذ الجماعة بالقصاص يذهب بدم القتيل المعصوم هدراً، ويفتح باباً قصد الشارع إلى إغلاقه، وهو باب سفك الدماء البريئة، فإن الجماعة متى أمنوا من عقوبة القصاص حين يشتركون فى القتل سهل على أحقادهم أو شهواتهم أن تسوقهم حتى يمدوا أيديهم إلى إزهاق الأرواح دفعة، ففى قتل الجماعة بالواحد مصلحة حياة نفوس كثيرة، وحفظها من أن يتواطأ على قتلها جماعات ما لها فى احترام الأرواح من خلاق .

ومما أسندوه إلى هذه القاعدة أن يتحفز العدو للهجوم على بلاد الإسلام ويكون فى بيت المال ما يقوم بحاجة الجند المهيأ لقتاله، فقد قال طائفة من علماء الأندلس : للأمير العادل أن يفرض على الأغنياء ما يراه كافياً للجند فى الحال . ووجه المصلحة أن هذا الفرض تقوى به شوكة الدولة، وتخلص به البلاد من استيلاء قوم إن ظهروا عليها لا يرقبون فيها إلا ولا ذمة .

وإلى هذه القاعدة يستند الإمام مالك فى إجازته سجن المتهم، فالسجن عذاب والأصل أن لا يعذب أحد لمجرد الدعوى، ولكن الإمام - رحمه الله تعالى - نظر إلي أن فى سجن المتهم مصلحة الوصول إلى الحق، وليس ببعيد أن يقصد الشارع إلى حفظ هذه المصلحة، ويغضى عما يلحق المتهم من ألم الاعتقال، والمراد من المتهم من تقوم حوله قرينة تحيك فى نفس الحاكم وتؤثر فى قلبه شيئاً من الظن .

وليس فى الأخذ بالمصالح المرسلة فتح طريق يدخل منه العوام إلي التصرف فى أحكام الشريعة على ما يلائم آراءهم أو ينافرهم - كما ظنه بعض الكاتبين - فإن ما ذكرناه فى شرط الأخذ بهذه المصالح من عدم ورود دليل شرعى على رعايتها أو إلغائها برفعها عن أن تكون فى متناول آراء العامة أو أشباه العامة، إذ لا يدرى أن هذه المصلحة لم يرد فى مراعاتها أو إهمالها دليل شرعى إلا من كان أهلا للاستنباط . . قال الشيخ عمر الفاسى فى رسالة له فى الوقف : « وأنى للمقلد أن يدعى غلبة الظن أن هذه المصلحة فيها تحصيل مقصود الشارع وأنها لم يرد فى

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الشرع ما يعارضها ولا ما يشهد بإلغائها، مع أنه لا بحث له فى الأدلة ولا نظر له فيها، وهل هذا إلا اجتراء على الدين وإقدام على حكم شرعى بغير يقين؟ » فليس كل ما يبدو للعقل أنه مصلحة يدخل فى قبيل المصالح المرسلة وتبنى عليه الأحكام، وإنما هى المصالح التى يتدبرها من هو أهل لتعرف الأحكام من مآخذها حتى يثق بأنه لم يرد فى الشريعة شاهد على مراعاتها أو إلغائها.

ولا يقف فى سبيل المصالح المرسلة ما أورده بعض الكاتبين من أنه يفضى إلى اختلاف الأحكام باختلاف المواطن والعصور، فإن هذا الاختلاف محدود فى محاسن الشريعة، وهى ناحية من النواحى التى روعيت فى جعلها الشريعة العامة الباقية، وليس اختلاف الأحكام الناشئ عن مراعاة المصالح المرسلة اختلافاً فى أصل الخطاب، وإنما جاء من جهة تطبيق أصل عام دائم هو أن المصلحة التى لم يرد دليل على مراعاتها بخصوصها أو إلغائها، يقضى فيها المجتهد على قدر ما يراه فيها من صلاح، فالأحكام المبنية على رعاية المصالح المرسلة تستند إلى أصل تعرفه المجتهدون من موارد الشريعة، فكأن الشارع يقول للذين أوتوا العلم: إذا عرض لكم أمر فيه مصلحة ولم تجدوا فى الأدلة التى بين أيديكم ما يدل على رعايتها بخصوصها أو إلغائها، فزنوا تلك المصلحة بعقولكم الراسخة فى فهم المقصود من التشريع، وفصلوا لها حكماً يطابقها.

وقد ادعى بعض أهل العلم من غير المالكية أن الإمام مالكا أفتى بانياً على قاعدة المصالح المرسلة بجواز قتل ثلث العامة لمصلحة الثلثين، والمالكية ينكرون نسبة هذه الفتوى إلى الإمام مالك أشد الإنكار ويقولون: إنها لم تنقل فى كتبهم البتة، وإنما تكلموا كما تكلم غيرهم فى مسألة العدو يضع أمامه الأسرى المسلمين يتترس بهم فى الحرب. فأفتوا بأنه يجوز دفاع العدو بنحو الرمى متى خيف استئصال الأمة ولو أفضى الدفاع إلى قتل أولئك الأسرى من المسلمين.

ونقرأ فى ترجمة الشيخ علاء الدين الجمالى أحد فقهاء الحنفية أن السلطان سليم هم بقتل جماعة خالفوا أمر السلطان فى بيع الحرير، فدخل عليه الشيخ علاء الدين منكراً عليهم قتلهم، فقال له السلطان: أما يحل قتل ثلث العالم لنظام

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الباقى ؟! فقال الشيخ علاء الدين: نعم، ولكن إذا أدى الحال إلى خلل عظيم، فعفا السلطان عن الجميع.

وقد حقق الباحثون فى المصالح المرسلة النظر وأجروها فى أبواب المعاملات وتجنبوا بها أصول العبادات، لأن المتفقه فى علم الشريعة يدرك أن أحكام المعاملات مبنية على رعاية المصالح المدنية التى يتيسر للعقول السليمة متى تلقتها من الشارع، وغاصت فى تدبرها من كل جانب أن تقف على أسرارها، وترى خير الحياة فى التمسك بها، وأما العبادات ففيها ما تستبين حكمته، ويبدو القصد من مشروعيته واضحاً، ومنها ما لم تقف العقول على حكمته الخاصة، وحسب العقل فى الإيمان بحكمة ما كان من هذا القبيل أنه صادر ممن قام الدليل القاطع على أنه لا يأمر إلا بخير، ولا يجد فى هذا الإيمان حرجاً مادامت العبادات على اختلاف ضروبها بريئة مما تنبذه العقول الراجحة، والفرق بين ما لا يقف العقل على مصلحته الخاصة وما ينبذه لاشتماله على فساد راجح، لا يخفى إلا على ذى نظر سقيم.

ولما كثر فى العبادات ما تخفى مصلحته الخاصة. قالوا: إن أصلها التعبد وقصروا الأمر فيها على ما ورد عن الشارع الحكيم. ثم إن الشارع حذر من الزيادة على ما قرره من العبادات، وسمى ما يخترع بقصد القربة بدعة وضلالة، والتصرف فى العبادات من طريق المصالح المرسلة يفتح باب البدع ويدخل بالناس فى ضلال بعيد.

فلا نزاع فى بطلان اختراع عبادات ذات أوضاع لم يرد بها كتاب أو سنة، بدعوى أن فيها مصالح توافق قصد الشارع فيما وضع من العبادات.

وقد يتصرف الفقهاء فى أشياء تتصل بأصل العبادة، وينظرون إليها من ناحية المصالح الملائمة لتلك العبادة، فيصيبون فى الحكم ويخطئون، ومن أمثلة تصرفهم الصحيح أن أذان الجمعة كان على عهد رسول الله ﷺ والخليفتين بعده واحداً يقام بباب المسجد، ومن الواضح الجلى أن القصد من الأذان الإعلام بدخول وقت الصلاة، ولما كثر الناس واتسع العمران بالمدينة أقام عثمان - رضى الله عنه - أذاناً

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بالزوراء[1]، وهذا العمل خارج عن البدعة لأنه تصرف فى إحدى وسائل العبادة لا فى أصل العبادة، ولأن القصد من الأذان واضح وضوحًا لا تحوم عليه ريبة، وهو إعلام المصلين بدخول الوقت، وفى الأذان بالزوراء إعلام بدخول الوقت على وجه أكمل، ولم يكن الباعث على زيادة هذا الأذان وهو كثرة الناس واتساع العمران متحققًا فى عهد النبى ﷺ حتى يقال: إن الشارع لم يعتد بهذه المصلحة، وأنها ليست من نوع المصالح التى توافق قصده من التشريع.

وقد يتسرع إلى هذه القاعدة من لا يجيد فهمها. فيفتى بغير حق أو يقضى بغير عدل، وقد رأيت السلطان سليما كيف توهم أن فى قتل جماعة كثيرة خالفوا أمره فى بيع الحرير مصلحة يأذن الشارع بالمحافظة عليها، وظن بعض القضاة أن هذه القاعدة تبيح له أن يقطع أنملة شاهد زور. ليمنعه من الكتابة. واستشار ابن دقيق العيد فى هذه العقوبة فأنكرها أشد الإنكار، وعدها من المنكرات العظيمة الوقع فى الدين والاسترسال فى أذى المسلمين.

فرعاية المصالح المرسلة من أهم القواعد التى تأتى بثمر طيب متى تناولها الراسخ فى علوم الشريعة. البصير بتطبيق أصولها.

○ الاستحسان:

جرى لفظ الاستحسان فى عبارات بعض الأئمة على وجه يتوهم منه أن الاستحسان أصل من الأصول التى يرجع إليها فى استنباط الأحكام، وتعرض له علماء الأصول عند بحث الأدلة، ونسبوا الأخذ به إلى بعض الأئمة، ونقلوا إنكاره عن آخرين، واختلفوا فى تفسيره، **وإليك صفوة ما قيل فى هذا الوجه من الاستدلال:**

روى محمد بن عبدالعزيز العتبى فى كتاب «المستخرجة» عن أصبغ بن الفرج عن ابن القاسم أن مالكًا قال: «تسعة أعشار العلم الاستحسان»، وقال مالك فى بعض فتاويه: «أستحسن فى كذا أن يكون الحكم كذا»، وقال ابن خويز منداد

(١) موضع بالمدينة قرب المسجد.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وهو من المالكية فى كتابه الجامع لأصول الفقه : « وقد عول مالك على الاستحسان وبنى عليه أبوابًا ومسائل من مذهبه » .

واستند الحنفية إلى الاستحسان فى تقرير كثير من الأحكام، ويعارضون به القياس فيقولون فى بعض الأحكام : هذا ما يقتضيه الاستحسان وذاك ما يقتضيه القياس .

وعبر الإمام الشافعى بالاستحسان فى أحكام بعض الحوادث ، فقال : « أستحسن أن تكون المتعة ثلاثين » ، وقال : « أستحسن أن يؤجل الشفيع ثلاثًا » .

وأنكر قوم أن يكون الاستحسان دليلاً شرعيًا ، وشنعوا على القائلين به ظنًا منهم أن استحسان هؤلاء الأئمة من قبيل الرجوع إلى الرأى دون رعاية دليل شرعى ثابت ، والرجوع إلى الرأى المحض فى تقرير الأحكام الشرعية لا يقول به عامى مسلم فضلا عن إمام بلغ رتبة الاجتهاد أو الترجيح ، ومن هنا تصدى علماء الأصول من المالكية والحنفية لتفسير الاستحسان الوارد فى عبارات أئمتهم، وبينوا أنه عائد إلى أدلة متفق عليها ، أو أدلة معروفة فى مذهب المعبر به ، وحملوا قول الإمام الشافعى : « من استحسن فقد شرع » على معنى الاستحسان الذى لا يقوم على رعاية دليل شرعى ، وكذلك الأثر الذى يسوقه بعض المحتجين لصحة القول بالاستحسان وهو : « ما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن » (١) إنما يحمل على أن المراد بالمسلمين ذوو الكفاية لاستنباط الأحكام فيكون دليل الاحتجاج بالإجماع .

أما المالكية فيقول محققوهم كأبى الوليد الباجى : الاستحسان هو الأخذ بأقوى الدليلين . وكذلك قال ابن خويز منداد : معنى الاستحسان – عندنا – القول بأقوى الدليلين . ويضاهى هذا قول الحفيد بن رشد : الاستحسان عند مالك هو الجمع بين الأدلة المعارضة، ومعنى هذا أن الاستحسان فى مذهب مالك ليس بدليل مستقل وإنما هو ترجيح أحد الدليلين على الآخر ، كأن يتعارض فى حادثة جزئية قياسان أو يعارض أصلاً من الأصول عرف أو مصلحة مرسلة ، أو سد ذريعة ، فينظر المجتهد

---

(١) هو من قول عبدالله بن مسعود ، وليس بحديث .

ويرجح أحد القياسين على الآخر أو يرجح قاعدة العرف، أو المصالح المرسلة، أو سد الذريعة عن ذلك الأصل المعارض.

ونكتفى بذكر مثال لما تعارض فيه قياسان، ومن هذا المثال يتبين وجوه الترجيح فى الأدلة الباقية:

معروف فى مذهب مالك أن المتبايعين إذا اختلفا فى قدر الثمن أو البيع، كأن يقول البائع: بعتك بعشرة، ويقول المشترى: إنما بعتنى بستة. فوجه الحكم أن ينظر فيمن قوله أشبه أى أقرب إلى الصدق، فيقضى بقوله مع اليمين فإن كان المبيع يساوى عشرة ترجح قول البائع، وإن كان يساوى ستة ترجح قول المشترى.

ومعروف فى المذهب أيضًا أن المودع (بكسر الدال) والمودع (بفتحها) أو المعير والمستعير، إذا اختلفا فى الشيء المودع أو المعار كان القول للمودع أو المستعير، لأن كلا منهما أمين على ما تسلمه.

وجرت بين الفقهاء حادثة اختلاف المتراهنين كأن يخرج المرتهن رهنًا فيقول الراهن: رهنتك ما هو أفضل منه. ويقول المرتهن: بل هو رهنك، وقد تجاذب هذه الحادثة قياسان: القياس على اختلاف المتبايعين وهذا يقتضى أن يكون القول قول الراهن إن أشبه أى صدقه شاهد حال كأن يرهنه رهنا بألف فيخرج المرتهن رهنًا يساوى مائة، وهذا ما ذهب إليه إصبغ بن الفرج والقياس على المودع والمستعير، وهذا يقتضى أن يكون القول للمرتهن وإن لم يخرج إلا ما يساوى درهمًا وهذا ما ذهب إليه أشهب.

وقياس اختلاف المتراهنين على اختلاف المعير والمستعير أو المودع والمودع أجلى من قياسه على اختلاف المتبايعين. لأن المرتهن يشبه المودع أو المستعير فى كونه مأمونًا على ما وضع عنده من الرهن غير أن قياسه على المتبايعين الذى هو أخفى من قياسه على المودع أو المستعير قد تقوى بقلة الأمانة فى الناس، وبأن الراهن سلم الرهن إلى المرتهن عن احتياج إلى الدين، أما المودع والمعير فإنما سلم الوديعة أو العارية عن اختيار محض.

فيصح أن يقال إن قول أشهب مبنى على القياس، وقول أصبغ مبنى على

الاستحسان، كما قال ابن رشد فى كتابه البيان: قول أشهب إغراق فى القياس، وقول أصبغ استحسان وهو أظهر.

وهذه العبارة من العلامة ابن رشد تريك كيف يطلقون الاستحسان ويريدون منه القياس الخفى المعارض للقياس الجلى.

وأما الحنفية فيقولون الاستحسان ترك القياس الجلى بدليل أقوى منه، ويريدون من الدليل الأقوى ما يشمل الحديث والإجماع والضرورة والقياس الخفى.

وأمثلة معارضة هذه الأدلة للقياس الجلى مفصلة فى كتب أصول الفقه. ونكتفى بذكر مثال للأخذ بالقياس الخفى المعارض للقياس الجلى، وهو أنهم قالوا: سؤر السباع من الطيور يتبادر إلى الذهن قياسه على سؤر سباع البهائم فى الحكم بنجاسته، لاشتراك سباع الطيور وسباع البهائم فى نجاسة اللعاب، لتولده من لحم حرام، وهذا هو القياس الجلى، ولكن سباع الطيور تشرب الماء بمنقارها ومنقارها من عظم جاف طاهر لا رطوبة فيه. فلا يخش تنجس الماء بملاقاته، فيصح أن يقاس سؤرها على سؤر طاهر اللعاب كالآدمى وما يؤكل من الأنعام لعدم ملاقاة الماء للرطوبة التى يلاقيها من ألسنة السباع من البهائم، وهذا هو القياس الخفى.

وإذا كان الاستحسان ترجيح أحد الدليلين المتعارضين فيما يتراءى للمجتهد أول النظر لا ينبغى أن يجرى فى صحته اختلاف بين أهل العلم.

وهو بهذا المعنى شاهد على دقة أنظار علماء الشريعة إذ كانوا لا ينساقون فى تقرير الأحكام إلى ما يتبادر لهم فى الاستدلال إلا بعد النظر فى الواقعة من جميع وجوهها.

ومن فسر الاستحسان بدليل يقذفه الله فى قلب المجتهد تقصر عنه عبارته فقد فسره بما تتضافر أصول الشريعة على إسقاطه وإخراجه من دائرتها، ومن هذا الذى وصل إلى رتبة استنباط الأحكام ولا يستطيع أن يعرب عما فى ضميره ويدل على ما خطر له من المعانى! ثم إن قبول مثل هذا الذى ينقدح فى النفس ويعجز اللسان عن بيانه وعده فى أدلة الأحكام يفتح لأصحاب الأهواء باباً يخرجون منه إلى ما يشاءون من الابتداع فى الدين والعبث بأحكامه.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٢

الرؤيا ليست طريقًا للأحكام الشرعية

كثير من المرائى ينشأ من انطلاق المخيلة وسيرها فى غير نظام حيث تعطل الحواس، ويفقد التنبه، ولا يبقى للإرادة سلطان على تنظيم حركة التفكير، وقد تنشأ عن تعلق النفس بالشىء فى حال اليقظة وكثرة تفكيرها فيه، وربما نشأت عن أمر تنفعل له الأعصاب، كأن يقرع صوت الموسيقى أذن النائم، فتضطرب أعصابه، وتجرى فى مخيلته صور من خواص الموسيقى، فيرى نفسه فى مجتمع سرور أو عرس، وجميع هذا من قبيل أصغاث الأحلام لا يحتفل بتأويله ولا ينبغى الالتفات إليه.

وفى المرائى ما يكون من قبيل الإلهام فيدل على بعض المعانى دلالة صحيحة، وقد دل على وجود هذا القسم القرآن والسنة الصحيحة، والتجارب التى لا تقف عند نهاية بل دل القرآن على أن صدق الرؤيا قد يتحقق فى رؤيا غير المؤمنين، ومن شواهد هذا رؤيا عزيز مصر التى عبرها يوسف عليه السلام، ووقعت على نحو ما عبرها.

ولما كان فى المرائى المنامية ما هو من هذيان المخيلة سقطت الرؤيا عن درجة الاعتبار، ولم يكن لها فى مآخذ الأحكام الشرعية موضع. قرر أبو إسحاق الشاطبى أن رؤيا النبى ﷺ طريق من طرق الوحى الصادق، ثم قال: «وأما أمته فكل واحد منها غير معصوم، بل يجوز عليه الخطأ والغلط والنسيان، ويجوز أن تكون رؤياه حلمًا؛ وكشفه غير حقيقى، وإن تبين فى الوجود صدقه واعتيد ذلك فيه واطرد، فإمكان الخطأ والوهم باق. وما كان هذا شأنه لم يصح أن يقطع به حكم»، وإنما كانت رؤيا الأنبياء وحيًا لأنهم معصومون من أن يتمثل لهم الباطل فى صورة الحق، ولم يجعل الله للشيطان أو الخيال عليهم من سبيل.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

هذه نظرة فى أصل الرؤيا، فإن ذكر الرجل أنه رأى النبي ﷺ فى النوم وأمره بأمر يخالف ما جاء فى شريعته أو أخبره بشيء يخالف ما يعلمه فى اليقظة فليس له التمسك بهذه الرؤيا، بل يأخذ بما جاء فى الشريعة الغراء، ويبنى على ما يعلمه فى اليقظة، فإن قيل: إن رؤية النبي ﷺ في المنام حق لقوله ﷺ: «**من رآنى فى المنام فقد رآنى فإن الشيطان لا يتخيل بى**» فيكون ما يأمر به أمرًا حقًا وما يخبر به خبرًا صدقًا. قلنا: إن رؤية النبى ﷺ فى النوم قد تكون لمثاله الصادق كرؤيا الصحابى الذى رآه فى اليقظة فانطبع مثاله فى نفسه، أو رؤيا من درس صفاته المنقولة فى الكتب فارتسمت منها فى نفسه صورة مطابقة، أما رؤياه على غير هذا الوجه فمحتمل لأن يكون من قبل تخيل الشيطان.

ثم إن رؤيا مثاله الصادق وإن كانت حقًا لا يصح الاستناد إليها فى حكم شرعى لاحتمال الخطأ والغلط فى ضبط المثال فى النوم، قال الزركشى فى البحر المحيط: «والصحيح أن المنام لا يثبت حكمًا شرعيًا ولا ينفيه، وإن كانت رؤية النبى ﷺ حقًا والشيطان لا يتمثل به، ولكن النائم ليس من أهل التحمل والرواية لعدم تحفظه».

والخلاصة: أن من رأى النبى ﷺ على صورة غير مطابقة لشمائله الواردة فى الصحيح، فرؤياه هذه ليست هى الرؤيا التى وصفها النبى ﷺ بأنها حق، فضلا عن أن تكون مأخذ حكم شرعى. فإن كانت مطابقة لما ورد فى شمائله فهى حق ويؤخذ بها فى نحو التحذير من عمل عرف من دلائل الشريعة أنه سيّئ، أو الترغيب فى عمل قام الدليل فى اليقظة على أنه صالح، فالعمل الذى يذكر الإنسان أنه تلقاه عن النبى ﷺ فى النوم يعرض على دلائل الشريعة، ويوزن بمقاييسها ويقضى فيه بأصولها، ويدخل فى هذا الباب صيغ التسبيح والتهليل، فيؤخذ فيها مما يرويه علماء السنة، وتسعه أدلة الشريعة المتلقاة عنه ﷺ فى حال اليقظة، وليس من المقبول أن يكون فى بعض صيغ الأذكار المتلقاة فى المنام فضل لا يوجد فى الصيغ التى تلقاها الصحابة - رضى الله عنهم - فى حال اليقظة.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٣

فصل الدين عن السياسة

مازال الرسل – عليهم السلام – يرمون فى الدعوة إلى أصول الإيمان بالله عن قوس واحدة، ولكل رسول بعد هذا شريعة يراعى فى أمرها ونهيها حال من يرسل إليهم خاصة، حتى حضر الوقت الذى تهيأ فيه البشر على اختلاف بيئاتهم للانتظام فى شريعة واحدة، فبعث الله المصطفى ﷺ بالحنيفية السمحة، وجعله خاتم النبيين، وقضى بأن تكون شريعته خاتم الشرائع، ولعموم رسالته، سواء الشاهد فيها والغائب العربى والعجمى، أقام على صدقه آيات باقيات ما نظر فيها ذو فطرة صافية أو بصيرة نافذة إلا أسلم وجهه لله قانتا ﴿ **وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ** ﴾ [الأنعام: ١٩]، ولخلود شريعته جعلها أبلغ الشرائع حكمة، وأوفاها أصولا، وأوسعها للمصالح رعاية.

ثلاث حقائق كل واحدة منها شطر من الإسلام: عموم رسالة محمد ﷺ، واشتمال شريعته بنصوصها وأصولها على أحكام ما لا يتناهى من الوقائع، وكون هذه الشريعة أحكم ما تساس به الأمم، وأصلح ما يقضى به عند التباس المصالح أو التنازع فى الحقوق.

أجمع علماء المسلمين على هذه الحقائق وعرفها عامتهم، فمن أنكر واحدة منها فقد ابتغى فى غير هداية الإسلام سبيلا، ومثل من يمارى فى شىء منها ثم يدعى أنه لا يزال مخلصا للإسلام مثل من يضرب بمعوله فى أساس صرح شامخ ثم يزعم أنه حريص على سلامته، عامل على رفع قواعده.

فتنت مدنية الشهوات أشخاصا ينتمون إلى الإسلام فانحرفت بهم عن المحجة، وأدركوا أن مجاهرتهم بإنكار رسالة المصطفى ﷺ تسقطهم من حساب المسلمين دفعة، فلا يبلغون من فتنة الأمة مأربا، فبيتوا أن يبقوا ثوب الإسلام على أكتافهم، ويحركوا بمدحه فى بعض المجالس ألسنتهم أو فى بعض الصحف أقلامهم، لكى يركن الغافلون من المسلمين إلى أقوالهم، فيقذفوا من وراء ريائهم وثقة بعض الناس

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بهم ما شاءوا من آراء خاسرة، ويزعموا أن هذه الآراء من هداية الإسلام لا ينكرها .

والواقع أن هذا الصنف من المنحرفين قد أحدث فى بعض البلاد الإسلامية آثار فساد لم يحدث معشارها النابذون إلى الدين على سواء، وكم أرتنا الأيام فى هذا الصنف من عجائب دلتنا على أن هناك مغارات يأتمرون بالدين بين حيطانها، ولغة إذا حضرهم بعض المسلمين يجنحون إلى التخاطب بها، وضروبًا من الإغواء يجهدون أنفسهم فى تمويهها .

منذ عهد قريب أخذ بعض الكاتبين يتشبهون بمن يؤلف على طريق البحث العلمى، فقالوا ما شاءوا أن يقولوا، وخرجوا بغير مناسبة منطقية إلى إنكار أن يكون للإسلام مدخل فى الشئون القضائية والمعاملات المدنية .

جال هذا الصوت جولة الباطل ثم ذهب كصيحة فى واد، ولم يبق له صدى إلا آذان رهط لا يسمعون رشداً، ولا يفقهون حجة، وإن شئت فقل : صادف ذلك الصوت أفئدة هواء، فجعلوا يحاكون فى بعض ما يكتبون، ويوقظون فتناً لو أقبل كل على ما يحسن أن يتحدث فيه لكانوا عنها فى شغل .

ما كدنا ننتهى من إماطة أذى الذى ادعى أنه يفسر القرآن بالقرآن، حتى خرجت إحدى المجلات تحمل مقالا تحت عنوان « داء الشرق ودواؤه » وفى هذا المقال دعاية إلى فصل الدين عن السياسة، وبلغ بكاتبه الحال أن زعم أن سبب تأخر المسلمين عدم فصلهم للدين عن السياسة .

ونحن نود والله يعلم أن يقبل كل من بيده قلم على ما فيه خير للناس، والموضوعات العلمية والأدبية والسياسية مترامية الأطراف، وانصراف نفس الكاتب عن البحث فى أمثال هذه الموضوعات ليس بعذر يبيح له أن يخوض بقلمه فى الحديث عن الدين خوض من يقولون ما لا يتدبرون .

ونود والله يعلم أن نقبل على شأننا، ونمضى فى سبيلنا، وليس فى فطرتنا الولوع بأن نفند لكاتب رأيًا، أو نبطل لباحث قولاً، ولكن القوم أصبحوا يتساقطون على طمس معالم الحقيقة والفضيلة تساقط الفراش على السراج، والسكوت عنهم تفريط فى جنب الله، ومن فرط فى جنب الله خسر الدنيا قبل الآخرة .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال صاحب المقال فى ذكر أهم النقط الجوهرية التى ترجع إليها أسباب ضعف الشرق : « الثانية عدم التفريق بنظام قاض بين السلطتين الدينية والدنوية، فكان هذا من جملة المسببات لتأخر المسلمين، إذ إن جمع السلطتين فى شخص واحد بدون تحديد لهما كان من أبعد(١) الأمور إلى اختلال النظام، وإذا كان هذا أفاد المسلمين فى صدر التاريخ الإسلامى وأمر العالم لهم كما قدمنا، إلا أنه كان بلاء بعد انقسام المسلمين إلى ممالك وفرق وشيع ومذاهب وأحزاب ووجود دول أخرى تنازعهم السيادة فى العالم، وقد عاد اجتماع هاتين السلطتين بلاء عليهم إذ أصبحت الرياسة الدينية والدنيوية فى الواقع فى قبضة تلك الدول التى نازعتهم كما هو مشاهد الآن » .

نعرف من قبل أن يظهر هذا المقال أن الذين يدعون إلى فصل الدين عن السياسة فريقان : فريق يعترفون بأن للدين أحكامًا وأصولاً تتصل بالقضاء والسياسة، ولكنهم ينكرون أن تكون هذه الأحكام والأصول كافلة بالمصالح آخذة بالسياسة إلى أحسن العواقب، ولم يبال هؤلاء أن يجهروا بالطعن فى أحكام الدين وأصوله، وقبلوا أن يسميهم المسلمون ملاحدة، لأنهم مقرون بأنهم لا يؤمنون بالقرآن ولا بمن نزل عليه القرآن .

ورأى فريق أن الاعتراف بأن فى الدين أصولاً قضائية وأخرى سياسية، ثم الطعن فى صلاحها إيذان بالانفصال عن الدين، وإذا دعا المنفصل عن الدين إلى فصل الدين عن السياسة كان قصده مفضوحًا وسعيه خائبًا، فاخترع هؤلاء طريقًا حسبوه أقرب إلى نجاحهم وهو أن يدعوا أن الإسلام توحيد وعبادات، ويجحدوا أن يكون فى حقائقه ما له مدخل فى القضاء والسياسة، وجمعوا على هذا ما استطاعوا من الشبه لعلهم يجدون فى الناس جهالة أو غباوة، فيتم لهم ما بيتوا .

هذان مسلكان لمن ينادى بفصل الدين عن السياسة، وكلاهما يبتغى من أصحاب السلطان أن يضعوا للأمة الإسلامية قوانين تناقض شريعتها، ويسلكوا بها مذاهب لا توافق ما ارتضاه الله فى إصلاحها، وكلا المسلكين وليد الافتتان بسياسة الشهوات، وقصور النظر عما لشريعة الإسلام من حكم بالغات .

---

(١) كذا فى الأصل ولعلها محرفة عن كلمة « ادعى » .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أما أن الإسلام قد جاء بأحكام وأصول قضائية، ووضع فى فم السياسة لجاماً من الحكمة، فإنما ينكره من تجاهل القرآن والسنة ولم يحفل بسيرة الخلفاء الراشدين، إذ كانوا يزنون الحوادث بقسطاس الشريعة، ويرجعون عند الاختلاف إلى كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ.

فى القرآن شواهد كثيرة على أن دعوته تدخل فى المعاملات المدنية، وتتولى إرشاد السلطة السياسية، قال تعالى: ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ [المائدة: ٥٠] وكل حكم يخالف شرع الله هو من فصيلة أحكام الجاهلية، وفى قوله تعالى: ﴿ **لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ إيماء إلى أن غير الموقنين قد ينازعون فى حسن أحكام رب البرية، وتهوى أنفسهم تبدلها بمثل أحكام الجاهلية، ذلك لأنهم فى غطاء من تقليد قوم كبروا فى أعينهم، ولم يستطيعوا أن يميزوا سيئاتهم من حسناتهم، وقال تعالى: ﴿ **وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ** ﴾ [المائدة: ٤٩] فرض فى هذه الآية أن يكون فصل القضايا على مقتضى كتاب الله، ونبه على أن من لم يدخل الإيمان فى قلوبهم يبتغون من الحاكم أن يخلق أحكامه من طينة ما يوافق أهواءهم، وأردف هذا بتحذير الحاكم من أن يفتنه أسرى الشهوات عن بعض ما أنزل الله، وفتنتهم له فى أن يسمع لقولهم، ويضع مكان حكم الله حكماً يلائم بغيتهم، قال تعالى: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [المائدة: ٤٥]، وفى آية: ﴿ **فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [المائدة: ٤٧]، وفى آية ثالثة: ﴿ **فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [المائدة: ٤٤].

وفى القرآن أحكام كثيرة ليست من التوحيد ولا من العبادات، كأحكام البيع والربا والرهن والدين والإشهاد، وأحكام النكاح والطلاق واللعان والولاء والظهار والحجر على الأيتام والوصايا والمواريث، وأحكام القصاص والدية وقطع السارق وجلد الزانى وقاذف المحصنات، وجزاء الساعى فى الأرض فساداً، بل فى القرآن آيات حربية فيها ما يرشد إلى وسائل الانتصار كقوله تعالى مرشداً إلى القوة المادية:

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقوله تعالى مرشداً إلى القوة المعنوية: ﴿ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقوله تعالى منبهاً على خطة هى من أنفع الخطط الحربية: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ ﴾ [التوبة: ١٢٣] والكفار هنا المحاربون، ففى الآية إرشاد إلى أن يكون ما بينهم وبين ديارهم أمناً، ولا يدعوا من ورائهم من يخشون منه أن ينهض إلى أموالهم وأهليهم من بعدهم، أو يجلب عليهم بخيله ورجله ليطعن فى ظهورهم وقد أقبلوا على العدو الذى تجاوزوا إليه بوجوههم، وفى الآيات الحربية ما يتعلق بالصلح كقوله تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ [الأنفال: ٦١] وقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩] وفيها ما يتعلق بالمعاهدات كقوله: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ [الأنفال: ٥٨].

وفى السنة الصحيحة أحكام مفصلة فى أبواب من المعاملات والجنايات إلى نحو هذا مما يدلك على أن من يدعو إلى فصل الدين عن السياسة إنما تصور ديناً آخر، وسماه الإسلام.

وفى سيرة أصحاب رسول الله - وهم أعلم الناس بمقاصد الشريعة - ما يدل دلالة قاطعة على أن للدين سلطاناً على السياسة، فإنهم كانوا يأخذون على الخليفة عند مبايعته شرط العمل بكتاب الله وسنة رسول الله.

ولولا علمهم بأن السياسة لا تنفصل عن الدين لبايعوه على أن يسوسهم بما يراه أو يراه مجلس شوراه مصلحة، وفى صحيح البخارى «كانت الأئمة بعد النبى ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم فى الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها، فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلى غيره اقتداء بالنبى ﷺ».

ومن شواهد هذا محاورة أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب فى قتال مانعى الزكاة، فإنها كانت تدور على التفقه فى حديث «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله**» فعمر بن الخطاب يستدل على عدم قتالهم بقوله فى الحديث: «**فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم**». وأبو بكر الصديق يحتج بقوله فى الحديث: «**إلا بحقها**» ويقول: الزكاة من حق الأموال ولو لم يكونوا على يقين من أن السياسة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

لا يسوغ لها أن تخطو خطوة إلا أن يأذن لها الدين بأن تخطوها، ما أورد عمر بن الخطاب هذا الحديث أو أوجد أبو بكر عندما احتج عمر بالحديث فسحة فى أن يقول له: ذلك حديث رسول الله، وقتال مانعى الزكاة من شئون السياسة.

ومن شواهد أن ربط السياسة بالدين أمر عرفه خاصة الصحابة وعامتهم، قصة عمر بن الخطاب إذ بداله أن يضع لمهور النساء حداً؛ فتلت عليه امرأة قوله تعالى: ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ﴾ [النساء: ٢٠]، فمازاد على أن قال: رجل أخطأ وامرأة أصابت، ونبذ رأيه وراء ظهره ولم يقل لها: ذلك دين وهذه سياسة.

وكتب السنة والآثار مملوءة بأمثال هذه الشواهد، ولم يوجد حتى فى الأمراء المعروفين بالفجور من حاول أن يمس اتصال السياسة بالدين من الوجهة العلمية، وإن جروا فى كثير من تصرفاتهم على غير ما يأذن به الله، جهالة منهم أو طغياناً، وأراد الحجاج أن يأخذ رجلاً بجريمة بعض أقاربه، فذكره الرجل بقوله تعالى: ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، فتركه ولم يخطر على باله وهو ذلك الطاغية أن يقول له: ما تلوته دين، وما سأفعله سياسة.

وأما قيام أحكام الشريعة على أساس العدل، ورسمها للسياسة خططاً محكمة الوضع فسيحة ما بين الجوانب. فيما كتبناه بعنوان «الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان» ما يساعد على الإلمام بأصول الشريعة ومعرفة اتساعها لكل ما يحدث من الوقائع.

والذى نقوله فى هذا المقام إن السياسة لا تجد فى الدين ما يقف دون مصلحة، ولا تجد منه ما يحمل على إتيان مفسدة، لا تجد فيه هذا ولا ذاك متى وزنت المصالح والمفاسد بميزان العقل الراجح، وكان القابضون على زمامها من حصافة الرأى فى منعة من أن يطيش بهم التقليد أو إرضاء طائفة خاصة إلى أن يروا الفساد صلاحاً فيشرعوه، أو يروا الصلاح فى لون الفساد فينصرفوا عنه وليس من شأن الدين أن يراعى فيما يشرع الأهواء الجامحة وإن كانت أهواء الملأ الذين استكبروا، أو أهواء من فى الأرض جميعاً.

والرؤساء الذين لم يحافظوا في سياسة شعوبهم الإسلامية على أحكام الشريعة وآدابها، فوضعوا لهم قوانين جائرة، وأذنوا بمظاهر غير صالحة إنما أتوا من ناحية جهلهم بسماحة شرع الإسلام وسعة قواعده وسمو مقاصده، وإذا كان على غير هؤلاء الرؤساء تبعة فعلى أولي الحل والعقد من فضلاء الأمة وعلمائها إذا أهملوا علاجهم، ولم يبذلوا في دعوتهم إلى الاستقامة جهدهم.

أما الأحداث وأشباه الأحداث الذين لا يهدأ لهم بال ماداموا يسمعون اسم الدين يجري في لسان بعض الدول باحترام، فإن من نشأ في غير جد وأسرف في حب اللهو، لا يألف شريعة تأمر بالعدل، وتضع دون الأهواء الجامحة حاجزاً، فلا عجب أن يتآمروا بها، ويشيروا على السياسة بأن تبتعد منها، وإذا بلغ هؤلاء مأربهم في سياسة وقع زمامها في يد زائغ عن سبيل الرشد، فستذهب آمالهم خائبة في كل قطر يسوسه رئيس يقدر الإسلام قدره، ويجد من حوله علماء درسوا الشريعة بنباهة، ولا يخفى عليهم قصد من يتغنون بمدح الإسلام، وقبل أن تستريح حناجرهم يطعنونه في الصميم.

يقول أحد الكتّاب في مقال له: «إن جمع السلطتين في شخص واحد بدون تحديد لهما كان من أدعى الأمور إلى اختلال النظام».

لذا نقول: ليس في الإسلام سلطة دينية إلا على معنى أن الأمير ينفذ أحكام الشريعة المفصلة في الكتاب والسنة، أو المندرجة في الأصول المأخوذة منهما، وقاعدة الشورى التي قررها القرآن الكريم، وجرى عليها الخلفاء الراشدون كافلة بصحة الاجتهاد في الأحكام المستنبطة من الأصول، أما النظم التي تقوم بها الشورى على وجهها الصحيح فموكولة إلى الآراء الراجحة وما تقتضيه مصالح الأمم أو العصور، فالإسلام لم يترك السلطة التي وضعها في أيدي الأمراء مطلقة عن التقييد، وإذا استهان بعض الأمراء بقاعدة الشورى فإن التشريع تام والوزر على من لم يأخذ نفسه بما قرره الشرع العزيز.

وإذا كان بعض الأمراء هم الذين خرجوا عما حده الإسلام لسلطتهم الدينية

فحكمة الكاتب متى كان مسلمًا أن يقرر الحد الذى رسمه الإسلام ويبين للناس كيف تعداه أولو الأمر، ليطالبوهم بالوقوف عنده، لا أن يقول كلامًا مبهمًا ويبنى عليه المناداة إلى شهوة هى فصل الدين عن السياسة .

ويقول صاحب المقال : « وقد عاد اجتماع السلطتين بلاء عليهم إذ أصبحت الرياسة الدينية والدنيوية فى الواقع فى قبضة تلك الدول التى نازعتهم كما هو مشاهد الآن » .

لسقوط الشعوب الإسلامية فى قبضة تلك الدول التى نازعتهم أسباب ليس الجمع بين السلطتين منها فى شىء، ومن طبيعة سيطرة تلك الدول عليهم أن تتصرف فى شئونهم على طرق لا تحفظ حقوقهم ولا تراعى فيها مصالحهم، وهل ينقص هذا البلاء لو أن المسلمين أعلنوا فصل سياستهم عن الدين قبل أن يسقطوا فى أيدى هذه الدول المنازعة لهم؟!

حرص الكاتب على شهوة فصل الدين عن السياسة جعله يورد فى معرض التشويق إليها ما ليس بحق ولا يشبه أن يكون حقًا بأى طريق عرف الكاتب أن تلك الدول إذا وجدت السياسة فى يد والدين فى يد أخرى، سلبت ما فى اليد الأولى من سياسة وتركت اليد الأخرى تعمل فى حدود سلطتها بحرية!

ويقول الكاتب: « وإذا كان هذا أفاد المسلمين فى صدر التاريخ الإسلامى وأمر العالم لهم كما قدمنا إلا أنه كان بلاء بعد انقسام المسلمين إلى ممالك وفرق وشيع ومذاهب وأحزاب، ووجود دول أخرى تنازعهم السيادة على العالم » .

قد عرفت أن الأمير المسلم ليس عنده فى الواقع سوى سلطة واحدة هى تدمير شئون الأمة على مقتضى القوانين الشرعية والنظم التى لا تخالف شيئًا من أصولها، فتجريد الأمير من السلطة الدينية هو عزل له عن الإمارة فى نظر الشريعة، ومن لم يكن أميرًا فى نظر شارع الإسلام فليس بأمير فى نظر المسلمين، فالمسلمون لا يستطيعون أن يتصوروا أميرًا مجردًا من السلطة الدينية فضلا عن أن يجردوه منها بالفعل، ويرضوا بعد تجريده منها بالاستماع إليه والطاعة له، ولم تكن السلطة

الدينية بيد الأمراء فى يوم من الأيام بلاء على المسلمين وإنما بلاء المسلمين فى عدم قيام بعض أمرائهم بما توجبه هذه السلطة من نحو العدل والشورى والمساواة وإعداد القوة لتقرير الأمن وكف العدو الذى يبسط إليهم يده بالسوء.

قال صاحب المقال: «فكل مملكة احتضنت مذهبًا فى العقائد والفروع لتبقى وحدها منفصلة عن الممالك الأخرى، فبعد الانقسام أصبح كل أمير منهم إمامًا دينيًا وحاكمًا سياسيًا لقطره، فكانت النتيجة من هذا الجمع الإخلال بالنظام العام، وزالت الوحدة المقصودة من روح التشريع الإسلامى فتعددت الخلافة واختلت أحكامها بعكس الأمم الأخرى التى تنبهت إلى حكمة الفصل بين السلطتين فصار ذلك الفصل مصدرًا لفائدة الأمة وحمايتها من التلاشى والانهيار، فلم يضرها اختلاف الدول فيها لوجود الرياسة الدينية قائمة فى حدود سلطتها وتخصصها، ولذلك بقيت وحدتها خالدة فى عصمة من الانشقاق والتدهور اللذين أصابا الوحدة الإسلامية».

وقع تفرق فى الممالك الإسلامية، وأصبح كل أمير مستقلاً بالنظر فى أمور قطره فكانت النتيجة من استقلال كل أمير بمملكة مع تقاطع هذه الممالك وتدابرها انحلال الرابطة الإسلامية وزوال الوحدة المقصودة من التشريع الإسلامى.

فسبب اختلال النظام العام أو أحكام الخلافة انقسام الأمم الإسلامية إلى دول انقسامًا غير مصحوب بشىء من التحالف والتعاطف، أما أن كل أمير يرجع إليه النظر فى شئون رعيته الدينية فذلك من لوازم الإمارة فى الإسلام، فلم يكن لعد الأمير المستقل نفسه حارسا للدين فى مملكته الخاصة دخل فى اختلال النظام. فوهن المسلمين جاء من جهة استقلال كل أمير بطائفة من المسلمين استقلالاً يقطع بينها وبين الدولة العظمى صلة التناصر والتعاون لا من جهة أن رعاية الدين داخلة فى سياسة كل دولة.

ويقول الكاتب: «بعكس الأمم الأخرى التى تنبهت إلى حكمة الفصل بين السلطتين، فصار ذلك الفصل مصدرًا لفائدة الأمة وحمايتها إلخ». وهذا صريح فى

أن الكاتب يريد من الدول الإسلامية أن تفعل ما فعلته الدول الغربية من تجريد السياسة من الدين، وهو رأى لا يصدر إلا ممن يُكنُّ فى صدره أن ليس للدين من سلطان على السياسة، وهذا ما بيتته فئة يريدون أن ينقصوا حقيقة الإسلام من أطرافها حتى تكون بمقدار الديانة المسيحية، ثم يصبغوا هذا المقدار من بعد بأى صبغة أرادوا، فيذهب الإسلام، فلا القرآن نزل ولا محمد ﷺ بعث، ولا الخلفاء الراشدون جاهدوا فى الله حق جهاده، ولا الراسخون فى العلم سهروا فى تعرف الأصول من مواردها، وانتزاع الأحكام من أصولها.

يضرب الكاتب المثل بالأمم الأخرى ويزعم أن فصلها الدين عن السياسة كان مصدر فائدة الأمة وحمايتها من التلاشى والانهيار، ومن أجل فصلها الدين عن السياسة ووجود الرياسة الدينية قائمة فى حدود سلطتها لم يضرها اختلاف الدول فيها.

وَضرْبُ المثل على هذا الوجه أثرُ نظرة متسرعة، إذ ليس للرياسة الدينية فى الإسلام حد تنتهى إليه ثم يكون للأفراد أو الجماعات أن تفعل بعده ما تشاء، ولو كان فى دين تلك الدول قوانين مدنية ونظم سياسية، وقامت كل دولة على تنفيذ تلك القوانين والنظم داخل حدودها، أفيكون مجرد رعايتها لما جاء به دينها سبباً لانتشار مرض التقاطع بينها!

ليس فى طبيعة ربط السياسة بالدين التقهقر والتنازع إلا أن يكون فى تعاليم الدين ما يسير بالناس إلى وراء، أو ما يغرى بينهم العداوة والبغضاء، وليس فى دين الإسلام إلا ما يصعد بالأمم متى شاءت الصعود إلى السماء، وليس فيه إلا ما يدعو إلى الائتلاف والتعاون على أن تكون كلمة الحق هى العليا.

قال صاحب المقال: «ولنضرب لذلك مثلاً وحدة الكنيسة الكاثوليكية فإنها على الرغم من اختلاف الدول الكاثوليكية بقيت لها زعامتها وشعورها بقوة فكرتها، وقد رأينا أثرها فى الحروب الصليبية المستمرة بل وفى كل الحوادث التى تلتها التى تألبت فيها أوروبا على الأمم الإسلامية، فإن للكنيسة والجمعيات الدينية

المختلفة التى تستمد سلطتها منها أثرها الفعال فى بقاء وانتشار المسيحية وتأثيرها فى سياسة العالم».

ليس فى الإسلام سلطة دينية تشبه السلطة الكاثوليكية، والسلطة الدينية فى الإسلام لكتاب الله وسنة رسول الله: ﴿**فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾ [النساء: ٥٩].

وعلى العلماء البيان وعلى الأمراء التنفيذ، فإن أراد الكاتب من السلطة البيان فالبيان حق لكل عالم تفقه فى أصول الشريعة ومقاصدها، فلا يختص به عالم دون آخر، ولا يعد بيان العالم الذى تعينه الأمة للبيان أرجح من بيان غيره إلا أن تكون حجته أقوى، وإذا كان الأمر للحجة فما معنى تعيين شخص ليكون مصدر البيان فى كل حال؟ فإن أراد من السلطة التنفيذ فليس له معنى سوى أن تَكِلَ الأمة إلى شخص القيام بتنفيذ أحكام الدين على أن تكون هى يده التى ينفذ بها، وسلاحه الذى يدافع به من يعارض فى التنفيذ، وذلك معنى الخلافة المعروفة فى الإسلام.

قال صاحب المقال: «ولو رزق المسلمون رجالاً ينظرون بعين الناقد البصير – من قبل قرنين – وفصلوا الدين عن السياسة لكان للإسلام اليوم من الشأن والسيادة فى الممالك التى اغتصبتها الدول الأوروبية ما لا يقل عما للفاتيكان، وما كان خطر الاستيلاء الأجنبى عليهم عظيمًا».

كلام يروج ولكن فى غير هذا الوادى، ويتقبل ولكن بعقول لم تستنر بهداية، يأسف صاحب المقال على الشأن والسيادة اللذين فاتا المسلمين لعدم فصلهم الدين عن السياسة من قبل قرنين، ويرى أن إبقاءهم الدين فى جانب السياسة كان سببًا فى أن صار خطر الأجنبى عليهم عظيمًا.

فصل الدين عن السياسة هدم لمعظم حقائق الدين ولا يقدم عليه المسلمون إلا بعد أن يكونوا غير مسلمين، وليست هذه الجناية بأقل مما يعتدى به الأجنبى على الدين إذا جلس خلال الديار، وقد رأينا الذين فصلوا الدين عن السياسة علنًا كيف صاروا أشد الناس عداوة لهداية القرآن، ورأينا كيف كان بعض المبتلين بالاستعمار

الأجنبى أقرب إلى الحرية فى الدين ممن أصيبوا بسلطانهم، ونحن على ثقة من أن الفئة التى ترتاح لمثل مقال الكاتب لو ملكت قوة لألغت محاكم يقضى فيها بأصول الإسلام، وقلبت معاهد تدرس فيها علوم شريعته الغراء إلى معاهد لهو ومجون، بل لم يجدوا فى أنفسهم ما يتباطأ بهم عن التصرف فى مساجد يذكر فيها اسم الله تصرف من لا يرجو لله وقاراً.

يقول الكاتب: «لو فصلوا الدين عن السياسة ما كان خطر الاستيلاء الأجنبى عليهم عظيماً».

يقول هذا كأنه لا يدرى أن السياسة الطاغية لا تهاب إلا حديداً أشد بأساً من حديدها، وناراً أشد حراً من نارها، فليس من المعقول أن تردها عن قصدها سلطة دينية ليس فى كنانتها سهم، ولا فى كفها حسام، أما قياسه حال السلطة الدينية الإسلامية - على فرض صحة إقامتها - بحال السلطة الكاثوليكية فى احترام مؤسساتها وإطلاق يدها فى عمل يرفع أهل ملتها، فمغالطة أو غفلة عن الفرق بين سلطة دينية يجد فيها الاستعمار مؤازرة أو موافقة على أى حال، وسلطة دينية قد يكون فى بعض أصولها ما لا يلائم طبيعة الاستعمار.

ولو ربط المسلمون سياستهم بالدين من قبل قرنين ربطاً محكماً لم تجد يد الغاصب للعبث بحقوقهم مدخلاً، ولو أعلنوا فصل الدين عن السياسة لظلوا بغير دين، ولوجد فيهم الغاصب من الفشل أكثر مما وجد، فليست مصيبة المسلمين فى تركهم السياسة مربوطة بالدين كما زعم الكاتب. وإنما هى ذهولهم عن تعاليم دين لم يدع وسيلة من وسائل النجاة إلا وصفها، ولا قاعدة من قواعد العدل إلا رفعها.

ويقول صاحب المقال: «فإن أعظم ما أصاب المسلمين من المصائب إنما هو فقد الرياسة الدينية بعد أن فقد منهم الاستقلال وحرمانهم من بقائها درعاً حامياً وسداً منيعاً من تسرب المستعمرين باسم السياسة إلى السيطرة على شعور وضمائر الأمم الإسلامية حتى كاد يختل بناء الدين، ويتنكر المسلمون تعاليمه الحقة».

حقيقة فقد الرياسة الدينية من أعظم ما أصاب المسلمين، وهى الرياسة التى فى

إحدى يديها هداية، وفى أخراهما قوة، أما الرياسة التي لا يتعدى صاحبها أن يكون واعظًا عامًا يدعو الناس إلى الصلاة والصيام والحج إن استطاعوا إليه سبيلا، فلم تفقد بعد ولم يحرم المسلمون منها، ولاتزال باقية ولكن فى أشخاص متفرقين فى البلاد لا فى شخص واحد كما يرغب صاحب المقال، ولم نذكر الزكاة فى قبيل ما يدخل فى الوعظ مخافة أن يكون الكاتب قد انتزعها من أحضان الدين وجعلها فى قسمة السياسة.

يربط الكاتب الوقائع ولكن بغير أسبابها، ويصل النتائج ولكن بغير مقدماتها، لنفرض أن المسلمين اتفقوا على ضلالة فصل الدين عن السياسة، وأقاموا رياسة دينية لا جند لها ولا سلاح، أمن المعقول أن تكون هذه الرياسة درعًا حاميًا، وسدًا يمنع من تسرب المستعمرين إلى السيطرة على شعور الأمم الإسلامية وضمائرها؟!

إذا سيطر المستعمر على الشعور والضمائر فإن أكبر مساعد له على هذه السيطرة قبضه على زمام التعليم العام حيث يسير به على منهج يخرج به الناشئ مزلزل العقيدة غائبًا عن سماحة الدين وحكمة التشريع، ومعظم النشء مأخوذون بحاجات أو دواع إلى أن يترددوا على مدارس الحكومة.

فإن أراد الكاتب أن يكون لتلك السلطة الدينية فضل إقامة مؤسسات تغنى عن مدارس التبشير ومستشفياتهم التى يتخذونها وسائل للسيطرة على شعور المسلمين وضمائرهم، قلنا: فى يد المسلمين أن يقيموا مؤسسات تحاكى تلك المؤسسات فينقذوا أبناءهم من شر مؤسسات الأجنبى، ولا شىء يضطرهم إلى موبقة فصل الدين عن السياسة، وابتداع رياسة دينية لم ينزل الله بها من سلطان.

بسط صاحب المقال لسانه على «الفقهاء المسلمين» كما يبسطه فيهم من لم يطالع كتبهم، فغلا فى وصفهم بالجمود حتى زعم أنهم «لم يقولوا لنا كيف يجتهد الفقيه» وتمادى فى هذه المزاعم إلى أن قال: «ووجد من الفقهاء المزيفين من جوز إمامة المغتصب الذى يتولى ولاية الأمة بغير رغبتها وإرادتها».

يقول الفقهاء: تنعقد الإمامة ببيعة أهل الحل والعقد من العلماء والرؤساء ووجوه الناس، وهذا هو الأصل الذى ينبغى أن تكون عليه الإمامة فى كل حال، وأجازوا للإمام متى خشى التنازع فى الإمامة من بعده ورأى فى أحد رجاله الكفاية، أن يعهد إليه بها قطعًا للفتنة، ولم يجيزوا لأحد أن يتولى أمرها دون أن يبايعه أهل الحل والعقد، أو يعهد إليه بها الإمام، وإن قام مسلم ذو قوة فتولاها بالقهر والغلبة، فإن كان جامعًا لشروط الولاية من نحو العلم والعدل والاستقامة كان إقراره أسلم عاقبة من منازعته، وليس فى إقراره من بأس ما تحققت فيه شروط الولاية. فالفقهاء يجيزون ولاية المتغلب على معنى أنه بعد القهر والغلبة يعد إمامًا لتحقق شروط الإمامة فيه، ولأن منازعته تفضى إلى فتنة ليسوا فى حاجة إلى إثارتها.

فإن فقد منه بعض شروط الولاية منتخبًا كان أو معهودًا إليه، أو متغلبًا، فمن الشروط ما يكون فقده مسقطًا للولاية بنفسه كالارتداد عن الدين، واختلال العقل، ومنها ما يستحق به العزل بإجماع كالفسق، ومن الفقهاء غير المزيفين من يعد الفسق فى الشروط التى تسقط ولايته بنفسها ولا تحتاج إلى إعلان أهل الحل والعقد بخلعه، أما القيام على الفاسق وإبعاده من مقر الولاية باليد، فموكول إلى اجتهاد أهل الحل والعقد، وهم الذين يسلكون ما تقتضيه الحكمة وتستدعيه مصلحة الأمة.

هذا ما يقوله الفقهاء أخذًا من أصول الشريعة ورعاية لمقاصدها فى الاستنباط، وليس فيه تفريط فى المصلحة العامة، ولا ما يمس مقام الولاية العظمى بسوء.

ooooo

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٤

العلماء وأولو الأمر

يقصد الإسلام لأن يخرج للناس أمة تجلها القلوب، وتهابها العيون، وإنما تجلها القلوب وتهابها العيون على قدر اعتصامها بهدى الله، وعلى قدر ما تأخذ به من مظاهر القوة والمنعة.

ولا تعتصم الأمة بهدى الله، ولا تظهر فى قوة ومنعة إلا أن يقيض الله لها علماء، يملأ الخوف من الله قلوبهم حتى لا يدع فيها للخوف من مخلوق مثقال ذرة، وتظفر مع هذا بولاة يحرصون على أن يقيموا العدل، ويستقيموا على طريق الرشد أكثر من حرصهم على ما تشتهى أنفسهم وتلذ أعينهم من متاع هذه الحياة.

لهذا عنى الإسلام بأن يكون فى الأمة علماء لا يكتمون عن أحد نصائحهم وأمراء يحبون أن يسمعوا كلمة الحق تتردد فى مجالسهم.

والتاريخ الصادق يحدثنا أن بلاد الإسلام قد حظيت بعلماء يزهدون فى زهرة الحياة الدنيا، ويبيعونها بكلمة حق يقولونها ابتغاء أن يكون لها فى إصلاح حال السلطان أثر كبير أو صغير.

وحظيت برؤساء يرتاحون لوعظ العالم الأمين، ويسيغونه إساغة الظمآن للماء القراح، وبمثل هؤلاء العلماء والأمراء تسعد الأمة ويعظم شأن الدولة.

والتاريخ الصادق قد حدثنا أيضًا أن فى أهل العلم من فتنته الدنيا بزخرفها فانطلق يجرى وراءها لا يراعى للحق عهداً، ولا لجانب الله حرمة. وحدثنا أن فى الرؤساء من يكون نصيب اللهو والانهماك فى الشهوات منه، أكثر من نصيب الجد والرشد.

وإذا حدثنا التاريخ عن أمة ذلت بعد عزة، أو دولة سقطت بعد قوة، فتبعة ذلك الذل أو السقوط، ملقاة على رقاب أولئك العلماء الذين لا ينصحون أو الرؤساء الذين لا يحبون الناصحين.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

نلقى نظرة على تراجم العلماء، فنجد حالهم مع الأمراء يجعلهم على ثلاثة أصناف:

أولهم: عالم يضع نصب عينه رضا الله ويهمه أن يسير أولو الأمر فى الناس على استقامة، فيأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر بمرأى ومسمع منهم، غير مبال بأن يقع أمره أو نهيه لديهم موقع الرضا والقبول، أو موقع الكراهة، والإعراض عنه.

قيل لمالك: إنك تدخل على السلطان وهو يظلم ويجور؟ فقال: يرحمك الله، فأين يكون الكلام فى الحق!

والعلماء الذين يقومون بواجب النصيحة للأمراء يختلفون فى أساليب وعظهم، فمنهم من يسلك طريق الصراحة، ويشافه الأمير بإنكار ما يريد إنكاره على وجه التعيين، حيث يرى أن طريق التصريح والتعيين أبلغ وأقرب إلى نجاح الدعوة.

كان السلطان سليم أمر بقتل مائة وخمسين رجلاً من حفاظ الخزائن، فبلغ ذلك الشيخ علاء الدين الجمالى، فدخل على السلطان وقال له: وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان، وهؤلاء الرجال لا يجوز قتلهم شرعاً، فعليك بالعفو عنهم. فغضب السلطان سليم، وقال للشيخ: إنك تتعرض لأمر السلطنة وليس ذلك من وظيفتك. فقال: لا، بل أتعرض لأمر آخرتك، وإنه من وظيفتى فإن عفوت فلك النجاة، وإلا فعليك عقاب عظيم. فانكسرت سورة الغضب فى نفس السلطان، وعفا عن أولئك الرجال الذين كان قد أمر بقتلهم.

ومن العلماء الحكماء من يسلك فى وعظ الأمراء طريقًا غير صريح، إذ يراه كافيًا فى إبلاغ النصيحة. قدم الشيخ أبو بكر بن سيد الناس حاضرة تونس فى عهد المنتصر بالله، ولما دخل على الأمير أمره أن يقرأ بين يديه آية من القرآن، فقرأ ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩] فاستحسن المنتصر قراءته وقصده، وكان ذلك سبب حظوته، ورفعة منزلته عنده.

ومن العلماء من يأخذ فى نصح الأمراء بالعزيمة، ويوطن نفسه على احتمال كل

ما يمكن أن يلاقيه من أذى. وقد صبر رجال من كبار أهل العلم أيام فتنة القول بخلق القرآن على ما أصابهم فى الدين من أذى، واحتملوا أشد العذاب، مثل نعيم بن حميد الذى توفى فى سجن الواثق، وأحمد بن نصر الخزاعى الذى قتل فى عهد الواثق، وأحمد بن حنبل الذى سجن وضرب فى عهد المعتصم، ومثل أبى يعقوب البويطى الذى حمل مقيداً من مصر إلى العراق حتى مات فى أقياده.

ومن العلماء من يرى أن له فيما يلحقه من الأذى عذراً فى السكوت وعدم التعرض للسلطان بأمر أو نهى، ويصح أن يقال: إن هؤلاء قد أخذوا بالرخصة وليس لهم من قوة الصبر على الأذى ما يحملهم على أن يأخذوا بالعزيمة، ويجاهروا بالدعوة إلى حق أو إصلاح.

وإذا جاز للعالم أن يسكت عن الأمر أو النهى اتقاء لأذى لا طاقة له به، فليس له أن يكتم الحق لمجرد الخوف من أن يجفوه السلطان، أو يبعده من مجلسه أو يحرمه من ولاية منصب.

ثانيهم: عالم يذهب مذهب العزلة والبعد من ساحات الأمراء حتى لا يقف بين يدى ذى نخوة وتعاظم، ومن هؤلاء من يقول:

إن صحبنا الملوك تاهوا علينا ... واستخفوا كبراً بحق الجليس

فلزمنا البيوت نستخرج العلـ ... ـم ونملا به بطون الطروس

وملاقاة النخوة والتعاظم ليست عذراً يبيح للعالم القعود عن إسماع الأمراء النصيحة؛ فقد دخل موسى - عليه السلام - على فرعون ليدعوه إلى الحق وكان فرعون متكبراً جباراً.

وقد يبتعد العالم عن الأمراء الذين لا يعنون بتنقية ساحتهم من أقذاء المنكرات، كراهة أن يشاهد منكراً، وقد يكون هذا الابتعاد حكمة متى عرف العالم أنه لا يستطيع النصح بإزالة ذلك المنكر، وأنه لا يجتنى من رؤيته إلا حسرة وأسفاً.

وقد يكون الاقتراب خيراً من الابتعاد، متى قصد بالاقتراب إيصال النصيحة

إليهم عسى أن تجد أذنًا واعية أو نفسًا زاكية. وكان أبو الحسن الأشعرى يقصد إلى مجالس المعتزلة ليناظرهم، ويقول: هم أولو رياسة منهم الوالى والقاضى، ولرياستهم لا ينزلون إلى، فإذا لم أسر إليهم، فكيف يظهر الحق، ويعلمون أن لأهل السنة ناصرًا بالحجة؟

ثالثهم: عالم يتردد على ساحة الأمراء، ويميل مع أهوائهم وربما بلغ به الإغراق فى ابتغاء مرضاتهم أن يحرف أحكام الله عن مواضعها.

ومثل هذا الصنف من العلماء لا يرجى منهم أن يبسطوا ألسنتهم إلى السلطان بنصيحة، ولهذا الصنف جنايات على الدين وعلى الأمة وعلى الأمراء أنفسهم، أما جنايتهم على الدين فلأنهم يختلقون أحكامًا يلصقونها بالدين وليست من الدين، وأما جنايتهم على الأمة فلأنهم يسهلون على الولاة السير بالسياسة فى طريقة عمياء، وأما جنايتهم على الأمراء أنفسهم، فلأن الأمة إنما تفتح صدورها لمحبة أمرائها، وتبذل لهم حسن الطاعة من جميع أفئدتها، متى ساروا فى رشد، وساسوا الناس بقوانين العدل.

ونحن نعلم أن العصور تتغير، وأن مقتضياتها تختلف، ولكن الحق هو الحق، والكرامة هى الكرامة. فلا يأتى عصر يفقد فيه الحق جلاله، ولا يأتى عصر يبيح للعالم أن يداهن السلطان، ولا أن يغمض عن شىء من كرامته، وإنما هى التربية الدينية الصحيحة ترى العالم وجه الحق مشرقًا فلا يرضى إلا أن يحميه بيده أو لسانه، وتريه منزلته شامخة الذرى فيأبى أن ينزل عنها، ولو وضعت الشمس فى يمينه والقمر فى يساره.

يحدثنا التاريخ القديم أن بعض المنتمين إلى العلم كانوا يتملقون أولى الأمر من المسلمين وقد يفتونهم بغير ما أنزل الله، ويحدثنا التاريخ غير القديم أن من المنتمين إلى العلم من يتملق بعض المخالفين الغاصبين، ويرضى أن يكون جسرًا يعبرون به إلى قضاء مآربهم التى يكيدون بها الإسلام والمسلمين.

وقد يسمى هذا العالم تملقه للمخالفين الغاصبين مداراة ليقضى بعض حاجات

شخصية، وربما زعم أنه يقضى بهذا التملق مصالح وطنية، والواقع أن اتصال العالم بالمخالفين الظالمين، وهو يستطيع أن لا يتصل بهم، وصمة فى عرضه لا يغسلها ماء وجناية على الدين خاصة والأمة عامة. أما أنه وصمة فى عرض ذلك العالم، فلما عرف من أن المخالف الغاصب لا يقبل بوجهه ولا يضع يد الصداقة إلا فى يد من اختبر سرائرهم، ووثق من إخلاصهم له، وأما أنه جناية على الدين فلأن ذلك الاتصال الآخذ اسم الصداقة خروج عن الدين الذى ينهى عن موادة أعدائه، وأما أنه جناية على الأمة عامة فلأن هذا العالم لا يتحامى أن يرضى أولئك المتغلبين المخالفين بالمساعدة على أعمال يفسدون بها على الأمة أمر دينهم أو دنياهم.

ونلقى بعد هذا نظرة فى حال الأمراء مع العلماء الذين يجاهرونهم بالنصيحة أو يؤثرون الحق على أهواء الأمراء، فنجدهم ثلاثة أصناف:

أولهم: أمير تلقى إليه النصيحة فيأخذه التعاظم بالإثم. ويقابل الناصحين بوعيد أو بعقوبة المجرمين.

وقد يدعو بعض الأمراء بعض العلماء إلى حرام، فلا يجيبه إلى ذلك فيناله بالعقوبة، ويتلقاها العالم بصبر جميل.. دعا أحمد بن طولون القاضى بكار بن قتيبة لخلع الموفق من ولاية العهد للخلافة فامتنع، فحبسه، ومازال يكرر عليه القول وهو لا يجيبه إلى ذلك حتى مرض ابن طولون وأمر بنقل بكار من السجن إلى دار اكتريت له.

ثانيهم: أمير يجد فى صدره الحرج من إسماعه الموعظة تأتى على غير ما يهوى، ولكنه يهاب مكان العالم فلا يقابله بأذى.

استدعى أبو جعفر المنصور عبدالله بن طاوس بن كيسان ومالك بن أنس، فلما دخلا عليه أطرق ساعة ثم التفت إلى ابن طاوس، وقال له حدثنى عن أبيك، فقال: حدثنى أبى أن أشد الناس عذابًا يوم القيامة رجل أشركه الله تعالى فى سلطانه فأدخل عليه الجور فى حكمه. فأمسك أبو جعفر ساعة، قال مالك: فضممت ثيابى خوفًا أن يصيبنى دمه. ثم قال له المنصور: ناولنى تلك الدواة، قال ذلك

ثلاث مرات، فلم يفعل، فقال له: لم لا تناولني؟ فقال: أخاف أن تكتب بها معصية، فأكون قد شاركتك فيها! فلما سمع ذلك قال: قوما عني! قال: ذلك ما كنا نبغي! قال مالك: فمازلت أعرف لابن طاوس فضله من ذلك اليوم.

ثالثهم: أمير تأخذه اليقظة وصفاء الفطرة إلى طاعة الحق وشكر الدعاة إليه.

دخل عز الدين بن عبدالسلام إلى السلطان أيوب نجم الدين وقال له: ما حجتك عند الله إذا قال لك: لم أبق لك ملك مصر ثم تبيح الخمور! فقال: هل جرى هذا؟ قال: نعم، الحانة الفلانية تباح فيها الخمور وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب فى نعمة هذه المملكة! فقال: أنا ما علمته، ثم أمر السلطان بإبطال تلك الحانة.

ودخل ابن شهاب على الوليد بن عبدالملك فسأله الوليد عن حديث: إن الله إذا استرعى عبداً الخلافة كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات، فقال له: هذا كذب، ثم تلا: ﴿**يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ**﴾ [ص: ٢٦] الآية. فقال الوليد: إن الناس ليغروننا عن ديننا (١).

ولما ولى عمر بن عبدالعزيز الخلافة كتب طاوس بن كيسان إليه: «إن أردت أن يكون عملك كله خيراً فاستعمل أهل الخير» فقال عمر: كفى بها موعظة.

ومن الأمراء الذين كانوا يوسعون صدورهم لنصح العلماء عبدالرحمن الناصر، فقد كان القاضى منذر بن سعيد يواجهه بإنكار ما يراه من أعماله منكراً، كخطبته التى ألقاها على مسمع منه فى إنكاره عليه الإسراف فى الإنفاق على بناء القصور وزخارفها، ومن مواقف منذر بن سعيد فى هذا السبيل دخوله على الناصر ومخاطبته بالبيتين:

يا بانى الزهراء مستغرقًا ... أوقاته فيها أما تمهل
لله ما أحسنها رونقًا ... لو لم تكن زهرتها تذبل

ولم يزد الناصر على أن قال: إذا سقيت بماء الخشوع، وهب عليها نسيم التذكار، لا تذبل إن شاء الله.

(١) فتح البارى ص ٩٣ جـ١٣.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولقبول الأمراء لنصح العلماء فضل لا يقل عن فضل قيام العلماء بنصيحة الأمراء، فإن النفوس ولاسيما الشاعرة بما لديها من قوة ومقدرة على البطش، شأنها النفور من أن تؤمر بمعروف أو تنهى عن منكر، تتخيل أن ذلك الأمر أو النهى يتضمن نسبتها إلى الجهل أو القصد إلى ارتكاب أمر قبيح فإن تلقى الأمير نصيحة العالم الأمين، وإساغتها على ما فيها من مرارة، دل ذلك على أنه يجل الحق، ويبتغى الخير ويريد أن يفتح لحرية القول بابًا طالما أغلقه المستبدون الظالمون، ولا تبلغ الأمم مراقى المنعة والسيادة إلا أن يكون باب الحرية مفتوحًا فى وجوه الدعاة المصلحين.

يقدم العالم الأمين على نصح ذى السلطان غيرة على الحق، وحرصًا على أن يكون ذو السلطان كامل السيرة طيب السمعة، وكثير من الأمراء من يفهم وعظ العلماء على هذا القصد، ويكون فى نفسه نزعة إلى الاستقامة فيتلقى الإرشاد بارتياح وشكر.

الأمراء المستقيمون يرتاحون لوعظ أهل العلم، ومنهم من يطلب من أتقياء العلماء أن يزودوه بالوعظ، كما كان عمر بن عبدالعزيز وأمثاله يفعلون ذلك.

يعظ العلماء المستقيمون الأمراء، فيساعدونهم على أن يكونوا أمراء راشدين، ويستطيع الأمراء أن يلاقوا العلماء بما يساعدهم على أن يكونوا علماء مصلحين، وسبيل هذه المساعدة أن يجلوا العلماء ويفهموهم أنهم يجلونهم لعلمهم واستقامتهم، ثم إذا استفتوهم فى واقعة طلبوا منهم أن يبينوا لهم حكم الله الذى تدل عليه نصوص الشريعة أو أصولها دلالة تطمئن إليها النفوس، وإذا استبانوا أن عالمًا فقد الخشية من الله، وأخذ يبتغى مرضاتهم بتحريف النصوص أو تلقط الأقوال الساقطة، عدوه فى جماعة المنافقين، وأشعروه بأن مثل هذا النفاق لا يزيده عندهم إلا حقارة ثم كانوا منه على حذر.

وبمثل هذه السيرة يصل الأمير العادل إلى أن يرى المعاهد العلمية والمحاكم الشرعية، طافحة بعلماء تزدهر بهم مملكته ازدهار السماء بالكواكب النيرة.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

٥

محاكاة المسلمين للأجانب

قد يوجد فى أفراد البشر من يولد فى بيئة عفاف وحكمة، وتتولاه يد التربية الحازمة بالتنبيه لمواقع الهنات، فتكون سيرته كالسبيكة الخالصة لا يجد فيها الناقد مغمزاً، وليس على وجه المعمورة اليوم أمة استوفت خصال الكمال وبلغت فى رقيها المدنى أن يفتح الناقد الألمعى فيها عينه فلا يرى إلا أعمالا مرضية، أو عادات مقبولة، فإذا وجد فى الأفراد من يفضل ببراءته من العيوب جملة فإن الأمم إنما تفضل بغلبة خيرها على شرها، ورجحان محامدها على مذامها، وإذا وجد فى الأفراد من يأذن لك أساتذة التربية فى أن تقتدى بسيرته على الإطلاق، فليس فى الأمم أمة يقول الرجل الحكيم لشعبه الناهض خض خوضها فى كل واد، وشابهها مشابهة الغراب للغراب.

هذه حقيقة قد تغيب عن أذهان فئة من الشعوب الآخذة فى النهوض، فإذا رأوا أمة ذات معارف وسطوة، تهافتوا على محاكاتها فى غير تدبر واحتراس، وربما سبقوا إلى ما بعد من سقط متاعها ومستهجن عاداتها، فصبوا هممهم فى تقليدها فيه، فزادوا شعبهم وهناً على وهن، وكانوا كالعثرات تعترضه فتعوقه عن السير، أو تجعل سيره فى الأقل بطيئاً.

ومتى كثر فى الشعب أمثال هؤلاء الذين لا يميزون فى محاكاتهم السيئة من الحسنة، فقد الشعب هدايته الدينية، وتجرد من مميزاته القومية ولا يفلح شعب نكث يده من الدين الحق، ولا يعتز شعب نظر إلى قوميته بازدراء.

وقد تعرض ابن خلدون فى مقدمته لهذه المحاكاة من حيث إنها طبيعة اجتماعية فقال: «إن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، والسبب فى ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه، إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعى، إنما هو لكمال الغالب».

ثم قال: « ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب فى ملبسه ومركبه وسلاحه، فى اتخاذها وأشكالها، بل فى سائر أحواله »، ثم قال: « وانظر إلى كل قطر من الأقطار كيف يغلب على أهله زى الحامية وجند السلطان فى الأكثر، لأنهم الغالبون لهم حتى إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها، يسرى إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير، كما هو فى الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة، فإنك تجدهم يتشبهون بهم فى ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتى فى رسم التماثيل فى الجدران والمصانع والبيوت حتى لقد يشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء، والأمر لله ».

وهذا الذى قرره ابن خلدون طبيعة من طبائع الأمم الضعيفة حيث توجد بجوار أمة قوية، ولكنها طبيعة عرفت علتها، فيمكن لزعماء الأمة الضعيفة أن يعالجوا العلة، فتسلم الأمة من هذه الطبيعة، ويمكنها أن تتحفظ من الاقتداء بالغالب إلا فيما كان من وسائل الرقى والسيادة. يذكر ابن خلدون أن العلة فى هذا التقليد إما ما وقر فى صدر الأمة من تعظيم الغالب، وإما ما تغالط به من أن غلب الغالب ليس بعصبية ولا قوة بأس، وإنما هو بما انتحله من المذاهب والعوائد، وكلتا العلتين إنما تتفشى فى الأمة الملقى حبلها على عاتقها، تمشى على غير بصيرة، ولا تقصد إلى غاية نبيلة، فإذا قيض الله للأمة المغلوبة رجالاً يعالجون ما عساه أن يطغى فى صدرها من تعظيم شأن الغالب، أو يوقظونها إلى ما تغالط به من أن غلب الغالب بما انتحله من المذاهب والعوائد، أنقذوها من عملية التقليد الذى تتجرد به الآداب الدينية والمميزات القومية، والناشئ الذى يدرس تاريخ الإسلام، وما كان لرجاله من مجد شامخ وسلطان كريم، لا يكبر فى عينه سلطان الغالب إلى أن ينحدر فى التشبه به فى كل حال.

يذكر الكتّاب والخطباء تقليد المسلمين للأجانب، ومنهم المسرفون فى الدعوة إلى التقليد، ومنهم الراشد، وإليك كلمة تعرض عليك الرأى الذى يقف عند حدود الدين، ويرى حق القومية، ويقدر المصالح، ويحرص على أن لا يفوت الأمة منها مثقال ذرة.

○ **محاكاة المسلمين للأجانب تظهر فى خمسة وجوه:**

أحدها: محاكاتهم فيما يشتمل على مصلحة دنيوية، ولا يخالف حكمًا شرعيًا أو أدبًا دينيًا، وهذا مما تأذن الشريعة فى الأخذ به، ويتأكد العمل به على قدر ما فيه من مصلحة، وليس من المعقول أن تنهى الشريعة عما فيه خير لمجرد أن قومًا من غير المسلمين سبقوا إليه.

ويدخل فى هذا مجاراتهم فى العلوم والصنائع، ووسائل الدفاع، والمرافق التى يخف بها جانب عظيم من عناء هذه الحياة، ومن شواهد هذا ما فعله النبى ﷺ من حفر الخندق حول المدينة المنورة، وقد أشار به سلمان الفارسى، وهو من مكايد الفرس فى حروبها.

وفى أوروبا اليوم نظم إدارية نزنها بقاعدة رعاية المصالح، فنرى إجراءها فى بلادنا من قبيل إصلاح الإدارة.

خذ العلم حتى من كفور ولا تقم دليـــلا على شىء بمذهب أهله

ولا أسوق فى هذا الوجه محاكاتهم فى بعض أخلاق انتظمت بها مدنيتهم، وارتفعت بها على كثير من البلاد رايتهم، كالصبر على المكاره، والإقدام على العظائم، وقوة رابطة الاتحاد والتعاون بين أفرادهم وجماعاتهم، فإن الإسلام قد أرشد إلى جميع الأخلاق التي تزدهر بها المدنية وتستحكم بها عرا السيادة، فإذا ظهر المسلمون بخلق عظيم فإنما يقتبسونه من حكمة دينهم وسيرة عظمائهم.

ثانيها: محاكاتهم فى شىء من شعائر دينهم، وهذه المحاكاة إن كانت عن رضا دلت على نبذ الإسلام، ولاسيما محاكاة تقع منه مرة بعد أخرى، فإن قامت قرينة على أنه يقصد الاستهزاء بمن يقلدهم، فهى سفاهة وعصيان، فالذين يرسلون أبناءهم لمدارس أجنبية تحتم على كل تلميذ الاشتراك فى القيام بشعائرهم الدينية، إنما يلقون بأفلاذ أكبادهم فى حفرة من النار.

ثالثها: محاكاتهم فى شىء لم يكن من شعائر دينهم، ولكنه مما نهى عنه الإسلام على وجه الحرمة كتقليدهم فى اختلاط الرجال بالنساء ورقص الفتيان مع الفتيات، أو نهى عنه على وجه الكراهة كتقليدهم فى تناول الطعام باليد

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الشمال(١) ،أو إطالة بعض الأظفار، والمحاكاة التى توقع فى محرم فسوق عن أمر الله، والتى توقع فى مكروه يخسر بها صاحبها قسطًا من ثواب الله، هذا إذا كانت المحاكاة عن مجرد هوى، فإن كانت عن اعتقاد أن ما يفعله الأجنبى أحكم وأليق زلزلت أصل الإيمان، والتحقت بمحاكاته فيما هو من شعائر ملته، وعلى هذا الوجه يجرى حكم استبدال قوانينهم الوضعية بأحكام الشريعة الغراء، نحو القوانين المبيحة لما حرم الله من الربا والزنا . . إلخ .

ومن الأمراض التى سرت إلى المسلمين على طريق التقليد للأجانب موبقة الانتحار، فقد يتخيل صغير العقل حيث يقع فى بلاء أن الانتحار طريق يصح أن يسلك للتخلص من البلاء، متكئًا فى هذا الخيال على أن كثيراً من رجال الدول أو الأمم الكافرة يرتكبونه وسيلة إلى الخلاص من مكاره تصيبهم، أو مكاره يخشون إصابتها .

ومن هذا الباب محاكاتهم فى إغلاق محال التجارة فى يوم الأحد أو السبت فقد ثبت أن النبى ﷺ قصد إلى صوم يوم السبت والأحد ليخالف أهل الكتاب فى جعلهما يومى عيد، لأن صوم اليوم يبعده من أن يكون عيداً . نقرأ فى سنن أبى داود أنه ﷺ كان يصوم يوم السبت والأحد، يتحرى ذلك ويقول: «**إنما يوما عيد الكفار وأنا أحب أن أخالفهم**» وأخرج الإمام أحمد والنسائى «أنه ما مات ﷺ حتى كان أكثر صيامه السبت والأحد» .

فإغلاق المسلم لمحل تجارته يوم الأحد أو السبت يناقض قصد رسول الله ﷺ إلى صوم هذين اليومين، لأن إغلاق محل التجارة أو الصناعة فى يوم معين لا يلتزمه إلا من شأنه أن يعتقد أن ذلك اليوم حقيق بأن يتخذ عيداً .

ومن محاكاتهم فيما يحرمه الشرع وينبذه العقل عُرى النساء، والخلاعة والمجون وحفلاتُ الرقص الداعر، وتبادل النساء فى السهرات الحمراء حتى تذبح الفضيلة على أعتبا الخنا .

---

(١) ليس من الصعب على من يريد المحافظة على أدب إسلامى أن يعود يسراه قطع اللحم ونحوه بالسكين، ويعود يمناه تناوله بالشوكة، وقد عزم على هذا قوم يعز عليهم أن يستخفوا بأدب دينى فوجدوه أمراً ميسوراً .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

رابعها: محاكاتهم فيما لم يتعرض له الدين بنهى خاص، ولكن رعاية جلب المصالح أو درء المفاسد تقضى بترك هذه المحاكاة، والمصالح كالمفاسد تتفاوت فى شدتها فيفصل الحكم على حسب هذا التفاوت، ومن أمثلة هذا النوع اتخاذ بعض الأزياء الظاهرة فى الاختصاص بهم كالقبعة، فإن وضع المسلم لها على رأسه بين قوم مسلمين يدل على ميله وترجيحه لجانب من اختصوا بلبسها، ويوقع فى اعتقاد الناظرين إليه أنه من طائفة المخالفين، والمسلم المطمئن لدينه يتحامى ما يدل على أنه يميل إلى غير أمته أكثر مما يميل إلى أمته، ويتألم من أن يصفه أحد بأنه من قوم غير مسلمين، وقد حاول بعض المفتونين بتقليد الغالب فيما لا أثر له فى قوة سلطانه أن يحملوا أبناء المسلمين على لبسها فخاب سعيهم ولم يكن جند صلاح الدين الأيوبى الذى انتصر على جيوش الأوروبيين فى حطين حيث كانت الواقعة الفاصلة، يرضى بأن يتخذ فى شعاره القبعات، ولم ينفع أعداءه المنهزمين أن كان على رأس كل واحد منهم قبعة!

ويدخل فى هذا القبيل اتخاذ نحو الملابس وأثاث البيوت من مصنوعاتهم وفى المصنوعات القومية ما يغنى غناءها، وفى الإقبال على المصنوعات القومية فتح باب عظيم من أبواب الثروة العامة، وارتقاء الشعوب على قدر يسارها.

ومما يثير الأسف البالغ أن يقتصر المسلم فى رسائله أو عند ذكر الحوادث على ما يؤرخ به المسيحيون، وهو التاريخ القائم على ميلاد المسيح - عليه السلام - وقد فشت هذه المحاكاة حتى أصابت أقلامًا شأنها أن تنهى عن مثل هذا التشبه، وفى الاعتماد على التاريخ الهجرى محافظة على ذكرى مبدأ علو الإسلام وظهوره على الدين كله.

خامسها: محاكاتهم فى أمور لم يرد فيها عن الشارع نهى خاص، ولم تكن فى نفس موافقتهم فيها مصلحة أو مفسدة، ولا تلقى على صاحبها شبهة الانتماء إلى ملتهم، ولا حرج فى هذه المحاكاة إلا من جهة الاحتفاظ بالتقاليد القومية، فصغار النفوس أو العقول يسارعون إلى التخلى عن المعروف بين قومهم، ويتبدلون به المعروف بين الأمم الأجنبية، ولا داعى لهم إلى هذه المحاكاة إلا الافتتان بكل شأن من

www.alukah.net
شبكة الألوكة

شئون أولى الشوكة والسلطان. أما أولو الأحلام الراجحة فلا ينتقلون عن المعهود فى بيئتهم إلا إلى ما هو أفضل، ولا يفضل عرف على عرف لمجرد أنه يجرى بين قوم لهم القوة والغلبة، ومن أمثلة هذا محاكاتهم فى لون خاص يلتزمونه فى حفلات خاصة، فليس للون الخاص فى الحفلات مصلحة أو مدخل فى نهوض القوم، وإنما هى عادة جرت بينهم وألفتها أذواقهم، فإذا لم يعتد قوم مسلمون التزام ذلك اللون فى مثل تلك الحفلات وأبوا تقليد الأجانب فى هذا العرف، دلوا بهذه الإباية على الاعتزاز بقوميتهم، ونبهوا على أنهم لا يريدون أن يكونوا أتباعًا حتى فيما لا يقدمهم خطوة، ولا يسد من حاجاتهم خلة.

فإن خطر على بال أحد أن النبى ﷺ كان يسدل شعر رأسه موافقة لأهل الكتاب، قلنا: كان عليه الصلاة والسلام بين فريقين: عباد الأوثان، وأهل الكتاب، وأهل الكتاب أقرب إلى الدين الحنيف من عباد الأوثان، فهم بالموافقة يومئذ أحق من عباد الأوثان، ولكن بعد أن دخل عباد الأوثان فى الإسلام، وأصبح فرق الشعر شعار فريق كبير من المسلمين عاد ﷺ ففرق شعر رأسه، وكان الفرق آخر حالتيه.

وإن تعجب فعجب لذلك الذى وضعت صولة الغالب على بصيرته غشاوة، فقام يدعو المسلمين إلى تقليد الأجانب بدون قيْد ولا استثناء، وذهب يذكر فى وجه هذا التقليد المطلق غاية هى العمل لاتحاد العالم، ولا نطيل فى وصف انحراف هذا الرأى، فإن العالم فى حاجة إلى الاتحاد فى معرفة واجبات الإنسانية، وفى احترام الأقوياء لحقوق الضعفاء، ومتى ظفر بهذا الاتحاد لم يضره اختلاف شعوبه فى بعض مظاهر الحياة، ثم ما بال هذا الكاتب يسعى لاتحاد العالم من ناحية دعوة المسلمين إلى موافقة الغربيين فى كل شىء، ولم ينظر نظر المتدبر الرصين فيدعو الغربيين إلى موافقة المسلمين فى آداب هى أشد انطباقًا على ما تقتضيه الإنسانية، وترتضيه الأذواق السليمة!

هذه كلمة نوجهها إلى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، لعلهم يجدون فيها تحقيق الفرق بين محاكاة الأجنبى المحمودة ومحاكاته المنبوذة فيسلكوا طريقًا وسطًا يكفل لهم سعادتى الأولى والآخرة ﴿ **وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ** ﴾ [الأحزاب: ٤].

شبكة الألوكة - قسم الكتب

٦

المداراة والمداهنة

خلق الناس للاجتماع لا للعزلة، وللتعارف لا للتناكر، وللتعاون لا لينفرد كل واحد بمرافق حياته.

وللإنسان عوارض نفسية كالحب والبغض، والرضا والغضب، والاستحسان والاستهجان، فلو سار على أن يكاشف الناس بكل ما يعرض له من هذه الشئون في كل وقت وعلى أي حال، لاختل الاجتماع، ولم يخلص التعارف، وانقبضت الأيدي عن التعاون، فكان من حكمة الله في خلقه أن هيأ الإنسان لأدب يتحامى به ما يحدث تقاطعاً أو يدعو إلى تخاذل، ذلك الأدب هو: المداراة.

فالمداراة ترجع إلى حسن اللقاء، ولين الكلام، وتجنب ما يشعر ببغض أو غضب أو استنكار إلا في أحوال يكون الإشعار به خيراً من كتمانه، فمن المداراة أن يجمعك بالرجل يضمر لك العداوة مجلس، فتقابله بوجه طلق، وتقضيه حق التحية، وترفق به في الخطاب، قال سحنون في وصيته لابنه محمد: «وسلم على عدوك وداره، فإن رأس الإيمان بالله مداراة الناس».

وقال أحد الحكماء من بني أسد:

وأمنحه مالي وودي ونصرتي ... وإن كان محني الضلوع على بغضي

ونقرأ في سيرة الأستاذ محمد بن يوسف صاحب المؤلفات المعروفة في علم الكلام وغيره أنه «كان يفاتح من تكلم في عرضه بكلام طيب وإعظام، حتى يعتقد أنه صديقه». ونقرأ في سيرة القاضي يحيى بن أكثم أنه «كان يداعب خصمه وعدوه».

قد تبلغ المداراة إلى إطفاء العداوة وقلبها إلى صداقة، قال محمد بن أبي الفضل الهاشمي: قلت لأبي: لم تجلس إلى فلان وقد عرفت عداوته؟ قال: أخبي ناراً، وأقدح وداً، وقد يقصد المداري إلى علاج جرح العداوة ومنعه من أن يتسع، قال عقال بن شبة: كنت رديف أبي فلقيه جرير على بغل، فحياه أبي وألطفه فلما

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مضى قلت: أبعد ما قال لنا ما قال! قال: يا بنى أفأوسع جرحى!

ومن المداراة أن يلاقيك ذو لسان أو قلم عرف بنهش الأعراض ولمز الأبرياء، فتطلق له جبينك وتحييه فى حفاوة، لعلك تحمى جانبك من قذفه، أو تجعل لدغاته خفيفة الوقع على عرضك.

نقرأ فى الصحيح عن عروة بن الزبير أن عائشة – رضى الله عنها – أخبرته: «أنه استأذن على النبى ﷺ رجل، فقال: «**ائذنوا له فبئس ابن العشيرة**» أو «**بئس أخو العشيرة**» فلما دخل ألان له الكلام» وفى رواية: «فلما جلس تطلق النبى ﷺ فى وجهه وانبسط إليه، فقلت: يا رسول الله قلت ما قلت، ثم ألنت له القول! فقال: «**أى عائشة: إن شر الناس منزلة عند الله من تركه**، أو «**ودعه الناس اتقاء فحشه**»(١).

فلقاء رسول الله ﷺ لهذا الرجل المعروف بالبذاء من قبيل المداراة لأنه لم يزد على أن لاقاه بوجه طلق، أو رفق به فى الخطاب وقد سبق إلى ذهن عائشة – رضى الله عنها – أن الذى بلغ أن يقال فيه «**بئس ابن العشيرة**» لا يستحق هذا اللقاء، ويجب أن يكون نصيبه قسوة الخطاب وعبوسة الجبين، ولكن نظر رسول الله ﷺ أبعد مدى، وأناته أطول أمدا، فهو يريد تعليم الناس كيف يملكون ما فى أنفسهم فلا يظهر أثره إلا فى مكان أو زمان يليق فيه إظهاره، ويريد تعليمهم أدبًا من آداب الاجتماع، هو رفق الإنسان بمن يقصد إلى زيارته فى منزله ولو كان شره فى الناس فاشيًا، على أن إطلاق جبينك لمثل هذا الزائر لا يمنعك من أن تشعره بطريق سائغ أنك غير راض عما يشيعه فى الناس من أذى، ولا يعوقك عن أن تعالجه بالموعظة الحسنة، إلا أن يكون شيطانًا ماردًا.

ومن المداراة أن تلقى ذا يد تبطش فتمنحه جبينًا طلقًا، وتتجنب فى حديثك ما لا يكون له أثر فى نفسه إلا أنه يثير فيها القصد إلى أذيتك، وهذا محمل قول أبى الدرداء رضى الله عنه: «إنا لنكشر في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم» وفى رواية

---

(١) صحيح الإمام البخارى.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

« لتقليهم » (١) والكشر: التبسم، وفى هذا الأثر شاهد على أن التبسم فى وجه الظالم اتقاء بأسه ضرب من المداراة، ولا يتعداها إلى أن يكون مداهنة.

ومن المداراة أن يكون الرجل على حال تقتضى صرفه عن بغيه أو عمل، وتعرف أن فى الاعتذار له بهذا الحال ما يثير فى نفسه ألمًا، فتعرض عن ذكر ما يؤلم، وتذكر له وجهًا غيره مما هو واقع حتى لا تجمع له بين الحرمان من بغيته، وإيلامه بما لا يحب أن يعتذر له به. أصاب الكسائى وضح (برص) وهو مؤدب أبناء هارون الرشيد، فكره الرشيد ملازمته لأولاده، فقال له: كبرت فى السن، ولسنا نقطع راتبك، وأمره أن يختار لهم من ينوب عنه ممن يرضاه، فاختار لهم على بن الحسن المعروف بالأحمر، ولا ريب أن اعتذار هارون الرشيد للكسائى بكبر السن أخف على نفسه من أن يقول له: أصبت بوضح، ولسنا نقطع راتبك.

فالنفوس المطبوعة على المداراة نفوس أدركت أن الناس خلقوا ليكونوا فى الائتلاف كجسد واحد، وشأن الأعضاء السليمة أن تكون ملتئمة متماسكة على قدر ما فيها من حياة، ولا تنكر عضوًا ركب معها فى جسد إلا أن يصاب بعلة يعجز الأطباء أن يصفوا له بعد دواء.

فالمداراة يبتغى بها رضا الناس وتأليفهم فى حدود ما ينبغى أن يكون، فلا يبعدك عنها قضاء بالقسط، أو إلقاء النصيحة فى رفق فلم يخرج عن المداراة أبوحازم حين دخل على سليمان بن عبدالملك وقال له: « إنما أنت سوق فما نفق عندك حمل إليك من خير أو شر، فاختر أيهما شئت ».

ترجع المداراة إلى ذكاء الشخص نفسه، فهو الذى يراعى فى مقدارها وطريقتها ما ينبغى أن يكون، ولأسباب العداوة مدخل فى تفاوت مقادير المداراة واختلاف طرقها، فإذا ساغ لك أن تبالغ فى مداراة من ينحرف عنك لخطأ فى ظن يظنه بك، أو لعدم ارتياحه لنعمة يسوقها الله إليك، فلمداراة من يحارب الحق والفضيلة إن صادفك واقتضى الحال مداراته حد قريب، ومسحة من التلطف خفيفة، وينبغى أن تكون مداراتك لمن ترجو منه العود إلى الرشد، وتأنس فى فطرته شيئًا من الطيب

---

(١) تبغضهم.

فوق مداراتك لمن شاب على عوج العقل ولؤم الخلق حتى انقطع أملك من أن يصير ذا عقل سليم أو خلق كريم، ولك مع من فيه بقية من العقل ضرب من المداراة لا تسلكه من بعد مداراتك له أثر الخوف من سلاطة لسانه، فيزداد فحشًا، ليزداد الناس رهبة فيزيدوه خضوعًا.

المداراة خصلة كريمة، يحكمها الأذكياء ولا يتعدى حدودها الفضلاء، أما المداهنة فهي إظهار الرضا بما يصدر من الظالم أو الفاسق من قول باطل أو عمل مكروه، وأصلها الدهان: وهو الذى يظهر على الشيء ويستر باطنه.

تضم المداهنة تحت جناحيها الكذب، وإخلاف الوعد، أما الكذب فلأن المداهن يصف الرجل بغير ما يعرفه منه، ومن دخل الكذب من باب سهل عليه أن يأتيه من أبواب متفرقة، وأما إخلاف الوعد فلأن المداهن يقصد إلى إرضاء صاحبه فى الحال، فلا يبالى أن يعده بشيء وهو عازم على أن لا يصدق فى وعده، وليس من الصعب على المداهن وقد مرد على الكذب أن يخلف الوعد ويختلق لإخلافه عذرًا، وهذا الاختلاق لا يرتكبه الراسخ فى كرم الأخلاق وإن كلفه الوفاء بالوعد أمرًا جللاً. فالمداهن لا يتريث فى أن يعد لأنه لا يتألم من أن يخلف، ولا يصعب عليه أن يصور من غير الواقع عذرًا، والراسخ فى الفضل لا يعد إلا عند العزم على أن يصدق فيما وعد، فإن وقف أمامه عائق كشف لك عن وجهه الحق، فإذا لم يساعده الحال على إنجاز الوعد لم يفته الصدق فيما يلقيه إليك من عذر.

ومن المداهنة أن تثنى على الرجل فى وجهه فإذا انصرفت عنه أطلقت لسانك فى ذمه، قيل لابن عمر - رضى الله عنه -: «إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول، فإذا خرجنا قلنا غيره» فقال: «كنا نعد ذلك نفاقًا على عهد رسول الله ﷺ».

وقد قرر أهل العلم أن الرجل إن كان مستغنيًا عن الدخول على من يضطره الحال إلى الثناء عليه، فدخل وأثنى بغير ما يعلم كان نفاقًا؛ أما إن اضطر إلى الدخول على ذى قوة لا يخلص من بأسه إلا أن يسمعه شيئًا من الإطراء، فهو فى سعة من أن يطريه بمقدار ما يخلص من بأسه، ولا تلحقه هذه الحالة الشاذة بزمرة المداهنين.

انهزم جيش السلطان فرج بن برقوق أمام جيش الطاغية تيمورلنك، ووقع طائفة من العلماء فى أسر الطاغية، ومن هذه الطائفة الفيلسوف ابن خلدون، فكان من هذا الفيلسوف أن تقدم إلى تيمورلنك وقال له فيما حادثه به: «إنى ألفت كتاباً فى تاريخ العالم، وحليته بذكرك، وما أسفى إلا على هذا الكتاب الذى أنفقت فيه عمرى، وقد تركته بمصر، وإن عمرى الماضى ذهب ضياعًا حيث لم يكن فى خدمتك، وتحت ظل دولتك، والآن أذهب فآتى بهذا الكتاب وارجع سريعًا حتى أموت فى خدمتك» فأطلق سبيله، فقدم مصر ولم يعد إليه.

ومن أسوأ ما يفعل المداهن أن يلاقى الرجلين بينهما عداوة فيظهر لكل واحد منهما الرضا عن معاداته لصاحبه، ويوافقه على دعوى أنه المحق وصاحبه هو المبطل، وفى مثل هذا ورد قوله ﷺ: «**تجد من شرار الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه**» (١).

وقال حكيم من بنى أسد:

ولست بذى وجهين فيمن عرفته ... ولا البخل فاعلم من سمائى ولا أرضى

يتخذ الرجل وجهين متى كان يطمح إلى ما فى أيدى الناس من متاع، أو كان يطمع فى إرضاء طوائف على تباعد ما بينهم من نزعات، وعلى شدة ما بينهم من اختلاف، والعبور إلى النفع على جسر من المداهنة يحرم صاحبه من أعز متاع هو الصدق، بعد أن يحرمه من أطيب لذة هى ارتياح الضمير، ومن كان حريصًا على أن يكون صديق الطوائف المتباينة فإن الطيب منهم يأبى أن يلوث صدره بصداقة من يتملق الحديث.

المداهنون يجعلون ألسنتهم طوع بغية الوجيه، ويعجلون إلى قول ما يشتهى أن يقولوا، فيمدحون ما يراه حسناً، ويذمون ما يعده سيئاً، أما الذين يعرفون ما فى المداهنة من شر، ويحزنهم أن يظهر الشر على يد من فى استطاعته الخير، فيربئون بألسنتهم أن تساير فى غير حق، ويؤثرون نصح الوجيه على أن يزينوا له ما ليس

(١) صحيح الإمام البخارى.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بزين.. ابتنى الخليفة عبدالرحمن الناصر «القبيبة» بقصر الزهراء، واتخذ لسطحها قراميد من ذهب وفضة، وجلس فيها إثر إتمامها، وقال لمن حضر مفتخراً: «هل رأيتم أو سمعتم من فعل هذا من قبلي؟» فقالوا: إنك لأوحد في شأنك كله، ولكن القاضي منذر بن سعيد وعظه وعظًا بليغًا، وتلا عليه قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ** ﴾ [الزخرف: ٣٣] فأطرق الناصر مليًا، ثم أقبل على منذر، وقال له: جزاك الله يا قاضي عنا وعن نفسك خيراً، وعن الدين والمسلمين أجل جزائه، فالذي قلت هو الحق، وقام من مجلسه ونقض سقف «القبيبة» وأعاد قرمدها ترابًا.

والوجيه الحازم يكره المداهنة، ويملأ عينه باحترام من يوقظه لوجه الخير إذا كان في غفلة منه، ولوجه الشر إذا اشتبه عليه، قال طاهر بن الحسين في الكتاب الذي بعث به لابنه عبدالله بن طاهر: «وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك: من إذا رأى عيبًا لم تمنعه هيبتك من إنهاء ذلك إليك في ستر، وإعلامك بما فيه من النقص، فإن أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك لك».

وقع الوزير هاشم بن عبدالعزيز في يد العدو أسيراً، وذكره الأمين محمد بن عبدالرحمن الأموي في جماعة من رجال دولته مستقصراً له ناسبًا له إلى الطيش والعجلة والاستبداد برأيه، فلم ينطق أحد ممن كان في المجلس بالاعتذار عنه ما عدا الوزير الوليد عبدالرحمن بن غانم، فإنه اعتذر عن الوزير هاشم ورد على السلطان في مسلك سائغ، ومما قال في الاعتذار عن هاشم: «قد استعمل جهده، واستفرغ نصحه، وقضى حق الإقدام، ولم يكن ملاك النصر بيده فخذله من وثق به، ونكل عنه من كان معه» ثم قال: «فإنه لا طريق للملام عليه، وليس عليه ما جنته الحرب الغشوم، وأيضًا فإنه ما قصد أن يجود بنفسه إلا رضا للأمير، واجتنابًا لسخطه، فإذا كان ما اعتمد فيه الرضا جالبًا التقصير، فذلك معدودة في سوء الحظ». فأعجب الأمير بكلامه، وأقصر بعد عن تفنيد هاشم وسعى في تخليصه من الأسر.

ومن عظماء الرجال من يبغض المداهنة، ولا يقبل من جليس مبالغة في مدح أو مسايرة، ومن المثل الكاملة لهؤلاء العظماء عمر بن عبدالعزيز - رضي الله عنه -،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فإنا نقرأ فى سيرته أنه قال لجرير حين دخل عليه بقصيدة يهنئه فيها بالخلافة: «اتق الله يا جرير ولا تقل إلا حقًا». وقال له رجل مرة: «طاعتكم مفروضة» فقال له: «كذبت! لا طاعة لنا عليكم إلا فى طاعة الله».

والأجلاء من علماء الدين الذين كانوا يداخلون رجال السياسة فينعقد بينهما التئام أو صداقة، كانوا يأخذون بسنة المداراة ولم يكونوا فيما نقرأ من سيرتهم يتلطخون برجس المداهنة.

فهذا أبو الوليد الباجى كان يصاحب رجال السياسة ويختارونه للسفارة بينهم، وهو الذى قال لمن ذكره بمداخلة السلطان: لولا السلطان لنقلنى الذر من الظل إلى الشمس، وتاريخه يشهد بأن قوة إيمانه كانت تحرسه من أن يقع فى حمأ المداهنة. كان مرة فى انتظار أحمد بن هود صاحب سرقسطة بالأندلس، فجالسه ابنه الملقب بالمؤتمن، وأخذ المؤتمن يجاذب الباجى الحديث فى كتب الفلسفة حتى قال له: «هل قرأت أدب النفس لأفلاطون؟» فقال له الباجى: «قرأت أدب النفس لمحمد بن عبدالله ﷺ» يعنى شريعته من قرآن وسنة. والباجى هو الذى رجع من الشرق إلى الأندلس فوجد أمراءها فى تقاطع، والعدو يتحفز لوضع يده على رقابهم، فقام يتردد على مجالسهم ويطرق بالنصيحة آذانهم، ويسعى لجمع كلمتهم فكانوا يجلونه فى الظاهر، ويستبردون نزعته فى الباطن، وأقل ما يجتنيه الداعى إلى الإصلاح براءة ذمته، وأمنه عند الوقوف بين يدى ربه.

فالنفوس التى تنحط فى المداهنة انحطاط الماء من صبب، نفوس لم تشب فى مهد الأدب السنى، ولم تهدها المدرسة إلى الصراط السوى، وما شاعت المداهنة فى جماعة إلا تقلصت الكرامة من ديارهم، وكانت الاستكانة شعارهم، ومن ضاعت كرامتهم، وداخلت الاستكانة نفوسهم، جالت أيدى البغاة فى حقوقهم، وكان الموت أقرب إليهم من حبال أوردتهم.

فمن واجب أساتذة التربية أن يعنوا بجهاد هذا الخلق المشئوم حتى ينفوه من أرضنا، وتكون أوطاننا ومدارسنا منابت نشء يميزون المداهنة من المداراة، فيخاطبون الناس فى رقة أدب وشجاعة، ويحترمون من لا يلوث أسماعهم بالملق، ولا يكتمهم الحقائق متى اتسع المقام لأن يحدثهم فى صراحة.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٧

سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين

من يدرس أصول الإسلام بجد، ويذهب فى تعرف روح تشريعه مذاهب بعيدة المدى، يدرك دون أن يأخذه ريب أنه دين نزل من السماء ليضرب بهدايته فى أرجاء المعمورة، ويعلم الأمم أرقى نظم الاجتماع، وقد ارتفعت فى الشرق والغرب رايته، يوم تولى أمره زعماء لبسوا من آدابه برودًا سنية، وتحروا فى الدعوة إليه سبلاً سوية، ولا أستطيع أن ألم فى هذا المقال بما احتوته شريعته من النظم المدنية، والقواعد التى تشهد بأنه تشريع لم يكن للعواطف البشرية والعادات القومية عليه من سلطان، فأكتفى بأن أصف لك ناحية يتمثل فيها عدل قضائه، ورفق سياسته، وسمو آدابه، تلك الناحية هى أصوله الخاصة فى معاملة غير المسلمين.

المخالفون فى نظر الإسلام محاربون، أو معاهدون، أو أهل ذمة، والمراد ذمة الله أى عهده، فهذا الاسم يشعر بأن من مسهم بأذى فقد خان عهد الله وعهد دينه الحنيف.

أما المحاربون فهم الذين يهاجمون أمة إسلامية، أو يتحفزون للهجوم عليها، أو يمدون أيديهم إلى حق من حقوقهم، وحكم الإسلام فى هؤلاء أن يدفعوا إذا هاجموا، ويبادروا بما يكف بأسهم إذا تحفزوا ويقوموا إذا اعتدوا على الحق حتى ينصفوا. يأذن الإسلام فى دفع المهاجم أو كف المناوئ مع رعاية جانب الرفق والأخذ بالعرف.

ومن الرفق الذى أقام عليه سياسته الحربية أنه منع من التعرض بالأذى لمن لم ينصبوا أنفسهم للقتال، كالرهبان والفلاحين والنساء والأطفال والشيخ الهرم والأجير والمعتوه والأعمى والزمن، ومن الفقهاء من لا يجيز قتل الأعمى والزمن ولو كانا ذوى رأى فى الحرب وتدبير، ولا يجوز قتل النساء وإن استعملن لحراسة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الحصون أو رمين بنحو الحجارة، ودليل هذا قوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا**﴾ [البقرة: ١٩٠] فجعل القتال فى مقابلة القتال. ونبه النبي ﷺ على أن من لا يقاتل لا يقتل حين وجد امرأة فى بعض الغزوات قتيلة فأنكر ذلك وقال: «**ما كانت هذه لتقاتل**»(١).

وإذا وضع المحاربون الأطفال والنساء أمامهم وجب الكف عن قتالهم، إلا أن يتخذوا ذلك ذريعة للفوز علينا، ونخشى أن تكون دائرة السوء على جندنا.

ولا يجيز الإسلام التمثيل بالمحارب، قال ﷺ: «**ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً**»(٢). ويمنع من حمل رءوسهم من بلد إلى بلد أو حملها إلى الولاة، وقد أنكر أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - هذا وقال: «هو فعل الأعاجم».

ولم يشرع الإسلام للأسير حكماً واحداً، بل جعل أمره موكولاً إلى الأمير الذى يقدر مصلحة الحرب، وله أن يخلى سبيله بفداء أو بغير فداء.

ولا يرغم الإسلام المحارب على الدخول فى ملته، بل يعرض عليه أن يقيم تحت سلطانه آمناً على نفسه وماله وعرضه ودينه، ويستوى فى هذا الحكم أصحاب الأديان السماوية وغيرهم، قال الإمام مالك وصاحبه ابن القاسم: تقبل الجزية من كل من دان بغير الإسلام.

وأما المعاهدون وهم الذين انعقد بيننا وبينهم عهد على السلم، فيجب علينا الوفاء بعهدهم وأن نستقيم لهم ما استقاموا لنا، وإذا كان فى بعض ذوى القوة من يحس من خصمه المعاهد تحفزاً إلى الخيانة فيسبقه إليها، فإن الإسلام يوجب فى حال الخوف من خيانة المعاهدين أن ننبذ لهم العهد علناً، وفى القرآن الكريم: ﴿**وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ**﴾ [الأنفال: ٥٨].

ولم يخص الإسلام تأمين المحارب بصاحب الدولة، بل هو حق لكل مسلم ومسلمة، فإذا أمن رجل أو امرأة من المسلمين محارباً كان تأمينه نافذاً، واعتصم

---

(١) صحيح الإمام مسلم.

(٢) رواه مسلم.

بهذا التأمين من أن يناله أحد بسوء حتى يبلغ مأمنه. وليس من شرط التأمين البلوغ ولا الإسلام، فلو أمن صبى يعلم ما يقول أو أحد من أهل الذمة بعض المحاربين كان هذا التأمين عقداً محترماً.

بلغ الدين فى رعاية عهد الأمان أقصى غاية، فلو أشار المسلم إلى الحربى إشارة يريد بها عدم التأمين ففهمها الحربى على التأمين، وجب له الأمان على حسب ما فهم من تلك الإشارة.

وهذا حكم التأمين فى حال الحرب، أما تأمين المحارب ليدخل البلاد بقصد التجارة فمن شأن أولى الأمر، ولو أمن أحد السوقة محارباً فدخل بقصد التجارة وظن المحارب أن هذا التأمين نافذ، وجب الوفاء له على حسب ظنه، وليس لولى الأمر إن لم يرض عن هذا التأمين إلا أن يرد المحارب إلى مأمنه. وإذا أخذ محارب أماناً لينظر فى الدين، ولم ينشرح صدره للإسلام، فما لنا إلا أن نرده إلى داره آمناً، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ**﴾ [التوبة: ٦].

ولو ظفر المسلمون بمحارب جاء مقبلاً من بلد العدو فقال: جئت لأطلب الأمان، لم يجز التعرض له بمكروه وإذا لم يروا المصلحة فى تأمينه ردوه إلى مأمنه.

ولو وجد المسلمون طائفة من المحاربين فى أطراف بلاد الإسلام فقالوا: جئنا تجاراً وظننا أنكم لا تتعرضون لمن جاء تاجراً، فليس لنا إلا أن ندعهم وشأن تجارتهم أو نردهم إلى مأمنهم إلا أن تقوم الشواهد على أنهم يقصدون من الشر ما لا يقولون.

ومن رعاية الإسلام لعهد التأمين أن أكد فى احترام أموال المعاهدين، حتى إذا رجع المعاهد إلى بلده وترك فى دار الإسلام وديعة أو ديناً، وجب إرسالها إليه فإن مات بعث بها إلى ورثته إن عرفوا، فإن لم يعرفوا أرسل بها إلى رئيس قومه.

ويدلك على ما لعهد التأمين فى دين الإسلام من حرمة، قول عمر بن الخطاب: «إنه بلغنى أن رجالاً منكم يطلبون العلج حتى إذا أسند إلى الجبل وامتنع قال

رجل: مَتْرَس (١) يقول: لا تخف، حتى إذا أدركه قتله، وإني والذى نفسى بيده لا أعلم مكان واحد فعل ذلك إلا ضربت عنقه» (٢).

وأما من رضوا بالإقامة تحت راية الدولة الإسلامية فقد قرر لهم الدين من الحقوق ما يكفل حريتهم، ويجعلهم أعضاء حية مرتبطة بسائر أعضاء الأمة المسلمة ارتباط ألفة وعطف وتعاون. توجد هذه الروابط فى القرآن والحديث وآثار الصحابة وأقوال أهل العلم من بعدهم.

يقتضى العهد الذى يعقد لأهل الذمة أن يقيموا تحت رايتنا متمتعين بحقوقهم الدينية آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وإليك نص عهد عمر بن الخطاب لأهل إيليا: «أعطاهم الأمان لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسائر ملتهم، لا تسكن كنائسهم، ولا ينقص منها ولا من خيرها، ولا من صلبهم ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم».

إن القرآن كقانون أساسى لدولة الإسلام، فلم يترك ناحية من نواحى الاجتماع أو السياسة إلا وضع لها أصلا يهتدى به فى تفاصيل أحكامها، وانظر إليه ماذا صنع فى ناحية هى من أكبر النواحى الاجتماعية أو السياسية، وهى معاملة الطوائف غير المسلمين إذا اختاروا الإقامة فى جوارنا ولم ينزعوا إلى مناوأتنا. اقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿ **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ [الممتحنة: ٨] فالآية تحث على رعاية قانون العدل فى معاملتهم، وتدل بعد هذا على فضيلة البر بهم، وإذا عبرت عن هذا المعنى بعدم النهى عنه فلأنها قصدت الرد على ما يسبق إلى الذهن من أن مخالفتهم للدين تمنع من برهم، وتسهل الاستهانة بحقوقهم.

وقد جرى أمراء الإسلام العادلون على سيرة هذه الآية. فكانوا ينصحون لنوابهم بالعدل، ويخصون أهل الذمة فى نصيحتهم بالذكر.

---

(١) كلمة فارسية معناها: لا تخف.

(٢) الموطأ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وأحسن مثل نسوقه على هذا كتاب عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – إلى عمرو بن العاص وهو يومئذ الوالى على مصر، ومما جاء فى هذا الكتاب «وإن معك أهل ذمة وعهد وقد وصى رسول الله ﷺ بهم». ومنه «وقد قال ﷺ: «**من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة**» احذر يا عمرو أن يكون رسول الله ﷺ لك خصماً فإنه من خاصمه خصمه» (١)، ومن الأحاديث الثابتة فى هذا الصدد قوله ﷺ: «**من قذف ذمياً حد له يوم القيامة بسياط من نار**».

فانظروا إلى مكانة العهد فى نظر الإسلام، وزنوها بمعاهدات يأخذ فيها بعض الأقوياء على أنفسهم احترام حقوق شعب إسلامى حتى إذا أمسكوا بناصيته لم يستحيوا أن يعبثوا بالأرواح، وتجول أيديهم فى الأموال، ويعملوا جهدهم على أن يقلبوهم إلى جحود بعد إيمان، ويحنقون بعد هذا كله على من يسميهم أعداء الإنسانية وقابضى روح الحرية.

أدرك الفقهاء رعاية شارع الإسلام لأهل الذمة وحرصه على احترام حقوقهم، فاستنبطوا من أصوله أحكاماً جعلوا المسلم وغير المسلم فيها على سواء، وأذكر من هذه الأحكام أنهم أجازوا للمسلم أن يوصى أو يقف شيئاً من ماله لغير المسلمين من أهل الذمة، وتكون هذه الوصية أو الوقف أمراً نافذاً، ولما قال ﷺ: «**لا يبيع الرجل على بيع أخيه ولا يخطب على خطبة أخيه**» (٢) قالوا: البيع على بيع غير المسلم الداخل فى ذمة الإسلام كالبيع على بيع المسلم، والخطبة على خطبته كالخطبة على خطبة المسلم: كلاهما حرام.

وإذا ذكر فقهاؤنا آداب المعاشرة، نبهوا على حقوق أهل الذمة، وندبوا إلى الرفق بهم، واحتمال الأذى فى جوارهم، وحفظ غيبتهم، ودفع من يتعرض لأذيتهم.

فقد قال شهاب الدين القرافى فى كتاب الفروق: «إن عقد الذمة يوجب حقوقاً علينا لأنهم فى جوارنا وفى خفارتنا وذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ ودين الإسلام،

---

(١) روى الخطيب فى تاريخه عن ابن مسعود «من آذى ذميا فأنا خصمه ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة».

(٢) صحيح الإمام مسلم..

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة فى عرض أحدهم، أو أى نوع من أنواع الأذية، أو أعان على ذلك، فقد ضيع ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ وذمة دين الإسلام » .

وقال ابن حزم فى مراتب الإجماع : « إن من كان فى الذمة وجاء أهل الحرب إلي بلادنا يقصدونه وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح، ونموت دون ذلك صونًا لمن هو فى ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ، فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة » .

وجعل الإسلام أحكام رؤسائهم فيما بينهم نافذة، فلهم أن يتحاكموا أمام رؤساء مللهم فيما يعرض لهم من القضايا، وإنما اختلف علماؤنا فيما إذا رفع الخصمان منهم القضية إلى الحاكم المسلم، فقال المالكية : إن كان ما رفعوه ظلماً لا تختلف الشرائع فى تحريمه كالغصب والقتل، وجب على الحاكم المسلم أن يفصل فيه على وجه العدل، فإن كان مما تختلف فيه الشرائع كان له الخيار فى الفصل بينهم بشريعة الإسلام، أو صرفهم إلى رئيس طائفتهم، وحملوا على هذا الوجه قوله تعالى : ﴿ **فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ** ﴾ [المائدة : ٤٢] . . . وقال الإمام أبو حنيفة : على الحاكم المسلم متى ارتفع الخصمان من أهل الكتاب أن يفصل فى قضيتهم، وليس له الإعراض عنهم، وأخذ فى وجوب الفصل بينهم بقوله تعالى : ﴿ **وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ** ﴾ [المائدة : ٤٩] . وقال : إن الأمر القاطع فى هذه الآية ناسخ للتخيير فى آية ﴿ **فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ** ﴾[المائدة : ٤٢] .

هذا أصل البحث فى هذه المسألة، أما تفصيل المذاهب وبسط أدلتها فموضعه كتب الفقه وأحكام القرآن .

وأباح للمسلم أن يتزوج تحت سلطان الإسلام بيهودية أو نصرانية، وجعل لها من الحقوق ما لزوجته المسلمة، وفى الزواج صلة الصهر، وتتبعها صلة النسب، وفى هذا شاهد على أن الدين الحنيف ليس بالدين الذى يدعو إلى التقاطع المانع من

المعاشرة بالمعروف والتعاون على مرافق الحياة.

وكره الإسلام أن يجرى المسلم فى مخاطبة غير المسلمين مجرى أولئك الذين يتعصبون لمعتقداتهم بغير الحق، فيطلقون ألسنتهم بإذاية من يجادل فى صحتها، فقال تعالى: ﴿ **وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وقال تعالى: ﴿ **وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ [النحل: ١٢٥].

إن المسلمين قد استناروا بسماحة دينهم، وتعلموا من آدابه أن يحسنوا معاشرة أصحاب الأديان الأخرى، ممن لا يكيدون لهم كيداً، ولا يظاهرون عليهم عدواً، ويمكنهم أن يعيشوا معهم فى صفاء وتعاون على المصالح الوطنية، وكثيراً ما نقرأ أنباء من يشرح الله صدورهم للإسلام فنجدهم حيث يذكرون دواعى اهتدائهم يصرحون بأن من هذه الدواعى ما يرونه فى هذا الدين من سعة الصدر، والأمر بالرفق والإحسان فى معاملة المخالفين، وبأن لا يزاد عند جدالهم على دفع الشبهة بالحجة.

ooooo

العزة والتواضع

سهل على الإنسان أن يدرك معنى الفضيلة فى صورة مجملة، بل سهل عليه أن يتعرف ما هى الفضائل بتفصيل، وإنما العسر فى أخذ النفس بها، والسير فى معاملة الناس على قانونها، وعسر العمل على الفضيلة مع تصور مفهومها، والشعور بحسن أثرها، يجىء من ناحية الشهوات التى قد تطغى فتطمس على البصائر، وتكاد تحول معرفتها للخير إلى جهالة عمياء، وقد يؤخذ الدارس للأخلاق من ناحية ضعفه فى تطبيق الأعمال على ما تقتضيه أصول المكارم، ذلك لأن علم الأخلاق يشرح الفضيلة، ويبين ما بينها وبين الأخلاق الأخرى من صلة، وينبه على ما لها من آثار حميدة ولا يتعرض لمظاهر الفضيلة مظهراً فمظهراً، ولا لمواضع الأخذ بها موضعاً فموضعاً، بل يكل ذلك إلى اجتهاد الشخص ونباهته.

وحدود الفضائل تقع بمقربة من أخلاق مكروهة، وهذه الحدود فى نفسها واضحة جلية، إلا أن تمييز ما يدخل فيها مما هو خارج عنها، يحتاج إلى صفاء فطرة أو تربية تساس بها النفس شيئًا فشيئًا.

وكثيراً ما يتشابه على الرجل لأول النظر أمور، فلا يدرى أهى داخلة فى الفضيلة أم هى خارجة عن حدودها، وربما سبق ظنه إلى غير صواب، فيخال ما هو من قبيل الفضيلة مكروهاً فيدعه، أو يعيب غيره به، أو يخال ما هو من قبيل المكروه فضيلة فيرتكبه، أو يمدح غيره عليه، وهذا الشأن يجرى فى خلقى العزة والتواضع.

فعزة النفس تمتاز فى الأذهان عن الكبرياء امتياز الصبح من الدجى، إذ العزة ارتفاع النفس عن مواضع المهانة، والكبرياء استنكاف النفس أن تأتى صالحًا بتخيل أن ذلك العمل لا يليق بمنزلتها، أو تعظمها عن أن تجامل ذا نفس زاكية بزعم أنه غير كفء لها.

ويقابل العزة الضعف، وهى انحدار النفس فى هوة المهانة، ويقابل الكبرياء التواضع، وهو إذعانها للحق ونظرها إلى ذى النفس الزاكية أو المستعدة لأن تكون زاكية، نظر احترام أو عطف وإشفاق.

والفرق بين حقائق هذه الأخلاق سهل المأخذ، ولا يكاد يخفى أمره على عامة الناس فضلا عن خواصهم، ولكن أحوالاً تعرض للرجل فيخفى فيها الوجه الذى يدعو إلى مظهر الرفعة فيعد مستكبراً، أو يخفى فيها الوجه الذى يدعو إلى مظهر التواضع فيعد صاغراً.

وفى الناس من عد التـواضع ذلة وعد اعتزاز النفس من جهله كبرا

وقال رجل للحسن بن على: إن الناس يزعمون أن فيك تيهًا. فقال: ليس بتيه ولكنه عزة، وتلا قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [المنافقون:٨].

وقال عبدالرحمن الناصر الخليفة الأموى بالأندلس لابنه المنذر: «إن فيك لتيهًا مفرطًا، وإن العيون تمج التياه، والقلوب تنفر عنه»، فقال المنذر: «إن لهذا السلطان رونقًا يريقه التبذل، وعلواً يخفضه الانبساط، ولا يصونه إلا التيه والانقباض». ثم ذكر أناسًا يعدون تواضع الرجل صغراً وتخفضه خسة، فقال له عبدالرحمن: «ابق وما رأيت».

فوزن المعاملات الخاصة وإلحاقها بإحدى خصلتى العزة أو التواضع، أو طرحها إلى الكبرياء أو المهانة يرجع إلى اجتهاد الشخص نفسه، وهذا لا يمنع غيره الذى عرف من سر المعاملة ما عرف من علانيتها، أن ينقدهم ويصف صاحبها بأنه عزيز النفس أو متواضع، أو يحكم عليه بأنه متكبر أو متصاغر.

فى عزة النفس فوائد تعود على الشخص نفسه، منها ارتياح ضميره وسلامته من ألم الهوان الذى يلاقيه من لا يحتفظ بكرامته، ثم ما يلقيه هذا الخلق على صاحبه من مهانة ووقار، وإحراز مكانة احترام فى النفوس مما تنشرح له صدور العظماء، وإنما عيب الرجل فى أن يجعل هذه المكانة غايته المنشودة، أو يتخذها حبالة لاصطياد مآرب لا يتعداه نفعها.

ولهذه الخصلة آثار صالحة فى الاجتماع، فإن الأمة التى تشرب فى نفوسها العزة يشتد فيها الحرص على أن تكون مستقلة بشئونها، غنية عن أمم من غيرها، وتبالغ فى الحذر من أن تقع فى يد من يطعن فى نحر كرامتها، ولا يستحى الإنسانية أن تراه مهتضماً لحقوقها.

ومن عناية الإسلام بأدب العزة أنه بنى كثيراً من أحكامه العملية على رعايتها، كما منع القادر على الكسب من بسط كفه للاستجداء، إذ كان فى استجدائه إراقة لماء وجهه بين يدى من تكون يده هى العليا، قال ﷺ: «**لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير من أن يأتى رجلا أعطاه الله من فضله فيسأله أعطاه أو منعه**». وسن الهجرة من بلد لا يرفع فيها الإسلام لواءه إلى بلد تخفق عليه رايته وتقام فيه أحكام شريعته قال تعالى: ﴿**وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً**﴾ [النساء: ١٠٠]، وشرع الذود عن الأوطان وحمايتها من أن يكون للخصوم عليها سيطرة، إذ لا نصيب لجماعة المسلمين من سيطرة غير المسلم إلا العسف والإرهاق.

ومن الأحكام القائمة على رعاية العزة أن التبرعات لا تتقرر إلا بقبول المتبرع له، فلو وهب شخص لآخر مالاً لم تنعقد الهبة إلا أن يقبلها الموهوب له، إذ قد يربأ به خلق العزة عن قبولها كراهة احتمال منَّتها، والمنة تصدع قناة العزة، فلا يحتملها ذوو المروآت إلا فى حال ضرورة ولاسيما منة تجىء من غير ذى طبع كريم أو قدر رفيع، والعلماء الذين كانوا لا يقبلون عطايا ولاة الأمور يريدون الاحتفاظ بكامل عزتهم، حتى يكون موقفهم فى وعظ أولئك الولاة إذا حادوا عن الرشد موقف الناصح الأمين.

ومن هذه الأحكام شرط الكفاءة فى النكاح، ذلك لأن فى تزوج الرفيعة بمن هو دونها امتهانًا لقدرها، وغضًا من كرامة أوليائها، فجعل للمرأة وأوليائها الحق فى الممانعة من تزوجها بمن لايكافئها، وإنما اختلف الفقهاء فى تحديد الكفاءة كما هو مقرر فى كتب الأحكام.

شبكة الألوكة

وقد عرف الفقهاء أن الشريعة تراعى فى أحكامها حق العزة، فقالوا: إن المسافر يقبل هبة الماء للوضوء ولا يتيمم، إذ لا يمتن بمقدار ما يتوضأ به من الماء عادة، ولم يلزموه قبول هبة ثمن الماء، وأجازوا له التيمم. إذا كان فى هبة الثمن منة، والمنة تورث شيئًا من الذلة، وعلى هذا النحو جرى الإمام الغزالى إذ جعل خشية الإهانة مسقطة لوجوب النهى عن المنكر. وموضع هذا أن يعرف العالم أن نهيه لا يجدى نفعًا، ويزيد على عدم جدواه بأن يسومه أولئك المبطلون أو الفاسقون خسفًا، أما إذا كان يرجو مما يقوله أو يكتبه فائدة، فاحتمال الأذى فى سبيل العمل الصالح عزة لا تطاولها عزة.

ومدح الإنسان نفسه رعونة فإذا مسه أحد بازدراء، فإن علم الأخلاق يسمح له بأن يذود عن عزته، ويقول كلمة ينبه بها على مكانته، وفد أبو الفضل بن شرف إلى المعتصم أحد أمراء الأندلس فى زى تظهر عليه البداوة، وأنشده قصيدته التى يقول فى طالعها:

مطل الليل بوعد الفلق ... وتشكى النجم طول الأرق

فاهتز المعتصم لسماعها طربًا فحسد أبا الفضل من الحاضرين ابن أخت غانم، وقال له: من أى البوادى أنت؟ فقال أبو الفضل: أنا من الشرف فى الدرجة العالية، وإن كانت البادية على بادية، ولا أنكر خالي، ولا أعرف بحالي؛ فانقبض ابن أخت غانم خجلاً.

وأما التواضع وهو بذل الاحترام أو العطف والمجاملة لمن يستحقه، فهو خلق يكسب صاحبه رضا أهل الفضل من الناس ومودتهم، وهو الطريق الذى يدخل بالشخص فى المجتمع، ويكون به عضواً ملتئماً مع سائر الأعضاء التى يتألف منها جسد نسميه الأمة، فالتواضع أنجح وسيلة إلى الائتلاف والاتحاد اللذين هما أساس التعاون على مرافق الحياة وجلائل الأعمال، قال الله تعالى يدعو رسوله الكريم إلى هذا الخلق العظيم: ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ**﴾ [الشعراء: ٢١٥] وقال تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ [الشعراء: ٢١٥].

شبكة الألوكة - قسم الكتب

يستكبر الأغبياء ظنًا منهم أن فى الاستكبار رفعة، والحقيقة أن ابتغاء الرفعة من طريق التواضع أنجح من التوصل إليها بطريق التجبر والغطرسة، فالتواضع الحكيم يورث المودة، ومن عمر فؤاده بمودتك امتلأت عينه بمهابتك.

وأحسن مقرونين فى عين ناظر جلالة قدر فى خمول تواضع

قد يراك الرجل وأنت تؤدى حق الاحترام إلى رجل عرفت من كماله ما لم يعرفه، فيعد عملك تصاغراً، ويرمى أمامك أو وراءك بسهم الإنكار، ولو اطلع على ما بطن من هذه المعاملة كما اطلع على ما ظهر منها، لأقام لك بدل الإنكار عذراً.. قدم أبوالفضل بن العميد لأبى بكر بن الخياط نعله، فعده بعض الحاضرين إفراطًا فى التنازل، فقال أبو الفضل: أؤلام على تعظيم رجل ما قرأت عليه شيئًا من الطبائع للجاحظ إلا عرف ديوانه وقرأ القصيدة من أولها إلى آخرها حتى ينتهى إليه!

وكان أبو العباس المبرد عندما يرى أبا بكر الأبهرى مقبلاً ينهض قائمًا حفاوة وإجلالاً، فخطر على بال بعض أصحابه أنه تجاوز حد التواضع، وأن أبا بكر لا يستحق هذا القدر من الإجلال، وشافه المبرد بهذا الخاطر. فقال المبرد:

إذا ما رأيناه مقتبلا حللنا الحبا وابتدرنا القياما
فلا تنكرن قيامى له فإن الكريم يجل الكراما

يتواضع الرجل لأقرانه، فلا يصاغر لهم خداً وإن أبى الدهر إسعافهم، ولا يخرج فى معاملتهم عن حدود المساواة وإن رزق من المال أو الجاه ما لم يرزقوا، قال البحترى:

وإذا ما الشريف لم يتواضع للأخلاء فهو عين الوضيع

ويتواضع الرجل لمن هو دونه فى ظاهر هذه الحياة أو فيما يجرى به عرف الناس، كالأستاذ يجامل طالب العلم، والرئيس يجامل المرءوس. وفى سنة رسول الله ﷺ، وأقوال الذين أوتوا الحكمة، وسيرة الذين استقاموا على الفضيلة، ما فيه عظة حسنة، وقدوة صالحة.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أما الأستاذ لا يتعاظم على طالب العلم، فمن مظاهره الإصغاء إليه عند المناقشة، وإجابته عما سأل فى رفق، وتلقى ما يبديه من الفهم بإنصاف، فإن أخطأ نبهه لوجه الخطأ، وإن قال صوابًا تقبله منه بارتياح، وارتياح الأستاذ لآثار نجابة الطلاب مما يزيدهم جدًا فى الطلب، ويشعرهم باستعدادهم لأن يكونوا فى النوابغ، وإنما ينبغ الناشئ فى العلم متى سطع فى نفسه مثل هذا الشعور، قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه -: «تعلموا العلم وعلموه الناس، وتعلموا له الوقار والسكينة، وتواضعوا لمن تعلمتم منه ولمن علمتموه»، ومن حكم الإمام على - كرم الله وجهه-: «وتواضعوا لمن تتعلمون منه، ولمن تعلمونه ولا تكونوا جبابرة العلماء».

وأما الرئيس لا يتعظم على المرءوس، فمن مظاهره لين القول فى مخاطبته، والعناية بقضاء ما يستطيع من حاجته، والسعى فى دفع الأذى عن جانبه، والرئيس المتواضع يتحامى أن تشهد منه أثرًا يدل على أن نفسه تحدثه بأنه أفضل منك، إلا مظاهر يسيغها عرف أصبح مألوفًا بين الناس. روى الإمام مالك: أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - «كان فى فضله وقدمه ينفخ عام الرمادة [1] النار تحت القدور حتى يخرج الدخان من تحت لحيته» ذكر هذا مالك لهارون الرشيد، وقال له: إن الناس يرضون منكم بما دون هذا.

ونقرأ فى سيرة **مظفر الدين صاحب أربل**: أنه بنى أربعة ملاجئ للزمنى والعميان، وقرر لهم ما يحتاجون إليه فى كل يوم، وكان يأتيهم بنفسه فى عصر كل اثنين وخميس، ويدخل إلى كل واحد فى نزله، ويسأله عن حاجته. فإحسان مظفر الدين إلى هؤلاء رحمة، ودخوله على كل واحد فى نزله، وسؤاله عن حاله، تواضع.

وصفوة المقال أن العزة ترجع إلى أن يقدر الإنسان قيمة نفسه، فلا يوردها إلا الموارد التى تليق بها، والكبر يرجع إلى أن يرى نفسه فى منزلة فوق منزلتها، فيتراءى فى مظاهر يعدها العارفون بكنه حاله اغترارًا وإسرافًا فى التقدير. والضعة

---

(١) الرمادة: الهلكة، سمى به عام جدب وقحط وقع فى زمن ابن الخطاب لهلاك الناس فيه والأموال.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ترجع إلى أن يغمط نفسه حقها، ويضعها في مواضع أدنى مما تستحق أن يضعها، والمتواضع من يعرف قدره، ولا يأبى أن يرسل نفسه في وجوه الخير وما يقتضيه حسن المعاشرة.

وإذا كان من يحتفظ بالعزة، ولا يصرف وجهه عن التواضع، هو الرجل الذي يرجى لنفع الأمة، ويستطيع أن يخوض في كل مجتمع ضافي الكرامة، أنيس الملتقى شديد الثقة بنفسه، كان حقًا على من يتولى تربية الناشئ أن يتفقده في كل طور حتى إذا رأى فيه خمولا وقلة احتراس من مواقع المهانة أيقظ فيه الشعور بالعزة، والطموح إلى المقامات العلا. وإذا رأى فيه كبرًا عاتيًا وتيهًا مسرفًا، خفف من غلوائه وساسه بالحكمة حتى يتعلم أن المجد المؤثل لا يقوم إلا على دعائم العزة والتواضع.

ooooo

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٩

الرفق بالحيوان

أقام الإسلام هدايته على أساس الرحمة المحفوفة بالحكمة، والرحمة تبعث النفوس مبعث الرفق والإحسان، والحكمة تقف بالرحمة عند حدود لو تجاوزتها انقلبت إلى ضعف ورعونة، وعلى هذا الطريق الوسط جاءت الأحكام والآداب الخاصة بالتصرف فى الحيوان.

أذن الإسلام فى أكل الطيب من الحيوان، ونبه بهذا الإذن على خطأ أولئك الذين يقبضون أيديهم عن تذكيته أو أكله بدعوى الرأفة أو الزهد، وأباح استعماله فى نحو الركوب والحراثة وحمل الأثقال. وقد امتن القرآن الكريم بهذه الضروب من الاستمتاع المألوف بين العقلاء، فقال تعالى: ﴿**وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [النحل: ٥-٧].

وقال تعالى: ﴿**وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ**﴾ [النحل: ٨٠].

امتن الله تعالى فى كتابه العزيز بما يتخذ من أصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها وجلودها من الملابس والفرش والبيوت، وبما يتغذى به من ألبانها ولحومها، وبما هيئت له من حمل الأثقال، وهذه المنافع من أهم ما تنتظم به حياة الإنسان.

وقال تعالى: ﴿**وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [النحل: ٨]. فذكر فى هذه الآية أهم ما خلقت له الخيل والبغال والحمير من المنافع وهو الركوب، وفى الركوب راحة البدن، وسرعة الانتقال من مكان إلى مكان، والراحة من متممات الصحة، وسرعة الانتقال حفظ للوقت من أن يذهب فى غير جدوى.

امتن الله تعالى بالأنعام والخيل وما عطف عليها، ونبه على ما فيها من جمال

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وزينة، وفى هذا ما يرشد إلى أن يكون الاستمتاع بها فى رفق ورعاية، فإن إرهاقها أو قلة القيام على ما تستمد منه حياتها يجعل نفعها ضئيلاً، ويذهب بما فيه من جمال وزينة.

كان للعرب قبل الإسلام عادات تحرمهم من الانتفاع ببعض أفراد الحيوان وفيها قوة على أن ينتفعوا بها، ومن هذا القبيل الناقة المسماة بالسائبة، وهى الناقة التى يقول فيها الرجل: إذا قدمت من سفرى، أو برئت من مرضى فهى سائبة، ويحرم ركوبها ودرها؛ والوصيلة: وهى أن تلد الشاة ذكرًا وأنثى فيقولون: وصلت أخاها، فلا يذبح من أجلها الذكر؛ والجمل المسمى بالحام: وهو الفحل الذى ينتج من صلبه عشرة أبطن، فكانوا يقولون: قد حمى ظهره، ويمتنعون من ركوبه والحمل عليه، والبحيرة: وهى الناقة التي تنتج خمسة أبطن آخرها ذكر، فإنهم كانوا يبحرون أذنها أى يشقونها، ثم يحرمون ركوبها ودرها.

ثم جاء الإسلام فلم ير من الحكمة تعطيل الحيوان وهو صالح لأن ينتفع منه، فنهى عن هذا التعطيل الناشئ عن سفاهة الرأى، فقال تعالى: ﴿**مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**﴾ [المائدة: ١٠٣].

وكان للعرب عادات يسومون فيها الحيوان سوء العذاب، ومن هذه العادات ما يفعلونه لموت كريم القوم، إذ يعقلون ناقته أو بعيره عند القبر ويتركونها فى حفرة لا تطعم ولا تسقى حتى تموت، ومن هذا الباب شقهم لآذان الأنعام كما قصصنا عليك عادتهم فى البحيرة، وهو ما أشار القرآن إلى قبحه، إذ جعله مما يأمر به الشيطان، فقال تعالى: ﴿**وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ**﴾ [النساء: ١١٨-١١٩].

مازال الحيوان كسائر الأمتعة تحت يد مالكه يفعل فيه كيف يشاء، وإذا ناله رفق فمن ناحية عاطفة الإنسان على ما يملك لتطول مدة انتفاعه به، ولكن الإسلام أرشد إلى أن الحيوان فى نفسه حقيق بالعطف، فغرس له فى القلوب عطفًا عامًا، واستدعى له الرحمة حتى من قوم لا ينتفعون أو لا يرجون أن ينتفعوا به فى حال،

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وجعل الرفق به من قبيل الحسنات التى تذهب السيئات وتنال بها المثوبة عند الله .

أذن الإسلام فى قتل الحيوان المؤذى كالكلب العقور والفأرة، وأمر بالإحسان فى القتل، فقال ﷺ : «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة**» وأذن فى ذبح الحيوان للاستمتاع بالطيب من لحومه، فقال ﷺ : «**وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته**» .

قد يخطر على البال أنه متى أذن فى قتل الحيوان أو ذبحه فللإنسان أن يتخذ لإزهاق روحه ما شاء من الطرق أو الوسائل، فقصد الشارع الحكيم إلى دفع هذا الخاطر وإرشاد الناس إلى اتخاذ أحسن الطرق فى القتل أو الذبح فلا يجوز إحراق ما أذن فى قتله أو التمثيل به، ويجب إرهاف آلة الذبح حتى لا يلاقى الحيوان قبل إزهاق روحه آلامًا، وقد ذكر أهل العلم آدابًا اقتبسوها مما جاءت به الشريعة من أصول الرفق بالحيوان، فقال عمر - رضى الله عنه - : «من الإحسان للذبيحة أن لا تجر الذبيحة إلى من يذبحها» وقال ربيعة : «من الإحسان أن لا تذبح ذبيحة وأخرى تنظر إليها» . وقالوا : يستحب للذابح أن لا يحد شفرته بحضرة الذبيحة، وأن لا يصرعها بعنف .

أباحت الشريعة صيد الحيوان بنحو الجوارح والنبال والشباك، لينتفع منه الإنسان بما يحل الانتفاع به، ومنعت من أن ينصب الحيوان غرضًا ليرمى بنحو النبال، ومما نقرؤه فى أحاديث رسول الله ﷺ قوله : «**لا تتخذوا شيئًا فيه الروح غرضًا**» (١) . وفى صحيح الإمام مسلم : «مر ابن عمر بفتيان من قريش قد نصبوا طيرًا وهم يرمونه وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر : «من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا، إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا» .

ووردت أحاديث عن النبى ﷺ فى فضل سقى الحيوان وإطعامه، وعدهما من عمل الخير الذى تنال به الزلفى عند الله، قال ﷺ : «**ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة**» (٢) .

---

(١) صحيح الإمام مسلم.

(٢) صحيح الإمام البخارى.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً، فنزل فيها فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب، فشكره الله فغفر له**، قالوا: يا رسول الله وإن لنا فى البهائم أجراً! فقال: «**فى كل ذات كبد رطبة أجر**» (١).

وانظر إلى تعجبهم: «وإن لنا فى البهائم أجراً» تراهم كيف كانوا يستهينون بأمر الحيوان ولا يعتقدون أن الإحسان إليه يبلغ مبلغ الإحسان إلى الإنسان فيستحقون عليه أجراً، وكيف يكون حال حيوان وقع تحت يد من لا يعتقد أنه سينال بالإحسان إليه ثواباً، ويلقى من أجل القسوة عليه عذاباً!.

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**عذبت امرأة فى هرة لم تطعمها ولم تسقها ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض**» (٢). والوعيد بعقوبة النار على الأمر يدل على أنه من المحظور حظراً لا هوادة فيه، ومن ذا يخطر على باله قبل هذا أن يكون لحيوان كالهرة حرمة تبلغ فى الخطر أن يعاقب من ينتهكها بعذاب النار؟

وقرر الفقهاء وجوب القيام على سقى الدابة وإطعامها، بأن يعلفها أو يرعاها بنفسه أو يكل لغيره رعيها ولو بأجر، ولم يختلفوا فى وجوب ذلك عليه، وصرح طائفة منهم بأنه يجبر عليه قضاء، فإن لم يفعل بيعت الدابة ولا تترك تحت يده تقاسى عذاب الجوع، ومما نقرؤه فى حديث رسول الله ﷺ أنه مر ببعير قد لحق ظهره ببطنه فقال: «**اتقوا الله فى هذه البهائم المعجمة** (٣)، **فاركبوها صالحة وكلوها صالحة**» (٤).

وتحرم الشريعة الإساءة إلى الحيوان بتحميله من الأثقال ما لا يطيق، وكان الصحابة - رضى الله عنهم - يعرفون أن من حمل دابة ما لا تطيق حوسب عليه يوم القيامة، يروى عن أبى الدرداء - رضى الله عنه - أنه قال لبعير له عند الموت: يا أيها البعير لا تخاصمنى إلى ربك، فإنى لم أكن أحملك فوق طاقتك. وقال الغزالى

---

(١) صحيح البخارى.
(٢) البخارى ومسلم.
(٣) التى لا تقدر على النطق.
(٤) سنن أبى داود.

في الحديث عن الرفق بالدابة وعدم تحميلها ما لا تطيق: «والمحمل [١] خارج عن حد طاقتها، والنوم عليها يؤذيها ويثقل عليها» وقال: «كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلا غفوة عن قعود».

وإنما يجوز الحمل على ما يطيق الحمل كالإبل والبغال والحمير، ولا يجوز الحمل على ما لم يخلق للحمل كالبقر، قال ابن العربي: لا خلاف في البقر أنه لا يجوز أن يحمل عليها. وذهب كثير من أهل العلم إلى المنع من ركوبها نظراً إلى أنها لا تقوى على الركوب، وإنما ينتفع بها فيما تطيقه من نحو إثارة الأرض وسقي الحرث.

ومن الرفق بالدابة أن لا يركبها ثلاثة أشخاص يكون عبئهم عليها ثقيلاً، أخرج ابن أبي شيبة عن زاذان أنه رأى ثلاثة على بغل، فقال: لينزل أحدكم فإن رسول الله ﷺ لعن الثالث. وأخرج الطبري عن علي - رضي الله عنه - أنه قال: «إذا رأيتم ثلاثة على دابة فارجموهم حتى ينزل أحدهم». ومحمل هذه الآثار على حال ما إذا كان ركوب الثلاثة يرهق الدابة، فإن كان يطيق ذلك كالناقة أو البغلة يركبها رجل وصبيان مثلاً، فليس به من بأس، ولاسيما ركوبها في مسافة قصيرة، وهذا ما كان من النبي ﷺ حين قدم مكة راكباً على بغلته فاستقبله أغيلمة من بني عبدالمطلب، فحمل واحداً بين يديه، والآخر خلفه.

ومن الرفق بالحيوان تجنب أذيته في بدنه بنحو الضرب الأليم، والإشعار الوارد في بدن الهدي ليس إلا جرحاً في سنام البعير بنحو المبضع ليكون علامة أنها هدي، وأما طعن البدنة بنحو السنان حتى يتجاوز الجلد إلى اللحم فإنما يرتكبه الجهال، ولا يختلف العلماء في تحريمه.

وورد النهي عن خصاء البهائم كما جاء من حديث ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ نهى أن يخصى الإبل والبقر والغنم والخيل» [٢] وبهذا احتج فريق من أهل

---

(١) المحمل: شقان على البعير يحمل فيهما العديلان، ويقال أول من اتخذه الحجاج بن يوسف الثقفي.

(٢) شرح معاني الآثار للطحاوي.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

العلم على أنه لا يحل خصاء شيء من الفحول، وأفتى فريق بجوازه متى دعت إليه مصلحة كأن يخاف عضاضه، وإذا وجد طريق لمثل هذه المصلحة من غير الخصاء لم يبق موضع للخلاف، لأنه تعذيب، وقد نهى الشارع عن تعذيب الحيوان.

ومن الرفق بالدابة أن لا يتابع السير عليها متابعة ترهقها تعبًا، قال ﷺ: «**إذا سافرتم فى الخصب فأعطوا الإبل حظًا من الأرض**» [1] وفى رواية: «**ولا تعدوا المنازل**».

وورد فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يبقين فى رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة [2] إلا قطعت**». فذهب بعض أهل العلم فى فهم الحديث مذهب الرحمة بالحيوان وقال: إنما أمر بقطع القلائد من أعناق الإبل مخافة اختناق الدابة بها عند شدة الركض، ولأنها تضيق عليها نفسها ورعيها، وكراهة أن تتعلق بشجرة فتخنقها أو تعوقها عن المضى فى سيرها.

ومن المحظور وقوف الراكب على الدابة وقوفًا يؤلمها، وقد ورد فى النهى عن هذا الصنيع حديث: «**إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر فإن الله إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس**» [3]. وذكر الغزالى أن أهل الورع من السلف كانوا لا يقفون على الدواب الوقوف الطويلة.

ومن الفنون التى يسلكها قساة القلوب فى تعذيب الحيوان تهييج بعض الحيوان على بعض، كما يفعل بين الكباش والديوك وغيرها، وهو من اللهو الذى حرمته الشريعة لما فيه من إيلام الحيوان وإتعابه فى غير فائدة، وفى سنن أبى داود والترمذى: «نهى رسول الله ﷺ عن التحريش بين البهائم» والتحريش بينها إغراء بعضها على بعض.

وإن شئت أن تزيد يقينًا بما جاء به الإسلام من الرأفة بالحيوان فانظر إلى ما رواه أبو داود عن عبدالرحمن بن عبدالله عن أبيه إذ قال: «كنا مع النبى ﷺ فى سفر

---

(١) مسلم وأبو داود.

(٢) أمر بقطع ما تقلد به من وتر القوس ثم أمر بقطع كل قلادة من أى صنف كانت.

(٣) رواه أبو داود.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فانطلق لحاجته فرأينا حمرة (١) معها فرخان فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت (٢) تعرش، فلما جاء رسول الله ﷺ قال: «**من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها**» ورأى قرية نمل قد أحرقناها، فقال: «**من أحرق هذه؟**» قلنا: نحن، قال: «**إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار**» (٣).

وقد نص علماؤنا على حرمة تمكين الصبي من التلهي بالطير على وجه فيه إيلام له، وأما ما ورد في الحديث من أن ابنًا فطيمًا لأم سليم كان يلعب بنغر (٤) فمحمول على أن ذلك التلهي لم يكن بحال تعذيب، كأن يكون الطير في قفص أو نحوه، أو يكون التلهي بمحضر أحد أبويه وهما يعلمان ما جاءت به الشريعة من النهي عن تعذيب الحيوان.

ونهى الشارع عن إيذاء الحيوان في وجهه نهيًا خاصًا، روى أنس أن رسول الله ﷺ: «**رأى حمارًا موسومًا على وجهه فقال: لعن الله من فعل هذا**» (٥).

وقال المقداد بن معد يكرب: «سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن لطم خدود الدواب».

أما شتم الحيوان ولعنه فأدنى ما يقال فيه إنه لغو من القول لا يصدر إلا ممن شأنه الرمي بألفاظ الشتم واللعن دون تدبر في معناها ولا قصد إلى موضعها، بل وردت الأحاديث في الزجر عن لعن الحيوان بطريقة بالغة، فإنا نقرأ في صحيح مسلم «أن امرأة كانت على ناقة فضجرت منها فلعنتها، فسمع رسول الله ﷺ ذلك، فقال: «**خذوا ما عليها وأعروها فإنها ملعونة**». وإنما أمر بإعراء الناقة مما عليها وإرسالها عقوبة لصاحبتها، وفي رواية «لا تصاحبنا ناقة عليها لعنة» وفي هذا الأسلوب من النهي مبالغة في الزجر عن لعن الحيوان، وكذلك كان النبي ﷺ يعمد إلى الشيء

---

(١) ضرب من الطير، وقيل: الحمرة: القبرة.

(٢) ترتفع وتظل بجانحيها.

(٣) أبو داود.

(٤) اسم لنوع من الطير، وقد بلغ هذا الخبر النبي ﷺ ولم ينقل إنكاره له.

(٥) رواه الطبراني والبزار.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الذى قد يظنه الناس هيناً فيزجر عنه بطريق أشد حتى ينصرفوا عنه جملة .

ومن فوائد النهى عن لعن الحيوان تطهير الألسنة من التعود على قول السوء ومتى ارتدعت النفوس عن لعن ما لا يفهم للعن معنى . كان ارتداعها عن لعن من تثور ثائرة غضبه أو غضب بعض أوليائه إذا لعن، أقرب وأولى .

هذه شذرات مما أوصى به الإسلام من الرفق بالحيوان، وإن شئت أن تعلم كيف كان أثرها فى نفوس من يقتدون بآدابه فى كل حال، فإليك مثلاً من آداب عدى بن حاتم أحد أفاضل الصحابة هو أنه كان يفت الخبز للنمل . ويقول : إنهن جارات ولهن حق (١) . ومن أدب الشيخ أبى إسحاق الشيرازى : أنه كان يمشى فى طريق يرافقه فيه بعض أصحابه، فعرض لهما كلب فزجره رفيق الأستاذ، فنهاه الأستاذ، وقال له : أما علمت أن الطريق بينى وبينه مشترك !

فقد رأيت كيف حاربت الشريعة السمحة طبيعة القسوة على الحيوان، وقررت للتصرف فيه أحكاماً مبنية على قاعدة الرفق بكل ذى كبد رطبة، ولعلك تنتبه مما تلوناه عليك أن الإسلام قد وضع لجمعيات الرفق بالحيوان أساساً يقيمون عليه دعوتهم، وما من نفس أو جمعية تدعو إلى ناحية من الخير إلا وجدت فى هذه الشريعة ما يؤيد دعوتها، ويهديها سبيل الرشد إذا تشابهت السبل عليها .

ooooo

---

(١) تهذيب الأسماء للنووى .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الباب الثالث

السنة والبدعة والاستشهاد بالحديث في اللغة

www.alukah.net

شبكة الألوكة - قسم الكتب

١

السُّـنة والبدعـة

شرع الله الدين الحنيف فى سماحة وحكمة، فلم يأت بما فيه حرج، أو بما ينبو العقل السليم عن قبوله، وكانت هذه السماحة والحكمة من أسباب انتشاره فى المعمورة وظهوره على الأديان كلها فى أعوام معدودة، وحيث بلى بعض الشرائع من قبل فدخلها فساد التبديل والتأويل، اشتدت عناية الشارع بتحذير الناس من أن يحدثوا الإسلام ما ليس منه. قال ﷺ: «**من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**» (١) وقال: «**كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة**» (١).

ولم يخلص الدين مع هذه الزواجر من طوائف يلصقون به ما ينافى سماحته، أو ما يشوه وجه حكمته، وقد كثرت هذه البدع حتى حجبت جانبًا من محاسنه، وكان لها أثر فى تنكر بعض القلوب لهدايته، وهذا ما حمل كثيراً من أهل العلم على أن يتناولوا البدع بالتأليف خاصة كما فعل أبو بكر الطرطوشى، وأبو إسحاق الشاطبى، وغيرهما من رجال الدين، وللبحث فى البدع مجال واسع ونحن نلم فى هذا المقال بالقدر الكافى لإجابة رسائل اقتراح أصحابها ببيان ما هو سنة، وما هو بدعة، وفى الفرق بين السنة والبدعة، وتمييز البدعى من السنى إصلاح كبير.

○ **السنـــة:**

معنى السنة فى أصل اللغة: الطريقة حسنة كانت أم سيئة. وقد تطلق على ما يقابل القرآن فيراد بها: قول النبى ﷺ وفعله وتقريره. ويطلقها الفقهاء على: ما يثاب على فعله ولا يعاقب على تركه مما فعله النبى ﷺ وواظب عليه، وتطلق على: ما يقابل البدعة فيراد بها ما وافق القرآن أو حديث النبى ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، وسواء كانت دلالة القرآن أو الحديث على طلب الفعل مباشرة أو بوسيلة القواعد المأخوذة منهما.

(١) صحيح الإمام البخارى.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وينتظم في هذا السلك عمل الخلفاء الراشدين والصحابة الأكرمين للثقة بأنهم لا يعملون إلا على بينة من أمر دينهم.

قال عمر بن عبدالعزيز: «سن رسول الله ﷺ وولاة الأمور بعده سننًا الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله من عمل بها مهتد، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين».

أما دلالة القرآن أو قول الرسول ﷺ على أن الأمر مشروع فواضحة، ولا شأن للمجتهد في صيغ الأوامر إلا أن يتفقه فيها حتى يحملها على الوجوب أو الندب، ويتدبر أمرها فيما إذا عارضها دليل آخر ليقضي بترجيح أحدهما على الآخر، أو يفصل في أن هذا ناسخ لذاك، وطرق الترجيح أو الحكم بالنسخ مقررة في كتب الأحكام.

والذي يستدعيه البحث في هذا المقال أن نحدثك عن فعله ﷺ وإقراره حتى تعلم الضرب الذي كان لنا فيه أسوة حسنة وسنة قائمة.

فمن أفعاله ﷺ ما يصدر عن وجه الجبلة أو العادة: كالقيام والقعود، والاضطجاع، والأكل والشرب، واللبس، وهذا الضرب غير داخل فيما يطلب فيه التأسي، وغاية ما يفيده فعله عليه الصلاة والسلام لمثل هذه الأشياء الإباحة، فإذا جلس رسول الله ﷺ أو قام في مكان أو زمان، أو ركب نوعًا من الدواب، أو تناول لونًا من الأطعمة، أو لبس صنفًا من الثياب، فلا يقال فيمن لم يفعل شيئًا من ذلك إنه تارك للسنة.

ومن أفعاله ﷺ ما علم اختصاصه به: كالوصال في الصوم والزيادة في النكاح على أربع، ولا نزاع في أن مثل هذا ليس محلا للتأسي وما كان لأحد أن يقتدي به فيما هو من خصائصه.

ومنها ما عرف كونه بيانًا للقرآن: كقطعه يد السارق من الكوع بيانًا لقوله تعالى: ﴿**فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا**﴾ [المائدة: ٣٨] وحكم الاقتداء به في هذا حكم المبين من وجوب أو استحباب.

ومنها ما لم يكن جبليًا ولا خصوصية ولا بيانًا: وهذا إذا علمت صفته في حقه

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ﷺ من وجوب أو ندب أو إباحة، فأمته تابعة له فى الحكم إذ الأصل تساوى المكلفين فى الأحكام.

فإن فعل ﷺ أمرًا ولم يقم دليل خاص على أنه فعله على سبيل الوجوب أو الندب أو الإباحة فهذا إما أن يظهر فيه معنى القربة؛ كافتتاحه الرسائل بكلمة «بسم الله الرحمن الرحيم» فيحمل على أقل مراتب القرب وهو الندب، وإما أن لا يظهر فيه معنى القربة فيدل على أنه مأذون فيه، ومن أهل العلم من يذهب به مذهب المندوب إليه نظرًا إلى أنه عليه السلام مشرع، فالأصل فى أفعاله التشريع، ومثال هذا إرساله عليه الصلاة والسلام شعر رأسه الشريف إلى شحمة الأذن، وهو عمل لا يظهر فيه معني القربة، ولكن بعض أهل العلم كالقاضى أبى بكر بن العربى وأبى بكر الطرطوشى جعلوه من مواضع الاقتداء، ورأى آخرون أن هذا محمول على العادة، فإذا جرت عادة قوم بنحو الحلق، فلا يوصفون بأنهم تركوا ما هو سنة.

ومما يشبه إرسال الشعر إلى الأذن إرساله عليه الصلاة والسلام ذؤابة من العمامة وهى المسماة «العذبة»، وقد ورد فى حديث عمرو بن حريث فى فتح مكة: «كأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ وعليه عمامة سوداء قد أرخى طرفها بين كتفيه» (١)، وحديث ابن عمر: «كان رسول الله ﷺ إذا اعتم سدل عمامته بين كتفيه» (٢).

وإذا كان إرسال ذؤابة من العمامة مما لا يظهر فيه معنى القربة يكون موضعًا لاختلاف أهل العلم، فمنهم من يجعله من قبيل ما يتأسى به، وإلى هذا يجنح أبو بكر بن العربى، وقد روى الترمذى عن ابن عمر وسالم والقاسم أنهم كانوا يفعلونه، ومنهم من يراه من قبيل العادة فلا يعد المتعمم من غير عذبة تاركًا لسنة، وهذه وجهة نظر من لم يكن يرسل العذبة من السلف. قال الإمام مالك: إنه لم ير أحدًا يفعله إلا عامر بن عبدالله بن الزبير (٣).

وقد يتقارب الحال فى بعض الأفعال، فلا يظهر جليًا أهو عادة أم شريعة، فتتردد فيه أنظار المجتهدين، نحو جلسة الاستراحة عند قيامه للثانية أو الرابعة، فذهب

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه الترمذى والنسائى.

(٣) باب العمائم من فتح البارى.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بعضهم إلى أنه لم يفعلها على وجه القربة فلا تدخل فى قبيل السنة، وعدها طائفة فيما يستحب من أعمال الصلاة.

ومما لم يظهر فيه معنى القربة: تقديم اسمه ﷺ فى الرسائل على اسم المرسل إليه، ولهذا لم يحافظ عليه بعض السلف محافظتهم على ما يفهمون فيه معنى القربة، فأجازوا تأخير اسم المرسل على اسم المرسل إليه، وسئل الإمام مالك عن ذلك فقال: لا بأس به، بل روى أن ابن عمر وهو من أشد الناس محافظة على السنة، قد كتب إلى معاوية ثم إلى عبدالملك بن مروان وقدم اسميهما على اسمه (١).

○ تركـــه:

وكذلك يفصل القول فى تركه ﷺ لبعض الأشياء، فما يتركه من أجل كراهته له جبلة كما امتنع من أكل الضب، ولما قال له خالد بن الوليد: أحرام هو يا رسول الله؟ قال: «لا ولكنه لم يكن بأرض قومى فأجدنى أعافه»، وليس تركه ﷺ للشىء على هذا الوجه من مواضع التأسى، وشاهده أن خالداً - رضى الله عنه - سمع هذا الجواب وما لبث أن جر إليه الضب فأكله.

ويجرى على هذا النحو ما يتركه ﷺ لتحريم يختص به كتركه أكل الثوم وما شاكله من كل ذى رائحة كريهة، فلغيره من المسلمين تناوله ولا يكون بتناوله هذا خارجاً عن حدود قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فإن لم يكن تركه عليه الصلاة والسلام من ناحية الجبلة، ولم يثبت أنه كان لمنع يختص به، فإن علم حكم هذا الترك فى حقه من حرمة أو كراهة، كانت الحرمة أو الكراهة شاملة لأمته بحجة أن الأصل عدم الخصوصية. فإن ترك عليه الصلاة والسلام أمراً ولم يعلم حكم هذا الترك، دل على عدم الإذن فى الفعل، وأقل مراتب عدم الإذن الكراهة فيحمل عليها حتى يقوم الدليل على ما فوقها وهو التحريم.

---

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد بسند صحيح.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وإذا ترك ﷺ الأمر لمانع من الفعل يصرح به أو يفهمه المجتهد بطريق الاستنباط ثم يزول هذا المانع فإنه يصح النظر بعد فى أمر المتروك ويجرى حكمه على ما تقضيه أصول الشريعة، كما ترك ﷺ صلاة القيام فى رمضان جماعة، وذكر أن المانع من استمراره عليها خوف افتراضها عليهم، ولما انقطع الوحى بانتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ارتفع المانع من صلاة التراويح جماعة؛ وهو خوف الافتراض فلم يبق فى تركها موضع للتأسى، ولذلك رجع بها عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إلى الأصل الذى هو فعل النبى ﷺ لها فى جماعة.

ومن هذا الباب تركه ﷺ لقتل حاطب بن أبى بلتعة حين اطلع على كتاب أرسله إلى قريش يخبرهم فيه ببعض أمر رسول الله ﷺ، وقال رداً على عمر بن الخطاب إذ قال له: دعنى أضرب عنق هذا المنافق: «**إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**» (١) ففى ظاهر الحديث تعليل عدم قتله بشهوده واقعة بدر، فمن لم تتحقق فيه هذه المزية ممن يتجسسون على المسلمين، ويبلغون أخبارهم للمحاربين يبقى أمره موكولاً لاجتهاد الإمام ليجازيه بما تقتضيه المصلحة ولو بالإعدام، وهذا ما يقوله إمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله.

وإذا ترك ﷺ أمراً لم يظهر فى عهده ما يقتضى فعله ثم طرأ حال يجعل المصلحة فى الفعل، ارتفع طلب التأسى فى الترك، وأصبح ذلك الأمر مجالاً لنظر المجتهد حتى يفصل له حكماً على قدر المصلحة الداعية إلى فعله.

ومثال هذا: أن الرسول ﷺ لم يجمع القرآن فى مصحف، إذ لم يظهر فى عهده ما يدعو إلى هذا الجمع، ولكن كثرة من قتل فى حرب أهل الردة من القراء أثارت الخوف على القرآن من الضياع، ورأى الخليفة الأول صحة الجمع لهذا المقتضى الذى لم يكن فى عهد الوحى قائماً.

ولا يدخل فى الترك الذى نتحدث عنه عدم فعله ﷺ لأمور لم تكن وسائلها قد تهيأت، ولا الفنون التى يتوقف عليها إنشاؤها قد ظهرت، فلا يخطر على البال أن

---

(١) صحيح الإمام البخارى.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

نمنع من وضع آلات تعرف بها الأوقات فى المساجد، ونستند فى هذا المنع إلى أن النبى ﷺ لم يفعل هذا فى مسجده الشريف، وليس من الفقه أن نرد الخبر بثبوت شهر رمضان يأتى على طريق البرق أو المسرة بدعوى أن الأخذ به مخالف للسنة إذ لم يأخذ النبى ﷺ فى إثبات الشهر إلا بشهادة يؤديها من فى حضرته وإنما يعد مثل هذا من قبيل المسكوت عنه، فلأهل العلم أن يتناولوه بالاجتهاد ويلحقوه بالأصل الذى يصح تطبيقه عليه.

والترك الذى يدل على عدم الإذن هو ما يروى فى لفظ صريح، كتركه ﷺ الأذان والإقامة ليوم العيد، وتركه غسل شهداء أحد والصلاة عليهم، ويلحق بهذا تركه الذى لم ينقل بلفظ صريح ولكنه يفهم من عدم نقلهم للفعل الذى شأنه أن تتوفر الدواعى على نقله لو وقع. فيصح لنا أن نقول: من السنة ترك رفع الأصوات بالذكر أمام الجنازة، ويكفى فى الاستشهاد على أن السنة ترك هذا الرفع عدم نقلهم لفعله، وهو من الأمور التى لو فعلت لتوفرت الدواعى على نقلها.

وقد وردت أحاديث دلت على أن الصحابة - رضى الله عنهم - كانوا يتركون الأمر لمجرد ترك النبى ﷺ له، كما ورد أنه ﷺ خلع نعله فى صلاة فخلعوا نعالهم حتى أخبرهم بعد بأنه علم من طريق الوحى أن بالنعل نجاسة (١).

ومن شواهده أنه كان عليه الصلاة والسلام اتخذ خاتمًا من ذهب، فاتخذوا خواتيم من ذهب ثم نبذه، وقال: «**إنى لن ألبسه أبدًا**» فنبذوا خواتيمهم (٢).

ومن عرف مسابقة الصحابة - رضى الله عنهم - إلى الاقتداء برسول الله ﷺ حتى فى ترك المكروه، لم يجد فى أمثال هذا الحديث دليلاً كافيًا على أن تركه ﷺ للشىء. يحمل على أشد مراتب النهى وهو التحريم، وحرمة استعمال خاتم الذهب مأخوذة من الأحاديث الدالة على حرمة استعمال الذهب زينة للرجال.

---

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود.
(٢) صحيح الإمام البخارى.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

○ **تقـريـره:**

من مقتضى ما تقرر من عصمته ﷺ وأمانته فى التبليغ أن لا يقر أحداً على أمر غير مأذون فيه شرعًا، فيكون إقراره للأمر دليلاً على أنه لا حرج فى فعله، سواء شاهده بنفسه فسكت أو بلغه فلم ينكره، وما لا حرج فيه يشمل الواجب، والمندوب، والمباح، فيحمل على أقل مراتبه وهو الجواز حتى يقوم الدليل على الندب أو الوجوب، ولا يدل الإقرار على جواز الفعل فى حق من أقره النبى ﷺ وحده، بل يكون الجواز حكمًا شاملاً لجميع المكلفين أخذاً بالأصل الذى هو استواء الناس فى أحكام الشريعة، فليس لأحد أن يعد اللعب فى المسجد بالسلاح تمريناً على الحرب أمراً مخالفًا للسنة، بعد أن ثبت أن النبى ﷺ أقر الحبشة على اللعب فى مسجده بالحراب، وليس لأحد أن ينكر على المعتدة عدة وفاة إذا خرجت للاستفتاء، بعد أن ثبت أن قريعة بنت مالك خرجت بعد وفاة زوجها تستأذن رسول الله ﷺ فى موضع العدة، فقال لها: «امكثى حتى تنقضى عدتك» ولم يتعرض لخروجها بإنكار.

ويتصل ببحث السنة مسألتان جرى فيهما اختلاف علماء الشريعة:

إحداهما: ما يقوم الدليل على أنه سنة ثم يتهاون فيه الناس، ولا يحتفظ به إلا فريق عرفوا باسم المبتدعة من ناحية اعتقاد أو عمل وقد ذهب بعض الفقهاء إلى ترك هذه السنة احتراسًا من التشبه بالمبتدعة، وضرب المثل لهذا بتسطيح القبور والتختم باليمين، والحق أن محافظة بعض المبتدعة على سنة حتى تصير شعاراً لهم لا يخرجها عن حقيقة السنة، ولا يزال خطاب الاقتداء بالنبى ﷺ فيها متوجهًا إلى أولئك الذين تركوا السنة حتى يعودوا إليها.

ثانيتهما: ما يخشى من فعله اعتقاد العامة لوجوبه، فقد راعى بعض الأئمة مفسدة اعتقاد العامة لوجوب ما هو مندوب إليه. كما ذهب الإمام مالك إليه: كراهة صوم ستة أيام من شوال مع صحة الحديث الوارد فى فضله، خشية أن يعتقد العامة وجوبها، قال أبو إسحاق الشاطبى: والذى خشى منه مالك وقع فى العجم. فصاروا يتركون المسحرين على عادتهم والبواقين.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وكذلك قال أبو إسحاق المروزى من أصحاب الإمام الشافعى : لا أحب أن يداوم الإمام على مثل أن يقرأ كل يوم جمعة بسورة الجمعة ونحوها، لئلا يعتقد العامة وجوبه، والجمهور لا يقيمون للخوف من اعتقاد العامة وزنًا، والتبعة فى مثل هذا على أهل العلم إذ هم المطالبون بتعليم الناس آداب دينهم وهدايتهم إلى سبيل ربهم.

وانظروا إلى ما صنع عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - حين قبل الحجر الأسود وقال: «إنى أعلم أنك لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك» (١)، فقد جمع بين الأخذ بالسنة ودفع ما عساه يخطر فى أذهان العامة من اعتقاد فاسد.

○ البدعــة:

البدعة فى اللغة: الأمر المحدث على غير مثال. محمودًا كان الأمر أم مذمومًا ووردت البدعة فى لسان الشارع.

وذهب الفقهاء فى الحديث عنها مذهبين:

أحدهما: مذهب من يتوسع فى معناها فيحملها على ما أحدث بعد عهد النبوة سواء أكان راجعًا إلى العبادات أم المعاملات، وسواء أكان حسنًا أم قبيحًا.

قال الإمام الشافعى - رضى الله عنه -: «المحدثان من الأمور ضربان: **أحدهما**: ما أحدث يخالف كتابًا أو سنة أو أثرًا أو إجماعًا فهذه البدعة الضلالة. **والثانى**: ما أحدث من الخير، وهذه محدثة غير مذمومة». وعلى هذه الطريقة جرى عز الدين بن عبدالسلام إذ قسم البدعة إلى: واجبة كوضع علم العربية وتعليمه. ومندوبة كإقامة المدارس، ومكروهة كتزويق المساجد، ومحرمة كتلحين القرآن بحيث تتغير ألفاظه عن الوضع العربى، ومباحة كوضع الأطعمة على الموائد ألوانًا.

ثانيهما: مذهب من يفسر البدعة بالطريقة المخترعة على أنها من الدين وليست من الدين فى شىء، فهى مذمومة فى كل حال، ولا يدخل فى حقيقتها واجب أو مندوب أو مباح، وعلى هذا المعنى ورد قوله ﷺ: «**وكل بدعة ضلالة**».

---

(١) صحيح الإمام البخارى.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وهذا ما يريده الإمام مالك - رضى الله عنه - فى قوله: « من ابتدع فى الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة لأن الله تعالى يقول: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي** ﴾ [المائدة: ٣].

وأصحاب هذه الطريقة يحملون قول عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فى صلاة التراويح: « نعمت البدعة هذه » على معنى البدعة فى اللغة، كما أن أصحاب الطريقة الأولى يذهبون فى قوله ﷺ: « **وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة** » (١) إلى أن المراد من المحدثة والبدعة نوع خاص من المحدثات والبدع وهو ما كان مخالفاً للكتاب والسنة.

والابتداع: إما إحداث أمر فى الدين غير مشروع من أصله. كصلاة الرغائب فى رجب، وصلاة ليلة عاشوراء، وإما زيادة على أمر مشروع، كالذكر يقرن بالرقص فى حركات متطابقة، وإما نقص من المشروع، كالذكر باسم مفرد فى رأى من يعده بدعة، نظراً إلى أن الوارد إنما هو ذكر الله بلفظ مركب مفيد، وإما تحويل المشروع عن موضعه كتقديم خطبة العيد على صلاته.

ويدخل فى البدع كل عمل استند صاحبه فى ابتداعه إلى حديث موضوع كالرقص فى حال الذكر الذى يروى فيه فاعلوه حديثاً موضوعاً هو « أن النبي ﷺ تواجد واهتز حتى سقط الرداء عن منكبه »، أما الحديث الضعيف يدل على فضل عمل خاص فينفى عن العمل اسم البدعة بشرط أن لا يكون ضعيفاً جداً، وأن يشهد لما رغب فيه من العمل أصل عام من أصول الشريعة.

ويدخل فى البدعة ترك المأذون فيه على وجه التدين، وتسمى البدعة التركية، وقد سدت الشريعة الطريق دون هذه البدعة، إذ هم قوم أن يقعوا فى خطيئتها، فقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ** ﴾ [المائدة: ٧٨]، ولم تعد هذه البدعة بعد نزول الآية أناساً يتعلقون بها وحسبون أنهم يتقربون إلى الله لاتزامها. وإنما انحدروا إليها من ناحية الزهد، وللزهد مواطن لا يدخل ترك الطيبات فى حدودها.

---

(١) أخرجه مسلم.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

دعى الحسن البصرى إلى طعامه ومعه أصحابه وفرقد السبخى [1]، فقعدوا على المائدة وعليها ألوان الدجاج المسمن والفالوذج وغير ذلك، فاعتزل فرقد ناحية؛ فسأل الحسن أهو صائم؟ قالوا: لا، ولكنه يكره هذه الألوان، فأقبل الحسن عليه وقال: يا فرقد أترى لعاب النحل بلباب البر بخالص السمن، يعيبه مسلم؟!

ومن البدع التى يلبسها بعض المتصوفة بدعوى الزهد أثواب ينشئونها من قطع مختلفة، وتسمى المرقعات. قال القاضى أبو بكر بن العربى فى كتاب العارضة: إن الثوب إذا خلق منه جزء كان طرح جميعه من الكبر والمباهاة والتكاثر فى الدنيا، وإذا رقعه كان بعكس ذلك كله، ورقع الخلفاء ثيابهم، والحديث مشهور عن عمر، وذلك شعار الصالحين وسنة المتقين حتى اتخذه الصوفية شعاراً، فجعلته فى الجديد وإنشاء مرقعة من أصلها، وهذا ليس سنة، بل هو بدعة عظيمة داخل فى باب الرياء، وإنما المقصود بالترقيع استدامة الانتفاع بالثوب على هيئة البلى.

ومن أقبح البدع ما يوضع موضع سنة كالاستخارة بنحو المصحف والسبحة بدل الاستخارة الواردة فى السنة التى هى صلاة ركعتين بالفاتحة وسورتى «الكافرون والإخلاص»، ثم الدعاء: «اللهم إنى أستخيرك بعلمك... إلخ»، ولو قال إنسان لآخر عند الملاقاة: «صباح الخير» أو «أسعد الله صباحكم» مثلا - فى موضع السلام عليكم لعد صنيعه هذا من قبيل وضع المحدث مكان السنة، غير أن الفرق بين هذا المثال وما تقدمه أن الاستخارة بنحو المصحف والسبحة ممنوعة فى نفسها.

قال القاضى أبو بكر بن العربى فى كتاب الإحكام بعد أن تكلم على التعرض للغيب: فإن قيل فهل يجوز طلب ذلك فى المصحف؟ قلنا: لا يجوز، فإنه لم يتبين المصحف ليعلم به الغيب، إنما بينت آياته، ورسمت كلماته ليمنع عن الغيب، فلا تشتغلوا به ولا يتعرض أحدكم له. وأما نحو «أسعد الله صباحكم» فإنما ينكر حيث يوضع موضع تحية الإسلام، فلو أضيف إلى التحية الإسلامية لم يكن فى إضافته إليها من بأس.

---

(1) السبخة موضع بالبصرة ينسب إليه فرقد لأنه كان يأوى إليه.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ومما يفعله بعض الناس بدل حكاية الأذان والدعاء: (اللهم رب هذه الدعوة التامة.. إلخ) الثابتين فى الصحيح أن يقول الشخص: «مرحباً بحبيبى وقرة عينى محمد بن عبدالله ﷺ» ثم يقبل إبهاميه ويجعلهما على عينيه، ولا نعلم لهذا الذى يفعلونه من سند يوثق به حتى يصح أن يقام مقام سنة ثابتة.

ولا يدخل فى البدعة ما يفتى به البالغ درجة الاجتهاد وإن خالف الجمهور، وإنما هو رأى مرجوح وآخر راجح، إلا أن تكون الفتوى مخالفة للنص الجلى من القرآن أو السنة، أو القواعد القاطعة أو الإجماع. فإن الفتوى تكون حينئذ زلة لا يصح البقاء عليها أو المتابعة فيها.

والشاهد على ما نقول من أن الأعمال التى تسند إلى آراء اجتهادية ولو كانت مرجوحة لا تسمى بدعة، أن الأئمة المجتهدين يرون أقوال مخالفيهم بالنسبة إلى أقوالهم مرجوحة، ولا ينسبونهم إلى ضلال، ولا ينكرون علي من يقتدى بهم فى المذهب، وإجماعهم على أن حكم الحاكم يرفع الخلاف، شاهد على أن المجتهد لا يرى أن العمل بقول مخالفه بدعة، ولو كان فى نظره بدعة لما أفتى بإقراره وهو يعد أن كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار فلا نسمى الصلاة لغير الخسوف والكسوف كالزلزلة والريح الشديدة بدعة وضلالة، وصاحبها مبتدعاً ضالاً لأنها مشروعة عند بعض الأئمة وإن كانت أدلتهم فيما نرى أو يرى بعض الأئمة واهية مرجوحة.

نقول هذا تحذيراً من قوم لم يدرسوا أصول الدين ولم يتعرفوا مقاصد الشريعة ولمجرد ما يتلون آية أو حديثاً ويبدو لهم - وهم أشباه العامة - أن ما يقوله الإمام فلان أو الأئمة الأربعة مخالف للآية أو الحديث، يعجلون إلى الإنكار، ولا يبالون أن يسموا العمل على ما ظهر لهم من أنه مخالف لنص الكتاب أو السنة بدعة، وصاحبها مبتدعاً.

وإذا كان فى أشباه العامة من يقرأ الحديث فى صحيح الإمام البخارى أو الإمام مسلم مثلاً، ولا يحسن أن يتفقه فيه على مقتضى أصول الشريعة، فيخف إلى الطعن فى مذاهب الأئمة حتى ينبزها بلقب البدعة، فإن فى المستضعفين من أهل العلم من يعمد إلى أعمال يبتدعها العامة مخالفة للنصوص الجلية أو القواعد

www.alukah.net
شبكة الألوكة

القطعية، فيتطلب لها مخرجًا يبتغى بها مرضاتهم ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢].

ومن أضر البدع ما يكون إتلافًا للمال وإنفاقًا فى غير جدوى كإيقاد الشموع على قبور الأولياء بقصد القربة، ومن أجلبها للخسار ما يعوق عن فعل خير كالاستخارات غير الشرعية، فقد يتفق لفاتح المصحف أن يقع نظره على آية فيها معنى النهى - مثلاً - فيترك الأمر ويكون فى فعله لو استشار أو اعتمد على الاستخارة الشرعية خير كثير.

ومن شرها ما يفعل بدعوى القربة ويكون فى الواقع مثيرًا للأهواء، مبعدًا للنفوس عن التقوى، كهذه الأشعار التى توصف فيها الخمور والغوانى والغلمان، ولا يتحاشى فيها عن ذكر العشق والهجر والوصال والعيون والثغور والرضاب، ويتغنى بها فى المجامع بزعم أنها كنايات أو إشارات لها تعلق بالحضرة الإلهية أو النبوية.

ومن أسوأ البدع ما يضاهى به بعض طرق المخالفين، كهذا الذى يدعو إليه بعض الزائغين أو المغفلين من إقامة خليفة (روحى). لا جند له ولا سلاح ولا يملك من تنفيذ الأحكام الشرعية قليلاً ولا كثيرًا، يدعو إليه الزائغون لأنهم يريدون اتخاذه رمزًا لفصل الدين عن السياسة، ويدعو إليه بعض المغفلين لأنهم لم يتنبهوا لسريرة الزائغين أو لما قصد الشارع فى إقامة الخليفة من مصلحة اتحاد كلمة المسلمين وتنفيذ أحكام شريعته الغراء، وإنما يتحد المسلمون تحت راية من يحترمونه لعدله وجهاده فى الحق جهادًا يطمس على أثر الباطل، وإنما يقيم أحكام الشريعة على وجهها من يكون فى لسانه حجة وفى يده قوة.

ومن البدع التى جاء الإسلام ليقتلعها من منبتها أعمال يبنيها أصحابها على زعم أنها تقى من الجن، وليس بينها وبين هذه الوقاية من صلة كذبح حيوان، أو صنع طعام، باعتقاد أنه يجلب رضاهم، ويكون سببًا لدفع ضرر يتوهم أنه يجىء من ناحيتهم، ذكر لابن شهاب: أن إبراهيم بن هشام المخزومى أجرى عينًا فقال له بعض المهندسين عند ظهور الماء: لو أهرقت عليها دمًا كان أحرى أن لا تغيض ولا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

تفور فتقتل من يعمل فيها . فنحر جزائر (١) حتى جرى الماء مختلطًا بالدم، وأمر فصنع له ولأصحابه منه طعام . فقال ابن شهاب : أما بلغه أن النبى ﷺ نهى أن يذبح للجن ؟ .

وقد عرفت أن ترك السنة لا يستدعى فعل بدعة، إلا أن تترك السنة على اعتقاد أن خير الدين فى تركها فيكون من قبيل البدعة التركية . كمن يترك الصلاة فى جماعة بدعوى أن صلاته فى حال انفراد أجمع للقلب وأدعى للخشوع، أما من ترك السنة لغرض دنيوى فلا يسمى لمجرد تركه السنة مبتدعًا، كما اعتاد الناس ترك تشميت (٢) الرؤساء مهابة لهم ولو حمدوا الله تعالى بعد العطاس . عطس المأمون مرة فى محضر جماعة فلم يشمته أحد . فقال لهم : لماذا لم تشمتونى ؟ قالوا : هبناك، فقال : لا خير فى مهابة تحرمنى من رحمة الله، وإنما أمات هذه السنة فى مجالس الرؤساء استنكاف بعضهم من الرد على من يشمتهم، وما كان لهم أن يستنكفوا .

وإذا كانت البدع تشوه وجه الدين الحنيف فى نظر من يجهلون حقائقه فضلا عما تجره من المفاسد العظيمة والمآثم، فمن الواجب على أهل العلم أن يحاربوها بما استطاعوا، وعلى القوة الحاكمة أن تشد أزرهم فى تغييرها . وكثير من البدع لا تقتلع عروقها ويطمس على آثارها إلا أن تتعاضد القوتان العلمية والتنفيذية على إماتتها، قال عز الدين بن عبدالسلام فى رسالة (٣) أنكر فيها بدعة صلاة الرغائب : « ولما صح عند الملك الكامل - رحمه الله - أنها من البدع المفتراة على رسول الله ﷺ أبطلها من الديار المصرية، فطوبى لمن تولى شيئًا من أمور المسلمين فأعان على إماتة بدعة أو إحياء سنة » .

ومن أشد البدع وأشنعها : السفور ورفع الحجاب عن المرأة . وحلق اللحية للرجال . ونأمل من أولى الأمر العمل الجاد على تلافى هذه البدع وتثبيت حقائق الإسلام الثابتة .

---

(١) جمع جزور وهى الناقة المجزورة أى المنحورة .

(٢) تشميت العاطس الدعاء له .

(٣) أوردها ابن السبكى فى طبقات الشافعية جـ٤ ، ص ١٠٥ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٢

الاستشهاد بالحديث في اللغة

يستند علماء العربية فى إثبات الألفاظ اللغوية، وتقرير الأصول النحوية إلى القرآن المجيد، وكلام العرب الخلص، وجرى بينهم الخلاف فى الاحتجاج بما يروى من الأحاديث النبوية.

ومتى رأينا أن الحق فى جانب من يراها حجة كافية فى اللغة، كان مجال البحث فى علوم اللغة أوسع، ووجدنا من المساعدة على إعلاء شأن اللغة ما لا نجده عندما نقصر الحجة فى القرآن الكريم، وما يبلغنا من كلام عربى فصيح.

○ ما المراد من الحديث؟:

تشتمل كتب الحديث على أقوال النبى ﷺ وعلى أقوال الصحابة: تحكى فعلاً من أفعاله عليه السلام أو حالاً من أحواله، أو تحكى ما سوى ذلك من شئون عامة أو خاصة تتصل بالدين. بل يوجد فى كثير من كتب الحديث أقوال صادرة عن بعض التابعين. وكذلك نرى المؤلفين فى غريب الحديث يوردون ألفاظًا من أقوال رسول الله ﷺ، أو أقوال الصحابة، أو أقوال بعض التابعين كعمر بن عبدالعزيز - رضى الله عنه -.

وهذه الأقوال المنسوبة إلى الصحابة أو التابعين متى جاءت من طريق المحدثين تأخذ حكم الأقوال المرفوعة إلى رسول الله ﷺ من جهة الاحتجاج بها فى إثبات لفظ لغوى، أو قاعدة نحوية.

○ هل فى الحديث ما لا شاهد له فى كلام العرب؟:

يرد فى الحديث ألفاظ لا يعرف لها علماء اللغة شاهداً فى كلام العرب، وترد بعض الألفاظ على وجه من الاستعمال لا يعرف إلا من الحديث، وكثيراً ما يقول

شبكة الألوكة - قسم الكتب

شراح غريب الحديث، وهم من جهابذة علماء اللغة: هذا اللفظ لم يجئ إلا فى الحديث، ولم نسمعه إلا فيه.

وقال أبو بكر محمد بن قاسم الأنبارى أحد المؤلفين فى غريب الحديث: «وكذلك أشياء كثيرة لم تسمع إلا فى الحديث» (١).

وتكلم أبو موسى محمد بن أبى بكر الأصفهانى فى كتاب الغريب عن الألفاظ التى لم ترد إلا فى بعض روايات الحديث فقال: وإنما أورد نحو هذه الألفاظ لأن الإنسان إذا طلبه لم يجده فى شىء من الكتب فيتحير. فإذا نظر فى كتابنا عرف أصله ومعناه.

ومن أمثلة هذا النوع كلمة «إستارة» وردت فى حديث «أيما رجل أغلق بابه على امرأته وأرخى دونها إستارة فقد تم صداقها». لقد قال شراح الغريب: لم تستعمل إستارة إلا فى هذا الحديث (٢).

ومن أمثلته كلمة «أفلج» من الفلج أى تباعد ما بين الثنايا، فقد وردت فى وصف ابن أبى هالة للنبى ﷺ غير مضافة إلى الأسنان، وابن دريد وصاحب القاموس يقولان: لا يقال رجل أفلج إلا إذا ذكر معه الأسنان.

○ الخلاف فى الاحتجاج بالحديث:

ذهب جماعة من النحاة إلى أن الحديث لا يستشهد به فى اللغة، أى: لا يستند إليه فى إثبات ألفاظ اللغة ولا فى وضع قواعدها، ومن هذه الجماعة أبو الحسن على ابن محمد الأشبيلى المعروف بابن الضائع (٣)، وأثير الدين محمد بن يوسف المعروف بأبى حيان (٤).

وزعم أبو حيان أنه مذهب المتقدمين والمتأخرين من علماء العربية، فقال فى شرح كتاب التسهيل: «إن الواضعين الأولين لعلم النحو المستقرئين للأحكام من لسان العرب كأبى عمرو، وعيسى بن عمر، والخليل، وسيبويه، من أئمة البصريين،

(١) النهاية لابن الأثير: فى مادة «هرو».
(٢) النهاية لابن الأثير: مادة «ستر».
(٣) توفى سنة ٦٨٠هـ.
(٤) توفى سنة ٦٧٢ .

والكسائى، والفراء، وعلى بن مبارك الأحمر، وهشام الضرير، من أئمة الكوفيين، لم يفعلوا ذلك – أى لم يحتجوا بالحديث – وتبعهم على هذا المسلك المتأخرون من الفريقين وغيرهم من نحاة الأقاليم كنحاة بغداد وأهل الأندلس».

وأجاز قوم الاحتجاج بالحديث فى اللغة، وعدوه فى الأصول التى يرجع إليها فى تحقيق الألفاظ وتقرير القواعد، وممن عرف بهذا المذهب محمد بن عبدالله المعروف بابن مالك (١)، وعبدالله بن يوسف المعروف بابن هشام (٢).

وممن انتصر لهذا المذهب البدر الدمامينى فى شرحه للتسهيل والعلامة ابن الطيب فى شرحه لكتاب الاقتراح، وفى شرحه لكفاية المتحفظ المسمى بتحرير الرواية، وعد من أصحاب هذه المذاهب الجوهرى وابن سيده وابن فارس وابن خروف وابن جنى وابن برى والسهيلى، حتى قال: لا نعلم أحداً من علماء العربية خالف فى هذه المسألة إلا ما أبداه الشيخ أبو حيان فى شرح التسهيل وأبو الحسن الضائع فى شرح الجمل وتابعهما على ذلك الجلال السيوطى.

○ وجهة نظر المجوزين:

يستند هؤلاء إلى الإجماع على أنه ﷺ أفصح العرب لهجة، كما قال ابن حزم فى كتاب الفصل منكرا على من لم يجعلوا الحديث حجة فى اللغة «لقد كان محمد بن عبدالله قبل أن يكرمه الله بالنبوة، وأيام كان بمكة، أعلم بلغة قومه وأفصح، فكيف بعد أن اختصه الله للنذارة واجتباه للوساطة بينه وبين خلقه».

وقالوا: إن الأحاديث أصح سنداً مما ينقل من أشعار العرب كما قال صاحب المصباح بعد أن استشهد بحديث «من أثنيتم عليه بشر وجبت» على صحة إطلاق الثناء على الذكر بشر «قد نقل هذا العدل الضابط عن العرب الفصحاء عن أفصح العرب، فكان أوثق من نقل أهل اللغة، فإنهم قد يكتفون بالنقل عن واحد ولا يعرف حاله».

وقد عرفت أن المانعين من الاحتجاج بالحديث معترفون بأن الرسول ﷺ أفصح العرب لسانًا، وأبرعهم بيانًا، ولا ينازعون فى أن أسانيد الأحاديث أقوى من أسانيد

(١) توفى سنة ٧٤٥.
(٢) توفى سنة ٧٦١.

الأشعار، وإنما استندوا فى المنع إلى أن الأحاديث قد تروى بالمعنى، بخلاف شعر العرب أو منثورهم فإن رواته اعتنوا بألفاظه، لأن الغرض من روايته تقرير أحكام الألفاظ، قال ابن الضائع فى شرح الجمل: «لولا تصريح العلماء بجواز النقل بالمعنى فى الحديث لكان أولى وأثبت فى إثبات فصيح اللغة كلام رسول الله ﷺ».

وأظهر وجه يورده المجيزون أن الأصل رواية الحديث الشريف على نحو ما سمع، وأن أهل العلم قد شددوا فى ضبط ألفاظه والتحرى فى نقله، ولهذا الأصل تحصل غلبة الظن بأن الحديث مروى بلفظه، وهذا الظن كاف فى إثبات الألفاظ اللغوية، وتقرير الأحكام النحوية.

○ **وجهة نظر المانعين:**

قالوا: لا يستشهد بالحديث لعدم الوثوق بأن ذلك لفظ رسول الله ﷺ، وانتفت الثقة من أنه لفظ الرسول لأمرين:

أحدهما: أن الرواة جوزوا النقل بالمعنى، فتجد القصة الواحدة قد جرت فى زمانه ﷺ فتنقل بألفاظ مختلفة كحديث «زوجتكها بما معك من القرآن»، وفى رواية أخرى «ملكتكها بما معك من القرآن»، وفى ثالثة: «خذها بما معك من القرآن»، وفى رابعة: «أمكناكها بما معك من القرآن». نعلم يقينًا أنه ﷺ لم يلفظ بجميع هذه الألفاظ، بل لا نجزم بأنه قال بعضها، إذ يحتمل أنه قال لفظًا آخر مرادفًا لهذه الألفاظ فأتى الرواة بالمراد منه، ولم يأتوا بلفظه، إذ المطلوب إنما هو نقل المعنى، وأضافوا إلى هذا أن الرواة لم يكونوا يضبطون الحديث بالكتابة اتكالاً على الحفظ، وأن الضابط منهم من يحتفظ بالمعنى، وأما ضبط اللفظ فبعيد جداً ولاسيما ألفاظ الأحاديث الطويلة.

ثانيهما: أنه وقع اللحن فى كثير مما روى من الأحاديث، لأن كثيراً من الرواة لم ينشئوا فى بيئة عربية خالصة حتى يكونوا عربًا بالفطرة، بل كانوا قد تعلموا العربية الفصحى من طريق صناعة النحو.

○ **مناقشتهم لأدلة المانعين:**

يقول المانعون: إن الرواة كانوا ينقلون الأحاديث بالمعنى، فلا ثقة لنا من أن اللفظ الذى روى به الحديث هو لفظ رسول الله ﷺ.

وأجاب المجيزون على هذا بأن كثيراً من المحدثين والفقهاء والأصوليين قد ذهبوا إلى منع رواية الحديث بالمعنى، ومن أجازوا الرواية بالمعنى شرطوا لذلك أن يكون الراوى على علم بما يغير المعنى أو ينقصه، وأن يكون محيطًا بمواقع الألفاظ، بل قال بعضهم: شرطه أن يحيط بدقائق علم اللغة، وأن تكون المحسنات الفائقة على ذكر منه فيراعيها فى نظم كلامه. على أن المجيزين للرواية بالمعنى معترفون بأن الرواية باللفظ هى الأولى، وإذا كانت الرواية بالمعنى ليست فى رأيهم سوى رخصة فإنهم لا يحتجون لها إلا فى حال ضرورة، وأضافوا إلى هذا أن النقل بالمعنى إنما أجازه من أجازه فى غير ما لم يدون فى الكتب، أما ما دون فى الكتب فلا يجوز التصرف فيه بوجه، وتدوين الأحاديث وقع فى الصدر الأول قبل أن تفسد اللغة، وإذا كان قد وقع فى الأحاديث المدونة نقل بالمعنى فإنما هو تصرف ممن يصح الاحتجاج بأقوالهم.

وإليك ما قاله البدر الدماميني وما حكاه عن شيخه ابن خلدون فى الرد على من يمنعون الاستشهاد بالحديث قال فى حواشيه على المغنى: أسقط أبو حيان الاستدلال على الأحكام النحوية بالأحاديث النبوية باحتمال رواية من لا يوثق بعربيته إياها بالمعنى، وكثيراً ما يعترض على ابن مالك فى استدلاله بها، ورده شيخنا ابن خلدون بأنها على تسليم أنها لا تفيد القطع بالأحكام النحوية تفيد غلبة الظن بها، لأن الأصل عدم التبديل، لاسيما والتشديد فى ضبط ألفاظها، والتحرى فى نقلها بأعيانها، مما شاع بين الرواة، والقائلون منهم بجواز الرواية بالمعنى معترفون بأنها خلاف الأولى، وغلبة الظن كافية فى مثل تلك الأحكام بل فى الأحكام الشرعية، فلا يؤثر فيها الاحتمال المخالف للظاهر، وبأن الخلاف فى جواز النقل بالمعنى فى غير ما لم يدون فى كتب.

أما ما دون فلا يجوز تبديل ألفاظه بلا خلاف كما قاله ابن الصلاح[1]. وتدوين الأحاديث وقع في الصدر الأول قبل فساد اللغة العربية، وحين كان كلام أولئك – على تقدير تبديلهم – يسوغ الاحتجاج به، وغايته يومئذ تبديل لفظ يحتج به بآخر كذلك، ثم دون ذلك البدل ومنع من تغييره ونقله بالمعنى فبقى حجة فى بابه صحيحة، ولا يضر توهم ذلك الاحتمال السابق فى استدلالهم بالمتأخر.

وقد ناقش بعض شارحى[2] كتاب الاقتراح ابن خلدون، فقال: إن تدوين الأحاديث وقع بعد فساد اللغة، وقال: لم يحصل التدوين إلا فى عصر التابعين، ووقع يومئذ الاختلاط فى اللغة، والرواية بالمعنى لم تقف عند حد من يتكلم بالعربية سليقة.

ولا يسعنا أمام دعوى ابن خلدون ومناقشة هذا الشارح له إلا أن نقول كلمة فى تاريخ تدوين الحديث، ونتحدث عن العهد الذى وقع فيه فساد اللغة، لعلنا نهتدى إلى ما يفيدنا فى أصل البحث «بحث الاستشهاد بالحديث فى اللغة».

الواقع أن أصل كتابة الحديث وقع فى عهد النبى ﷺ، وممن كان يكتب الحديث عبدالله بن عمرو بن العاص، ولهذا كان أكثر جمعًا للحديث من أبى هريرة. أما تدوينه فى كتب فقد وقع بأمر الخليفة عمر بن عبدالعزيز المتوفى سنة (١٠١هـ)، ومن المروى فى الصحيح أنه كتب إلى أهل الآفاق أن انظروا ما كان من حديث رسول الله ﷺ أو سنته فاجمعوه أو فاكتبوه.

وأول من دون الحديث محمد بن مسلم الزهرى المتوفى سنة (١٢٤هـ) والمعروف أنه كان يروى عن الصحابة مثل عبدالله بن عمر وأنس بن مالك وسهل بن سعد الساعدى.

وقيل إن أول من دون الحديث الربيع بن صبيح المتوفى سنة (١٦٠هـ) وسعيد بن أبى عروبة المتوفى سنة (١٥٦هـ).

---

(١) قال أهل العلم بالحديث: ليس لك فيما تجده فى الكتب المؤلفة من روايات من تقدمك أن تبدل فى نفس الكتاب ما قيل فيه: أخبرنا بقولك: حدثنا، ونحوه.

(٢) هو ابن علان: وتوجد نسخة فى شرحه بالمكتبة التيمورية.

ثم شاع التدوين فى الطبقة التى تلى طبقة الزهرى كمالك بن أنس، وعبدالملك ابن جريج والأوزاعى وسفيان الثورى وحماد بن سلمة.

وكان كثير من رواة الحديث فى هذا العهد يكتبون الأحاديث عند تلقيها، ولا يكتفون بحفظها عن ظهر القلب، فإنا نجد فى تاريخ طائفة منهم أن لهم كتبًا كانوا يرجعون إليها عند الرواية.

ونجد فى تاريخ من يروون عن أمثال الزهرى أن فى مخلفاتهم أجزاء كثيرة تحتوى أحاديث أخذوها عن أولئك الأئمة، وكتابة الحديث تساعد على روايته بلفظه، وحفظه عن ظهر القلب يبعده من أن يدخله غلط أو تصحيف.

ويصل بنا البحث إلى أن مصنفات الطبقة التى جاءت بعد طبقة مالك وابن جريج قد بلغت الغاية فى جمع الأحاديث، وفى ذلك العهد صنفت مسندات كثيرة كمسند أسد بن موسى الأموى المتوفى سنة (٢١٢هـ)، ومسند عبيدالله بن موسى العيسى المتوفى سنة (٢١٣هـ) ومسند نعيم بن حماد الخزاعى المتوفى سنة (٢٢٨هـ)، ومسند أحمد بن حنبل المتوفى سنة (٢٤١هـ).

وجاء بعد هؤلاء أصحاب الكتب الستة، وأولهم البخارى المولود سنة (١٩٤هـ) وآخرهم النسائى المولود سنة (٢١٥هـ).

وما فى الكتب الستة أو معظمه كان مدونًا فى الكتب المصنفة من قبل، ذكر الحافظ ابن حجر مصنفات أئمة الحديث فى الصدر الأول وقال: فلما رأى البخارى هذه المصنفات ورواها وجدها بحسب الوضع جامعة فألف كتابه مقتصراً على الصحيح.

وإذا رأينا أن البخارى يقول فى كتابه: حدثنا فلان. فهذا لا يمنع من أن يكون الحديث مدونًا فى كتاب، فإنهم كانوا كما عرفت آنفًا لا يستغنون بالكتابة عن الحفظ، وربما قال الراوى: أملى علينا فلان كذا وكذا حديثًا من حفظه ثم قرأها علينا من كتابه.

وهذه النظرة التاريخية تدلنا على أن ابتداء تدوين الحديث كان فى أوائل القرن

الثانى، وأنه لم يمض القرن الثانى حتى قيد معظم الأحاديث بالكتابة والتدوين، ولننظر بعد هذا إلى حالة اللغة من جهة ما دخلها من الفساد، وننظر ما يكون لهذا الفساد من أثر فى رواية الحديث.

أخذ الفساد يدخل اللغة منذ وصلت الفتوح الإسلامية العرب بالعجم، وأسرع إلى ألسنة طائفتين من أبناء العرب أو الناشئين فى بيئتهم: طائفة كانت أمهاتهم من الأعاجم، وطائفة العامة الذين يسكنون الأمصار، وتكثر مخالطتهم للأعاجم.

وظهر اللحن بجلاء فى أواخر عهد الدولة الأموية، وكان انقراضها سنة (١٣٢هـ).

وبقى بجانب هاتين الطائفتين فريقان: سكان الجزيرة البعيدون عن مخالطة الأعاجم مخالطة تمس فصاحتهم بسوء، وأبناء الخاصة من سكان الأمصار الذين لم تكن أمهاتهم من الأعاجم.

أما سكان الجزيرة: فإنهم ما برحوا على فصاحة اللغة إلى أواسط القرن الرابع.

وأما الخاصة من سكان المدن: فبقوا على فصاحة اللهجة مدة فى أوائل عهد الدولة العباسية.

وذكر الباحثون فى طبقات الشعراء أن إبراهيم بن هرمة آخر من يحتج بشعرهم، وقد توفى فى خلافة الرشيد بعد الخمسين والمائة بقليل.

والذين نشئوا فى بيئة عربية لم ينتشر فيها فساد اللغة انتشاراً يرفع الثقة بفصاحة لهجتها، يوثق بأقوالهم ولو تأخروا عن منتصف القرن الثانى، كالإمام الشافعى، فإنه ولد سنة (١٥٠هـ) ولكنه نشأ فى بيئة عربية وهى مكة، فيصح الاستشهاد بما يستعمله من الألفاظ، قال الإمام أحمد: «كلام الشافعى حجة فى اللغة» وقال الأزهرى فى إيضاح ما استشكل من مختصر المزنى «ألفاظ الإمام الشافعى عربية محضة، ومن عجمة المولدين مصونة».

وإذا عدنا إلى قول ابن خلدون: «وتدوين الأحاديث وقع فى الصدر الأول قبل فساد اللغة العربية، وحين كان كلام أولئك - على تقدير تبديلهم - يسوغ

الاحتجاج به » وعرضناه على التاريخ، وجدنا التدوين وقع بعد أن دخل الفساد فى اللغة، ولكن من المدونين من يحتج بأقواله لأنه نشأ فى بيئة عربية كالزهرى ومالك بن أنس، وعبدالملك بن جريج، ومنهم من نشئوا فى بيئة غير عربية، أو عربية انتشر فيها الفساد، وصارت العربية الفصحى فيها إنما تدرك من طريق التعلم.

فدعوى أن الأحاديث دونت قبل فساد اللغة، وأن كلام المدونين لها يسوغ الاحتجاج به فى اللغة غير مطابقة للتاريخ من كل وجه، ولو تمت على نحو ما قرره ابن خلدون لقامت بها الحجة الفاصلة على الاستشهاد بالحديث فى اللغة من غير حاجة إلى شىء آخر يعضدها.

والذى نستفيده من حقائق التاريخ أن قسمًا كبيرًا من الأحاديث دونه رجال يحتج بأقوالهم فى العربية، وأن كثيرًا من الرواة كانوا يكتبون الأحاديث عند سماعها، وذلك مما يساعد على روايتها بألفاظها، فيضاف هذا وذاك إلى ما وقع من التشديد فى رواية الحديث بالمعنى، وما عرف من احتياط أئمة الحديث وتحريهم فى الرواية، فيحصل الظن الكافى لرجحان أن تكون الأحاديث المدونة فى الصدر الأول مروية بألفاظها ممن يحتج بكلامه.

وأما **قول المانعين**: إنه وقع اللحن فى كثير من الأحاديث، فيجاب عنه بأن كثيرًا مما يرى أنه لحن قد ظهر له وجه من الصحة، وقد ألف فى هذا الباب ابن مالك كتابه « التوضيح فى حل مشكلات الجامع الصحيح » وذكر للأحاديث التى يشكل إعرابها وجوهًا يستبين بها أنها من قبيل العربى الصحيح، وكثيرًا ما نرى ألفاظًا من الحديث ينكرها بعض اللغويين، فيأتى لغوى آخر فيذكر لها وجهًا مقبولاً، أو يسوق عليها شاهدا صحيحًا.

ثم إن وجود ألفاظ غير موافقة للقواعد المتفق عليها لا يقتضى ترك الاحتجاج بالحديث جملة، وإنما يحمل أمرها على قلة ضبط أحد الرواة فى هذه الألفاظ خاصة.

وإذا وقع فى رواية بعض الأحاديث غلط أو تصحيف، فإن الأشعار يقع فيها الغلط والتصحيف، وهى حجة من غير خلاف.

قال محمد بن سلام: وجدنا رواة العلم يغلطون فى الشعر ولا يضبط الشعر إلا أهله. وأبو أحمد العسكرى الذى ألف كتاباً فى تصحيف رواة الحديث، قد ألف كتاباً فيما وقع من أصحاب اللغة والشعر من التصحيف.

أما قول أبى حيان: «إن المتقدمين من علماء العربية لا يحتجون بالحديث» فأجاب عنه المجيزون بأن علماء العربية فى العهد الأول لم يتعاطوا رواية الحديث، فعلماء الحديث غير علماء العربية (١) ثم إن دواوين الحديث لم تكن مشتهرة فى ذلك العهد، ولم يتناولها علماء العربية كما كانوا يتناولون القرآن الكريم، وإنما اشتهرت دواوينه ووصلت إلى أيدى جمهور أهل العلم من بعد، فإن سلمنا عدم احتجاجهم بالحديث فلعدم انتشاره بينهم، لا لأنهم يمنعون الاحتجاج به على أن كتب الأقدمين الموضوعة فى اللغة، لا تكاد تخلو من الاستدلال على إثبات الكلمات بألفاظ الحديث، واللغة أخت النحو كما صرحوا به.

وكذلك نرى الإمام اللغوى أبا منصور الأزهرى المولود سنة (٢٨٢هـ) يعتمد فى كتابه [التهذيب] على الأحاديث، ويكثر من الاستشهاد بها.

وأما ما ادعاه أبو حيان من أن المتأخرين من نحاة الأقاليم تابعوا المتقدمين فى عدم الاحتجاج بالحديث، فمردود بأن كتب النحاة من أندلسيين وغيرهم مملوءة بالاستشهاد بالحديث، وقد استدل بالحديث الشريف: الصقلى والشريف الغرناطى فى شرحيهما لكتاب سيبويه، وابن الحاج فى شرح المقرب، وابن الخباز فى شرح ألفية ابن معطى، وأبو على الشلوبين فى كثير من مسائله، وكذلك استشهد بالحديث السيرافى والصفار فى شرحيهما لكتاب سيبويه، وقال ابن الطيب: «بل رأيت الاستدلال بالحديث فى كلام أبى حيان نفسه».

وقد عرفت أن مذهب البدر الدمامينى صحة الاستشهاد بالحديث، وقد جرى على مذهبه فى شرحه للمغنى والتسهيل والبخارى.

---

(١) من علماء العربية من كانوا يعدون فى رواة الحديث، مثل أبى عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر الثقفى والنضر بن شميل المازنى، والخليل بن أحمد، والقاسم بن سلام، وعبدالملك بن قريب الأصمعى، والرياشى.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

○ تفصيل وترجيح :

من الأحاديث ما لا ينبغى الاختلاف فى الاحتجاج به فى اللغة، وهو ستة أنواع :

أحدها : ما يروى بقصد الاستدلال على كمال فصاحته عليه الصلاة والسلام كقوله « حمى الوطيس » وقوله « مات حتف أنفه » وقوله « الظلم ظلمات يوم القيامة » إلى نحو هذا من الأحاديث القصار المشتملة على شىء من محاسن البيان كقوله « مأزورات غير مأجورات » وقوله « إن الله لا يمل حتى تملوا » .

ثانيها : ما يروى من الأقوال التى كان يتعبد بها، أو أمر بالتعبد بها، كألفاظ القنوت والتحيات، وكثير من الأذكار والأدعية التى كان يدعو بها فى أوقات خاصة .

ثالثها : ما يروى شاهداً على أنه كان يخاطب كل قوم من العرب بلغتهم . ومما هو ظاهر أن الرواة يقصدون فى هذه الأنواع الثلاثة لرواية الحديث بلفظه .

رابعها : الأحاديث التى وردت من طرق متعددة واتحدت ألفاظها، فإن اتحاد الألفاظ مع تعدد الطرق دليل على أن الرواة لم يتصرفوا فى ألفاظها، والمراد أن تتعدد طرقها إلى النبى ﷺ أو إلى الصحابة أو التابعين الذين ينطقون الكلام العربى فصيحاً .

خامسها : الأحاديث التى دونها من نشأ فى بيئة عربية لم ينتشر فيها فساد اللغة، كمالك بن أنس وعبدالملك بن جريج والإمام الشافعى .

سادسها : ما عرف من حال رواته أنهم لا يجيزون رواية الحديث بالمعنى، مثل ابن سيرين والقاسم بن محمد ورجاء بن حيوة وعلى بن المدينى .

ومن الأحاديث ما لا ينبغى الاختلاف فى عدم الاحتجاج به، وهى الأحاديث التى لم تدون فى الصدر الأول، وإنما تروى فى كتب بعض المتأخرين .

ولا يحتج بهذا النوع من الأحاديث سواء أكان سندها مقطوعًا أو متصلاً، أما مقطوعة السند فوجه عدم الاحتجاج بها واضح، وأما متصلة السند فلبعد مدونها

شبكة الألوكة - قسم الكتب

عن الطبقة التى يحتج بأقوالها، وإذا أضيفت كثرة المولدين فى رجال سند الحديث إلى احتمال أن يكون بعضهم قد رواه بالمعنى، أصبح احتمال أن تكون ألفاظه ألفاظ النبى - عليه الصلاة والسلام - أو ألفاظ راويه الذى يحتج بكلامه قاصراً عن درجة الظن الكافى لإثبات الألفاظ اللغوية أو وجوه استعمالها.

والحديث الذى يصح أن تختلف الأنظار فى الاستشهاد بألفاظه هو الحديث الذى دون فى الصدر الأول، ولم يكن من الأنواع الستة المنبه عليها آنفًا، وهو على نوعين: حديث يرد لفظه على وجه واحد، وحديث اختلفت الرواية فى بعض ألفاظه.

أما الحديث الوارد على وجه واحد: فالظاهر صحة الاحتجاج به، نظراً إلى أن الأصل الرواية باللفظ، وإلى تشديدهم فى الرواية بالمعني، ويضاف إلى هذا قلة عدد من يوجد فى السند من الرواة الذين لا يحتج بأقوالهم؛ فقد يكون بين البخارى ومن يحتج بأقواله من الرواة واحد أو اثنان وأقصاهم ثلاثة.

ومثال هذا النوع: أن الحريري أنكر على الناس قولهم قبل الزوال: سهرنا البارحة، قال: وإنما يقال سهرنا الليلة، ويقال بعد الزوال: سهرنا البارحة. والشاهد على صحة ما يقوله الناس حديث أن النبى ﷺ كان إذا أصبح قال: «**هل رأى أحد منكم البارحة رؤيا؟**»، وحديث: «**وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول عملت البارحة كذا**» ففى قوله «إذا أصبح قال: هل رأى أحد منكم البارحة» وقوله: «ثم يصبح فيقول عملت البارحة» شاهد على صحة أن يقول الرجل متحدثًا عن الليلة الماضية وهو فى الصباح سهرنا البارحة، أو وقع البارحة كذا.

وأما الأحاديث التى اختلفت فيها الرواية فى بعض الألفاظ: فإنا نرى من يستشهدون بالأحاديث من اللغويين والنحاة لا يفرقون بين ما روى على وجه واحد، وما روى على وجهين أو وجوه، ويمكننا أن نفصل القول فى هذا النوع فنجيز الاستشهاد بما جاء فى رواية مشهورة لم يغمزها بعض المحدثين بأنها وهم من

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الراوى مثل كلمة « ممثل » وردت فى أشهر رواية الحديث « قام النبى ﷺ ممثلاً » أى منتصباً، والمعروف فى كلام العرب إنما هو ماثل من مثل كنصر وكرم.

وأما ما يجىء فى رواية شاذة أو فى رواية يقول فيها بعض المحدثين إنها غلط من الراوى، فنقف دون الاستشهاد بها، ومثال هذا كلمة « ناعوس » وردت فى إحدى روايات حديث « إن كلماته بلغت ناعوس البحر » ووردت فى بقية الروايات « قاموس البحر » أو وسطه ولجته. وكلمة ناعوس غير معروفة فى كلام العرب، قال أبو موسى محمد بن أبى بكر الأصفهانى أحد المؤلفين فى غريب الحديث « فلعل الراوى لم يجود كتْب كلمة قاموس ».

وأضعف من هذا أن تجىء الكلمة غير المعروفة فى اللغة فى صورة الشك من الراوى ككلمة خطيط وردت فى حديث « ثم نام حتى سمعت غطيطه أو خطيطه » قال ابن بطال: لم أجد كلمة « خطيط » بالخاء عند أهل اللغة.

وخلاصة البحث: أنا نرى الاستشهاد بألفاظ ما يروى فى كتب الحديث المدونة فى الصدر الأول، وإن اختلفت فيها الرواية، ولا نستثنى إلا الألفاظ التى تجىء فى رواية شاذة، أو يغمزها بعض المحدثين بالغلط أو التصحيف غمزاً لا مرد له، ويشد أزرنا فى ترجيح هذا الرأى أن جمهور اللغويين وطائفة عظيمة من النحويين يستشهدون بالألفاظ الواردة فى الحديث ولو على بعض رواياته.

ooooo

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الباب الرابع

أديان وفرق

www.alukah.net

شبكة الألوكة - قسم الكتب

١

الإلحـــاد

أسبابه، طبائعه، مفاسده، أسباب ظهوره، علاجه

فى الناس من يضع إلحاده على طرف لسانه، أو على ظاهر يده، فيريك ما فى صدره، وهذا قد جعلك فى حل من أن تسميه ملحداً، ولم يحوجك إلى أن تنبه الناس لضلاله، أو تنصح لهم بالاحتراس من أقواله، إلا أن تعمد إلى ما يطعن به فى الدين، فتكشف عن وجوه فساده، وتدفعه بالحجة.

وفى الناس من يحمل فى نفسه إلحاداً فى الدين، وبغضاً للشريعة، وإذا جلس إلى المؤمنين حاول أن يضع بينهم وبين ما فى نفسه حجاباً مستوراً، وإنما ينطق بآرائه الزائغة حين يخلو بنفوس تلذ ما تلذ نفسه من الطعن فى وجود الإله الحق، أو فى صدق النبوة وحكمة التشريع أو تأليه أحد من البشر.

○ أسبــاب الإلحــاد :

للإلحاد مهيئات: منها أن ينشأ الشخص فى بيت خال من آداب الإسلام ومبادئ هدايته، فلا يرى فيمن يقوم على أمر تربيته من نحو والد أو أم أو أخ، استقامة، ولا يتلقى عنه ما يطبعه على حب الدين، ويجعله على بصيرة من حكمته، فأقل شبهة تمس ذهن هذا الناشئ تنحدر به فى هاوية الضلال.

ومن أسباب الإلحاد أن يتصل الفتى الضعيف النفس بملحد يكون أقوى منه نفساً، وأبرع لساناً، فيأخذه ببراعته إلى سوء العقيدة، ويفسد عليه أمر دينه، ومن هنا نرى الآباء الذين يعنون بتربية أبنائهم تربية الناصح الأمين يحولون بينهم وبين مخالطة فاسدى العقيدة، يخشون أن تسرى إليهم العدوى من تلك النفوس الخبيثة فتخبث عقائدهم وأخلاقهم.

ومن أسباب الإلحاد أن يقرأ الناشئ مؤلفات الملحدين وقد دسوا فيها سموماً من الشبه تحت ألفاظ منمقة، فتضعف نفسه أمام هذه الألفاظ المنمقة، والشبه المبهرجة فلا يلبث أن يدخل فى زمرة الملاحدة الألداء.

ومن أسباب الإلحاد أن تغلب الشهوات على نفس الرجل، فتريه أن المصلحة فى إباحتها، وأن تحريم الشارع لها خال من كل حكمة فيخرج من هذا الباب إلى إباحية وجحود.

○ طبائع الملحدين:

فرحهم بتهمة عالم كبير بالإلحاد: يفرح الملحدون بإشاعة الإلحاد عن بعض العلماء المفكرين، والمثير لهذا الفرح حرصهم على أن لا ينسب إلى الدين من ظهرت له أثارة من علم أو فكر.

استهزاؤهم بالدين: يستهزئون فى مجالسهم بالدين، وربما رشحت ألسنتهم بهذا العبث فى حضرة بعض المؤمنين، بزعم أنهم مازحون غير جادين، كذلك كانت مجالس الزنادقة فى القديم، أمثال مطيع بن إياس، ويحيى بن زياد، وحماد عجرد، وأصحابهم وهكذا حال ملاحدة هذا العصر.

انهماكهم فى الفسوق: ولا ينتظر ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر أن يترك شيئًا من شهواته إلا أن يخشى الناس، والتاريخ يحدثنا عمن كانوا يتهمون بالزندقة، فيرينا كيف كانت مجالسهم قائمة على شرب الخمور وما يتبعها من الخبائث، وكذلك كانت مجالس أولئك النفر المعروفين بالإلحاد فى عهد الدولة العباسية.

قال بعض الرواة: إن حماد عجرد ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد، نزلوا بالقرب منا فكانوا لا يطاقون خبثًا ومجانة، وهكذا حال ملاحدة هذا العصر إذا حلوا فى مجلس فإنهم يرتكبون ما تترفع عنه مجالس الفضلاء، ومن تظاهر منهم بالرزانة وحسن السمت، فبمقدار وإلى وقت.

تناقضهم فى الأقوال: أشد النفوس طوعًا إلى الأهواء نفس لا تثق بأن لهذا العالم مبدعًا حكيمًا، أو لا تثق بأن وراء هذه الحياة دار جزاء، والنفوس المنقادة إلى الأهواء، قد تألف الشىء فى وقت، وتنفر منه فى وقت آخر، فتمدحه مرة، وتذمه

أخرى، وقد تستقبح الأمر، وتستحسن ما يضاهيه من كل وجه، وربما استقبحت الشيء، واستحسنت ما هو أقبح وأشد مفسدة منه، وانظروا إلى ما يكتبه بعض الملاحدة في الاجتماع أو السياسة تجدوه متخاذلاً يلعن بعضه بعضاً.

إنكارهم المعجزات الكونية: يرى الملاحدة أن المعجزة أساس للنبوة والرسالة. فيتوجهون إلى هدم هذا الأساس فينكرونه ويلقون حوله الشبه، ويقولون: إن حكمة الدعوة كافية في الدلالة على نبوة صاحبها، وقد قال هذا البهائية والقاديانية، وأشخاص في قلوبهم مرض، وتراهم يعمدون إلى ما قصه القرآن الكريم من معجزات الأنبياء، فيخرجونه بالتأويل غير المعقول إلى معان مصنوعة، مثال ذلك: القادياني الذي ترجم القرآن إلى اللغة الإنكليزية، فإنه لا يمر بآية فيها معجزة صريحة إلا كتب معلقاً عليها هذياناً يخرجها عن وجه دلالتها العربية.

وتبعه على ذلك أحد الجاهلين الضالين في أوراق سماها تفسيراً، ومن قرأ هذه الأوراق رآها بالغة الغاية في الزندقة.

دسهم في الشريعة ما ينافي حكمتها: يعمل الملاحدة لتنفير النفوس من الدين، ومن الطرق التي يسلكونها للتنفير إلصاقهم بالدين أشياء لا تطابق الحكمة، وقد وضع الزنادقة أحاديث كثيرة نسبوها إلى النبي ﷺ، كما وضعوا حديث «الباذنجان لما أكل له».

وقد كشف علماء الحديث عن الأحاديث الموضوعة وبينوها للناس ومن جملتها هذه الأحاديث التي وضعها الزنادقة.

إنكارهم العمل بالحديث: لا يزال السلف الصالح من الصحابة والتابعين يجعلون الأحاديث أصلاً من أصول الدين يقفون عندها إذا وجدوها، ولا يتجاوزونها حتى أخذت الزندقة تعبث من وراء ستار، فكان من مكايدها أن أجرت على ألسنة شياطينها أن مأخذ الدين هو القرآن وحده، وأن السنة لا تستقل بإنشاء الأحكام يقولون هذا ليسقطوا جانباً كبيراً من أحكام الإسلام.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تأويلهم القرآن على حسب أهوائهم: يعمل الملاحدة لطرح السنة من أصول الدين، ثم يعمدون إلى القرآن المجيد فيحرفون الآيات الحكيمة عن معانيها، ويفسرونها كما يشتهون ليتم لهم بهذا التأويل تعطيل أوامر الدين ونواهيه، وذلك ما فعله الباطنية من قبل، وجرى فيه على آثارهم باطنية أهل هذا العصر، مثل البهائية والقاديانية، وأشخاص يطوون صدورهم على جحود غير قليل، وما أكثرهم في هذا العصر!

صداقتهم للمجاهرين بالجحود: من يشرح الله صدره للإيمان لا ترتاح نفسه لصحبة الجاحدين، ولا يجد ودادهم إلى داخل نفسه سبيلا، وقد يضطر المؤمن أن يلاقيهم ويشاركهم في بعض الأمور الحيوية أو الاجتماعية، فليكن اتصاله بهم على قدر الضرورة.

فإن رأيت شخصًا يصاحب جاحداً بآيات الله، وأحسست من لحن خطابه أن الصداقة بينهما محكمة سبق إلى ذهنك أن منشأ هذه الصداقة التشابه في زيغ العقيدة ﴿ **لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ** ﴾ [المجادلة: ٢٢].

إلحاحهم في الدعوة إلى حرية الرأي في الدين: غاية الملحد أن يطعن في الدين، ويصد عن سبيله بقلمه أو لسانه، وقد يرى أن الحال لا يسعه لأن يطعن في الدين أو يصد عنه في علانية، فتجده يحتال لأن يذهب إلى غرضه من طريق البحث وإبداء الرأي، فيبالغ في الدعوة إلى حرية الرأي في الدين ليكون مطلق العنان، يقول ويكتب ما يشاء من آراء يقوض بها صرح الدين من أساسه.

يدعون إلى حرية الرأي في الدين لتجد دعوتهم المعادية للدين سعة، ومن ملك من هؤلاء قوة، استعملها في اضطهاد رجال الدين المستقيمين، وسد باب الحرية في وجوههم، فإن لم يفعل ذلك على طريقة مكشوفة فعله من طريق ملتوية.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بسط ألسنتهم فى علماء الدين: من طبائع الملحدين الحط من شأن علماء الدين المستقيمين، باعتقاد أن هدم من يتمثل فيهم الدين القويم هدم للدين نفسه، فإذا بلغوا أن جعلوا الناس يزدرون برجال الدين ويصرفون أسماعهم عما يدعونهم إليه من حق، فقد بلغوا أمنيتهم من تعطيل أوامر الدين وإهمال آدابه، وإطفاء نور حكمته.

دعوتهم إلى الإلحاد: فى الملاحدة من يعجز أن يكون داعية إلى الإلحاد، فيكتفى بأن يطلق لنفسه العنان فى الإباحية، ومنهم من يدفعه بغض الدين إلى أن يعمل بلسانه أو بقلمه ليهدم أصوله والصد عن سبيله، ولهؤلاء طرق يأتمرون لتدبيرها، وهى شبيهة بطرق إخوانهم الباطنية، ذلك أنهم يبتدئون من يريدون إغواءه بعرض شىء من الشبه فى صورة السائل أو الحائر فى دفعها ثم ينظرون إليه ماذا يكون حاله من الاستخفاف بتلك الشبه، أو التأثر بها، فإن رأوه قد ضعف أمام هذه الشبه، أكثروا من إلقاء أمثالها عليه حتى يقع فى حيرة ويستبينوا منه أن إيمانه قد تزلزل، وعند ذلك يوحون إليه بما شاءوا من الغمز فى الدين حتى يجردوه من عقيدة الحق ويتخذوه عضواً فى مجامعهم.

مفاسد الإلحاد الاجتماعية: عرفنا أن من طبائع الإلحاد اتباع الشهوات، والانطلاق فى الإباحية فالملحد لا يحافظ على عرض أحد، ولا على مال ولا على حرمة إلا أن يعجز عن الوصول إلى شىء من ذلك، ومتى ساعدته الفرصة، وظن أنه بمأمن من العقوبة، عاث فى الأعراض والأموال غير متحرج من انتهاك حرماتها، وقد يقع انتهاك الأعراض ونحوها من غير الملحد بدافع الشهوة أما الملحد فإنه يأتيها مستبيحاً لها، وضرر الطائفة التى ترتكب الفسوق مستبيحة له أشد من ضرر من يفعله معتقداً أنه يأتى أمراً محرماً.

ولنتخيل أمة مؤلفة من الملاحدة، أو كانت الأغلبية فيها للملاحدة، وننظر كيف تكون سيرتها، وماذا تكون عاقبتها فى هذه الحياة؟

لاشك أنها تسير فى غير طريق، وتكون عاقبتها السقوط إلى الحضيض. إذ إن الملاحدة يبيحون موبقة الزنا وما يضاهيها من الفواحش، ويبيحون الخمور، ولا يتحرجون أن يضموا إليهم أموال غيرهم بغير حق، وإذا وجدت فى أهل الدين من لا يفعل فاحشة أو لا يعتدى على حق ولو أمن من أن يطلع عليه مخلوق، فإن الملحد لا يكف نفسه عن الهوى إلا أن يخاف ألمًا يأتيه من الناس أكبر من ذلك الهوى.

وإذا وجدت فى زائغى العقيدة من يتحدث عن الأخلاق، ويوهم الناس أن الأخلاق تكفى فى استقامة السيرة والاحتفاظ بالعفاف، فإن ذلك كله رياء ونفاق، نعم للأخلاق أثر فى تقليل الشر، ولكنها لا تأتى بأثر عظيم فى انتظام حال الاجتماع إلا حينما تسير تحت مراقبة عقيدة دينية ثابتة.

○ أسباب ظهور الإلحاد:

لا سعادة للأمة إلا بالوحدة، ولا وحدة للأمة إلا أن تكون سليمة العقيدة سنية الأخلاق والآداب، فمن الحكمة أن يراعى الإسلام هذه الوحدة التى هى وسيلة سعادتها، ويأخذ فى المحافظة عليها بالتى هى أحزم، فكان من أحكامه منع الناس من أن يركبوا الطيش، ويعلنوا إلحادهم تحت رايته.

فلم يكن الملاحدة قبل اليوم يعلنون إلحادهم، وما كانوا يدعون إليه إلا من وراء ستار، فكان الإلحاد فى العصور الماضية لا يتجاوز نفرًا قليلاً يعرفهم الناس فى لحن أقوالهم، وبانهماكهم فى الفجور وقضاء أوقاتهم فى المجون.

أما اليوم فقد ظهر الإلحاد، ورفع رأسه، وتجاوز المجالس الخاصة إلى الصحف والمؤلفات، ولهذا فيما أرى أربعة أسباب:

أحدها: أن بعض الحكومات صارت تضع قوانينها الدستورية فى عبارات لا يرى فيها الملحد قيداً يكفه عن إعلان إلحاده، أو الدعوة إليه كما يشاء.

ثانيها: أن كثيراً من المنتمين إلى علوم الشريعة فرطوا فى جانب الغيرة على الحق، فتراهم يوادون من يصفهم الناس بالإلحاد، ويتملقونهم بالإطراء، ويشهدون لهم

بالإخلاص للدين، يفعلون هذا رجاء متاع الحياة الدنيا، وهم يعلمون أنهم إنما يمدحون طائفة تفسد على الأمة أمر دينها، وأخلاقها.

ثالثها: أن بعض الحكومات الإسلامية ترفع إلى مناصبها العالية من لم يتلقوا من علوم الدين ما يميزون به المفسد من المصلح، فيجد الجاحدون لديهم حظوة ولو مع إعلانهم الإلحاد، وجراءتهم على الطعن فى الشريعة الغراء، وإقبال كبراء الدولة على الملحد، وتمكينه من المناصب التى يتخذها وسيلة لنفث سموم إلحاده، قد يكون مشجعًا لغيره من زائغى العقيدة على أن يجهروا بزيغهم ويدعوا إليه وهم آمنون.

رابعها: أن بعض الملاحدة دخلوا فى الحركات الوطنية، وتظاهروا بالغيرة على الوطن، فانخدع بهم الناس حتى خلعوا عليهم لقب الزعامة، فأخذ هؤلاء الزعماء الملاحدة يعملون لنشر الإلحاد بين من يتصل بهم من الشبان.

○ كيف يعالج الإلحاد؟:

متى قيض الله للحكومات الإسلامية رجالاً يقدرون فضل الدين فى إصلاح حال الأفراد والجماعات، وفضله فى إخراج رجال يطمحون إلى العزة، ويقتحمون كل ما يعترضهم فى سبيلها من عقبات، وفضله فى بسط الأمن فى البلاد - متى قدر أولو الأمر فضل الدين، ومتى تضافر علماء الشريعة على الدعوة إلى الحق بحكمة، وعلى مكافحة الزائغين بالحجة طهرت الأمة من خبث الإلحاد، وبلغت أقصى غايات المجد والفلاح.

○○○○○

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٢

الانحراف عن الدين

بين أيدينا حكم رائعات، وعظات بالغات، وتاريخ عظمائنا مملوء بالهمم الكبيرة، والمساعى الخطيرة، وقد أتى علينا مع هذا النور الساطع والتاريخ المجيد حين من الدهر ونحن عن طريق السعادة والمنعة غافلون، وعن العمل للحياة الصالحة نائمون، جهل بعد علم، تقاطع بعد ائتلاف، بطالة بعد نشاط، صغار بعد شمم، خمول بعد نباهة شأن. كذلك كنا حتى جاءنا من صروف الليالى ما نبهنا من سباتنا، فنهضنا نبحث عن وسائل تقدمنا، ونجارى الأمم العاملة والأمل يملأ ما بين جوانحنا، نهضة مباركة، ولكن نفوسنا خالطها من الانحراف عن سبيل الرشد ما خالطها، فأصبحنا فى حاجة إلى أن نشغل جانبًا من أوقاتنا فى تقويمها.

حق علينا أن نبحث عن علل انحراف هذه النفوس حتى نعرف طريق علاجنا، فنزيح أو نخفف مرضًا لو خلينا سبيله لسرى إلى نفوس كثيرة وعاقنا أن نسير إلى السعادة كيف نشاء.

○ علل الانحراف:

النواحي التى يأتى من قبلها هذا الانحراف كثيرة، وجماعها الجهل والدعايات الباطلة، وإليك البيان:

ينحرف الناشئ عن الدين متى شب على الجهل بحقائقه، وفريق من أبنائنا غير قليل لا يتعرفون الإسلام من وجهه الصحيح، وإنما ينتزعون صورته من مظاهر يرون عليها طوائف من المسلمين، ولم تكن هذه المظاهر من الإسلام فى كثير ولا قليل، فليس ببعيد أن يشهد الشاب شيئًا من البدع المزرية، كضرب الدفوف تحت رايات يحملها أحداث باسم الدين لهوًا ولعبًا، فيخالها من تعاليم الإسلام، ويسوء اعتقاده فى هدايته، ونحن نعلم أن بعض البلاد قد تقام فيه حفلات مشهودة يكلف فيها بعض الجهلة من المنتمين إلى طرق المتصوفة أن يحضروها بأزيائهم

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الخاصة، وتقوم كل طائفة بأعمال يمتازون بها عمن سواهم، وقد يكون فى هذه الأزياء والأعمال ما لا صلة له بالدين، ولا بما ترضى عنه العقول السليمة، فتتناولهم من أجل هذه المظاهر الألسن بالازدراء، ولاشك أن شبابنا كبعض المخالفين الذين يشهدون هذه الحفلات قد يسبق إلى أذهانهم أن نسبة ما يعمل باسم الدين إلى الدين صحيحة، فيتجافون عنه وهو منه براء. فمظاهر البدع والمحدثات من وسائل إضعاف العقيدة فى نفوس أبنائنا، ومن أصعب العقبات التى تحول بين المخالفين وبين قبولهم للدين الحق بسهولة.

وإذا كان فى المتجافين عن الدين من قرءوا جانبًا من الكتب المعزوة إليه، فعلة انحرافهم فيما يظهر أنهم لم يدرسوا تعاليمه خالصة مما أضيف إليها من مزاعم وآراء، ولم يبلغوا من قوة العلم أن يفرقوا بين الشرع الخالص وما يوضع بجانبه من أشياء لا تدخل فى الصميم، ونحن نعلم أن فى كثير من المؤلفات أحاديث موضوعة، وقصصًا مزعومة وآراء لا تستند إلى أصول معقولة، ومن الذى ينكر أن فى بعض الكتب أحاديث مصنوعة وقصصًا مختلفة، وأن فى مؤلفات بعض أصحاب الأهواء والمستضعفين فى العلم آراء سقيمة وأقيسة عقيمة؟

كان لهذه الكتب أثر سيّئ فى نفوس بعض نشئتنا، وقد اتخذ بعض من خف فى العلم وزنهم من هذه الكتب وسيلة إلى الطعن فى علماء الإسلام، فذهبوا يلتقطون هذه الآراء السخيفة ولا يتقون الله فى نسبتها إلى علماء الشريعة، ليضعوا من شأنهم مع أن أهل العلم من قبلهم قد نقدوها بأنظار راجحة، وطرحوها من حساب الشريعة بالحجة الساطعة، وجعلوا تبعتها على أصحابها وحدهم، وأى طائفة من طوائف أهل العلم لا يوجد بينهم ذو رأى ضعيف أو ذوق عليل؟ بل العالم الراسخ قد تصدر عنه آراء تدفعها أصول العلم الذى رسخت فيه قدمه، ويردها عليه من هو أقل منه نباهة وأدنى فى العلم منزلة.

أما الفريق الذين ينكرون أشياء من صميم الدين، فلم يجئهم الجحود من ناحية البحث الدقيق والنظر القائم على قوانين المنطق الصحيح، وإنما سبقت إليهم فى التعليم أو فى الجلوس ببعض الأندية آراء فتقبلوها، وتراءت لهم شبه فاعتنقوها.

والآراء الفاسدة والشبه المغوية تربى فى النفوس الضعيفة أذواقًا سقيمة، ويكون لهذه الأذواق الحكم العاجل، حتى إذا أنكرت حقًا خيل إلى أصحابها أن إنكارهم صادف محزاً وظلوا فى جهالتهم يتخبطون، فقطع يد السارق أو السارقة مثلاً - قد تنازع فى حكمته بعض الأذواق الخاصة، ولكن الأحكام إنما يراعى فيها المصالح العامة. وفى قطع يد هذا الصنف من المجرمين مصلحة سنأتى على بيانها فى مقام غير هذا.

ولا ننسى بعد هذا أن ما بلغه الغربيون من التقدم فى العلوم والفنون قد جعل لهم فى القلوب إكباراً، وبلغ هذا الإكبار فى بعض النفوس الصغيرة أن يفوه أحد الغربيين بكلمة يطعن بها فى حقيقة من حقائق الإسلام فيتلقونها منه بمتابعة، ويحسبونها طعنا صائباً، ولاسيما الكلمات التى تصدر من طائفة يخرجون فى زى الكتاب أو الفلاسفة، إذ يقع فى أوهام الغافلين أنه نتيجة نظر لا يعرف غير البحث والدليل، ويفوتهم أن فى هؤلاء الكتاب من لا يزال فى أسر تقاليده وعواطفه، وفيهم من يكون بارعًا فى ناحية من العلم قاصر النظر فى ناحية أخرى.

وها نحن أولاء نقرأ نتائج أبحاثهم فى موضوعات إلهية أو تاريخية أو اجتماعية أو لغوية، فنرى فيهم من يتبع الظن الذى لا يغنى من الحق شيئًا، وكان على نشئنا أن يعتبروا بالمناقشات التى تدور بين علمائهم أنفسهم، فإنها شاهد صدق على أن من علمائهم أو فلاسفتهم من يعتمد الرأى لمجرد الشبهة، ولا يبالى أن يسميه علماً وهو لا يرتبط بعد بالحجة أو ما يشبه أن يكون حجة.

ومن الطرق المضلة عن السبيل أن بعض الداعين إلى غير الإسلام، قد وجدوا من موسريهم خزائن مفتحة الأبواب، وأيدياً تفيض عليه الأموال بغير حساب، ومن الميسور أن يتصل هؤلاء ببعض البائسين من نشئنا الذين لم ينفذ الإيمان إلى سويداء قلوبهم، فيشترون ضمائرهم أو ألسنتهم بشىء من حطام هذه الحياة، وربما أتوهم من ناحية الشهوات ففتحوا لهم أبوابها، وجعلوا ثمن تمكينهم منها الانسلاخ عن الدين فلا يبالون أن ينسخلوا منه، إذ لم يدخل بعد فى قلوبهم حتى يكون أعز عليهم من كل ما تهوى أنفسهم.

ومن الذى لا يعلم أن معاهد تقام فى أوطاننا باسم العلم أو العطف على الإنسانية، والغاية منها صدف النفوس عن صراط الله السوى؟ دل على هذا كتب يدرسونها فى هذه المعاهد، وهى كما قرأنا نبذاً منها محشوة بالطعن فى الإسلام والحط من شأن الرسول الأعظم ﷺ .

وهذا القس زويمر نفسه ينبهنا على أن المدارس التى يقوم بها جماعات التبشير، إنما تجعل وسيلة إلى تحويل المسلمين عن دينهم القويم، فقال فى مقال تحت عنوان « حركة التبشير فى العالم الإسلامى » بعد أن ذكر ما يعترضهم من المصاعب فى داخل أفريقية: « ومن المستطاع التغلب على هذه الصعوبة بالالتجاء إلى الوسائل المعروفة كالمتاجرة مع الأهالى وفتح المدارس لأبنائهم وما ماثل ذلك » .

وقد رأينا لهذه المدارس التى تفتح فى سوريا ومصر وغيرها من البلاد آثاراً محزنة .

فكم من فتى مسلم بعث به إليها فتخرج منها وهو يحمل من التنكر لقومه وشريعتهم مثل ما يحمله خصومهم المحاربون .

ثم إن بعض الناشئين فى مهد إسلامى قد أصيبوا بما يشوه فطرهم، وأرادوا ألا يكون هذا التشويه مقصوراً على أنفسهم، فاجتهدوا فى أن ينقلب الناس منقلبهم ويعملوا على شاكلتهم، فكان لهم فى الاستخفاف بالعقائد الصحيحة والشريعة الحكيمة حركات طائشة، ولولا هداية القرآن ووقوف فريق من أهل العلم فى وجوههم لاستدرجوا خلقاً كثيراً .

ونذكر – بمنتهى الأسف – أن من هذا الصنف من يقضى نصيباً من حياته فى الدفاع عن الإسلام حتى يتبوأ مقعد الدعاة المصلحين، ثم لا يلبث أن يرى بضاعة الازدراء بالدين نافقة، فيثور عليها مع الثائرين، ويسرع إلى لمز الرجال الذين رفعوا لواءه وقد كان يطنب فى تمجيدهم، وفى أمثال من يكون على هذا النعت خطر على النشء كبير، إذ الثقة التى أحرزها من قبل قد تجعلهم يسيغون أقواله بما تحمل من أقذاء وسموم، فيبلغ مأربه دون أن يفقد مكانته . ثم إن انحرافه عن الدين بعد

أن كان من أنصاره قد يلقى فى نفوس المستضعفين أن هذا الذى قضى زمنًا فى مظاهرة الدين، لم يتجاف عنه إلا بعد أن بصر بالحجة واستبان له أنه كان على غير هدى، وصغار العقول لا يشعرون بأن فى الناس من يطوى فى نفسه حاجة يستطيع أن يلبس لها ثوب الرياء أمدًا غير قصير، حتى إذا رأى قضاءها فى ذم ما كان يحمد، ومحاربة ما كان ينصر، وجد فى استعداده ما يساعده على أن يظهر فى أى لباس شاء.

○ آثار الانحراف:

دلت المشاهدة على أن الناشئ الذى يصاب بمرض الريب أو الجحود لا يمكث أن ينحط فى المآثم وينبذ الأدب الرفيع والعمل الرشيد وراء ظهره، وإذا رأيناه يتجنب إثمًا فبالمقدار الذى يتقى به لومة لائم أو طائلة قانون، وإذا عمل حسنًا فلينال مدحًا وإطراءً، أو ليصل إلى عاجل من المنافع المادية أكبر، وإن ناشئًا يعتقد أنه متى استتر عن أعين الناس لم يبق له فيما يفعل من رقيب، ولا يناله على ما يأتى من جزاء لا يتحامى فى غالب أمره أن يعتدى على نفس أو عرض أو نسب أو مال الاعتداء الذى يشين وجه المدنية، ويحدث فى نظام الجماعة وهنًا.

ودلت التجارب على أن زائغ العقيدة متى ملك جاهًا أو سلطة، فتن الأمة فى دينها، وانتهك حرمات شريعتها، ولم يخلص النظر فى إصلاح أمرها، ولاقى منه المؤمنون اضطهادًا، والجاحدون وأصحاب الأهواء مناصرة وإقبالاً، فيكون داعيًا عمليًا إلى الخروج على الدين، فتموت الفضيلة والغيرة على الحقوق العامة، ويتقطع حبل اتحاد الأمة إربًا.

○ دواء الانحراف:

حتم علينا أن نسعى إلى أن يكون التعليم الدينى شاملاً، فما من ناشئ إلا ويتلقى منه مقدارًا يكفى لإنارة عقله وطمأنينة نفسه، ونقبل بعد هذا على كتب الدراسة فنتخير منها ما هو حسن الوضع، نقى من كل ما ليس بشرع، وبهذا نأمن من أن يكون فى نشئنا من ينحرف عن الدين جهلاً بحقائقه.

وإذا نحن سرنا فى تقرير أصول الدين وأحكامه على طريقة إقامة الحجة وبيان الحكمة، خففنا شر الصنف الذى ينكر أموراً من الدين بعلة أنها لا توافق المعقول أو لا تتحقق بها المصلحة أو لا تساير حضارة العصر.

وإنما يستعان على جعل التعليم عاماً بعناية أولى الأمر ونصحهم فى تدبير شئون الأمة حيث يقررونه فى سائر المدارس، ويقومون عليه كما يقومون على سائر العلوم، ومما يسر الأمة أن ترى من ولاة أمورها العناية بتعليم الدين الذى هو ملاك سعادة أبنائها فى الدنيا قبل الآخرة.

ومن واجب أهل العلم بعد هذا أن يرقبوا حركة الثائرين على الدين، ويكونوا على بصيرة بما يكتبونه فى الصحف، أو يحضرون به فى النوادى ليقوموا أوده وينبهوا على خطره حتى يستبين أمره، وتتضح أمام الناشئين طريقة قرع الشبهة بالحجة، وصرع الباطل بقوة الحق، وكذلك يفعل العلماء الراسخون، والكتاب المخلصون.

وحق على من يبغى السعادة لابنه أو لقريب وكل إليه أمره لا يلقى به إلا حيث يأمن على إيمانه وطهارة نفسه، ولا يذهب به الطمع فى متاع الدنيا إلى الاستهانة بأمر العقيدة فإنها الأساس الذى تقوم عليه الحياة الطيبة والشرف الأصيل.

فإذا اشتدت عناية أولى الأمر بالتعليم الدينى فى المدارس على اختلاف أقسامها وفنونها، وأرهف أهل العلم أقلامهم فى حماية الشريعة ممن يتساقطون على الطعن فيها أو المكر فى تأويلها، وأخذ الآباء بهدى الله فصانوا أبناءهم عن المدارس المنشأة للصد عن السبيل، خسرت تجارة الرهط الذين يجهلون على الحق والفضيلة، وتهيأت لنا أسباب نهضة علمية اجتماعية نجنى ثمراً لذيذاً من نتائجها، وتحمد الأجيال القابلة عاقبتها.

ooooo

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٣

أديان العرب قبل الإسلام

قص الله تعالى علينا فى القرآن المجيد أن العرب كانوا يتخبطون فى ضلالة الشرك، ويتخذون من دون الله آلهة، فيبعث إليهم أنبياء ليهدوهم السبيل، ويدعوهم إلى العقائد السليمة، والأخلاق الكريمة.

○ بعثة هود عليه السلام:

أقدم قوم من العرب قصّ الله علينا أنهم كانوا يعبدون الأصنام، فأرسل إليهم رسولا: قوم عاد، وكانت منازلهم بالأحقاف قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ﴾.. والأحقاف: جمع حقف وهو الرمل المستطيل فيه اعوجاج وانحناء، فالآية ظاهرة فى أن منازلهم كانت ببلاد فيها رمال كثيرة. وذكر ابن قتيبة أنهم كانوا ثلاث عشرة قبيلة ينزلون الرمل: بالدو، والدهناء، وعالج، ووبار، وعمان، إلى حضرموت.

وهذا لا يخالف ما جاء فى سورة الفجر من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ (١) ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾ لصحة أن تحمل العماد على عماد الأخبية، ثم إن نزولهم بالأحقاف لا يمنع من أن تكون لهم مبان ضخمة، والقرآن الكريم يشير إلى هذا فيما قصه الله تعالى علينا من مواعظ هود عليه السلام إذ قال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (٢)﴾.

وكان هؤلاء القوم يعبدون آلهة غير الله، ولم يصرح القرآن الكريم بما كانوا يتوجهون إليه بالعبادة على وجه التعيين، ويروى أنهم كانوا يعبدون الأصنام (٣).

---

(١) هو إرم بن سام الذى هو أحد جدود عاد، فإرم بدل من عاد لأن أولئك القوم يطلق عليهم اسم جدهم عاد واسم جدهم إرم.

(٢) الريع: الجبل أو المكان المرتفع، والآية: القصر، والمصانع: ما كان من نحو الحصون ومجارى المياه.

(٣) قال المسعودى في مروج الذهب: كانوا يعبدون ثلاثة أصنام وهى: صمود، وصداء، والهباء، وقال المسعودى أيضا: إن عادا كان يعبد القمر.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وجمع الآلهة فى قوله ﴿ بتاركي آلهتنا ﴾ وجمع الأسماء فى قوله ﴿ أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ﴾ يدل على أن عادا كانت تعبد آلهة متعددة.

ويقال: إن عاداً أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، والقرآن الكريم إنما يدل على أن بعثة هود كانت بعد بعثة نوح عليه السلام، قال تعالى فيما يقصه من قول هود لقومه: ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ أى: خلفًا من بعدهم، لتعتبروا بما كان من عاقبتهم، وتشكروا الله على ما أعطاكم من قوة، ووهبه لكم من نعمة.

بعث الله هوداً - عليه السلام - إلى هؤلاء القوم فدعاهم إلى نبذ عبادة غير الله، وأمرهم بإخلاص العبادة لله وحده، قال تعالى: ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾. وذكر فى وعده لهم على إجابة دعوته أن لهم قبل خير الآخرة خير الدنيا، فقال: ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾. وهذا ما يناسب دعوة القوم الذين غرقت قلوبهم فى الحرص على الدنيا: أن يبشروا بأن الاستقامة على هدى الله أعظم وسائل السعادة فى هذه الحياة.

وتوعدهم بعقوبة الدنيا والآخرة إذا هم تمادوا فى غيهم، فقال: ﴿ أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾، وقال: ﴿ فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوما غيركم ﴾.

ولم يكن من قومه إلا أن كذبوه، وتنقصوه، وجحدوا ما جاء به من الآيات، وأصروا على ما وجدوا عليه آباءهم من عبادة غير الله، فقالوا فيما قصه الله تعالى من إجابتهم لهود: ﴿ إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾، وقالوا: ﴿ أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾، وقال تعالى: ﴿ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد ﴾.

ووقف هود - عليه السلام - موقف من لا يهاب أهل الباطل، ولا يبالى بهم ولا

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بما هم فيه من قوة وطغيان، ولا بما طبعوا عليه من الحرص على إذاية الداعين إلى الحق، والمبادرة إلى البطش بهم، فقال: ﴿ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

وكذلك يجب أن يكون دعاة الإصلاح في كل حين، يزدرون أهل الضلال، ويواجهونهم بكل ما ملكوا من حجة وحكمة.

دعا هود - عليه السلام - قومه إلى الحق، ودلهم على سبيل الخير، فاستحبوا الكفر على الإيمان إلا قليلا منهم، وكان عذابهم أن أرسل الله عليهم ريحًا شديدة الصوت ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾.

أباد الله أولئك الجاحدين ولم يبق منهم أحد، قال تعالى: ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ وقال: ﴿ وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾، وقال: ﴿ فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ﴾، وقال تعالى: ﴿ وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقى ﴾ ونجى هودًا والذين آمنوا معه، قال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾.

○ بعثة صالح عليه السلام لثمود:

بعث صالح إلى قوم من العرب يقال لهم «ثمود» وثمود قبيلة من العرب العاربة كانوا يسكنون الحجر. بين الحجاز والشام، وفي صحيح البخاري عن ابن عمر «أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم ألا يشربوا من بئرها وألا يستقوا منها».

وفي صحيح البخاري أيضًا أن النبي ﷺ لما مر بالحجر قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم الله مثل ما أصابهم»، ثم تقنع بردائه وهو على الرحل وأسرع السير حتى أجاز الوادي.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وكان هؤلاء القوم يعبدون غير الله. يروى أنهم كانوا يعبدون الشمس وفى مروج الذهب للمسعودى وغيره أنهم كانوا يعبدون الأوثان، والقرآن الكريم لم يتعرض لما كانوا يعبدون على وجه التعيين، وإنما دل على أنهم كانوا يعبدون غير الله، ومن أدلة هذا قولهم فيما قصه الله عنهم: ﴿ **أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا** ﴾.

دعوة صالح لثمود: دعا صالح - عليه السلام - قومه إلى عبادة الله وحده، قال تعالى: ﴿ **وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ** ﴾ وذكرهم بما وهب الله لهم من النعم، وحذرهم من إطاعة المفسدين، قال تعالى: ﴿ **وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** ﴾ وقال: ﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ** ﴾، أى ابتدأ خلقكم منها ﴿ **وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾، أى: جعلكم عمارها أو طلب منكم أن تعمروها ﴿ **فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ** ﴾ أقلعوا عما أنتم عليه فإنه يقبل منكم ويتجاوز عنكم ﴿ **إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ** ﴾ برحمته ﴿ **مُّجِيبٌ** ﴾ لسائليه، وقال: ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ** ﴾[الشعراء: ١٥٠-١٥٢].

وكان من قومه أن أعرضوا عن الدعوة وجحدوا بما جاء به من الآية البينة، وقالوا فيما قصه الله عنهم: ﴿ **يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا** ﴾ كنا نرجو قبل هذه المقالة والدعوة أن يكون عقلك كاملاً: ﴿ **أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ** ﴾، ورد عليهم صالح فى رفق ولطف، فقال: ﴿ **يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ** ﴾.

آية نبوته: دعا صالح - عليه السلام - قومه إلى الحق، فاقترحوا عليه أن يأتيهم بآية تدل على صدق دعوته، قال الله تعالى فيما يقصه عنهم: ﴿ **فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾[الشعراء: ١٥٤] فكان له فى الناقة التى آتاه الله آية ظاهرة، قال تعالى: ﴿ **وآتينا ثمود الناقة مبصرة** ﴾ أى آية بينة، وقال: ﴿ **قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن**

www.alukah.net
شبكة الألوكة

رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾.

أما وجه المعجزة فيها، فلم يصرح به القرآن الكريم إلا ما جاء به قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر:٢٨]، وقوله تعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء:١٥٥]، وروى أحمد والحاكم عن جابر قال: «لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح، وكانت الناقة ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً، فعقروها فأخذتهم صيحة أهمد الله من تحت أديم السماء منهم»(١).

ودل القرآن الكريم أن من قوم صالح من قبلوا دعوته وآمنوا بما جاء به، يؤخذ هذا من قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾.

واتفق رأي ثمود على عقر الناقة، وكان صالح ينذرهم أن يتعرضوا لها: ﴿وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ فعقروها ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، فقال لهم صالح عليه السلام: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ ولما أمسوا هموا بقتله كما أخبر الله تعالى في قوله: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [النمل:٤٨]، أي لنكبسنه في داره مع أهله ليلا ونقتله: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل:٤٩].

ولما انتهت الأيام الثلاثة جاءتهم صيحة من فوقهم، ورجفة شديدة من تحتهم، فأصبحوا في دارهم جاثمين، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ(٢) رَبُّهُم

---

(١) هذا الحديث قال فيه ابن كثير هو على شرط مسلم.

(٢) أطبق عليهم العذاب كما يقال دمدم عليه القبر أي أطبقه عليه، وقيل الدمدمة إهلاك في استئصال.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾، وقال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [فصلت: ١٧]، قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾(١) [القمر: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾.

○ بعثة إسماعيل عليه السلام للعرب:

بعث إبراهيم - عليه السلام - في أرض بابل، ودعا قومه إلى الدين الحنيف فلم يجيبوا دعوته فهاجر، وورد الشام ومعه زوجه سارة (٢) وأتى مصر، وحاول أحد الجبارين الاعتداء على سارة وخلصها الله منه، وأخدمها «هاجر» ثم رجع الخليل عليه السلام إلى أرض المقدس، ووهبته سارة أمتها هاجر رجاء أن يرزقه الله منها ولداً، فدخل عليها إبراهيم فحملت منه وولدت منهُ إسماعيل عليه السلام، وحصلت لسارة غيرة من هاجر، وطلبت من الخليل أن يغيب وجهها عنها فذهب به الخليل حتى وضعها حيث مكة اليوم.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس: «ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل، وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء، و إلى أن أكرمها الله بنبع زمزم».

ومر بها رفقة من جرهم فنزلوا هنالك، وشب إسماعيل وتعلم منهم العربية، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم.

وعاد إبراهيم - عليه السلام - إلى مكة، وبنى بها البيت الحرام، يعينه على ذلك ابنه إسماعيل عليه السلام، وبعث الله إسماعيل بشريعة إبراهيم إلى جرهم والعماليق، وذكر بعضهم أنه أرسل إلى جرهم والعماليق وقبائل من اليمن في زمن إبراهيم عليه السلام (٣).

---

(١) كالهشيم اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته في الشتاء.

(٢) قيل: ابنة ملك حران، فارقت دين قومها فتزوجها إبراهيم عليه السلام والمشهور أنها ابنة عمه «هاران» وأما من زعم أنها ابنة أخيه «هاران» وادعى أن نكاح بنت الأخ كان إذ ذاك جائزاً، فزعم باطل لا يستند إلى دليل ولا ما يشبه الدليل.

(٣) السيرة الحلبية.

وإذا أرسل إسماعيل بشريعة إبراهيم، فإن إبراهيم كان يدعو إلى التوحيد الخالص ومكارم الأخلاق ومحاسن الآداب كما يدعو سائر الأنبياء، ومن شريعته إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، قال الله تعالى فى قصة إسماعيل: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥].. ومن شريعته حج البيت: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ [الحج: ٢٧] ومنها الاختتان، كما ورد فى الصحيح.

○ بعثة شعيب عليه السلام إلى مدين:

من العرب الذين كانوا يعبدون غير الله مدين، وكانت منازلهم تجاور أرض معان بأطراف الشام، ومما عرفوا به من الفساد فى الأرض أنهم كانوا يبخسون المكيال والميزان، أى يأخذون لأنفسهم بالزائد، ويدفعون لغيرهم بالناقص.

فبعث الله إليهم شعيبًا - عليه السلام - داعيًا إلى التوحيد والإصلاح، وبعثته كانت بعد بعثة إبراهيم عليه السلام، يدل على هذا قوله لقومه كما جاء فى الآية ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩] وقال تعالى فى قصة إبراهيم: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، والقرآن الكريم يسمى من أرسل إليهم شعيب بمدين تارة، وبأصحاب الأيكة مرة أخرى (١) فقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، وقال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٧٦ - ١٧٧].

وقال قوم: إن شعيبا أرسل إلى أمتين: مدين وهم الذين عذبوا بالصيحة، وأصحاب الأيكة وهم الذين أخذهم الله بعذاب يوم الظلة (٢)، وقال آخرون: إن شعيبًا أرسل إلى أمة واحدة تسمى مدين وهم أنفسهم أصحاب الأيكة، وهذا هو المختار.

---

(١) سموا أصحاب الأيكة لأنهم كانوا يسكنون أيكة أى غيضة تنبت ناعم الشجر، وقيل الأيكة اسم للبلد الذى كانوا يسكنونه، والأظهر ما قاله ابن كثير من أنهم كانوا يعبدون أيكة.

(٢) يعزى هذا إلى السدى وعكرمة.

قال ابن كثير فى تاريخه : ومن المفسرين من قال : إن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين، وقوله ضعيف لم يوافقوا عليه، وإنما عمدتهم شيئان :

أحدهما : أن الله تعالى قال : ﴿ **كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ [الشعراء:١٧٦]، ولم يقل أخوهم كما قال : ﴿ **وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا** ﴾ [هود:٨٤].

والجواب عليه أنه تعالى لم يقل أخاهم بعد ذكر الأيكة لأن ذكره غير مناسب بعد وصفهم بعبادة الأيكة، ولما نسبهم إلى العبيد ساغ ذكر الأخوة كما قال تعالى : ﴿ **وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا** ﴾ [هود:٥٠]، وقال : ﴿ **وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا** ﴾ [هود:٦١].

ثانيهما : أنه ذكر أنه عذب أصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة وذكر فى مدين أنه عذبهم بالرجفة والصيحة.

والجواب عليه أنه جمع عليهم الثلاثة أنواع من العذاب : الصيحة، والرجفة، وعذاب الظلة (١).

دعا شعيب – عليه السلام – قومه إلى نبذ ما كانوا يعبدون من دون الله، والإقلاع عن الفساد ﴿ **قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ** ﴾ وأتاهم بآية بينة على صدق رسالته، أشار إليها القرآن الكريم بقوله تعالى فيما يقصه من قول شعيب : ﴿ **قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ [الأعراف:٨٥] والآية ما يجريه على يد الرسول من المعجزة، وسلك فى دعايتهم كل طريق حكيم من التبشير كقوله : ﴿ **وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ** ﴾.

أو الإنذار كقوله : ﴿ **وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ**

---

(١) لم يبين القرآن الكريم حقيقة هذا العذاب، والذى يذكره الرواة أن الله تعالى بعث عليهم ريحًا حارة شديدة، فأخذت بأنفاسهم وبعث عليهم سحابة فأظلتهم من الشمس وهي الظلة حتى إذا اجتمعوا تحتها أسقطها الله عليهم نارًا ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم الصيحة من فوقهم.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (١)﴾. وقوله: ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤].

ولم ينتفع القوم بالآيات والمواعظ، فأصروا على كفرهم وفجورهم، وقالوا فيما قصه الله عنهم: ﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾.

ولما أيس شعيب من إيمانهم استنصر الله تعالى فى مجازاتهم بما يستحقون فقال: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ فاستجاب الله له فيهم وجمع عليهم أنواعًا من العقاب، فأصبحوا فى دارهم جاثمين.

ونجى الله شعيبًا والذين معه، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾.

○ الشرك فى بلاد العرب:

انتشر فى بلاد العرب الدين الحنيف الذى تلقوه من إسماعيل عليه السلام، وما زالوا على ذلك حتى مرت عليهم أحقاب وفعلت فيهم الأهواء فعلتها، ووجدت الآراء الباطلة فى نفوسهم مواضع، فابتعدوا عن سبيل الرشد، وذهبوا فى أودية الضلال فرقًا حتى أصبحت الجزيرة كمعرض للملل الضالة والآراء الفاسدة، فيجد الباحث فى تاريخهم أصنافًا كثيرة من مظاهر الشرك كانت قائمة فى الجزيرة، من نحو الأصنام والأنصاب (٢) والأشجار والملائكة والجن والحيوان، ومن دين الصابئة وعبادة الكواكب، ومن المجوسية والبرهمية.

عبادتهم الأصنام: سبب ضلال العرب فى عبادة الأصنام بعد تمسكهم بملة إبراهيم عليه السلام، أن أولاد إسماعيل لما ملئوا مكة وانتشروا فى البلاد لطلب

---

(١) قوم لوط لم يكونوا ببعيد من قوم شعيب لا فى الزمان ولا فى المكان ولا فى الصفات والأفعال القبيحة.

(٢) قال ابن الكلبى فى كتاب الأصنام: إن المصنوع من خشب أو ذهب أو فضة على صورة إنسان: صنم، وإذا كان من حجارة فهو وثن، وذهب آخرون إلى أن الصنم والوثن مترادفان، فقال: ما يعبد من الحجر على غير صورة فهو نصب، وما يكون تمثالاً فهو صنم ووثن. وحكى صاحب المصباح قولا بأن الأنصاب هى الأصنام، فقال: النصب: حجر نصب وعبد من دون الله، قيل: هى الأصنام وقيل غيرها فإن الأصنام مصورة والأنصاب بخلافها.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الرزق، كان الظاعن منهم يحمل معه حجراً من حجارة الحرم، وحيثما نزل وضعه وطاف به طوافه بالكعبة، ثم انجر بهم ذلك إلى المبالغة فى تعظيم تلك الأحجار فعبدوها، وعادوا إلى ما كانت عليه الأمم الضالة من قبلهم.

ثم ظهر عمرو بن الحى الخزاعى أيام تغلبت خزاعة على مكة، ونفت منها جرهم، وكان قد تولى سدانة البيت، فدعا إلى عبادة الأوثان، وسبب ضلال عمرو هذا فيما يروى أنه دخل البلقاء (١) من أرض الشام، فرأى قوماً يعبدون الأصنام، ويقولون: هذه أرباب نتخذها، نستنصر بها فننصر ونستسقى بها فنسقى، وكل من سألها يعطى، فرجع إلى مكة ومعه صنم منهم، فنصبه على الكعبة، ودعا القوم إلى عبادته ففعلوا.

تفشت فى العرب عبادة الأصنام، فأقاموا فى جوف الكعبة تماثيل وكان أعظمها فى زعمهم «هبل».

ووضعوا حول الكعبة نحو ستين وثلاثمائة صنم (على عدد أيام السنة) ومن الأصنام التى وضعوها حول الكعبة (إساف) وكان على الصفا، و(نائلة) وكانت على المروة، واتخذ أهل كل دار من مكة صنماً يعبدونه من التماثيل القائمة فى الكعبة، والأنصاب الموضوعة حولها.

وللعرب أصنام فى غير مكة يبالغون فى تعظيمها، منها «اللات» (٢) وهو صنم لثقيف، و«مناة» (٣) صنم كان منصوباً على ساحل البحر بقديد (الجبل الذى بين مكة والمدينة) وكانت العرب جميعاً تعظمه، وتذبح حوله، ولم يكن أحد أشد إعظاماً له من الأوس والخزرج «وفلس» (٤) صنم لطيئ، و«نهم» (٥) صنم لمزينة، و«ذو الخلصة» صنم لخثعم ودوس وبجيلة و«الأقيصر» كان بمشارف الشام للخم وجذام، وغطفان (٦) و «ذو الكفين» صنم لدوس، و«ذو الشرى» صنم لبنى

---

(١) البلقاء: كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادى القرى، قبتها عمان.

(٢) بالتاء المشددة، وقرأ بها ابن عباس وعكرمة وجماعة تسمية للصنم بوصف الذى كان يلت عنده السويق.

(٣) الأصنام لابن الكلبى.

(٤) ضبطه صاحب القاموس بكسر الفاء وسكون اللام، وضبطه ياقوت بضم الفاء واللام.

(٥) بضم النون وسكون الهاء.

(٦) بفتح أوله وثانيه، وحكى ابن دريد فتح أوله وإسكان ثانيه، وقيل بضم ثانيه وكان يقال له الكعبة اليمانية.

الحارث بن يشكر، و«رضا» صنم لربيعة، و«عميانس» صنم لخولان، و«سعير» صنم لعنزة.

ومن أصنامهم «ود» كان فى قبيلة كلب، و«سواع» وكان فى قبيلة هذيل، و«يغوث» وكان فى قبيلة مراد، و«يعوق» وكان فى قبيلة همدان، و«نسر» وكان فى حمير.

وقد ذكر القرآن المجيد هذه الأصنام الخمسة فى قصة نوح عليه السلام. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.

روى عن ابن عباس أن هذه الأصنام كانت لقوم نوح - عليه السلام - ثم انتقلت إلى العرب من بعدهم.

ومن المحتمل القريب أن تكون أسماء هذه الأصنام بقيت تذكر إلى ما بعد نوح، ثم اتخذ العرب أصناماً وسموها بهذه الأسماء.

ومن هذه الأصنام ما كان يتخذ من الأحجار النفيسة، كهبل، فإنه كان - فيما يروى - من عقيق أحمر على صورة إنسان، ومنها ما يتخذ من نحاس، كصنم خزاعة الذى أقاموه فوق الكعبة، ومنها ما يتخذ من الحجارة كمناة، فإنه كان صخرة مربعة، ونحو ذى الخلصة فإنه كان مروة بيضاء وعليها نقش فى شكل تاج، ومنها ما يتخذ من خشب كذى الكفين.

مظاهر تعظيمهم للأصنام: كان عباد الأصنام يزورون الأصنام، ويتمسحون بها، ويتقربون إليها بالذبائح، ويحلفون بها، ولا يتعرضون لمن التجأ إليها، وكانوا يرون أن سبها يأتى بأمراض معضلة، ويؤلفون أسماء أبنائهم من أسمائها تبركًا بها. كما قالوا: عبد العزى، وزيد اللات، وزيد مناة، وعبد يغوث، وعبد نهم، وعبد ود، وعبد غنم، وعبد المدان(١) وعبد رضا، وعبد كلال (٢) وعبد مناف (٣)

---

(١) قال ابن دريد: المدان: اسم صنم، وفى القاموس: المدان كسحاب صنم.

(٢) هو ابن عبد ياليل أحد سادات الطائف عرض رسول الله ﷺ عليه الدعوة فلم يجبه.

(٣) فى القاموس: ومناف صنم.

وعبد ياليل (١).

وكانت الحيض من النساء لا يدنون من الأصنام ولا يتمسحن بها، وإنما كانت الواحدة تقف ناحية منها (٢).

وكانوا يسكبون لها خمراً أو زيتًا أو حليبًا، ويجعلون أمامها طعامًا ليأكله الطير، وكانوا يقصون عندها نواصي أولادهم أو يحلقون شعورهم، وكان العذارى يرقصن حولها مسبلات ذيولهن، وكانوا يقسمون لها من حرثهم وأنعامهم، قال تعالى: ﴿ **وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

وبيان هذه القسمة الضالة على ما جاء في بعض الروايات أنهم كانوا يعينون شيئًا من حرث ونتاج لله تعالى، فيصرفونه إلى الضيف والمساكين وأشياء منها لآلتهم، فينفقون منها لسدنتهم، ويذبحون عندها فإذا رأوا ما جعلوه لله تعالى زاكيًا ناميًا، يزيد في نفسه خيرًا رجعوا فجعلوه لآلهتهم، وإذا زكا ما جعلوه لآلهتهم تركوه معتلين بأن الله تعالى غني.

عبادتهم لبعض الأشجار: كان العرب يعبدون بعض الأشجار، و«العزى» سمرة(٣) كانت لغطفان يعبدونها، وكانوا بنوا عليها بيتًا وأقاموا لها سدنة (٤) وقيل ثلاث سمرات أو نخلات، وكانت قريش تخصها بالإعظام، وكانوا يعظمون ذات أنواط وهي شجرة عظيمة في جوار مكة، كانت الجاهلية تأتيها كل سنة فتعلق عليها أسلحتها، وتذبح عندها.

عبادتهم بعض الحيوان: من العرب من كانوا يعبدون بعض الحيوان فقد جاء في

---

(١) في القاموس: يا ليل كهابيل: رجل وصنم.

(٢) الأصنام لابن الكلبي.

(٣) واحدة السمر وهو شجر الطلح.

(٤) معجم ياقوت.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قصة وفد طيئ أن النبى ﷺ نظر إليهم، وقال: «إنى خير لكم من العزى ولاتها، ومن الجمل الأسود الذى تعبدونه من دون الله» (١).

وجاء فى قصة عمرو بن حبيب الملقب بذى الكيود أنه أغار على بنى بكر، فأصاب سقبًا (٢) كانوا يعبدونه فنحره وأكله، وإلى هذا يشير الشيخ أحمد البدوى الشنقيطى فى عمود النسب (٣) بقوله:

وانسب حبيبهم (٤) وذا الكيود ... آكل سقب بكر المعبود

عبادتهم للملائكة: من العرب من كانوا يعبدون الملائكة، ويزعمون أنهم بنات الله، يشفعون لهم عنده (٥) وقد أنكر الله تعالى عليهم ذلك، فقال تعالى: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا﴾ [الإسراء: ٤٠]، وورد فى القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى يسأل الملائكة يوم القيامة عن عبادة الإنس لهم فيتبرءون منهم ومن ولايتهم جاء هذا فى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠ - ٤١].

وسؤال الله تعالى للملائكة يدل على أن من الإنس من كانوا يتوجهون بعبادتهم إلى الملائكة، وقول الملائكة ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ [سبأ: ٤١]، ظاهر فى نفى أن يكون من الإنس من يتوجه إليهم بالعبادة، وأن المشركين إنما كانوا يقصدون بعبادتهم الجن، ومن وجوه تفسير الآية التى يكون بها جواب الملائكة موافقًا للسؤال، أن أولئك الإنس كانوا يتوجهون بالعبادة إلى الملائكة ولكنهم كانوا يتخيلون للملائكة صورًا وهذه الصور إنما تطابق حال الجن، فيصح أن يقال إن

---

(١) الروض الأنف جـ٢، ص٣٤٢.

(٢) السقب: ولد الناقة.

(٣) توجد منه نسخة بدار الكتب المصرية.

(٤) الضمير يعود على بنى فهر، وهو الذى يقول فيه الشاعر:

ألا كل من سمى حبيب ولو بدت ... مروءته يفدى حبيب بنى فهر

(٥) الملل والنحل للشهرستانى ومروج الذهب للمسعودى.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

هؤلاء الإنس إنما يعبدون أصحاب تلك الصور وهم الجن.

ومن الوجوه التى تجعل الجواب موافقًا للسؤال أن الملائكة جعلوا عبادة الإنس لهم عبادة للجن، لأن الجن وهم الشياطين وسوسوا لهم بهذه العبادة، فنسبة عبادة الإنس للجن من جهة أنهم وسوسوا بها.

عبادتهم الجن: من العرب من كانوا يعبدون الجن، قال أبو المنذر فى كتاب الأصنام: كانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن، وهم المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿ **بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ** ﴾ [سبأ: ٤١].

وقال ابن عطية فى تفسير هذه الآية: « يجوز أن يكون فى الأمم الكافرة من عبد الجن، وفى القرآن آيات يظهر منها أن الجن عبدت، فى سورة الأنعام وغيرها » ومن آيات الأنعام الظاهرة فى هذا قوله تعالى: ﴿ **وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ** ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، وجاء فى سورة الجن ﴿ **وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا** ﴾ أى زاد الرجال العائذون الجن رهقًا أى تكبراً وعتواً، وذلك أن الرجل منهم إذا أمسى فى واد قفر وخاف على نفسه، نادى بأعلى صوته: يا عزيز هذا الوادى أعوذ بك من السفهاء الذين فى طاعتك.

وجاء فى هذا من الشعر قول بعضهم:

قد استعذنا بعظيم الوادى   من شر ما فيه من الأعادى
فلم يجرنا من هزبر عاد

والاستدلال على أن فى العرب من كانوا يعبدون الجن بآية ﴿ **بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ** ﴾ [سبأ: ٤١] غير ظاهر. فإن سؤال الله تعالى للملائكة عن عبادة الإنس لهم يشعر بأن هناك جماعة من الإنس يتوجهون بعبادتهم إلى الملائكة. فيكون جواب الملائكة بأن هؤلاء إنما كانوا يعبدون الجن غير مناسب السؤال إلا على أحد الوجوه التى أوردناها فى بحث عبادتهم للملائكة.

شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد يلوح للناظر وجه في تأويل الآية يمكن أن تدل به على أن من الإنس من كان يعبد الملائكة ومنهم من كان يعبد الجن، وهو أن يقال: لما حضر المشركون من عباد الملائكة والجن والأصنام، وأراد الله تعالى إقامة الحجة على أن غيره لا يستحق أن يعبد، وجه الخطاب إلى أشرف من توجه المشركون إليه بالعبادة وهم الملائكة، حتى إذا تبرءوا وتبين بإقرارهم أنهم غير أهل لأن يعبدوا، كان قصور غيرهم عن مرتبة العبادة أولى، وكان جواب الملائكة أن تبرءوا من الإنس الذين كانوا يعبدونهم، فقال: ﴿ **سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم** ﴾ [سبأ: ٤١]، وبعد هذه البراءة انتقلوا إلى الإخبار بأن أولئك المشركين كانوا يعبدون الجن.

فاسم الإشارة في قوله: ﴿ **أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ** ﴾ [سبأ: ٤٠] مشار به إلى جملة المشركين بالنظر إلى أن فريقًا من هذا المجموع كانوا يعبدون الملائكة، والضمير في قوله تعالى: ﴿ **بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ** ﴾ [سبأ: ٤١] يعود إلى مجموع المشركين بالنظر إلى الفريق الذين كانوا يعبدون الجن، وكلمة «بل» تستعمل في عطف الجمل لمجرد الانتقال من خبر إلى آخر، فهي هنا للانتقال من التبرؤ من الإنس إلى وصفهم بعبادة الجن، ولا غرابة في إطلاق اسم يتناول جماعة ثم يخبر عنه بأمر صدر من بعضهم لأمر يقتضيه المقام، والأمر الذى اقتضى في السؤال تخصيص عبادتهم للملائكة بالذكر، هو ما أشرنا إليه من أن الملائكة أشرف معبوداتهم، والذى اقتضى في جواب الملائكة ذكر عبادتهم للجن هو أنه كان شأن أكثر المشركين، فإن الذين كانوا يعبدون الأصنام يتعلقون مع ذلك باعتقاد أن من ورائها أرواحًا خفية تتصرف في شئونهم، وأكثرهم يسمون هذه الأرواح بالجن.

عبادتهم للكواكب: كان بنو لخم وجرهم يعبدون المشترى، وبعض كنانة عبدوا القمر والدبران، وبعض قبائل ربيعة عبدوا سهيلاً، وبعضهم عبدوا الثريا، وبعض قبائل ربيعة عبدوا المرزم، وطائفة من تميم عبدوا الدبران، وبعض قبائل لخم وخزاعة عبدوا الشعرى العبور، قال ابن قتيبة: «كان قوم الجاهلية عبدوا الشعرى العبور، وفتنوا بها، وكان أبو كبشة الذى كان المشركون ينسبون إليه النبى ﷺ أول من

شبكة الألوكة - قسم الكتب

عبدها، وخالف قريشًا، فلما بعث النبى ﷺ ودعا إلى عبادة الله، وترك عبادة الأوثان، قالوا: هذا ابن أبى كبشة: أى يشبهه (١).

ومن العرب من عبدوا الشمس، ومن أثر هذا تسميتهم لها بالإله، قال عتبة بن الحارث اليربوعى:

تروحنا من اللهباء (٢) عصرًا وأعجلنا الآلهة أن تؤوبا

وذكر صاحب تاج العروس أن الشمس اسم لصنم قديم، وقال: قد سمت العرب عبد شمس وهو بطن من قريش، قيل سموا بذلك الصنم، وأول من تسمى به سبأ بن يشجب.

ومن أثر اعتقادهم بتأثيرها فى الكون ما هو جار فى بعض البلاد إلى الآن من أن الغلام إذا سقطت له سن أمسكها بين السبابة والإبهام واستقبل بها الشمس، ورماها نحوها طالبًا منها أن تعوضه سنًا أحسن من السنة الساقطة.

ومن أثر عبادتهم للكواكب تسميتهم أبناءهم بأسماء مضافة إليها نحو عبد شمس، وعبد المشترى.

○ البرهمية فى العرب:

اشتهر دين البرهمية فى سكان عمان (٣)، والبرهمية منسوبة إلى برهم، وهو المعبود الأول أو الأكبر عند أصحاب هذا المذهب المنتشر فى الهند، ويصفون هذا المعبود بأنه أصل كل الموجودات، واحد أزلى (٤).

وبرهما فى الهند هيكل يعبده البراهمة (٥) ويتوجهون إليه بالدعاء، وهم يعبدون مع ذلك الشمس بدعوى أنها ينبوع النور والحرارة، فهى أول المعبودات فى

---

(١) وقيل: أبو كبشة كنية وهب بن عبد مناف جد النبى ﷺ من جهة أمه.

(٢) فى اللسان: اللعباء بالعين.

(٣) خلاصة تاريخ العرب لسيديو.

(٤) يريدون به الطبيعة، ولهذا كانت لهم آلهة متعددة يمثل كل منها مظهرًا من مظاهر الطبيعة.

(٥) انظر كتاب محمود بن سبكتكين الذى بعث به إلى ديوان الخلافة عند فتح الهند (فى ترجمة ابن سبكتكين من تاريخ ابن خلكان).

زعمهم، ويستدل بعضهم بهذا على أن البرهمية فرع للمجوسية قبل ظهور زرادشت.

○ دين الصابئة فى العرب:

من العرب من كانوا على دين الصابئة، ومذهب الصابئة يقوم على عبادة الملائكة، ذلك أنهم قالوا: إنا نحتاج فى معرفة الله وأحكامه إلى متوسط روحانى، ولما لم يتيسر لهم مشاهدة الروحانيات والتلقى منها، لجئوا إلى الكواكب بزعم أنها هياكل الروحانيات، وصاروا يعبدون الكواكب تقربًا إلى الروحانيات التى تقربهم - فيما يزعمون - إلى البارى جل جلاله، والكواكب التى كانوا يعبدونها السبع السيارات أو بعض الكواكب الثابتة، فصابئة الروم تعبد السيارات، وصابئة الهند تعبد الثوابت (١).

ثم إن جماعة منهم قالوا: إن الهياكل السماوية لا ترى فى كل الأوقات لأن لها طلوعًا وغروبًا، وظهورًا بالليل واحتجابًا بالنهار، فلا يمكن التقرب بها فى كل وقت، وبدا لهم أن يقيموا أشخاصًا مبصرة لهم فى كل وقت يتوسلون بها إلى الهياكل، فاتخذوا أصنامًا على مثال الهياكل، ونصبوا كل صنم فى مقابلة هيكل.

وقد بعث الله تعالى إبراهيم - عليه السلام - فحاج الفريقين: عباد الكواكب وعباد الأصنام.

ومن أثر ديانة الصابئة فى بلاد العرب اعتقادهم بالأنواء، وبيان ذلك أن للقمر ثمانى وعشرين منزلة، وتسمى هذه المنازل بأسماء كواكب تظهر فيها، وكانت العرب تزعم أن من سقوط المنزلة وطلوع ما يقابلها يكون مطر. فيقولون: مطرنا بنوء كذا، والنوء الكوكب الطالع، لأنه إذا سقط الساقط بالمغرب، ناء الطالع أى نهض وطلع بالمشرق، وقيل: النوء اسم للكوكب الذى يغرب (٢). وقد أشار

(١) سميت ثوابت وإن كانت متحركة، لأنها ثابتة الأبعاد لا يقرب أحدها من الآخر ولا يبعد عنه، ولا تتغير عن جهاتها.

(٢) وقيل: النوء اسم لسقوط النجم فى المغرب مع الفجر، وطلوع آخر يقابله من ساعته فى المشرق.

الحديث الشريف إلى بطلان هذه العقيدة بقوله: «فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فهو مؤمن بى كافر بالكواكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب» ومما يروى عنهم فى هذا الشأن أنهم كانوا يكرهون نوء السماك، ويقولون: فيه داء الإبل، قال الشاعر:

ليت السماك ونوءه لم يخلقا ومشى الأفيرق (١) فى البلاد سليما

○ المجوسية فى العرب:

المجوسية قائمة على اعتقاد أن للعالم أصلين: هما النور والظلمة، وأهل هذه النحلة يعظمون النار. بزعم أنها من أجناس الآلهة النورية، والمجوس فرق.

وأشهر فرقهم «**الزرادشتية**»: أصحاب زرادشت الذى ظهر فى عهد كشتاسف ودعا هذا الملك إلى دينه فأجابه، وأصل عقيدة هؤلاء أن النور والظلمة مبدأ العالم، وأن الله خلقهما وأبدعهما، وأن الخير والشر والصلاح والفساد حصلت من امتزاج النور بالظلمة، ولزرادشت كتاب يقولون أنه صنفه أو أنزل عليه وهو «زندستا».

ومن أشهر فرقهم «**الثنوية**» وهم أصحاب القول بأن النور والظلمة اللذين هما مبدأ العالم فى زعمهم أزليان قديمان.

ومنها «**المانوية**» وهم أصحاب مانى بن فاتك الذى ظهر فى عهد شابور بن أزدشير، وقتله البهرام بن هرمز وقتل الرؤساء من أصحابه (٢).

ومنها «**المزدكية**» وهم أصحاب مزدك الذى ظهر أيام قبادو والد أنوشروان ودعا قبادو إلى مذهبه، فأجابه، ولما تولى أنو شروان اطلع على كذب مزدك هذا، فقتله، ومن مبادئ هذه النحلة إباحة النساء والأموال، وجعلها شركة بين الناس.

---

(١) اسم لجمل الشاعر.

(٢) فى أيام مانى ظهر اسم الزندقة، ذلك أن الفرس حين أتاهم زرادشت بكتابه المعروف بالنسياه باللغة الأولى من الفارسية، وعمل له التفسير وهو الزند، وعمل لهذا التفسير شرحًا هو البازند، فكان من عدل إلى التأويل الذى هو الزند، قالوا هذا زندى فأضافوه إلى التأويل أى أنه منحرف عن ظاهر التنزيل، فأخذ العرب هذا اللفظ من الفرس وعربوه فقالوا: «زنديق» والزنادقة هم الثانوية، ثم ألحق بهم فى هذا الاسم سائر من اعتقدوا قدم العالم وأنكروا حدوثه.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وكانت المجوسية فى نفر من تميم منهم زرارة بن عدى، وابنه حاجب ابن زرارة والأقرع بن حابس، وأبو الأسود جد وكيع بن حسان.

وكانت المجوسية بالبحرين (١)، جاء فى كتاب المنذر بن ساوى رئيس البحرين إلى رسول الله ﷺ «قرأت كتابك على أهل البحرين فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه، ودخل فيه ومنهم من كرهه وبأرضى مجوس ويهود، فأحدث إلى فى ذلك أمرك» فجاء كتاب رسول الله ﷺ وفيه: «من أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية».

وكانت المجوسية فى نفر من قريش، قال ابن قتيبة فى كتاب المعارف: «وكانت الزندقة فى قريش أخذوها من الحيرة» ومراده من الزندقة المجوسية، والظاهر أن العرب المجوس كانوا على مذهب الثانوية، لأن الثانوية هى المعروفة باسم الزندقة.

ومن أثر المجوسية فى العرب حلفهم بالنار وتعاقدهم عليها، فقد ورد فى عاداتهم أنهم كانوا يوقدون ناراً عند التحالف.

قال الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين: وكانوا «أى العرب» يتحالفون على النار، ويتعاقدون ويأخذون العهد المؤكد واليمين الغموس،

وقال فى كتاب الحيوان: «كانوا لا يعقدون حلفهم إلا عند نار، فيذكرون عند ذلك منافعها، ويدعون الله بالحرمان والمنع من منافعها على الذى ينقض الحلف، ويخيس بالعهد».

وجاء فى قصيدة الأعشى التى مدح بها المحلق ما يشير إلى أنهم كانوا يتحالفون على الرماد وهو قوله:

رضيعى لبان ثدى أم تقاسما ... بأسحم داج عوض لا نتفرق (٢)

---

(١) ورد أن النبى ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر، وهجر: بلد معروف بالبحرين، وأما هجر التى تنسب إليها القلال الهجرية فهى قرية من قرى المدينة المنورة (النهاية لابن الأثير).

(٢) قبل هذا البيت بيتان هما:

لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة ... إلى ضوء نار فى يفاع تحرق

تشب لمقرورين يصطليانها ... وبات على النار الندى والمحلق

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وأورد صاحب العقد الفريد هذا البيت وقال: قوله «تقاسما بأسحم داج» يقول: تحالفنا على الرماد، وهذا شيء تفعله الفرس لئلا يتفرقوا أبداً.

ومن أثر المجوسية في العرب زعمهم أن ابن المجوسي إذا كان من أخته وخط على النملة (١) تبرأ وتنصلح. قال بعض شعرائهم:

ولا عيب فينا غير عرق لمعشر كـريم وأنا لا نخط على النمل

يريد أنا لسنا بمجوس ننكح الأخوات، وكانوا يكنون عن لمجوسي بقولهم: فلان يخط على النمل.

○ الدهرية في العرب:

قص الله تعالى علينا أن قومًا من كفار العرب يقولون **﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾** [الجاثية: ٢٤] وهذه الآية تدل على أن هؤلاء القوم ينكرون البعث، ويسندون الإهلاك أي: الإماتة إلى الدهر، واختلف المكاتبون في التفسير والتاريخ في أن هؤلاء القوم يقرون بالخالق أو يجحدون به، فقال بعضهم: إن هؤلاء القوم يعترفون بوجود الله تعالى فهم غير الدهرية الذين يسندون الحوادث إلى الدهر ولا يقولون بوجوده تعالى، وجرى على هذا المسعودي في مروج الذهب، فقال: ومن العرب من أقر بالخالق وكذب بالرسل والبعث، ومال إلى قول أهل الدهر، وهؤلاء الذين حكى الله تعالى إلحادهم، وأخبر عن كفرهم بقوله تعالى: **﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾** [الجاثية: ٢٤].

ومن المفسرين من جعل الآية على قوم ينكرون وجود الخالق، وهذا ما سلكه القرطبي في تفسيره إذ قال في تفسير هذه الآية: وكان المشركون أصنافًا منهم هؤلاء، ومنهم من كان يثبت الصانع، وينكر البعث، وجرى على هذا أبو البقاء في

---

(١) هي بثيرة تخرج في الجسد بالتهاب واحتراق ويرم مكانها يسيراً ويدب إلى موضع آخر كالنملة، وتطلق على قروح في الجنب كالنمل (قاموس).

كلياته فقال: والدهرى بالفتح هو الذى يقول: العالم موجود أزلا وأبداً، لا صانع له ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

ومن المفسرين من جعل الآية محتملة لأن تكون فى قوم لا يعرفون الله ولا يقرون به وهم الدهرية، وأن تكون فى قوم يقرون بالخالق وينكرون البعث وينسبون الآفات إلى الدهر لجهلهم أنها مقدرة من الله، وجرى على هذا أبو حيان فى تفسيره البحر.

وليس فى الآية ما يدل على أن هؤلاء القوم يقرون بالإله أو يجحدون به، فمن ذهب إلى أن موردها قوم لا يفترون بالإله، فلأن إضافة الحواديث إلى الدهر مقترنة بإنكار البعث، شأن الدهريين الذين ينكرون وجود الخالق جل شأنه.

ومن أثر اعتقادهم أن الحوادث من الدهر، كثرة شكواهم من الدهر ويظهر هذا كثيراً فى أشعارهم. قال أبو عبيد: ومن شأن العرب أن يذموا الدهر عند المصاب والنوائب، حتى ذكروه فى أشعارهم، ونسبوا الأحداث إليه، وقد أراد النبى ﷺ أن يقطع هذا الأثر الناشئ عن أصل عقيدة فاسدة. فقال كما جاء فى صحيح البخارى: «**لا يقولن أحدكم: يا خيبة الدهر، فإن الله هو الدهر**».

○ اليهودية فى جزيرة العرب:

لليهودية فى جزيرة العرب على ما يقوله بعض الكاتبين فى تاريخها طوران:

أولهما: كان لبطون من اليهود نزلوا بلاد العرب، وانتهى هذا الطور فى القرن الخامس قبل ميلاد المسيح (١).

ثانيهما: ابتدأ فى القرن الأول والثانى بعد ميلاد المسيح (٢)، ذلك أن جموعاً كثيرة من اليهود هاجروا من فلسطين إلى البلاد العربية، ولهذه الهجرة أسباب، منها: نمو عدد اليهود فى فلسطين حتى ضاقت بهم البلاد، ومنها أن الدولة الرومانية كانت قد استولت على فلسطين حوالى القرن الأول قبل ميلاد المسيح،

---

(١) انقرض اليهود من الجزيرة لذلك العهد ولم يبق فيما يقال إلا بعض آثار منازلهم.

(٢) انتهى هذا الطور بإجلاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه لهم من الجزيرة.

وانهالت تضطهد اليهود، وتسومهم الخسف، فلجأ طوائف منهم إلى الهجرة، وقصدوا البلاد العربية، مما عرفوه فى حياة البداوة العربية من الحرية، فقبلهم العرب، وعاملوهم بإحسان، ومنها: أن بلاد العرب كثيرة الرمال، فيتعسر على الجيوش الرومانية وهى على شيء من النظام أن تقطعها، فنزل اليهود فى شمال الحجاز بيثرب (المدينة المنورة) وأرض خيبر (١)، ووادى القرى (٢)، وتيماء (٣)، واتخذوا الحصون والآطام (٤) على رءوس الجبال.

ومن دخل فى اليهودية من العرب طوائف من بنى كنانة وبنى كندة وبنى نمير، وكانت هذه القبائل مجاورة لمواطن اليهود: يثرب وأم القرى وتيماء.

وظهرت اليهودية فى بلاد اليمن منذ عهد بعيد، ودخل فيها بعض ملوك حمير، فقامت دولة متهودة (٥) إلى أن جاء الحبش فقوضوا أركانها، ولكن بقيت طوائف من اليهود مفرقين فى البلاد، وسبق كتاب المنذر أمير البحرين إلى رسول الله ﷺ، وفيه يقول: «بأرضى مجوس ويهود، فأحدث إلىَّ فى ذلك أمراً».

وقال الجاحظ: «وجاء الإسلام وليست اليهودية بغالبة على قبيلة إلا ما كان من ناس من اليمانية، ونبذ يسير من جميع إياد وربيعة، وعظم اليهودية إنما كان بيثرب وخيبر وتيماء ووادى القرى فى ولد هارون، دون العرب» (٦).

وفى أهل نجران الذين أجلاهم عمر بن الخطاب من الجزيرة يهود، ومما يقولونه فى

---

(١) على ثمانية برد من المدينة لمن يريد الشام، وخيبر بلسان اليهود الحصن وقيل سميت باسم رجل من العماليق فنزلها وفتحت سنة ٧ للهجرة وقيل سنة ٨هـ.

(٢) واد بين المدينة والشام وهو من أعمال المدينة، كثير القرى، فتحها النبى ﷺ سنة ٧هـ ثم صولحوا على الجزية بعد أن فرغ النبى ﷺ من خيبر.

(٣) بلد بين الشام ووادى القرى، لما بلغهم فتح أم القرى بعثوا إلى النبى ﷺ، وصالحوه على الجزية، وأقاموا ببلادهم وبقيت أرضهم بأيديهم.

(٤) جمع أطم: وهو القصر، ويطلق على الحصن المبنى بالحجارة وعلى كل بيت مربع.

(٥) قال بعض المؤرخين من المستشرقين: إن دولة حمير اليهودية لم تظهر إلا فى القرن الخامس بعد المسيح واستشهد على هذا بقول الطبرى: إن تبان أسعد مالك حمير وصاحب الدعوة اليهودية، كان في نهاية القرن الخامس.

(٦) رسالة فى الرد على النصارى.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سبب ظهور اليهودية فى اليمن، أن الدولة الرومانية بالشرق بعد أن انتهت من بسط سلطانها على الممالك المجاورة لجزيرة العرب، وجهوا أنظارهم إلى الاستيلاء على أطراف الجزيرة العربية، فأرسلوا وفوداً من الرهبان لنشر الديانة المسيحية بالجزيرة تمهيداً لتنفيذ خطتهم السياسية الاستعمارية وتنبه ملوك حمير لهذه الغاية، فدخلوا فى اليهودية، ودعوا إليها ليدافعوا بها النصرانية (١).

أثر اليهودية فى العرب: روى جماعة من المحدثين كأبى داود والبيهقى والحاكم عن ابن عباس أنه قال: «كان هذا الحى من الأنصار وهم أهل وثن مع هذا الحى من اليهود وهم أهل كتاب كانوا يرون لهم فضلا عليهم فى العلم، وكانوا يقتدون بكثير من أفعالهم» ومن أثر اعتقادهم بفضل اليهود فى العلم لذلك العهد، أنه كان من نساء الأوس والخزرج من إذا ولدت ولداً تنذر إن عاش ولدها أن تهوده (٢).

ويروى أن يهود يثرب علموا العرب الكتابة العربية (٣) ويرى أثر اليهودية فى شعر العرب، كما قال لبيد يصف رجلا قد غلبه النعاس:

يلمس الأحلاس (٤) فى منزله بيديه كاليهودى المصل

ووجدت للعرب أشياء تقارب بأسمائها وصورها بعض ما عرف لليهود، فعدها بعض الكاتبين من تأثير اليهودية مثل «النسيء» الذى كان يقوم به أفراد اتخذهم العرب رؤساء فيه (٥)، وهو أنهم إذا فرغوا من الحج اجتمعوا إلى هذا الرئيس فحرم الأشهر الحرم: رجباً وذا القعدة وذا الحجة والمحرم، فإذا احتاجوا إلى شن الغارة وطلب

---

(١) هذه الحيلة يعمل بها الدول المسيحية اليوم، فيرسلون دعاة النصرانية إلى بلاد الإسلام ليمهدوا لهم السبيل إلى احتلالها أو ليعينوهم على تثبيت سلطانهم عليها، وليست البهائية والقاديانية إلا فرقتين غير إسلاميتين تعملان تحت اسم الإسلام لتمكين بعض الدول المسيحية من احتلال البلاد الإسلامية أو مساعدتهم على تثبيت قدم الاحتلال.

(٢) الروض الأنف للسهيل.

(٣) فتوح الإسلام للبلاذرى.

(٤) الأحلاس جمع حلس، وهو الكساء الذى يكون على ظهر البعير تحت البردعة، ويبسط فى البيت تحت حر الثياب.

(٥) آخرهم عوف بن أمية.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الثارات أخر شهر المحرم إلى صفر، وإن احتاجوا إلى ذلك فى صفر أخروه وحرموا ربيعًا الأول وهذا ما نزل فيه قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ** ﴾ [التوبة : ٣٧] لأنه تحريم ما أحل الله « يحلونه » أى الشهر المؤخر « عامًا » ويحرمون مكانه شهراً آخر ويحرمونه أى يحافظون على حرمته « عامًا ليواطئوا » ليوافقوا « عدة ما حرم الله » من الأشهر الأربعة (١) .

وقد قال بعض الأفرنج : إن النسىء الذى كان عند العرب فى الجاهلية مأخوذ من اليهود، فإن الناسىء فى اللغة العبرية معناه الرئيس الدينى، وكذلك كان الرئيس الدينى عند اليهود يؤخر ويقدم الشهور، ويعين مواعيد الأعياد والصيام، ويبعث بذلك إلى طوائف اليهود المختلفة .

ونحن نستبعد أن يكون النسىء مأخوذًا من اليهود مادام لفظه مشتقًا من مادة عربية له تصرفات تدور حول معنى التأخير (٢) ومما ظنه بعضهم من أثر اليهودية فى العرب كلمة « صوفة » ذلك أن هذا اللفظ فى العبرية معناه الحادى، والعرب يطلقونه على قوم يندفعون بالناس من عرفة، ويؤمونهم فى رمى الجمار، وكان آخرهم عند ظهور الإسلام كرب بن صفوان، والكتب العربية تذكر فى تسميتهم « صوفة » وجوهًا، منها ما ذكره صاحب القاموس من أنه اسم لأبيهم الغوث بن مرة، وقال أبو عبيدة سموا بذلك لأنهم بمنزلة الصوف : فيهم القصير والطويل والأسود والأحمر، ليسوا من قبيلة واحدة . وقيل : لأن أم الغوث نذرت لئن عاش لتعلقن برأسه صوفة وتجعله خادمًا للكعبة .

وزعم بعضهم أن الختان أخذه العرب من اليهود، ونحن نرد هذا بأن الختان من

---

(١) ويقع النسىء على وجه آخر هو أنهم يؤخرون الحج عن وقته تحريًا منهم للسنة الشمسية، فكانوا يؤخرونه فى كل عام أحد عشر يومًا أو أكثر قليلاً حتى يمر ثلاث وثلاثون سنة فيعود الحج إلى وقته، وهذا معنى قوله ﷺ فى حجة الوداع : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » فكانت حجة الوداع فى السنة التى عاد فيها الحج إلى وقته .

(٢) يقال : نسأه ونسأه إلي آخره، وبعته بنسيئة أى بأخرة، واستنسأه سأله أن يؤخر دينه، ونسئت المرأة : تأخر حيضها .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سنة إبراهيم - عليه السلام - كما ورد فى صحيح البخارى «اختتن إبراهيم عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة».

وزعم أحد دعاة النصرانية (١) أن ما عرف عند العرب من أن إسماعيل عليه السلام أبو العرب إنما جاءهم من اليهود، قالوا لهم ذلك ليتقربوا إليهم بدعوى أنهم أبناء إسماعيل وأن اليهود أبناء إسحاق، وجد الجميع إبراهيم عليه السلام، وقد أخذ هذا الزعم صاحب كتاب فى الشعر الجاهلى وأنكر أن يكون إبراهيم عليه السلام دخل بلاد العرب، ونحن نؤمن بما جاء فى القرآن الكريم والحديث الصحيح، وليس فى يد ذلك الداعية النصرانى ولا صاحب كتاب فى الشعر الجاهلى رواية تقف فى وجه ما ورد فى القرآن أو الحديث (٢).

ومن أسباب قلة انتشار اليهودية فى العرب أن «اليهودية هى خلاصة القانون التلمودى (٣) وهذا القانون الذى نشأ فى بيئة معينة وفى مدة معينة، والذى استمد مبادئه وتعاليمه من نصوص التوراة، قد أدخلت عليه تغييرات تلائم الأحوال الجديدة التى طرأت على اليهود، وقد نجم عن ذلك أن الذين أرادوا أن يقبلوا جوهريات صحف التوراة دون أن يخضعوا للناموس التلمودى لم يؤذن لهم باعتناق اليهودية» (٤) ثم قال: «وتأثر كثيرون من العرب بتعاليم اليهودية، وأخذوا يخضعون لبعض الأصول الجوهرية من التوراة دون أن ينقادوا للبعض الآخر، فلم ترض منهم اليهودية ذلك، ولم تقربهم إلى الله، بل لم تفرق بينهم وبين بقية عبدة الأصنام، لأنهم لم يقبلوا التمسك بالسبت ولم يخضعوا لبقية وصايا التوراة والتلمود».

---

(١) ذيل مقالة فى الإسلام لنصرانى سمى نفسه هاشماً العربى.
(٢) انظر نقض كتاب فى الشعر الجاهلى مؤلفنا فى الرد على الدكتور طه حسين.
(٣) التلمود: تفسير المنشأة، والمتشأة تفسير التوراة، والمتمسكون بالتلمود يقال لهم ربانيون، أما القراءون فيتمسكون بالتوراة ولا يأخذون بالتلمود، ويوجد منهم طائفة فى الآستانة وطائفة فى مصر.
(٤) تاريخ اليهود فى بلاد العرب للدكتور إسرائيل ولفنسون.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

○ النصرانية فى العرب :

كانت النصرانية فى غسان، وبعض قضاعة، وأتت هؤلاء النصرانية من جهة الروم، فقد كانت منازلهم قريبة منها، وكانت فى قبائل بالحيرة، يقال لها العباد، منها عدى بن حاتم، وكانت فى بنى تغلب، ومنازلهم بالعراق، ودخل فى النصرانية بعض ملوك الحيرة، قيل : كان تنصرهم فى عهد امرئ القيس الأول فى أوائل القرن الرابع بعد المسيح، وقيل : إن أول من تنصر منهم النعمان بن المنذر على يدى عدى بن زيد، وكان النعمان فى أواخر القرن السادس بعد ميلاد المسيح .

وكان أهل نجران فى بلاد اليمن نصارى وهم بنو الحارث بن كعب بن مذحج، وجاءتهم النصرانية من جهة الحبشة، ومن جهة الروم، فقد ذكر بعض المؤرخين أن ملوك الدولة الرومانية لما أرادوا ضم أطراف الجزيرة العربية إلى ممالكهم أرسلوا وفود الرهبان إلى بلاد اليمن لبث الديانة المسيحية .

ومن المعروف فى السيرة أن وفد نجران قدموا على رسول الله ﷺ وكانوا من نصارى العرب، وهم الذين نزلت فيهم آية المباهلة، قوله تعالى : ﴿ **فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ** ﴾ [آل عمران : ٦١] وأبوا أن يباهلوا، وصالحوا على الجزية وعادوا إلى بلادهم .

قال الجاحظ : «إن العرب كانت النصرانية فيها فاشية، وعليها غالبة إلا مضر فلم يغلب عليها يهودية ولا مجوسية، ولم تفش فيها النصرانية إلا ما كان من قوم منهم نزلوا الحيرة يسمون العباد، فإنهم نصارى وهم مغمورون مع نبذ يسير فى بعض، ولم تعرف مضر إلا دين العرب ثم الإسلام» .

وزعم بعض المسيحيين (١) أن الأوس والخزرج كانوا نصارى، واستدل بقول حسان :

---

(١) لويز شيخو .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فـرحت نصـارى يثـرب ويهـودها   مما توارى فى الضــريح الملحــد

وهذا البيت لا يوجد فى قصيدة حسان برواية ابن هشام فى السيرة، ولا يوجد فى ديوانه الذى كتب عليه البرقوقى تعليقاً (١).

ومن المعروف أن ورقة بن نوفل عم خديجة - رضى الله عنها - كان على دين النصرانية وهو قرشى، وجاء فى السيرة أن النبى ﷺ لقى فى طريقه إلي الطائف عداسا النصرانى فآمن به (٢)، ووجود فرد أو أفراد معدودين فى القبيلة على دين النصرانية لا يدل على انتشار هذا الدين بينهم.

وجاء فى بعض الآثار أن صورة عيسى ومريم - عليهما السلام - كانت فى جملة صور الأنبياء بالكعبة، وأن النبى ﷺ أمر يوم فتح مكة بمحو جميع الصور إلا صورة عيسى وأمه (٣)، واستدل بهذا بعض المسلمين على أن الديانة النصرانية كانت بمكة ونحن نقول: إن إبقاء النبى ﷺ لهذه الصورة غير معقول، ولا يظهر له وجه، وفى صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة، فأمر بها فأخرجت، فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل فى أيديهما من الأزلام فقال: «قاتلهم الله! لقد علموا ما استقسما بها قط» فهذا الأثر الذى ورد فى تاريخ الأزرقى باطل قطعاً، فإن بقاء الصورة فى المسجد منكر، والنبى ﷺ لا يقر منكراً.

ومن أثر النصرانية فيما ظهر شعر، كقول امرئ القيس يصف كلاب الصيد وقد أدركت فرسه:

فأدركته يأخذن بالساق والنسا (٤)   كما شبرق (٥) الولدان ثوب المقدس (٦)

---

(١) نسب هذا البيت لديوان حسان فى طبعة ليدن.
(٢) زاد المعاد.
(٣) تاريخ مكة للأزرقى.
(٤) عرق من الورك إلى الكعب.
(٥) شبرق: مزق.
(٦) من قدس الرجل أى أتى بيت المقدس.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

يشير إلى ما كان ولدان النصارى يفعلونه بالراهب الذى يقدم من بيت المقدس، إذ يأخذون من مسحه وهو لابسه خيوطًا للتبرك بها.

ومن هذا الباب قول امرئ القيس يصف بقر الوحش:

فـآنست سـربًا من بعـيـد كـأنه رواهب عيد فى ملاء مهدب [١]

يشير إلى ما كانت الراهبات يلبسنه فى الأعياد من الملاء والأنسجة الطويلة الأذيال.

ومما ظهر فيه عادة إيقادهم المشاعل فى عيد الفصح قول أوس بن حجر:

عليـه كـمـصـبـاح العـزيز يشبـه بفـصـح ويحـشـوه الذبال المفـتـلا

وصف أوس فى هذا البيت رمحه، وشبه سنانه بالمصباح يوقده رئيس النصارى فى عيد الفصح [٢]، وأشار حسان فى قصيدة له فى الجاهلية إلى ما كان يصنعه ولائد النصارى من نظم الأكلة فى عيد الفصح بقوله:

قـد دنا الفـصـح والولائد [٣] ينظمـ ـن سـراعًـا أكلة [٤] المرجـان

○ الموحدون من العرب:

فى العرب أفراد كانوا قبل البعثة على عقيدة التوحيد، منهم زيد [٥] بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى، فقد اعتزل الأوثان واجتنب أكل ما يذبح على الأنصاب. روى البخارى فى الجامع الصحيح أن النبى ﷺ لقى زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح [٦] قبل أن ينزل على رسول الله ﷺ الوحى، فقدمت إلى النبى ﷺ سفرة

---

(١) الملاء بالضم: ثياب، واحدة ملاءة والمهدب: ذو أهداب أى خمل.

(٢) الفصح الكبير للنصارى يزعمون أن المسيح قام فيه بعد الصلب بثلاثة أيام ﴿**وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ**﴾ [النساء: ١٥٧].

(٣) جمع وليدة وهى الصبية.

(٤) جمع أكليل وهو عصابة تزين بالجواهر.

(٥) هو ابن عم عمر بن الخطاب بن نفيل وهو أبو سعيد بن زيد أحد المبشرين بالجنة.

(٦) واد بظاهر مكة فى طريق التنعيم.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لحم فأبى أن يأكل منها، ثم قال زيد: إنى لا آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه (١).

ومنهم أبو قيس صرمة بن أبى أنس صرمة بن مالك من بنى النجار كان ترهب فى الجاهلية، ولبس المسوح، وفارق الأوثان، وهم بالنصرانية ثم أمسك عنها، ودخل بيتًا له فاتخذه مسجداً وقال: أعبد رب إبراهيم حتى قدم النبى ﷺ فأسلم وحسن إسلامه (٢) أورد له ابن هشام أشعاراً فى تعظيم الله تعالى، قالها فى عهد الجاهلية.

ومنهم قس بن ساعدة الإيادى، نجد خبره فى بعض كتب التاريخ والأدب. روى بعض المحدثين عن ابن عباس أنه قال: قدوم وفد عبدالقيس على رسول الله ﷺ فقال: «أيكم يعرف القس بن ساعدة الإيادى؟ فقالوا: كلنا يا رسول الله نعرفه، قال: «ما فعل؟» قالوا: هلك، قال: «ما أنساه بعكاظ في الشهر الحرام، وهو على جمل أحمر وهو يخطب الناس، وهو يقول: يا أيها الناس اجتمعوا واسمعوا، وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، إن فى السماء لخبراً وإن فى الأرض لعبراً، مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لا تغور، أقسم قس بالله قسماً حقًا، لئن كان فى الأرض رضًا ليكونن بعده سخط، إن لله دينًا هو أحب إليه من دينكم الذى أنتم عليه، ما لى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا فناموا؟ ثم قال رسول الله ﷺ: «أفيكم من يروى شعره؟» فأنشده بعضهم:

فى الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً ... للموت ليس لها مصادر

---

(١) لم يرد فى الحديث أن النبى ﷺ أكل من هذه السفرة، وقال الخطابى: كان النبى ﷺ لا يأكل مما يذبحون على النصب للأصنام، ويأكل ما عدا ذلك وإن لم يذكر عليه اسم الله لأن الشرع لم يكن نزل بعد.

(٢) سيرة ابن هشام ومروج الذهب.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

لا يـــرجـــع المـــاضـــي إلـــيـــــــ ـــك ولا من البـــــاقين غـــــابر
أيـقـنـت أنـي لا مـــــــحـــــــا له حـــيـث صـــار القـــوم صـــائر

وروى هذا الحديث الطبراني والبزار وفي إسناده محمد بن الحجاج اللخمي، وهو ممن لا يوثق بخبره بل يعده النقاد في جملة الكذابين، وروى هذا الخبر ابن سيد الناس في سيرته على وجه يخالف روايته السابقة، إذ جاء في روايته أن النبي ﷺ قال: « فلست أنساه بسوق عكاظ علي جمل أورق وهو يتكلم بكلام ما أظن أني أحفظه، فقال أبو بكر: يا رسول الله فإني أحفظه كنت حاضراً ذلك اليوم بسوق عكاظ فقال في خطبته: يا أيها الناس.. إلخ »، الخطبة والأبيات على أن في سند هذه الرواية من يتهم بوضع الأحاديث كما قال ابن كثير. فخبر قس هذا ورد من طرق كلها ضعيفة، وقصارى ما يؤخذ منها أن أصل القصة ثابت وأن قسا كان على شيء من التوحيد.

ويذكر المؤرخون من الموحدين خالد بن سنان العبسي، وقد وردت آثار تتضمن أنه كان نبيًا وأن ابنه أو بنته جاءت إلى النبي ﷺ وأنه عليه الصلاة والسلام قال: « ذاك نبي ضيعه أهله » وهذه الروايات كلها ضعيفة لم تقم على سند يعتد به، ومما يساعد على ردها قوله ﷺ فيما رواه سعيد بن جبير مرسلاً: « أنا أولى الناس بعيسى بن مريم، وليس بيني وبينه نبي ».

وأذكر بهذه المناسبة أن ببلاد الجزائر قبراً عليه بناء يقال إنه قبر خالد بن سنان، ويجتمع الناس لزيارته في اليوم السادس والعشرين من شهر رمضان، وهناك بدع حول القبر، وعسى أن يكون أهل العلم قد قاوموها وليس لهم من أثر على أن هذا قبر خالد بن سنان سوى ما شاع هنالك من أن بعض الصالحين أخبر بذلك.

ooooo

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٤

البابية أو البهائية

ما البهائية؟ وما اعتقاد مؤسسيها وأتباعهم؟ وهل يعتقدون فى الحشر والجنة والنار؟ وهل يعتقد البهائيون بنبوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام؟ وإذا كانوا يعترفون بنبوة سيدنا محمد ﷺ فكيف يعتقدون بنبى بعده ودين غير دينه؟ وما الواجب عمله لإحباط مساعيهم حتى لا يقع أحد فى شراكهم؟

ونحن نورد كل سؤال ونقف على أثره بالجواب عنه، مستندين فيما نكتب إلى مؤلفات (١) للبهائيين أنفسهم، وكتب (٢) ألفها بعض من اطلع على كتبهم المؤلفة باللغة الفارسية والعربية بقصد بيان أمرهم نصيحة للإسلام والمسلمين.

س: ما البهائية؟

جـ: البهائية نسبة إلى بهاء الله: لقب يدعى به ميرزا حسين على وهو الزعيم الثانى للمذهب الذى تتولاه الطائفية المسماة بالبهائية، وتسمى هذه الطائفة البابية نسبة إلى (الباب) وهو لقب ميرزا على محمد ذلك الذى ابتدع هذه النحلة، وإليك ملخص القول فى نشأتها:

أصل نشأة هذه النحلة أن ميرزا على محمد الملقب بالباب نشأ فى شيراز بجنوب إيران، وأخذ شيئًا من مبادئ العلوم ثم اشتغل بالتجارة، ولما بلغ من العمر الخامسة والعشرين ادعى أنه المهدى المنتظر؛ وكان إعلانه بهذه الدعوة سنة ١٢٦٠هـ.

نعق بهذه الدعوة فأخذها بالتسليم طائفة من الجاهلين، وأرسل بعض هؤلاء إلى نواح مختلفة من إيران للإعلام بظهوره وبث شيء من مزاعمه، وتنبه العلماء لهذه الدعاية فقاموا فى وجهها، وعقد بعض الولاة بينهم وبين ميرزا على هذا مجلس

(١) ككتاب الدرر البهية وكتاب عبد البهاء والعصر الجديد.
(٢) ككتاب مفتاح باب الأبواب.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

للمناظر، فرأى بعضهم ما فى أقواله من غواية وخروج عن الدين فأفتى بكفره، ورأى آخرون ما فيها من لغو وسخافة فنسبه إلى الجنون واختلال الفكر.

واعتقل فى شيراز ثم بأصفهان، وساقته الحكومة الإيرانية فى عهد الملك ناصر الدين شاه إلى تبريز، وسارت بين أشياعه وبين المسلمين فتن وحروب سفكت فيها الدماء، وكانت عاقبته أن أعدمته الحكومة فى تبريز صلبًا عام ١٢٦٥هـ.

وقعت بعد قتله فترة كان أتباعه فيها على اختلاف فى شأن من ينوب عنه إلى أن دبروا اغتيال الملك ناصر الدين انتقامًا لزعيمهم، فهجم عليه اثنان منهم فخاب سعيهم، وأخذت الحكومة تتقصى أثر البابين وتسوق زعماءهم إلى مجلس التحقيق، وكان الميرزا حسين على الذى لقبوه بعد بـ « بهاء الله » من شيعة الباب ودعاة نحلته، فقبض عليه وسجن بطهران بضعة أشهر، ثم أبعد إلى بغداد سنة ١٢٦٩هـ.

ولما أدركت الحكومة الإيرانية خطر هذه الفئة وما يبيتونه من فتن، جعلت ترقبهم بحذر واحتراس، فالتحق طوائف منهم ببغداد، واجتمعوا حول ميرزا حسين الملقب ببهاء الله، ثم حدث بينهم وبين الشيعة ببغداد شقاق كاد يفضى إلى قتال، فقررت الحكومة العثمانية وقتئذ إبعاد البابيين من العراق، فنقلتهم إلى الآستانة ونفتهم إلى أدرنة.

قام المسمى « بهاء الله » لهذا العهد يدعو إلى نفسه، ويزعم أنه هو الموعود به الذى أخبر عنه الباب (١)، وقبل دعوته أكثر البابيين وتسموا حينئذ بالبهائيين، وممن رفض دعوته أخوه ميرزا يحيى الملقب « صبح أزل ».

ثم إن الحكومة العثمانية أمرت بإبعاد الفريقين من أدرنة، فنفت الميرزا يحيى وأتباعه (٢) إلى قبرص، ونفت البهاء وأتباعه إلى « عكة » بفلسطين، وبقى البهاء

---

(١) يزعم البهائية أن الباب كان يشير إلى شخص يظهر بعده وكانوا يعبرون عنه بلفظ « من يظهره الله ».

(٢) يسمى هؤلاء البابية: (الأزلية) إذ يزعمون أن يحيى هذا هو مصداق ما أشار إليه الباب فى كتاب « البيان » باسم « من يظهره الله » وهؤلاء يكفرون بالبهاء ويتناولونه وأتباعه باللعن فى السر والعلانية وليحيى هذا كتاب أراد أن يحاكى به القرآن الكريم فى ترتيب الآيات والسور وحاول أن يحاذى به أسلوبه الحكيم فافتضح أمره وظهره سخفه ﴿وَأَنَّ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢].

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بعكة إلى أن هلك عام ١٣٠٩ هـ فتولى رئاسة الطائفة ابنه عباس الذى لقبوه بـ« عبد البهاء » فأخذ يدعو إلى هذا المذهب ويتصرف فيه كما يشاء، ولم يرض عن صنيعه هذا أصحاب البهاء فانشقوا عنه والتفوا حول أخيه الميزرا على، وألفوا كتباً بالفارسية والعربية وطبعوها فى الهند يطعنون بها فى سيرة عباس ويصفونه بالمروق من دين البهاء.

س: ما اعتقاد مؤسسيها وأتباعهم؟

جـ: ليست البهائية بالنحلة المحدثة التى لم يتقدم لها فى النحل المارقة من الإسلام ما يشابهها أو تتخذه أصلا تبنى عليه مزاعمها، وإنما هى وليدة من ولائد الباطنية تغذت من ديانات وآراء فلسفية ونزعات سياسية، ثم اخترعت لنفسها صوراً من الباطل وخرجت تزعم أنها وحى سماوى، ولولا أن فى الناس طوائف يتعلقون بذيل كل ناعق لما وجدت داعياً ولا مجيباً لندائها، وها نحن أولاء نسوق إليك كلمة فى مذهب الباطنية ونحدثك عن البابية أو البهائية حتى تعلم أنها سلالة من ذلك المذهب الأثيم.

تقوم دعوة الباطنية على إبطال الشريعة الإسلامية، وأصل نشأة هذه الدعوة: « أن طائفة (١) من المجوس راموا عند شوكة الإسلام تأويل الشرائع على وجوه تعود إلى قواعد أسلافهم، وذلك أنهم اجتمعوا فتذاكروا ما كان عليه أسلافهم من الملك. وقالوا: لا سبيل لنا إلى دفع المسلمين بالسيف لغلبتهم واستيلائهم على الممالك، لكنا نحتال بتأويل شرائعهم إلى ما يعود إلى قواعدنا ونستدرج به الضعفاء منهم، فإن ذلك يوجب اختلافهم واضطراب كلمتهم ».

وقد رسموا لهذا المذهب خطة دبروها بنوع من المكر، وهو أنهم جعلوا الدعوة مراتب:

١- تفرس حال المدعو أقابل هو للدعوة أم لا؟

٢- استهواء كل أحد بما يميل إليه من زهد أو خلاعة.

---

(١) كتاب المواقف وشرحه للسيد الجرجانى.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

٣- التشكيك فى أصول الدين.

٤- أخذ الميثاق على الشخص بأن لا يفشى لهم سراً.

٥- دعوى موافقة أكابر رجال الدين لهم ليزداد الإقبال على مذهبهم.

٦- تمهيد مقدمات يراعون فيها حال المدعو لتقع لديه موقع القبول.

٧- الطمأنينة إلى إسقاط الأعمال البدنية.

٨- سلخ المدعو من العقائد الإسلامية ثم يأخذون بعد هذا فى تأويل الشريعة على ما تشاء أهواؤهم.

اتخذ هذه الخطة وسيلة إلى محاربة الدين الإسلامى طوائف كانوا يتظاهرون بأنهم من شيعة آل البيت، وهم لا يؤمنون بنبى من الأنبياء ولا بشىء من الكتب المنزلة، ولا بيوم الجزاء، ولا أن للعالم خالقًا، وتراهم يستدلون بالقرآن والحديث، ولكن يحرفونهما عما أراد الله ورسوله منهما.

ومن الباطنية المتظاهرين بالتشيع لآل البيت من ادعى النبوة لبعض آل البيت كفرقة الإسماعيلية: قال بنبوة محمد بن إسماعيل بن جعفر، بل زعمت هذه الفرقة أنه لا يخلو زمان من نبوة إلى يوم القيامة، ولم يقفوا عند دعوى النبوة بل تجاوزوها إلى القول بإلهية جماعة من آل البيت وغيرهم، فقالوا بإلهية على وإلهية كثير من أولاده وأحفاده.

وكم أحدث هؤلاء الذين يدعون المهدية أو النبوة أو الإلهية من فتن، وكم جروا على العالم الإسلامى من بلاء، وكان أهل العلم يقاومون باطلهم، ويهتكون أستارهم، وممن تصدى للرد عليهم أبو حامد الغزالى فألف كتابه المسمى «حجة الحق» (١)، وكتابه المسمى «فضائح الباطنية» (٢)، وذكر فى مقدمة هذا الكتاب أنه طالع الكتب المصنفة فيها فوجدها مشحونة بفنين: فن فى تواريخ أخبارهم وأحوالهم من بدء أمرهم إلى ظهور ضلالهم، وتسمية كل واحد من دعاتهم فى

(١) ألفه باللسان الفارسى.

(٢) ألفه باللغة العربية وطبع فى لندن.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كل قطر من الأقطار، وبيان وقائعهم فيما انقرض من الأعصار، وفن فى إبطال تفاصيل مذاهبهم، وعقائد تلقوها من الوثنية والفلاسفة وحرفوها عن أوضاعها وغيروا ألفاظها قصداً للتغطية والتلبيس. ثم بين أنه قصد فى كتابه إلى الإعراب عن خصائص مذهبهم والتنبيه على مدارج حيلهم، والكشف عن بطلان شبههم.

ولأبى بكر بن العربى مع بعض زعمائهم مناظرات ذكرها فى كتاب «القواصم والعواصم» وتناول الشيخ ابن تيمية مذهب الباطنية، ورد على بعض فرقهم فى بعض مؤلفاته.

عرفنا تاريخ الباطنية وقرأنا ببعض كتب البابية والبهائية فوجدنا روح الباطنية حلت فى جسم ميرزا على وميرزا حسين على، فخرجت باسم البهائية والبابية.

الباطنية يستدلون بكلام النبوة ويحرفون كلم القرآن والحديث عن مواضعه، كما فسروا حج البيت العتيق بزيارة شيوخهم، والبابية أو البهائية يستدلون بالقرآن والحديث ويذهبون فى تأويلهما إلى مثل هذا الهذيان نفسه، ولميرزا على المسمى بـ «الباب» تفسير لسورة يوسف مشى فيه على هذا النمط فقال فى قوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**﴾ فيفسر المراد بيوسف حسين بن على، والمراد بالشمس فاطمة، وبالقمر محمد، وبالنجوم أئمة الحق فهم الذين يبكون على يوسف سجداً.

وهذا أحد دعاتهم المسمى: أبا الفضل الجرفادقانى قد أورد فى كتابه المسمى (البدر البهية) قوله تعالى: ﴿**بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ**﴾ [يونس: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ**﴾ [الأعراف: ٥٣]، وقال: «ليس المراد من تأويل آيات القرآن معانيها الظاهرية ومفاهيمها اللغوية، بل المراد المعانى الخفية التى أطلق عليها الألفاظ على سبيل الاستعارة والتشبيه والكناية»، ثم قام بعد هذا «قرر الله تنزيل الآيات على ألسنة الأنبياء وبيان معانيها وكشف الستر عن مقاصدها إلى روح الله حينما ينزل من السماء»، وقال: «إنما بعثوا عليهم السلام لسوق الخلق إلى

شبكة الألوكة - قسم الكتب

النقطة المقصودة، واكتفوا منهم بالإيمان الإجمالى حتى يبلغ الكتاب أجله، وينتهى سير الأفئدة إلى رتبة البلوغ، فيظهر روح الله الموعود، ويكشف لهم الحقائق المكنونة فى اليوم المشهود»، وقال: «وفى نفس الكتب السماوية تصريحات بأن تأويل آياتها إلى معانيها الأصيلة المقصودة لا تظهر إلا فى اليوم الآخر، يعنى يوم القيامة ومجىء مظهر أمر الله. وإشراق آفاق الأرض ببهاء وجه الله»، ثم قال: «ولذلك جاءت تفاسير العلماء من لدن نزول التوراة إلى نزول البيان (١) تافهة باردة عقيمة جامدة، بل مضلة مبعدة محرفة مفسدة».

كنا نود أن نصرف القلم عن نقل مثل هذا السخف، ونصون صحف الكتاب عن أن تحمل لقرائه شيئًا من الزيغ والإلحاد فى آيات الله، والاعتداء على علماء الإسلام الذين رفعوا منار الحق وأذاقوا بحججهم أعداء الإنسانية عذابًا أليمًا، ولكن دعاة هذا المذهب قد استهووا فريقًا من أبناء المسلمين، وأصبحوا يدعون إلى مذهبهم فى النوادى، ويتحدثون عنه فى الصحف، وألفوا كتبًا تقع فى أيدى بعض الشباب، فذلك ما اضطرنا إلى أن نبسط القول فى بيان نحلتهم وسرد أقوالهم حتى يكون المسلمون على بينة من أمرهم.

لهج البابية البهائية مقتفين أثر إخوانهم الباطنية بهذا النوع من التأويل ليدخلوا منه إلى العبث فى تفسير القرآن والحديث وصرفهما عما يراد بهما من حكمة وهداية: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾.

أنزل الله القرآن بلسان عربى مبين، ودلنا على أن الرسول الأعظم ﷺ يقوم ببيان ما خفى على الناس علمه فقال تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾ [النحل: ٤٤]، ومازال السلف من الصحابة والراسخين فى العلم من بعدهم يفسرون القرآن بما يروونه عن الرسول ﷺ، وبما يفهمونه منه على مقتضى استعمال لغتهم وأساليب بلاغتهم. فجاءوا بعلم كثير وأدب غزير، وتركوها حكمًا رائعة وشريعة سمحة باهرة، وقوانين اجتماع طاهرة حتى قام جماعة من أوشاب الناس يزعمون أن هذا القرآن الذى أنزله الله بلسان العرب لم يوكل بيانه إلى من كان

(١) هو الكتاب الذى وضعه ميرزا على محمد الملقب بالباب.

يقرؤه على الناس بكرة وعشيًا، ولم يفهم المراد منه أولئك الذين يتهجدون به فى الأسحار سجداً لله وبكيًا، وإنما وكل بيانه إلى أمثال ميرزا على محمد وميرزا حسين وعباس وأبى الفضل الجرفادقانى، ليخوضوا فيه بلغو من القول ويعثوا فى تأويله مفسدين.

قال أبو بكر بن العربى فى كتابه [القواصم والعواصم] يرد على إخوانهم الباطنية قولهم: إن خليفة الله هو الذى يبلغ عنه: «الخليفة هو النبى الذى بين ثم استأثر الله به ولا معصوم بعده».

وفى كتاب [فضائح الباطنية] بسطة فى رد ما يدعونه من ظهور الإمام المعصوم وحصر مدارك الحق فى أقواله، وقد عرفت أن الإمام المعصوم الذى يدعيه الباطنية هو ما يسميه البابية والبهائية: «من يظهره الله»، ويزعمون له هو الذى يعرف تأويل ما جاء به الرسل عليهم السلام، ويصرح هذا الإيرانى فى كتابه هذا بأن قصص القرآن غير واقعة، وقال: «لا يمكن للمؤرخ أن يستمد فى معارفه التاريخية من آيات القرآن»، وقال: «إن الأنبياء عليهم السلام تساهلوا مع الأمم فى معارفهم التاريخية، وأقاصيصهم القومية، ومبادئهم العلمية فتكلموا بما عندهم، وستروا الحقائق تحت أستار الإشارات، وسدلوا عليها ستائر بليغ الاستعارات».

دعوى أن فى القرآن قصصاً غير واقعة بزعم أنها رمز إلى معان خفية، ليس لها من داع سوى ما يضمره أصحابها من الكيد للقرآن الكريم، وإدخال الريب فى أنه تنزيل من لدن حكيم عليم.

لم يقم حتى الآن دليل تاريخى أو نظرى يطعن فى صحة قصة ساقها القرآن الحكيم، ونحن نستند فى صحتها إلى الآيات الدالة على أن المبعوث به لا ينطق عن الهوى، فالمؤرخ المسلم ومعلم التاريخ لأبناء المسلمين يستمد فى معارفه التاريخية من آيات الذكر الحكيم، وهى عندنا أصدق قيلا وأقوى سنداً مما يقصه المؤرخ من حوادث تقع فى عصره أو قريب منه، وهذه الثقة بالطبيعة لا تحصل لمن ينكر أو يرتاب فى أن القرآن حجة الله على العالمين، فلا تطالب المجوسى أو البهائى بأن يدخلوا فى مؤلفاتهم التاريخية ما جاء فى القرآن من أنباء الأولين، وهم لم يطمئنوا إلى أن محمداً ﷺ رسول صادق أمين.

يزعم هذا الإيرانى أن الرسول ينطق ببعض المبادئ العلمية مجاراة لقومه، وهى فى الواقع غير صحيحة، وهذه جهالة غبى وجراءة غوى، والرسول عليه الصلاة والسلام وإن لم يبعث لتقرير المسائل العلمية التى تدركها عقول البشر بسهولة، أو بعد جهد كالطبيعيات والرياضيات لا يتحدث عن شىء منها حديث من يصدق بها إلا أن تكون صوابًا، ودعوى أن لها رموزًا إنما اخترعها الإيرانى وأمثاله ليستروا بها وجه جحودهم، والبرقع الشفاف لا يحجب ما وراءه.

ولم يكن تأويل البهائية وأسلافهم الباطنية لنصوص الشريعة على هذا الوجه الناقض لأصولها بشىء ابتدعوه من أنفسهم ابتداعًا، وإنما هو صنع عملوا فيه على شاكلة طائفة من فلاسفة اليهود من قبل، فإنا نقرأ فى ترجمة « فيلون » الفيلسوف اليهودى المولود ما بين عشرين وثلاثين قبل ميلاد المسيح أنه ألف كتابًا فى تأويل التوراة، ذاهبًا إلى أن كثيرًا مما فيها رموز إلى أشياء غير ظاهرة.

ويقول الكاتبون فى تاريخ الفلسفة: إن هذا التأويل الرمزى كان موجودًا معروفًا عند أدباء اليهود بالإسكندرية قبل زمن « فيلون » . ويذكرون أمثلة تأويلهم أنهم فسروا آدم بالعقل، والجنة برياسة النفس، وإبراهيم بالفضيلة الناتجة من العلم، وإسحاق عندهم هو الفضيلة الغريزية، ويعقوب الفضيلة الحاصلة من التمرين، إلى أمثال هذا من التأويل الذى لا يحوم عليه إلا الجاحدون المراءون، ولا يقبله منهم إلا قوم هم عن مواقع الحكمة ودلائل الحق غافلون.

وأبو الفضل هذا من أبعد دعاة البهائية فى الهذيان شأوًا، وأشدهم لعلماء الإسلام ضغينة، وإذا أخذ فى شتمهم لا يشفى غليله إلا أن يصب كل الجمل التى يعرفها فى المعنى الذى أراد شتمهم به، انظروا إلى قوله فى ذلك الكتاب المسمى **بالدرر البهية**: « فتمادوا فى غيهم، وأصروا على باطلهم، وتاهوا فى ضلالتهم، ومردوا فى جهالاتهم، وعموا فى سكرتهم، وانهمكوا فى غوايتهم » فالرجل حفظ جملا التقطها من بعض الصحف السائرة أو من الكتب الغابرة، وصار يلقيها فيما يكتب من غير وزن، حاسبًا أن هذا الصنيع من تزويق القول ينقل الناس من الجد إلى الهزل ومن الحق إلى الضلال! » (١).

---

(١) فى ص ١٤٧ .

فى الباطنية من يدعى أنه نبى، أو يعتقد فى آخر أنه نبى يوحى إليه، وميرزا على الملقب (بالباب) يدعى أنه رسول من الله، ووضع كتاباً ادعى أن ما فيه شريعة منزلة وسماه (البيان)، وقال فى رسالة بعث بها إلى الشيخ محمود الألوسى صاحب التفسير المشهور المسمى (روح المعانى) يدعوه فيها إلى مذهبه: «إننى أنا عبد الله قد بعثنى الله بالهدى من عنده» وسمى فى هذه الرسالة مذهبه دين الله فقال: «ومن لم يدخل فى دين الله مثله كمثل الذين لم يدخلوا فى الإسلام!».

وكذلك يدعى زعيمهم المسمى «بهاء الله» ففى كتاب بهاء الله والعصر الجديد: «وقرر بهاء الله أن رسالته هى لتأسيس السلام على الأرض». وقال صاحب هذا الكتاب يتحدث عن الباب والبهاء: «من المستحيل إيجاد أى تغيير لعظمهما إلا بالاعتراف بأنهما إنما عملا بوحى من الله».

يدعى الباب الرسالة، ويزعم أن شريعته ناسخة للشريعة الإسلامية. فابتدع لأتباعه أحكاماً خالف بها أحكام الإسلام وقواعده، فجعل الصوم تسعة عشر يوماً من شروق الشمس إلى غروبها، وعين لهذه الأيام وقت الاعتدال الربيعى بحيث يكون عيد الفطر عندهم يوم النيروز على الدوام. وفي كتابه البيان: «أيام معدودات وقد جعلنا النيروز عيداً لكم بعد إكمالها» وجعل ميرزا حسين الملقب ببهاء الله الصلاة تسع ركعات فى اليوم والليلة، وكان عبدالله بن الخراب الكندى الذى اعتقد إلهيته كثير من أشباه الناس، قد جعلها تسع عشرة صلاة فى اليوم والّيلة.

وقبلة البهائيين فى صلاتهم التوجه أين يكون ميرزا حسين المسمى بهاء الله فإنه يقول لهم: «إذا أردتم الصلاة فولوا وجوهكم شطرى الأقدس»! وقال ابنه عباس: يلزمنا التوجه إلى مركز معلوم وهو مظهر الله ومظهر الله فى زعمهم هو هذا المسمى بهاء الله.

أما الحج فقد أبطله البهاء وأوصى بهدم بيت الله الحرام عند ظهور رجل مقتدر من أشياعه.

ومن الباطنية من منع العوام من مدارسة العلوم، والخواص من النظر فى الكتب المتقدمة حتى يبقوا فى عماية، وهو الحسن بن محمد الصباح، ميزرا على المسمى الباب فقد حرم فى كتابه (البيان) التعلم وقراءة كتب غير كتبه، فكان كل من يؤمن بالباب يحرق القرآن الكريم وما وقع فى يده من كتب العلم، ولكن الميرزا حسين المسمى «بهاء الله» أدرك ما فى هذا التحجير من خطأ مكشوف، وأنه مما يصرف عنهم ذوى العقول النابهة، فأتى فى كتابه الذى سماه (الأقدس) بما ينسخه فقال: «قد عفا الله عنكم ما نزل فى البيان من محو الكتب، وأذناكم بأن تقرءوا من العلوم ما ينفعكم».

وفى الباطنية من يدعى حلول الإله فى بعض الأشخاص كما قال القرامطة بإلهية محمد بن إسماعيل بن جعفر، وهذه الدعوى أعنى دعوى الحلول تظهر فى بعض مقالات البهائية.

قال عباس الملقب بـ «عبدالبهاء»: «وقد أخبرنا بهاء الله بأن مجئ رب الجنود، والأب الأزلى ومخلص العالم الذى لابد منه فى آخر الزمان، كما أنذر جميع الأنبياء عبار عن تجليه فى الهيكل البشرى، كما تجلى فى هيكل عيسى الناصرى إلا أن تجليه فى هذه المرة أتم وأكمل وأبهى، فعيسى وغيره من الأنبياء هيئوا الأفئدة والقلوب لاستعداد هذا التجلى الأعظم».

يريد بهذا أن الله تجلى فيه بأعظم من تجليه فى أجسام الأنبياء على ما يزعم، وقال مهذارهم أبو الفضل الإيرانى: «فكل ما توصف به ذات الله ويضاف ويستند إلى الله من العزة والعظمة والقدرة والعلم والحكم والإرادة والمشيئة والأوصاف والنعوت، إنما يرجع بالحقيقة إلى مظاهر أمره، ومطالع نوره ومهابط وحيه، ومواقع ظهوره».

ويظهر هذا من اللوح الذى كتبه المسمى «بهاء الله» فى التنويه بشأن ابنه عباس فإنه قال: «إن لسان القدم (١) يبشر أهل العالم بظهور الاسم الأعظم (٢) الذى أخذ

---

(١) يفسره البهائية ببهاء الله.

(٢) يفسرونه بعباس عبدالبهاء.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عهده بين الأمم أنه نفسى، ومطلع ذاتى، ومشرق أمرى، من توجه إليه فقد توجه إلى وجهى، واستضاء من أنوار جمالى، واعترف بوحدانيتى، وأقر بفردانيتى.. إلخ».

وقلد البهائية الفلاسفة فيما يدعونه من قدم العالم، ففى كتاب (بهاء الله والعصر الجديد): «علم بهاء الله أن الكون بلا مبدأ زمنى فهو صادر أبدى من العلة الأولى، وكان الخلق دائماً مع خالقه وهو دائماً معهم». وقد تصدى أهل العلم الراسخ لتزييف ما تعلق به هؤلاء فى الاستدلال على هذا الرأى، وحققوا أن المعلول لا بد أن يتأخر عن العلة فى الوجود، إذ معنى العلة ما أفاض على الشيء الوجود، والمعلول ما قبل منه هذا الوجود، ولا معنى لإفاضة الوجود على الممكن إلا إخراجه إلى الوجود بعد أن كان فى عدم، وذلك معنى الحدوث.

ومن عجيب أمر هذه الطائفة أنهم يدعون النبوة والرسالة وما فوق الرسالة، وينكرون المعجزات بدعوى أنها غير معقولة، تجدون هذا الإنكار فى كتاب داعيتهم المسمى أبا الفضل، فقد ذكر انفلاق البحر، وانفجار العيون من الحجر لموسى عليه السلام، وإبراء عيسى - عليه السلام - للأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله، ونبع الماء من بين أصابع محمد ﷺ، وقال: وكثير من أهل الفضل وفرسان مضمار العلم اعتقدوا بأن جميع ما ورد فى الكتب والأخبار من هذا القبيل، كلها استعارات عن الأمور المعقولة والحقائق الممكنة مما يجوزه العقل المستقيم، ثم أخذ يؤول ما ورد فى تلك المعجزات من قرآن وحديث ويحمله على معان لا يقبلها منه إلا من فقد عقله قبل أن يفقد إيمانه، وإنكارهم للمعجزات ينبئكم أن القوم يمشون مكبين على وجوههم وراء الفلسفة التى لا تؤمن بأن لهذا للعالم خالقاً فعالاً لما يريد.

وملخص القول فى البابية والبهائية: أنه مذهب مصنوع من ديانات ونحل وآراء فلسفية، قال صاحب كتاب (مفتاح باب الأبواب) يصف البابيين: «لهم دين خاص مزيج من أخلاط الديانات والبوذية (١)، والبرهمية الوثنية (٢)

(١) دين الصينيين واليابانيين.

(٢) أصل ديانة الهنود.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

والزرادشتية [١] واليهودية والمسيحية والإسلامية، ومن اعتقادات الصوفية والباطنية » .

ومازالت البهائية مذهبًا قائمًا على أطلال الباطنية يحمل فى سريرته القصد إلى هدم الإسلام بمعول التأويل ودعوى الرسالة، والوحى بشريعة ناسخة لأحكامه حتى جاء عباس عبدالبهاء إلى هذا المذهب المصنوع وأراد أن يكسوه ثوبًا جديدًا، فخلطه بآراء التقطها مما يتحدث به بعض الناس على أنها من مقتضيات المدنية أو مما كشفه العلم حديثًا، نحو التساوى بين الرجال والنساء فى التعليم ونزع السلاح، وإتقان الأمم على لغة واحدة تدرس فى العالم كله، وتأسيس محكمة عمومية تحل مشاكل الأمم، وأن الإنسان تدرج بالارتقاء من أبسط الأنواع حتى وصل إلى شكله الحالى (نظرية داروين) ولهجوا بعد هذا بكلمة نشر السلام العام، ونبذ التعصبات الدينية .

وقد تخيل عباس أنه بإدخال مثل هذه الآراء فى مذهب البهائية يستدرج المولعين بالجديد من النابتة الحديثة، ولهذا الطمع ترونه يقول : « تحتوى تعاليم بهاء الله على جميع آمال ورغائب فرق العالم، سواء كانت دينية أو سياسية أو أخلاقية، وسواء كانت من الفرق القديمة أو الحديثة، فالجميع يجدون فيها دينًا عموميًا فى غاية الموافقة للعصر الحاضر [٢] وأعظم سياسة للعالم الإنسانى » وصرح فى مقال آخر : بأنه يريد أن يوحد بين المسلمين والنصارى واليهود ويجمعهم على أصول نواميس – موسى عليه السلام – الذين يؤمنون به جميعًا [٣] .

ولا أحسب عبد البهاء عباسًا يقصد من هذا الحديث إلا التزلف لليهود، والتظاهر بموالاتهم ليجعلهم من أشياعه، وإلا فكيف يقع فى خاطر من عرف القرآن أن يعمل على صرف الناس عن شريعة الإسلام، ويرجع بها إلى شفا حفرة من النار بعد أن أنقذهم الله منها !

---

(١) ديانة قديمة تنسب إلى إبراهيم زرادشت الإيرانى، ولايزال لأتباعها طائفة بالبلاد الهندية وأخرى بالبلاد الإيرانية .

(٢) كتاب عبد البهاء والبهائية ص ٨٧ .

(٣) كتاب عبد البهاء والبهائية ص ٩٣ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يذكر الشيخ ابن تيمية: أن الباطنية «هم دائماً مع كل عدو للمسلمين» وقال: «إن التتار ما دخلوا بلاد الإسلام وقتلوا خليفة بغداد وغيره من ملوك الإسلام إلا بمعاونتهم» وكذا نجد فى البابية تحيزاً إلى أعداء المسلمين، وانظروا إلى عباس عبد البهاء كيف يتحيز إلى اليهود ويبشر بأن فلسطين ستصير وطناً لهم. فقال: «سيجتمع بنو إسرائيل فى الأرض المقدسة، وتكون أمة اليهود التى تفرقت فى الشرق والغرب والجنوب والشمال مجتمعة» وقال: «تأتى طوائف اليهود إلى الأرض المقدسة، ويزدادون تدريجاً إلى أن تصير جميعاً وطناً لهم».

وظل يعلن ذلك فى كل مناسبة حتى استوطن اليهود فلسطين!!

فالبهائية شأنهم شأن الباطنية فى بغض الإسلام وموالاة خصومه، ولنا الأمل الوثيق فى أن العرب وسائر المسلمين من ورائهم، سيقفون فى وجه الاستعمار الصهيونى والدعاية البهائية التي تظاهرها وتساعدها حتى تبقى فلسطين وطناً عربياً إسلامياً على الرغم من عبد البهاء والبهائيين.

س: هل يعتقدون فى الحشر والجنة والنار؟

جـ: لا يؤمن البهائيون بالبعث ولا بالجنة والنار، ويفسرون يوم الجزاء ويوم القيامة بمجيء مرزا حسين الملقب بـ «بهاء الله» قال فى كتاب (بهاء الله والعصر الجديد): «وطبقاً للتفاسير البهائية يكون مجيء كل مظهر إلهى عبارة عن يوم الجزاء، إلا أن مجيء المظهر الأعظم بهاء الله هو يوم الجزاء الأعظم للدورة الدنيوية التى نعيش فيها» وقال: «ليس يوم القيامة أحد الأيام العادية بل هو يوم يبتدئ بظهور المظهر ويبقى ببقاء الدورة العالمية».

هذا ما يفسرون به يوم الجزاء ويوم القيامة،و ويفسرون الجنة بالحياة الروحانية، والنار بالموت الروحانى، قال فى هذا الكتاب: «إن الجنة والنار فى الكتب المقدسة حقائق مرموزة» فعندهما (أى البهاء وابنه عباس) الجنة هى حالة الكمال والنار حالة النقص، فالجنة هى الحياة الروحانية، والنار هو الموت الروحانى.

هذا ما يقوله البهائية، وكذلك ينقل لنا أبو حامد الغزالى أن الباطنية يقولون: «كل ما ورد من الظواهر فى التكاليف والحشر والأمور الإلهية فكلها أمثلة ورموز

شبكة الألوكة - قسم الكتب

إلى بواطن » وساق بعد هذا أمثلة من تأويلهم الفاسق عن قانون اللغة والعقل، وقال: « هذا من هذيانهم فى التأويلات حكيناها ليضحك منها، ونعوذ بالله من صرعة العاقل وكبوة الجاهل »!.

وقد قلدوا فى إنكار البعث طائفة الدهريين وأخذتهم شبههم التى لا تستطيع أن تنهض أمام أدلة القرآن الحكيم قال تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ** ﴾.

س: هل يعتقد البهائيون بنبوة سيدنا محمد ﷺ؟

جـ: مخالفة البهائيين لما جاء به رسول الله ﷺ من معتقدات وأحكام، وتهجمهم على تأويل القرآن والحديث بمثل ما نقلناه عن زعمائهم شاهد على أن قلوبهم جاحدة لرسالته، وإذا تحدثوا عنه متظاهرين بتصديق نبوته، فما هم إلا كسائر الأفراد أو الطوائف الذين يعملون لهدم الإسلام تحت ستار.

ومن خبال زعيمهم الأول: دعواه فى تفسيره لسورة يوسف أنه أفضل من رسول الله ﷺ، وعلل هذا الكلام بما لا يفهمه إلا من يفهم لغة المبرسمين إذ قال: « لأن مقامه (الباب) هو مقام النقطة، ومقام النبى ﷺ مقام الألف » وقال: « كما أن محمداً أفضل من عيسى فكتابه (البيان) أفضل من القرآن » وقال: « إن أمر الله فى حقى أعجب من أمر محمد رسول الله من قبل لو أنتم فيه تتفكرون »!!

ولسنا فى حاجة إلى الرد عليه فى دعوى أنه أفضل من رسول الله ﷺ، ولا فى دعوى أن كتابه البيان أفضل من القرآن، فعامة المسلمين كخاصتهم يعلمون أن هذه الدعوى من صنف الدعاوى التى تنادى على نفسها بالزور والهذيان، وأولو العقول من غير المسلمين يعرفون عظمة محمد بن عبدالله ﷺ وما بثه فى العالم من إصلاحه، فمن يدعى أنه مثل محمد أو أنه أتى بكتاب يحاكى القرآن، كان فى حاجة إلى علاج يعيد عليه شيئًا من رشده ويجعله على بصيرة من نفسه.

س : إذا كانوا يعترفون بنبوة سيدنا محمد - عليه الصلاة والسلام - فكيف يعتقدون بنبى بعده ودين غير دينه؟

جـ: البهائيون لا يعترفون بنبوة سيدنا محمد ﷺ، ولهذا سهل على زعمائهم أن يدعوا النبوة من بعده! قال تعالى: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**﴾ ومعنى الآية الذى لا يذهب الفهم إلى خلافه أنه النبى الذى انقطع به وصل النبوة فلا يتحقق فى أحد من الخليقة بعده.

وورد هذا مبينًا فى صريح السنة الصحيحة، ففى صحيح الإمام البخارى وصحيح مسلم أن النبى ﷺ قال: «**مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى داراً بناء فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويتعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين**».. وقد انعقد إجماع المسلمين على هذا جيلاً بعد جيل، وأصبح معلوماً من الدين بالضرورة، فمن أنكره وادعى لنفسه أو لغيره النبوة بعد رسول الله ﷺ، فقد انسلخ من الإسلام وكان من الغاوين، وإذا شهد لسانه بنبوة محمد ﷺ فهو من ألئك الذين يقولون بأفواهم ما ليس فى قلوبهم، فالبابيون لا يدخلون فى المعترفين بنبوة رسول الله ﷺ فى حال.

وقد ذكرهم العلامة الألوسى فى تفسير قوله تعالى: ﴿**وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**﴾ فقال: «وقد ظهر فى هذا العصر عصابة من غلاة الشيعة لقبوا أنفسهم بالبابية، لهم فى هذا الباب فصول يحكم بكفر معتقدها كل من انتظم فى سلك ذوى العقول، وقد كاد عرقهم يتمكن فى العراق، لولا همة واليه النجيب الذى وقع على همته وديانته الاتفاق حيث خذلهم - نصره الله تعالى - وشتت شملهم وغضب عليهم - رضى الله عنه - وأفسد عملهم، فجزاه الله تعالى عن الإسلام خيراً، ودفع عنه فى الدارين ضيماً وضيراً».

س : ما هو الواجب عمله لإحباط مساعيهم حتى لا يقع أحد فى شراكهم؟

جـ: لو كان التعليم الدينى فى الشعوب الإسلامية إلزاميًا ومقرراً فى جميع

مدارسها لم يجد أشباه الباطنية إلي إزاغة قلب الفتى المسلم طريقًا، وترك كثير من أبنائنا لا يعرفون من الإسلام إلا أسماء، أو لا يلقنون إلا مبادئ مقطوعة عن حججها العقلية أو النقلية، قد يسر لأمثال البهائية أن ينصبوا حبائلهم بين المسلمين، ويصطادوا من النفوس الجاهلة قليلاً أو كثيراً.

ولا ننسى أن الذى ساعد البهائية على أن تستهوى فريقًا من المسلمين تظاهرها بأنها فرقة إسلامية، واحتجاجها بالقرآن والحديث وكتمها بعض معتقداتها المنكرة على البداهة، وعدم انتشار كتبها، فكثير من أهل العلم لم تصل إليهم كتب هذه الطائفة حتى يستبينوا منها حقيقة نحلتهم، ويحذروا الناس من الوقوع فى شراكهم.

أما اليوم فقد أخذهم الغرور وصاروا يذيعون شيئًا من أسرار نحتلهم على المنابر وعلى صفحات الجرائد، ويتحدثون عنها في مؤلفات تطبع وتعرض على الناس فى المكاتب، فهى بما تحمله من مقالات ملفقة ودعاوى غير معقولة، قد بحثت عن حتفها بظلفها، فلا نخشى على من له نباهة أو فطرة سليمة أن يعتقد بنبوة ميرزا حسين أو عباس عبد البهاء، ولا نخشى على من وصل إلى نفسه أثر من هداية الإسلام أن يتبدل بها مزاعم أبى الفضل الإيرانى، وإذا جاز أن يكون فى طبقة العامة أو أشباههم من لا يتنبه لما فى البهائية من كيد للإسلام وإغواء عن شريعته الغراء، فإن العلماء والوعاظ أينما كانوا سيكشفون للناس عن بطانة هذا المذهب ليحترسوا من دعاته ويحذروا أن يمسهم شيء من نزعاته.

وقد علم طائفة من دعاة الإباحية والخروج على الدين ما ينطوى عليه المذهب من مناوأة للدين الحق، فقاموا يظاهرونه فى النوادى والصحف ويزينونه فى أعين الناس، ظنًا منهم أن علماء الإسلام مازالوا عن سريرة هذا المذهب غافلين.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٥

طائفة القاديانية

بعث محمد ﷺ بشريعة واضحة لا يحوم عليها لبس، محكمة لا تدنو منها شبهة، وتلقاها عنه رجال صفت بصائرهم، وتناهت في فهم سبل الخير عقولهم، فبلغوا كما أمروا، وجاهدوا في سبيلها حتى انتصروا، ومازال الدين الحق - ولن يزال - رفيع الدعائم، محفوظًا من أن تلعب به يد الأهواء والمكايد، والفضل في هذا الحفظ للكتاب الكريم والسنة الصحيحة، فإنهما قد وجدا - وسيجدان - في كل عصر عقولا تنظر فيهما وهي مبرأة من كل عوج، بعيدة من كل هوى، فسرعان ما تبصر الحقائق محفوظة بحجة تقطع لسان كل جهول، وتفضح سريرة كل ختال فخور، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

وقد دلنا التاريخ الصادق أن الدين الحنيف يبتلى في كل عصر بنفوس نزاعة إلى الغواية، فتتنكب عن الحقائق وتمشي في تحريف كلمة مكبة على وجهها .

وليس هذا الإغواء بمقصور على من يدعون التفقه في الدين ولم يتفقهوا، ككثير من زعماء الفرق المنحرفة عن الرشد، بل يتعداهم إلى فئة تسول لهم نفوسهم ادعاء أنهم مهبط الوحي، وأنهم يتلقون ما يقولونه بأفواههم من الله تعالى بدون وسيلة كتابه الحكيم، وحديث رسوله الكريم.

ومن مدعي النبوة من يذهب فينقطع دابره كالحارث بن سعيد الذي ظهر في أيام عبدالملك بن مروان، واغتر به خلق حتى وقع في يد عبدالملك فقتله، ولم يبق له في الأرض أثر، وإسحاق الأخرس الذي ظهر في خلافة السفاح، واتبعه طوائف وقتل فانقطعت فتنته .

ومن مدعي النبوة من يبقي لدعوته أثر بعد موته، كالحسين بن حمدان الخصبي الذي نشر في جبال حماه واللاذقية النحلة التي يتمسك بها طائفة النصيرية اليوم .

ومن هذا الصنف غلام أحمد مبتدع النحلة القاديانية .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

○ غلام أحمد : أصله ، وولادته ، ونشأته :

ساق غلام أحمد نسبه فذكر أن آباءه كانوا يسكنون سمرقند ، ثم رحلوا إلى الهند ، واستوطنوا « قاديان » وصارت لهم الرياسة فى تلك الناحية ، ثم دارت عليهم الدوائر وانهالت عليهم المصائب ، وذهبت عنهم تلك الرياسة ، ونهبت أموالهم وقال : « ثم رد الله إلى أبى بعض القرى فى عهد الدولة البريطانية » .

فى سنة (١٢٥٢هـ) : ولد غلام أحمد ، ولما بلغ سن التعليم شرع فى قراءة القرآن وبعض الكتب الفارسية ، ولما بلغ العاشرة من عمره تعلم اللغة العربية ، ولما بلغ السابعة عشرة اتصل بأستاذ فتلقى عنه النحو والمنطق والفلسفة ، وقرأ على أبيه كتبًا فى علم الطب ، أما العلوم الدينية فلم يدرسها على أى معلم ، وإنما كان له ولوع بمطالعتها[١] .

وعندما قطع مسافة فى التعلم كانت السلطة البريطانية قد امتدت على البنجاب ، وكان الشبان يطمحون إلى المناصب ، فاندفع غلام أحمد يبحث عن وظيفة ، فذهب إلى « سيلكوت » وتقلد وظيفة فى إدارة نائب المندوب السامى ، ثم استقال منها بعد أربعة أعوام إجابة لرغبة أبيه الذى رأى نفسه فى حاجة إلى مساعدته له فى إدارة شئونه الخاصة .

وفى سنة (١٨٧٦م) [٢] : مرض أبوه ، فزعم غلام أحمد أنه نزل عليه وحى من الله بأن أباه سيموت بعد الغروب ، وكان هذا الإخبار فى زعمهم أول وحى نزل عليه ، وأخذ بعد هذا يصرح ببعض آراء زاعمًا أنه يتلقاها من طريق الوحى ، وكان المسلمون يلاقون هذه المزاعم بالإنكار الشديد ، فرحل إلى بلدة « لودهيانة » وأذاع منشوراً أعلن فيه أنه المسيح المنتظر ، فقام فى وجهه علماء الشريعة بالإنكار ، ومن بين هؤلاء العلماء مولوى محمد حسين صاحب جريدة « إشاعة السنة » ، ودعا مولوى محمد حسين كثيراً من العلماء إلى « لودهيانة » لمناظرة غلام أحمد ، ولكن

---

(١) عن كتاب « باللسان الإنكليزى » لمحمود بن غلام أحمد اسمه « أحمد رسول آخر الزمان » .

(٢) نستعمل التاريخ الأفرنجى لأنه الوارد فى كتبهم التى تنقل عنها هذه الحوادث .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الوالى «الكوميسر» فى هذه الناحية كان في جانبه، فمنع من عقد المناظرة، وأرغم مولوى محمد حسين ومن معه من العلماء على مغادرة البلد فى اليوم نفسه.

ثم انتقل غلام أحمد إلى «دهلى» داعيًا إلى نحلته، فواجهه العلماء بالإنكار، وطلبوه للمناظرة فيما يدعو إليه، وقرروا أن يتولى مناظرته مولوى نظير حسين أستاذ الحديث، فلم يستجب غلام أحمد للمناظرة، ولكن - كما يقول أتباعه - دعا مولوى نظير حسين إلى المباهلة: بأن يحلف هذا الأستاذ على أن عيسى ابن مريم - عليه السلام - لم يزل حيًا، وإذا حلف ولم ينزل عليه فى خلال سنة بلاء يكون غلام أحمد كاذبًا فى نبوته، ولكن مولوى نظير حسين ومن معه من العلماء أبوا أن يسلكوا مع غلام أحمد هذه الطريقة بدل ما دعوه إليه من المناظرة.

وبعد هذا دعا أهالى (دهلى) مولوى محمود بشير من مدينة «بهوبال» لمناظرة غلام أحمد، حكى هذا محمود بن غلام أحمد ولم يزد على أن قال: وطبعت هذه المناظرة.

وفى سنة (١٨٩٢م): ذهب إلى «لاهور» أيضًا، فجرت بينه وبين مولوى عبدالحكيم مناظرة؛ ذكر هذه المناظرة أيضًا محمود بن غلام أحمد، ولم يتعرض لوصفها أو لمن كان له الفوز فى نهايتها، وفى سنة ١٨٩٦م عقد مؤتمر الأديان فى «لاهور» وحضره ممثلو ملل كثيرة، ويقول محمود بن غلام أحمد: إن غلام أحمد هو الذى اقترح عقد هذا المؤتمر، وغرضه من هذا الاقتراح تعريف العالم بحقيقة رسالته، وقالوا: إنه كان عندما شرع فى كتابة المقال الذى أراد إلقاءه فى المؤتمر أخذه إسهال عنيف، ثم أتمه، وزعموا أنه أوحى إليه بأن مقاله سيفوق كل ما يلقى فى المؤتمر، ولا ينتظر منهم بعد هذا إلا أن يقولوا: «إن مقاله فى المؤتمر كان فوق كل مقال، وذكروا أن أتباعه لذلك الحين لا يزيدون على ثلاثمائة شخص.

وفى سنة (١٨٩٧م): دعا حسين كامى سفير تركيا فى البنجاب غلام أحمد للاجتماع فلم يجب فذهب إليه بنفسه، وسمع منه ما يدعيه من نزول الوحى، وبعد انصرافه عنه نشر فى صحف «لاهور» مقالاً أنكر فيه ما يدعيه غلام أحمد أشد الإنكار، وكان لهذا المقال أثر فى ازدياد حنق المسلمين على غلام أحمد فى تلك البلاد.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وفى تلك السنة نشر غلام أحمد تحت عنوان « الصلح خير » خطابًا لعلماء الإسلام يدعوهم فيه أن يكفوا عن معارضته والتشنيع عليه مدة عشر سنين، فإذا كان كاذبًا فسيصادفه ما يظهر كذبه، وإذا تبين صدقه فستكون هذه الهدنة سببًا لمعرفتهم للحق ونجاتهم من العقاب الذى ينزله الله على من يناوئونه.

ولم تجد هذه المكيدة عند علماء الإسلام غباوة، فرفضوا هذا الاقتراح واستمروا على تفنيد آرائه، وتحذير الناس من السقوط فى ضلالته.

فى هذه السنة قصد غلام أحمد إلى التخلص من حملة المنكرين عليه، فلجأ إلى حاكم الهند العام، وقدم له مطلبًا قال فيه: إن أصل اضطراب الهند هو المشاغبات الدينية، فيجب وضع قانون يسوغ لأتباع كل دين إظهار حقائق دينهم، ويحميهم من تعرض غيرهم لهم.

وفى سنة (١٨٩٨م): وضع لأتباعه قانونًا هو: أن لا يزوجوا بناتهم لمن لم يكن مصدقًا بنبوته، وفى هذه السنة أسس مدرسة بقاديان لتعليم أبناء شيعته حتى يشبوا على مبادئ نحلته.

وفى سنة (١٩٠٠م): بنى مسجداً بقاديان، ولكن أقاربه الذين سلمهم الله من نزغاته بنوا أمام هذا المسجد جدارًا يجعل أشياعه لا يصلون إلى المسجد إلا بعد أن يمشوا مسافة طويلة، فرفع غلام أحمد عليهم دعوى فقضت المحكمة بإزالة الجدار.

وفى هذه السنة ألقى على طائفته الخطبة التى يسميها: « الخطبة الإلهامية » وأتباعه يعدونها من معجزاته، وسننقل فيما بعد شيئًا من هذيانها وضلالاتها.

وفى سنة (١٩٠١م): أمر أتباعه بإحصاء عددهم وتقييد أسمائهم فى سجل، قال ابنه محمود بشير: وكانت هذه السنة مبدأ التفريق بينهم وبين المسلمين.

وفى سنة (١٩٠٢م): أصدر مجلة لنشر مذهبه سماها « مجلة الأديان » وهى تنشر باللغتين: الأوردية والإنكليزية، وكان يكتب فيها بعض مقالات بنفسه، وفى هذه السنة أقام عليه السيد كريم الدين قضية ادعى فيها أنه تناوله بالقذف، واستدعى غلام أحمد إلى المحاكمة ببلدة « جهلوم » وحضر لدى الحكمة فقضت ببراءته.

وفى سنة (١٩٠٣م): قتل أحد دعاة مذهبه وهو سيد عبداللطيف بمدينة « كابل » بسبب مروقه من الدين، وفى هذه السنة كتب غلام أحمد مقالا خرج فيه إلى شتم السيد كريم الدين حتى قال عنه: إنه كذاب لئيم، فرفع عليه السيد كريم الدين قضية قذف ثانية، واستدعى غلام أحمد إلى المحاكمة ببلدة « جردسبور » فقضت عليه المحكمة بغرامة قدرها ٥٠٠ روبية. فاستأنف القضية لدى محكمة « امرتسر » وكان القاضى إنجليزيًا فنقض الحكم الأول وقضى ببراءته.

وسافر بعد إلى « لاهور » و« سيكلوت » ليخطب داعيًا إلى مذهبه، فأصدر العلماء هنالك منشورًا ينصحون فيه للناس بأن لا يستمعوا إلى خطبه، وخطب مرة واحدة فثار الناس عليه بالإنكار وحاولوا رميه بالحجارة، ولكنه كان كما هو شأنه فى هذه المواقع محاطًا بالشرطة (البوليس) فحموه حتى ركب القطار هاربًا.

وفى سنة (١٩٠٥م): أسس مدرسة دينية عربية فى قاديان لتخريج دعاة عارفين بمقاصد نحلته، وفى هذه السنة سافر إلى « دهلى » فقام العلماء فى وجهه، ولم يتمكن من الخطابة فى محل عام، إلا أنه دعا طائفة إلى المنزل الذى يقيم فيه ليبث بينهم مبادئ مذهبه، فلقى من بعض الحاضرين معارضة وإنكارًا فغادر المدينة خائبًا.

وعند عودته من (دهلى) مر على بلد « امرتسر » وعزم على إلقاء خطبة فى قاعة المحاضرات، وجاء العلماء يحذرون الناس من الاستماع إليه، ولما دخل قاعة المحاضرات وأخذ يخطب، قدم له أحد أتباعه قدح شاى وكان الاجتماع فى نهار رمضان، فأخذ منه الرشفة الأولى، فصاح الحاضرون بالإنكار عليه، فأجاب بأنه مسافر وقد رخص للمسافر الفطر فى رمضان، ووقع عقب هذا هياج فانقطع عن الخطابة، وانصرف فى حماية الشرطة (البوليس) واضطر إلى مغادرة المدينة.

وفى سنة (١٩٠٥م): زعم أنه أوحى إليه أن أجله قد قرب، وكتب الكتاب المعروف عندهم بالوصاية، ولكن أجله امتد بعد هذا نحو ثلاث سنين، وفى هذه السنة زعم أنه أوحى إليه بإنشاء مقبرة خاصة لأتباعه، وفرض على من يريد الدفن فيها أن يهب لخزينتهم ربع ماله.

وفى سنة (١٩٠٧م) : قامت حركة وطنية فى «البنجاب» فانحاز غلام أحمد إلى جانب الحكومة، وأذاع منشوراً دعا فيه أتباعه إلى موالاة الحكومة ومساعدتها على إخماد الحركة الوطنية، ففعلوا.

وفى هذه السنة انعقد مؤتمر الأديان فى «لاهور» وحضره مندوبو الديانات، وبعث غلام أحمد مقالاً ليقرأ فى المؤتمر، ولما قام أحد أتباعه لقراءته قابله جماعة من الحاضرين بالازدراء، ورموه بكلمات الاستهزاء.

وفى سنة (١٩٠٨م) : ذهب إلى «لاهور» وعندما وصل إليها أنكر المسلمون مجيئه، وصار العلماء يجتمعون كل يوم بعد صلاة العصر فى براح حول منزله، ويلقون خطباً يحذرون فيها الناس من الاغترار بمزاعمه.

وكان غلام أحمد مبتلى بإسهال مزمن، فاشتد عليه وهو فى لاهور، ومات فى مايو من هذه السنة ١٩٠٨م الموافقة لسنة ١٣٢٦هـ، ونقل إلى قاديان ودفن بها، وانتخب أتباعه لرياسة المذهب حكيم نور الدين حتى مات سنة ١٩١٤م فانتقلت الرياسة إلى بشير الدين محمود بن واضع هذه النحلة غلام أحمد، وهو رئيسهم لهذا العهد.

○ ادعاء غلام أحمد : الوحى والنبوة والرسالة :

يزعم غلام أحمد أنه ينزل عليه الوحى، ومما قاله فى الخطبة الإلهامية : «هذا هو الكتاب الذى ألهمت حصة منه من رب العباد فى يوم عيد من الأعياد» ثم قال : «بل هى حقائق أوحيت إلى من رب الكائنات» ثم قال : «وقد أوحى إلى من ربى قبل أن ينزل الطاعون أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا».

ولم يدع أحد من الصحابة ولا من السلف الصالح أنه يأتيه الوحى من الله، ولو اقتصر غلام أحمد على دعوى الوحى لقلنا : لعله يريد من الوحى الإلهام، كما قال تعالى :﴿ **وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا** ﴾ [النحل :٦٨] ويبقى النظر فيما زعم من الإلهام، فإن كان موافقاً لنصوص الدين أو أصوله سكتنا عنه، وإن كان مخالفاً لشىء منه رددناه عليه، ولكنه يصرح فى كتبه بأنه نبى ورسول،

قال فى الخطبة الإلهامية : « أرأيتم إن كنت من عند الله، ثم كذبتمونى فما بالكم أيها المكذبون » وقال : « وأنكم ترون كيف تنصر الناس وارتدوا من دين الله؛ ثم تقولون : ما جاء مرسل من عند الله، ما لكم كيف تحكمون » وقال : « فأنعم الله على هذه - يعني أمة الإسلام - بإرسال مثيل عيسى، وهل ينكر بعده إلا العمون » وقال : « وكان عيسى علماً لبنى إسرائيل، وأنا علم لكم أيها المفرطون » !

وفى منشور لأصحابه عنوانه « شرائط الدخول فى جماعة الأحمدية » ما نصه : « إن المسيح الموعود - يعنى غلام أحمد - كان مرسلا من الله تعالى، وإنكار رسل الله تعالى خسارة عظيمة قد تؤدى إلى الحرمان من الإيمان » وقال أحد دعاتهم أبو العطاء الجلندهرى : « كلم الله أحمد - يعنى غلام أحمد - بجميع الطرق التى يكلم بها أنبياءه لأن الأنبياء فى وصف النبوة سواء » (١).

يدعى غلام أحمد النبوة والرسالة غير مبال بالقرآن والسنة وإجماع الأمة، ففى هذه الأصول الثلاثة حجج على أن المصطفى صلوات الله عليه هو آخر النبيين والمرسلين. أما القرآن ففى قوله تعالى : ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**﴾ فعلى قراءة « خاتم » بكسر التاء يكون وصفًا له عليه الصلاة والسلام بأنه ختم الأنبياء، أى : لا ينال أحد بعده مقام النبوة، فمن ادعاها فقد ادعى ما ليس له به من سلطان، وقراءة « خاتم » بفتح التاء ترجع إلى هذا المعنى، فإن الخاتم بالفتح كالخاتم بالكسر يستعمل بمعنى الآخر. ذكر هذا علماء اللغة، وجرى عليه المفسرون المحققون وجاءت السنة الصحيحة مبينة لهذا المعنى، ففى صحيح الإمام البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « **كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبى خلفه نبى، وإنه لا نبى بعدى** ».

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « **إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى داراً بناء فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويتعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة، قال : فأنا اللبنة**

---

(١) البشارة الإسلامية الأحمدية.

وأنا خاتم النبيين» . وفى رواية مسلم عن جابر – رضى الله عنه – : «فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء» . وروى الإمام أحمد – بسنده إلى أبى الطفيل – أن رسول الله ﷺ قال : «**لا نبوة بعدى إلا المبشرات**» قيل : وما المبشرات يا رسول الله؟ قال : «**الرؤيا الحسنة – أو قال – الرؤيا الصالحة**» . . إلى غير هذا من الأحاديث وآثار الصحابة الصريحة فى أن النبوة انتهت بنبوته عليه الصلاة والسلام . وعلى هذا انعقد إجماع المسلمين وأصبح بمنزلة المعلوم من الدين بالضرورة . . قال الإمام ابن كثير عند تفسير «وخاتم النبيين» : «وقد أخبر الله تعالى فى كتابه، ورسوله فى السنة المتواترة عنه، أنه لا نبى بعده، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال مضل» . وقال الألوسى فى تفسيره : «وكونه ﷺ خاتم النبيين مما نطق به الكتاب، وصدعت به السنة، وأجمعت عليه الأمة، فيكفر مدعى خلافه» .

وما كان لمسلم أن يؤول القرآن والسنة الصحيحة تأويل من لا ينصح لله ورسوله ليجيب داعية هوى فى نفسه، وانظروا إلى غلام أحمد وطائفته كيف تخبطوا فى تأويل «وخاتم النبيين» وما يبينها من الأحاديث المحكمة! ولا داعى لهم إلى هذا التخبط إلا أن رجلاً من «قاديان» استحب الهوى على الهدى، فادعى أنه نبى مرسل، وملأ فمه باللغو وقول الزور والتملق لغير المسلمين .

ومن وجوه تأويله حمله لحديث« لا نبى بعدى » على معنى أنه لا يأتى بعده نبى من غير أمته .

وهذا الوجه اختلسه من متنبئ آخر يقال له إسحاق الأخرس (١) ظهر فى أيام السفاح، فإنه زعم أن ملكين جاءاه وبشراه بالنبوة فقال لهما : وكيف ذلك وقد أخبر الله تعالى عن سيدنا محمد أنه خاتم النبيين؟ فقالا له : صدقت ولكن الله أراد بذلك أنه خاتم النبيين الذين هم على غير ملته وشريعته .

وليس الوحى عند هذه الطائفة بمقصور على زعيم نحلتهم ،بل يدعون أن أتباعه أيضاً ينزل عليهم الوحى، ومما رأيناه فى منشور وضعه رئيسهم لهذا العهد وترجمه عبدالمجيد كامل، وطبع فى مصر : «أن طريق الوحى لا يمكن أن يسد فى وجوه

---

(١) تقدم ذكره .

الناس» وفى هذا المنشور: «أن المهدى والمسيح قد ظهر فى الهند بمحل يقال له «قاديان» وأنه يوجد الآن آلاف من حواريه يستمعون الوحى الإلهى» ومما زعم غلام أحمد أنه أوحى به إليه: «وإنى جاعلك للناس إماما ينصرك رجال نوحى إليهم».

بأى لسان يدعون الوحى، وهذه مقالات غلام أحمد ورسائله طافحة بأقوال منقطعة عن الحكمة عارية عن الصدق، والمعقول منها قد قاله أناس أو قالوا مثله أو خيراً منه ولم يخطر على بالهم ادعاء أنه وحى كلمهم به الله تعالى، أو نزل عليهم به الروح الأمين! ومن خطه المكشوف أنه يأتى إلى آيات أو جمل من القرآن المجيد فينقلها كما هى ويضم بعضها إلى بعض فى صحاف، ويزعم أنها وحى نزل عليه.

ينكرون أن النبى ﷺ خاتم النبيين، ويوردون على هذا شبهًا لا تزن عند أولى العلم جناح بعوضة، كما استدلوا بقوله تعالى: ﴿**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ**﴾ [الحج: ٧٥] متشبثين بأن قوله «يصطفى» فعل مضارع، والمضارع للاستقبال. ودفع هذه الشبهة أن الفعل الواقع فى الماضى قد يعبر عنه بصيغة المضارع لمقتضيات بلاغية، منها: أن يكون المعنى موضع غرابة، فإن المضارع من جهة دلالته على الحال يتوسل به المتكلم البليغ إلى إخراج الحادث الغريب فى صورة الواقع فى الحال، ليبلغ تعجب المخاطب من وقوعه مبلغ تعجبه من الصورة البديعة فى حال مشاهدتها، وعلى هذا الوجه ورد قوله تعالى: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [آل عمران: ٥٩] قال: «فيكون» والموضع فى الظاهر للماضى لأن وجود إنسان من غير أب حادث غريب، فحاله يقتضى أن يعبر عنه بالمضارع لإحضاره فى ذهن المخاطب حتى كأنه مشاهد له.

ومن دواعى التعبير عن الماضى بصيغة المضارع: الإشارة إلى استمرار الفعل وتجدده فيما مضى حينًا بعد حين، فإن الاستمرار التجددى يستفاد من المضارع على ما جرى عليه استعمال البلغاء، وصيغة الماضى لا تعرج على هذا المعنى. فالتعبير بصيغة المضارع فى قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ**﴾ [الحج: ٧٥] يدل على معنى زائد على أصل الاصطفاء الذى يدل عليه الماضى ويقف عنده، وذلك المعنى هو أن اصطفاء الرسل كان يتجدد ويقع مرة بعد أخرى

والقرينة الشاهدة بأن « يصطفى » مراد منه الاصطفاء الواقع قبل نزول هذه الآية، هى آية « وخاتم النبيين » والأحاديث المستفيضة فى إغلاق باب الرسالة والنبوة.

فاستعمال المضارع موضع الماضى فى كلام البلغاء خارج عن حد الإحصاء وآيات الكتاب يفسر بعضها بعضاً. كما أن السنة تبين الكتاب، ويزعم أحمد أنه رسول، وأنه هو المراد من الحديث الوارد فى نزول ابن مريم حكماً عدلاً، وأخذ يمشى فى تأويل ألفاظ الحديث على عوج، على أنه حاول فى الخطبة الإلهامية صرف الناس عن العمل بالأحاديث النبوية، وحرف كثيراً من آيات القرآن المجيد على زعم أنها نزلت لتخبر بظهوره وتنوه بشأنه منها قوله فى آية: ﴿ **وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا** ﴾هذه بشارة بأنه سيكون فى هذه الأمة الإسلامية رجل فى درجة مريم الصديقة ثم ينفخ فيه روح عيسى، فإذا مريم يخرج منه عيسى أى أن الرجل ينتقل من صفاته المريمية إلى صفاته العيسوية، فكأنما كينونته المريمية أنتجت كينونته العيسوية، وبهذا المعنى يسمى ذلك الرجل ابن مريم!.

ولا نريد أن نكثر فى هذا المقام من ذلك اللغو والهزل، إلا أن تدعو الحاجة إلى زيادة الكشف عن فضائح هذه النحلة من بعد.

بدا لغلام أحمد أن يدعى النبوة والرسالة، وخشى خيبة دعوته حتى لدى العامة الذين يأبون الخروج من الإسلام إلى نحلة تعلن أنها ناسخة له، فادعى أن رسالته مؤيدة للإسلام لا ناسخة لشريعته، فقال فى الخطبة الإلهامية: « أم يقولون إنا لا نرى ضرورة مسيح ولا مهدى،وكفانا القرآن وإنا مهتدون،ويعلمون أن القرآن لا يمسه إلا المطهر،فاشتدت الحاجة إلى مفسر زكى من أيدى الله، وأدخل فى الذين يبصرون ».

قال هذا ليتألف الغافلين، ولما كانت فى نفسه حاجات يريد قضاءها، وعرف أن هذه الحاجات ينبذها الكتاب والسنة، حاول إسقاط السنة من أصول الشريعة، وفتح بعد هذا لتأويل القرآن باباً من صنف الأبواب التى فتحها الباطنية من قبله، فأصبح فى غنى عن ادعاء أنه جاء بشريعة مستقلة إذ له أن يقرر هو وأتباعه ما تدعوهم إليه أهواؤهم. فإن قيل لهم: هذا يخالف نص الشارع الحكيم، أنكروا صحة النص أو دخلوا إلى تأويله من الباب الذى دخل منه الباطنية وهم يمكرون.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

○ زعمه أن له آيات على صدقه:

قال غلام أحمد فى الخطبة الإلهامية: «وإن تعدوا دلائل صدقى لا تحصوها»، ولم نقف على شىء من هذه الدلائل إلا ما يشابه براءته من قضايا القذف التى كانت تقام عليه، أو نجاته من أذى العامة حيث يكون محاطًا بالشرطة محروسًا من الحكومة بقوة الحديد، وأراد أن يجعل دليل صدقه رواج دعوته عند طائفة من الغافلين عن سبيل الحق فقال فى الخطبة الإلهامية: «ولو كان هذا الأمر والشأن من عند غير الله لمزق كل ممزق، ولجمع علينا لعنة الأرض والسماء، ولأفاز الله أعدائى بكل ما يريدون».

وقد لقى كثير من الدعاوى المزورة مثلما لقيت دعوته أفرادًا ضربت فى نفوسهم الجهالة، فلا يقدرون مقام النبوة والرسالة، ولا يفرقون بين من يدعيها حقًّا ومن يدعيها وهو لا يرجو لله وقارًا، ولو كان رواج الآراء بين طائفة من البشر دليلاً على أنها حق لكانت البهائية من المذاهب الرشيدة، والقاديانيون يعدونها كما يعدها المسلمون نحلة غاوية، وإن للباطل لصولة حتى إذا أخذ أهل العلم بيد الحق وأحكموا أساليب الدفاع عند تضاءل الباطل، فإما أن ينقطع أثره وإما أن يبقى شعار فئة كان لله فى إيثارها الظلام على النور حكمة بالغة.

يذكر غلام أحمد فى مؤلفاته المباهلة، ويزعم أنها تجرى بينه وبين بعض المنكرين عليه فيكون الظفر له، ولسوء حظه سلك هذه الطريقة مع الأستاذ أبى الوفاء ثناء الله، فخسرت مباهلته وتركها آية تنادى بخذلانه، ولكن بعض المكبين على الباطل فى صمم فهم لا يسمعون.

ضاقت الأرض على غلام أحمد عندما نهض الأستاذ العلامة مولوى ثناء الله لإبطال نحلته، ورمى دعاويه بالحجج الدامغة، فكتب غلام أحمد دعاء طويلا خاطب فيه الشيخ ثناء الله، وهذا هو: «بسم الله الرحمن الرحيم.... يستنبئونك أحق هو؟ إى وربى إنه لحق... حضرة المولوى ثناء الله. السلام على من اتبع الهدى،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

إن سلسلة تكذيبي جارية في جريدتكم «أهل الحديث» من مدة طويلة أنتم تشهدون فيها أني كاذب دجال مفسد مغتر. ودعواى للمسيحية الموعودة كذب وافتراء على الله. إني أوذيت فيكم إيذاء، وصبرت عليه صبراً جميلاً، لكن لما كنت مأموراً بتبليغ الحق من الله وأنتم تصدون الناس عنى، فأنا أدعو الله قائلاً: يا مالكى البصير القدير العليم الخبير، تعلم ما فى نفسى إن كان دعواى للمسيحية الموعودة افتراء منى وأنا في نظرك مفسد كذاب، والافتراء فى الليل والنهار شغلى، فيا مالكى أنا أدعوك بالتضرع والإلحاح أن تميتنى قبل المولوى ثناء الله، واجعله وجماعته مسرورين بموتى، يا مرسلى أدعوك آخذاً بحظيرة القدس لك أن تفصل بينى وبين المولوى ثناء الله، إنه من كان مفسداً فى نظرك كاذبًا عندك فتوفه قبل الصادق منا: ﴿**رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ**﴾ [الأعراف: ٨٩].. وصدر هذا الدعاء فى أول يوم من ربيع الأول سنة ١٣٢٥هـ، ١٥ أبريل ١٩٠٧م.. الراقم عبدالله الصمد.. مرزا غلام أحمد المسيح الموعود.. عافاه الله وأيد عزه».

وقد مات غلام أحمد بعد هذا الدعاء بنحو سنة، أما الأستاذ ثناء الله فهو مازال يتمتع بالسلامة، ومازال يعمل للذود عن الدين الحنيف والكشف عن فضائح تلك النحلة المزورة حتى لقى ربه.

يعلم غلام أحمد أن يده فارغة مما يصلح أن يكون دليلاً أو شبه دليل على نبوته، فانتهز ظهور الطاعون بالبنجاب فرصة لاصطياد الغافلين المستضعفين؛ فزعم أنه أوحى إليه بأن هذا الطاعون ينجو منه من يؤمنون به بقلب خالص، أو يكفون فى الأقل عن تكذيبه وذمه، ويحملون له فى قلوبهم تعظيماً (١)، قال هذا ليستهوى الأغبياء الذين شأنهم الانقياد إلى من يعدهم بالنجاة من بلاء هو نازل بهم وإن لم يعدوهم إلا غروراً.

---

(١) من مقال له نشر فى كتاب «تعاليم المسيح الموعود».

www.alukah.net
شبكة الألوكة

○ **غروره: وتفضيله نفسه على بعض رسل الله الأكرمين:**

ملك غلام أحمد الغرور والتعاظم فانهال يحثو لنفسه من الإطراء ما شاء، ومما أورده فى كتاب الاستفتاء على أنه خطاب له من الله تعالى: «أنت منى بمنزلة توحيدى وتفريدى، أنت منى بمنزلة عرشى، أنت منى بمنزلة ولدى»، وقال فى مقال له ورد فى كتاب «أحمد رسول العالم الموعود»: «فالواقع أن الله القدير قد أبلغنى أن مسيح السلالة الإسلامية أعظم من مسيح السلالة الموسوية» ويعنى بمسيح السلالة الإسلامية نفسه، فغلام أحمد يزعم أنه أفضل من عيسى عليه السلام. ومما ادعى أن الله خاطبه به: «إنى خلقتك من جوهر عيسى، وإنك وعيسى من جوهر واحد وكشيء واحد» (١).

ووقع فى يدى كتاب لغلام أحمد نقله أحد أتباعه إلى العربية، فوجدته قد تحدث فيه عن الوحى، ثم ذكر مقاما «يشافه الله فيه العبد بالكلام وينطق فى باطنه ويتخذ من جنانه عرشه، ويعطيه كل نعمة مما كان قد أعطاها الأولين» ثم قال: «إنى لأكون قد ظلمت بنى نوعى إن لم أعلن لهم فى هذه الساعة أننى على ذلك المقام الروحى الذى وصفته هذا الوصف، وأن قد أعطانى من المكالمة المرتبة التى ذكرتها بالتفصيل».

وذكر الشيخ ثناء الله جملاً صدرت من غلام أحمد مأخوذة من كتبه، وله مؤلفات بالأوردية والفارسية، ومن هذه الجمل قوله: «اتركوا ذكر ابن مريم فإن غلام أحمد خير منه» ومنها قوله: «ما أعطاه الله لكل نبى واحداً واحداً، أعطاه لى جميعًا»، ومنها قوله: «يقال الله لى: إن أمرك إذا أردت شيئًا أن تقول له: كن فيكون» ومؤلفاته مملوءة بمثل هذه الجمل الطاغية.

○ **تكفيره: لمن لا يؤمنون برسالته:**

يجعل غلام أحمد المسلمين الذين لا يقبلون دعوته كفاراً، ويمثلهم فى كتبه باليهود. ومما قاله فى الخطبة الإلهامية: «فإن نبينا المصطفى كان مثيل موسى،

---

(١) حمامة البشرى.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وكانت سلسلة خلافة الإسلام كمثل سلسلة خلافة الكليم عليه من الله السلام، فوجب من ضرورة هذه المقابلة والمماثلة أن يظهر فى آخر هذه السلسلة مسيح كمسيح السلسلة الموسوية؛ ويهود كاليهود الذين كفروا عيسى وكذبوه » وكرر هذا المعنى وهو تمثيل نفسه بعيسى عليه السلام، وتمثيل المسلمين الذين ازدروا دعوته باليهود فى كتبه كثيراً.

وفى نشرتهم « شرائط الدخول فى الأحمدية » التصريح بأن المسلمين الذين يكذبون غلام أحمد أحط درجة من المنافقين، ونص عبارتهم: « وكذلك لا يجوز لأحمدى أن يصلى على غير أحمدى، فكأنه بفعله يشفع إلى الله لمن أصر على مخالفة المسيح وإنكاره ومات عليه، مع أن الله يمنع أن يصلى على المنافقين فكيف على من كفر بمأمور من الله » وقد يصف غلام أحمد المسلمين بأنهم أعداء لأهل مذهبه، كما قال فى مقال (١) يخاطب فيه أتباعه: « فاذكروا دائماً أن الحكومة الإنكليزية هى رحمة وبركة لكم، فهى الدرع التى تقيكم، إن الإنكليز خير ألف مرة من المسلمين الذين هم أعداؤكم »!

وعلم غلام أحمد أن علماء الإسلام هم الذين يعرفون سريرته، ويحذرون الناس من فتنته، فكان يكثر من قذفهم ويحث أتباعه على بغضهم. قال فى مقال له نشر فى كتاب « تعاليم المسيح المنتظر »: « ونصيحتى لجميع أتباعى أن يبغضوا المولوية (علماء المسلمين) الذين يريقون الدم الإنسانى تحت ستار الدين، ويأتون من الآثام أسوأها وراء حجاب التقوى، وعلى أتباعى أن يقدروا هذه الحكومة الإنجليزية ويظهروا لها شكرهم واعترافهم بالجميل، بالولاء وحسن الطاعة ».

ويرى « رسول آخر الزمان » غلام أحمد بعده من المسلمين نعمة تستحق الشكر، كتب الدكتور زكى كرام من برلين إلى جريدة « حضرموت بجاوه » مقالاً تحدث فيه عن القاديانية فى برلين، ونشرته فى العدد الصادر يوم السبت ٨ المحرم سنة ١٣٥١هـ ومما قال فى هذا المقال: إنه زار هو والأمير شكيب أرسلان إمام الجامع الذى بنته هذه الطائفة ببرلين، فأطلعهم الإمام على كتاب لغلام أحمد نفسه، فنقل منه الأمير

(١) ورد هذا المقال فى كتاب لهم يسمى « أحمد رسول العالم الموعود ».

www.alukah.net
شبكة الألوكة

جملا، ومن هذه الجمل أنه أى: غلام أحمد «يحمد الله حيث ولد تحت راية إنكليزية وبعيداً من المسلمين»!

○ القاديانية فرقتان:

كانت القاديانية فى أيام غلام أحمد وأيام خليفته نور الدين مذهباً واحداً؛ غير أنهم فى آخر حياة نور الدين ابتدأ شيء من الاختلاف يدب فيما بينهم.

عندما مات نور الدين انقسموا إلى شعبتين: شعبة «**قاديان**» ورئيس هذه الشعبة محمود ابن غلام أحمد، وشعبة «**لاهور**» وزعيمها محمد على مترجم القرآن إلى اللغة الإنكليزية.

أما شعبة «**قاديان**» فأساس عقيدتها أن غلام أحمد نبى مرسل، وأما شعبة «لاهور» فظاهر مذهبها أنها لا تثب النبوة لغلام أحمد، ولكن كتب غلام أحمد مملوءة بادعاء النبوة والرسالة، فماذا يصنعون؟

ولشعبة «لاهور» ضلالة يبثونها فى كتبهم: هى إنكار أن يكون المسيح عليه السلام ولد من غير أب، وزعيم هذه الشعبة محمد على يصرح بأن عيسى عليه السلام ابن يوسف النجار، ويحاول تحريف بعض الآيات لتوافق هذه العقيدة (١).

ونشرت مجلتهم «المجلة الإسلامية» التى تصدر فى «ووكنج» بإنجلترا مقالا للدكتور مركوس وفى هذا المقال: «أن محمداً عليه السلام يصرح بأن يوسف أبو عيسى عليه السلام» ولم يعلقوا على هذه الجملة كلمة لأنها جاءت على وفق نحلتهم.

وكذلك كان محمد على فى ترجمته للقرآن يذهب مذهب الترجمة الحرفية، ثم يضع فى أسفل الصحيفة حواشى يؤول فيها ما ترجمه حرفياً، ويرتكب فى تأويلها وجوهاً يحذو بها حذو نحلتهم كما فعل فى قوله تعالى: ﴿**أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي**

---

(١) انظر كتابه «عيسى ومحمد» ص ٧٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩] فقد نحا فى تأويلها نحو منكرى المعجزات، وتصرف فى معانيها تصرف من لا يدرى أن القرآن قد نزل بلسان عربى مبين.

○ وجوب مقاومتهم: والتحذير من دعايتهم:

للقاديانية حركة نشيطة فى الدعوة إلى نحلتهم، ولما كانوا يقيمون هذه النحلة على شىء من تعاليم الإسلام، أمكنهم أن يدعوا أنهم دعاة للإسلام، ولاسيما شعبة «لاهور» التى تعلن أن غلام أحمد مصلح ومجدد لا نبى، وقد أصبح الناس الذين لا يعرفون هذه النحلة يعتقدون أنهم دعاة للإسلام بحق، وربما أثنوا على سعيهم، وعاتبوا من يكتب فى تحذير المسلمين من أباطيلهم، ولو اقتصرت هذه الطائفة على نشر دعوتها بين قوم غير مسلمين، لخف علينا خطرها، وآثرنا الاشتغال بمجاهدة غيرها من المضللين والملحدين، ولكنهم طمعوا فى أخذ الشعوب التى تدرس القرآن والسنة وتستضىء بهدايتهما، وراموا صرفها إلى الاعتقاد برسالة غلام أحمد وما يتبعها من ضلالات، فبعثوا بدعاتهم إلى سورية وفلسطين ومصر وجدة والعراق وغيرها من البلاد الإسلامية، وقد وجدت دعايتهم على ما فيها من سخف أحداثًا فرط أولياؤهم فى تربيتهم على أدب الدين، فقبلوها غرورًا.

يذكر القاديانيون أن لهم دعاة فى الصين والهند والعجم والعراق وجدة وسورية وفلسطين ومصر، وقرأنا فى كتاب لهم مطبوع سنة ١٩٣٢م أن داعيتهم فى مصر الشيخ محمود أحمد فى شارع كذا، وقد رأيتم علماء الهند كيف قاوموا هذه الفئة ومازالوا يقاومونها! وممن وصلتنا آثارهم فى مقاومتها علماء سوريا، فقد كتبوا الرسائل فى الرد عليها وإيقاظ المسلمين لما يبثونه من آراء تقوض بناء العقيدة وآراء تربى نفوس النشء على الرضا بالاستكانة والانقياد لكل يد تقبض على زمامهم انقياد الأعمى.

وليحذر المسلمون فتنة هذه الطائفة حذرهم من فتنة الطائفة البهائية، ولنا الأمل فى علمائنا ووعاظنا أن يقعدوا لدعاة هاتين الطائفتين كل مرصد ويعالجوا كل قلب اعتل بشىء من وساوسهما: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾ [العنكبوت: ٦٩].

٦

الدين والفلسفة والمعجزات

يبحث الإنسان عن حقائق الكائنات، ويتعرف أحوالها، ويتدبر وجوه اختلافها: فى الصفات، والطبائع، والآثار، ينظر فيها متفرقة أو مجتمعة، باتصال أو امتزاج، ويسمو بعد هذا إلى البحث عن مصدرها، والتفكير فى مصيرها وما ينتهى إليه نظره يرسم له حدوداً أو يصيغه فى صورة قانون، وذلك ما يسمى علماً أو فلسفة.

ولما لم تكن العقول متساوية فى حدة النظر، ولا فى رعاية قوانين البحث. اختلف ما ترسمه للأشياء من حدود وما تقرره لها من أحكام.

فمنها ما يقطع بصحته، ومنها ما لا يتعدى درجة الظن، ومنها ما هو ظاهر الفساد. وإذا لاحظت أن بعض العقول قد تخرج فى البحث إلى ما لا سبيل لها أن تعرفه من طريق التجربة أو الاستدلال، ظهر لك ناحية من النواحى التى تخبط فيها العقول خبط عشواء وإن بلغت فى العبقرية الذروة، ودرست علم المنطق كتاباً بعد كتاب.

أما الدين فهو وضع إلهى يراد به هداية الإنسان إلى السيرة المرضية فى الدنيا، والفوز بالسعادة فى الأخرى. فهو يهدى إلى معرفة مبدأ الكون، وما يجب أن يكون له من صفات، وما يدخل تحت سلطان قدرته من الأفعال، ويهدى إلى معرفة مصير الخليقة من الفناء ثم البعث ثم الحساب ثم إلى مستقر خالد فى دار نعيم أو عذاب، ويهذب صلة العباد بالخالق، ويصلح الصلات بين الأفراد والجماعات، ويتوسل إلى هذه المقاصد بإقامة الحجة، وإلقاء الحكمة، وضرب الأمثال، وإيراد القصص العامرة بما فيه عبرة.

يصل الدين إلى الناس على أيدى بشر أمثالهم، ولكن الله اصطفاهم، وزكى أنفسهم وأنار بصائرهم. فكانوا مستعدين لتلقى الوحى منه.

أولئك البشر المصطفون هم الرسل عليهم الصلاة والسلام، وقضت حكمته

تعالى أن تكون رسالته مؤيدة بالآيات البينات لتتم بها الحجة، وتنجح معها الدعوة، وبهذه الآيات صارت أقوال الأنبياء - عليهم السلام - مقطوعًا بصحتها وأفعالهم مشهودًا بحكمتها، فالدين الحق لا يتخلف عنه الصدق في قوله ولا تفارقه الحكمة في موطن.

وإذا حدثناك عن الدين بعد هذا فإنما نحدثك عن دين الإسلام ومسايرته للعلم الصحيح، إذ في استطاعتنا أن نقيم على ذلك الحجة، وندفع من حوله كل شبهة.

نجد فيمن يمشون في الفلسفة على غير سبيل، طائفة يعتقدون أن الكائنات مرتبطة في نفسها بأسباب معينة يترتب عليها أثرها حتما، ولا يمكن انقطاع هذه الأسباب عن آثارها المعروفة بحال، وهذه العقيدة يحملها الطبيعي البحت ولا تستقر في نفس تؤمن بأن جميع الكائنات تستند إلى مبدع حكيم.. فعال لما يريد.

وإذا أخذت في مناظرة صاحب هذه الدعوة لم يقل في الاستدلال عليها أكثر من أنه لم يشهد الأسباب منفردة عن مسبباتها، ولا المسببات قائمة بدون أسبابها، وبهذه الشبهة ينكر أن يكون إبراهيم - عليه السلام - ألقى في النار ولم تحرقه، وينكر أن عيسى - عليه السلام - ولد من غير أب، وينكر أن تكون عصا موسى - عليه السلام - قد انقلبت ثعبانًا، إلى ما يماثل هذا من الآيات البينات.

ومن الواضح أن دعواهم باطلة وشبهتهم داحضة، ولا سبيل لهم إلى إثبات أن تخلف المسببات عن أسبابها المعروفة عادة من قبيل المحال، فإن عدم مشاهدة انقطاع المسببات عما عرف من أسبابها لا يستلزم ارتباطهما في نفس الأمر ارتباطًا يحيل العقل انفكاكه.

أليس من الممكن أن يجعل القادر الحكيم للأمر سببًا آخر، أو يحدث مانعًا يبطل به تأثير السبب المعروف؟ ومن هنا صح الاعتقاد بالمعجزات التي دلت النصوص المحكمات على وقوعها.

فندعو شبابنا الباحثين عن طرق السعادة وراحة الضمير أن يفرقوا بين ما لا يمكن

وقوعه، مثل وجود شخص بعينه فى مكانين فى زمن واحد، ومثل كون جزء الشيء أكبر من ذلك الشيء، ومثل رجحان أحد شيئين متساويين من غير مرجح، وبين ما يمكن وقوعه ولا يستطيع العقل أن يخرجه من دائرة الإمكان، ولكنه يقع على وجه لم تشهده الأبصار من قبل. فالأول موضع الإنكار الحق. ومثله لا ترد به الشريعة السماوية فى حال، والثانى موضع الغرابة ووروده فى الدين سائغ بل محقق وكثير من شئون اليوم الآخر داخل فى هذا القبيل.

وقد أظهر العلم الحديث من غرائب المخترعات ما لو وصف لقصير النظر من قبل لأنكره متخيلاً أنه من قبيل المستحيل.

○○○○○

كتابٌ يهدى في تأويل القرآن المجيد

علم الله أن فى البشر عقولا لا تدرك وجوه الخير، وأن فى وجوه الخير ما لا تصل إليه العقول بنفسها، وعلم أن فيمن يعقلون بعض هذه الوجوه أولى أهواء نزاعة إلى الشر، فأنزل كتاباً يدعو إلى توحيد الخالق، ويهدى إلى مكارم الأخلاق، ويسن للقضاء والسياسة العامة أحكاماً عادلة، وينبه على بعض سننه فى الخليقة لندرك بالغ حكمته، ويذكرنا بأيام أمم قد خلت من قبلنا لنتعظ بها، ونحذر سوء منقلبها، ويقص علينا من أنباء رسله ما يصف لنا صبرهم على ما أوذوا، وتأييده لهم بما يقطع عذر المنكرين لرسالتهم، ويخبر عن بعض الحقائق الغائبة عن أبصارنا لتزداد علماً بسعة خلقه، وكمال قدرته ونفقه أن ما لدينا من وسائل العلم لا نكسب به من العلم إلا قليلا.

وقد شاء الله تعالى أن ينزل هذا الكتاب على سيدنا محمد بن عبدالله ﷺ، وقضت حكمته أن ينزله بلسان عربى مبين: بلسان أمة اختصت لذلك العهد بمزايا تهيئها لأن تتقبل دعوته وتفقه مقاصده وتشيد بجانبه دولة تقيم لمن تقلدوه عزة، وتمد على رءوس دعاته حماية يتقلبون فى ظلالها، ويبلغون الأمة هداية الله تحت رايتها.

أنزل الله كتابه الكريم، وعهد ببيانه إلى رسوله العظيم ﷺ فتلقى عنه أصحابه ذلك الكتاب وبيان ما كان يخفى عليهم من آياته، فما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى حتى تركها شريعة غراء ليلها كنهارها، وما انقرض عهد أصحابه - رضى الله عنهم - حتى ورثها عنهم التابعون، وأدوها إلى الذين جاءوا من بعدهم بأمانة وتقوى، ومازال القرآن يدرس والراسخون فى العلم لا يختلفون فى فهم آياته إلا آيات لا يمس الخلاف فيها أصلا من أصول الدين، وليس فيما يعتد به من هذا الخلاف ما يخرج فيه الفهم عن أساليب اللغة العربية ومقتضى وضع ألفاظها، حتى

ظهر أشخاص قل فى علم اللغة نصيبهم، أو خف فى علم الشريعة وزنهم، فتناولوا القرآن بعقول لا تراعى فى فهمه قوانين البلاغة، ولا تدخل إلى تفسيره من باب السنة الصحيحة، فأدخلوا فى تفسير القرآن آراء سخيفة ومزاعم منبوذة ووجدت هذه الآراء وهذه المزاعم عند بعض العامة وأشبه العامة متقبلاً.

وشر من هؤلاء طائفة الباطنية الذين هم رهط من المجوس، ائتمروا على أن يكيدوا الإسلام بتأويل القرآن على وجوه غير صحيحة ليصرفوا الناس عن محجته البيضاء، ويأخذوهم إلى ما شاءوا من نحل خاسرة وأهواء، ولولا رجال يدرسون الدين ببصائر تنفذ إلى لبابه، ويرزقون إيمانًا يسوقهم إلى دفاع الخبائث عن حياضه، لكان لأولئك المضلين جولة أوسع مما جالوا واستدراج للنفوس أكثر مما استدرجوا.

وعلى الرغم مما فى كتب العلماء المصلحين من حق واضح وحجة دامغة لم ينقطع شر هذا الرهط الذين يمكرون بكتاب الله، ويحرفون كلمه عن مواضعه ليقضوا مآرب ويشفوا صدور قوم لا يؤمنون.

وها هى تلك الفرقة البهائية قامت منذ عهد غير بعيد تتبع خطا الباطنية.. تجهد نفسها إجهادهم، وتهذى فى تأويل كتاب الله هذيانهم، وقد تسنى لها أن تستهوى بعض النفوس الغافلة أيام كان دعاتها يراءون الناس ويضعون على ألسنتهم مسحة من الدين الحنيف، أما اليوم فقد غرهم الغرور، فأعلنوا نحلتهم وجعلوا الناس على بينة من باطن أمرهم. فما لهم بعد هذه العلانية إلا أن ينقض بناؤهم ويحذر المسلمون أينما كانوا حبائل دعاتهم.

ويضاهى البهائية وأسلافهم الباطنية فى العمل لتقويض أصول الإسلام على طريقة التأويل نفر يضعون على رءوسهم بياضًا، ويحملون فى صدورهم سوادًا، لم يرسموا لأنفسهم نحلة دينية، وإنما هى الغواية لعبت بعقولهم، وإكبار خصوم الدين ران على قلوبهم، فانطلقوا إلى القرآن الكريم يؤولونه على ما يوافق شهواتهم ويقضى حاجات فى نفوس ساداتهم، يفعلون هذا ولا يرقبون فى اللغة العربية ذمة، ولا يرعون لسنة أفضل الخليقة حرمة، وتراهم ينبذون ما يقرره أئمة العربية أو أئمة

الدين نبذا لا يتكئ على دليل، ويطلقون ألسنتهم فى هؤلاء الأئمة الذين خدموا الدين والعلم والأدب، وإنما يعرف فضلهم العالم الناقد النبيل.

ومن هؤلاء النفر شخص سولت له نفسه أن يخوض فى آيات الله كالذين خاضوا فيها على عماية، فكتب جملا قصيرة قذف فيها شيئًا من وساوسه، وسماها تفسيراً، بل تناهى فى الافتنان بها فسماها «الهداية والعرفان».

والذى يقرأ هذه الجمل لا يرتاب فى أن صاحبها جامد على المحسوسات، جاحد لكثير مما أخبر به القرآن، منكر لأحكام قررها القرآن والسنة وأجمع عليها الصحابة وأئمة الإسلام من بعدهم جيلا بعد جيل، ولكنه يريد أن يدل على إنكاره بما يرتكبه فى الآيات من سوء التأويل.

ونضع بين أيدى القراء أمثلة من هذا الكتاب ليعلموا أن رياسة الأزهر الشريف قد قضت بسعيها فى حجزه وإتلافه واجبًا، هو حماية العامة من أن يقرءوا إلحاداً فى آيات الله غير مقرون بما يكشف القناع عن وجهه الفظيع، وضلاله البعيد.

○ تأويله لآيات المعجزات:

ينكر ذلك المؤول المعجزات صراحة فقد قال فى صفحة ٣٠٦: «وإن آيتهم (أى الرسل) على صدق دعوتهم لا تخرج عن حسن سيرتهم، وصلاح رسالتهم، وأنهم لا يأتون بغير المعقول، ولا بما يبدل سنته ونظامه فى الكون» وقال فى ص ١٦١: «وبعد هذا تعلم أن الله ينادى الناس بأنهم لا ينبغى أن ينتظروا من الرسول آية على صدقه فى دعوته غير ما فى سيرته ورسالته».

وقد جرى هذا المؤول وراء طائفة البهائية فإنهم ينكرون للرسل - عليهم الصلاة والسلام - معجزات، صرح بإنكارها داعيتهم المسمى أبا الفضل، فقد ذكر المعجزات فى كتابه المسمى «بالدرر» وقال: وكثير من أهل الفضل وفرسان مضمار العلم اعتقدوا أن جميع ما ورد فى الكتب والأخبار من هذا القبيل كلها استعارات عن الأمور المعقولة والحقائق الممكنة مما يجوزه العقل المستقيم، ثم أخذ يؤول بعض ما ورد فى تلك المعجزات من قرآن وحديث على نحو الوجهة التى ضل فيها هذا المؤول من بعده.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولم ينقل عن أحد ممن يؤمن بالرسل - صلوات الله عليهم - إنكار المعجزات التى هى خوارق عادات يغير الله بها بعض سننه الظاهرة، لتكون حجة على صدق من يبعثه داعياً إلى سبيله، وإنما ينكرها طائفة ممن أنكروا بعثة الرسل إذ قالوا: إن الرسالة تتوقف على المعجزة، والمعجزة خرق للعادة، وخرق العادة محال، ودعوى استحالة خرق العادة قد أثخنتها الأدلة طعناً، فلا يقيم لها النظر الصحيح وزناً، وكم من عقول ضلت سبيل الرشد، وآفتها عدم التفرقة بين ما لا يكون عادة وما يقضى العقل بأن لا يكون، فيغلطون فى تصور ما يستبعد العقل وقوعه استناداً للعادة، ويخالونه من قبيل ما لا يمكن وقوعه، واستبعاد العقل لشيء لم تجر العادة بوقوعه لا يقف أمام نصوص شريعة قامت الآيات البينات على أنها تنزيل من رب العالمين، وليس ما يقصه القرآن من معجزات الرسل - عليهم الصلاة والسلام - إلا تغييراً لبعض السنن الكونية الظاهرة، وتغيير هذه السنن لا يقضى بمنعه عقل يقدر قدرة الخالق قدرها، ويسلم أن هذه السنن من صنعها.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ﴾ [الإسراء: ٥٩] نص فى أن الله تعالى أرسل مع الرسل المتقدمين آيات غير سيرتهم وصلاح رسالتهم وقد مر المؤول على هذه الآية ولم يمسها بتحريف.

وإذا كانت معجزات النبى ﷺ التى هى خوارق عادات قد شهدها الصحابة، وعرفها السلف لا تأخذهم فى صدق أحاديثها ريبة، ونقلت إلى من بعدهم على طرق تكتنفها الصحة من كل جانب. وكانت بمجموعها بالغة حد التواتر الموجب للعلم، استبان لنا أن المراد من الآيات التى منع من إرسالها تكذيب الأولين آيات خاصة، هى ما اقترحه قريش من نحو إحياء الموتى على ما ذكره المحدثون والمفسرون فى سبب نزول الآية، والمعنى ما صرفنا عن إرسال ما يقترحونه من الآيات إلا أن أمثالهم من المطبوع على قلوبهم كعاد وثمود قد كذبوا بها، فتوغل المقترحين فى الضلال إلى حد من لا يرجى منه الانتفاع بالآيات، يجعل إرسال الآيات التى اقترحوها بعد إراءتهم آيات تثبت الرسالة وتقوم عليهم حجة خالية من الفائدة، وعدم إرسال هذه الآيات المقترحة لا يقتضى أن لا يظهر على يده ﷺ آية من غيرها

شبكة الألوكة - قسم الكتب

لم تقترح عليه أو اقترحها عليه غير من نزلت فيهم آية ﴿ **وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ** ﴾ فهذه الآية بملاحظة أنها نزلت فى آيات خاصة اقترحها عليه قوم بأعيانهم، لا تدل على أن الله لا يرسل أى آية من غيرها.

ينكر ذلك المؤول المعجزات فأخذ يتقصى الآيات الواردة فى شأنها، وينحو بها نحواً يخرجها عن أن يكون فيما تدل عليه خارق للعادة، ولا يندى جبينه حياء أن يتعسف فى التأويل، فيأتى به بعيداً من مواقع حسن البيان خارجًا عن المعقول من دلالة الألفاظ.

فانظر ماذا صنع فى قوله تعالى: ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ** ﴾ [الأعراف: ١١٧] فقد ذهب بالعصا إلى معنى الحجة، وقال: «يصور لنا كيف كشفت حجته تزييف حجتهم حتى سلموا له وآمنوا به». وقال فى قوله تعالى: ﴿ **وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ** ﴾. وقوله تعالى: ﴿ **اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ** ﴾ [القصص: ٣٢] «تفهم من تمثيل هذه الرواية أن الله أعد موسى وهيأه للدعوة وأراه كيف يتغلب على خصمه بالبرهان والحجة» وقال عند قوله تعالى: ﴿ **فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ** ﴾ [الشعراء: ٣٢، ٣٣] «انظر كيف يكون التمثيل فى قوة الحجة والبرهان».

وقد اتبع المؤول فى هذا مهذار البهائية المسمى أبا الفضل فقد ذكر فى ص ٥١ من كتابه المسمى «الدرر البهية» أن أهل الفضل - فيما يزعم - فسروا العصا بأمر الله وحكمه، وقال: إن موسى - عليه السلام - بهذه العصا غلب على فرعون وجنوده، ومحا حبائل عتوه وجحوده، وذكر فى صفحة ٥٣ من ذلك الكتاب أن اليد البيضاء عبر بها عن الرسالة.

فى القرآن مجاز واستعارة وكناية ولكنه يسلك هذه الطرق على الوجه الذى يأتيه البلغاء من العرب، وشأن البلغاء أن لا يخرجوا عن الحقيقة إلى أحد هذه الطرق إلا أن يكون سهل المأخذ، واضح المقصد، أما ما يبدو على وجهه تكلف أو يكون فى دلالته التواء فمعدود فى معيب الكلام، وداخل فيما يذهب بمزية

الفصاحة، وتأويل الآيات على ما قاله المؤول وسلفه البهائى يجعلها من قبيل المجاز الذى ينبو عنه الذوق لتعسفه، ويبعد منه الفهم لخلوه من القرينة المشيرة إلى أنه مستعمل فى غير ما وضع له، فالمؤول ومعلمه البهائي لم يقدروا الله حق قدره إذ صرفوا كلامه عما يدل على سعة قدرته، وخرجوا به عن حدود البلاغة وهو مثلها الأعلى، والمختص بذروتها القصوى.

وانظر ماذا صنع فى قوله تعالى: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ [آل عمران: ٤٩] فقد حرف قوله «أخلق لكم من الطين» عن حقيقته، وقال: يفيدك التمثيل لإخراج الناس من ثقل الجهل وظلماته إلى خفة العلم ونوره، وتردد هنا فى معنى إبراء الأبرص فقال: فهل عيسى يبرئ هذا بمعنى أنه يكمل التكوين الجسمانى بالأعمال الطبية، أم بمعنى أنه يكمل التكوين الروحى بالهداية الدينية؟!، ويدلك على أنه يذهب فى تأويل الآية إلى غير مذهب المسلمين قوله عند قوله تعالى: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ [القصص: ٣٢]: واعلم أن قصة موسى فى العصا واليد كقصة عيسى فى إحياء الموتى وشفاء المريض، كلاهما يتشابه فى معناه على الناس.

وقد مشى فى هذا خلف ذلك البابى المسمى أبا الفضل إذ تصدى فى كتابه المسمى «الدرر البهية» لبيان معنى هذه المعجزة فقال فى صفحة ٥٣ يتحدث عن حال بنى إسرائيل: «حتى انتهت دورتهم وانقضت مدتهم وماتت قلوبهم وبرصت بالذل جباههم وجنوبهم، فرجعوا من أسر الفراعنة إلى أسر القياصرة، وعن عبادة المصريين إلى عبادة الرومانيين. حينئذ طلعت شمس الحقيقة عن أفق بلاد الجليل وارتفعت نغمات الإنجيل فأحيا الله تعالى بأنفاس عيسى - عليه السلام - بعضاً من تلك النفوس الميتة وبرأ بيده المباركة جملة من الجباة المبروصة».

زخرف من القول، وتحت هذا الزخرف جحود لمعجزات الرسل عليهم السلام وصرف لآيات الله عن معانيها المفرغة فى لفظها العربى المبين، والتى عرفها المسلمون منذ نزل بها الروح الأمين متضافرين عليها جيلاً بعد جيل.

يقول الله تعالى: ﴿ **أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ [آل عمران: ٤٩] والمعنى الذى يعقل من الآية أنى أصور لكم من الطين شيئًا على هيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرًا حيًا بأمر الله، وأبرئ الأعمى والذى به وضح، وأعيد الحياة إلى جسم من فقد الحياة، أفعل كل ذلك بأمر الله.

وأما نحو إخراج الناس من ثقل الجهل إلى خفة العلم، وإبراء الجباه المصابة ببرص الذل، فلا يصح حمل الآية عليها، إذ القرآن برىء من أمثال هذه الاستعارات البالغة فى التكلف والتعقيد غاية تذهب عندها الفصاحة وحسن البيان.

وإذا قرأت فى بعض كتب التفسير ما يسمونه الإشارات؛ وجدت فى الحديث عن هذه الآيات ما يقارب أو يماثل كلام المؤول أوالبهائي، فاعلم أن أصحاب الإشارات غير من يسمونهم الباطنية. فالباطنية يصرفون الآية عن معناها المنقول أو المعقول إلى ما يوافق بغيتهم بدعوى أن هذا هو مراد الله دون ما سواه. وأما أصحاب الإشارات فإنهم كما قال أبو بكر بن العربى فى كتاب (القواصم والعواصم): «جاءوا بألفاظ الشريعة من بابها، وأقرها على نصابها، لكنهم زعموا أن وراءها معانى غامضة خفية وقعت الإشارة إليها من ظواهر هذه الألفاظ، فعبروا إليها بالفكر، واعتبروا منها فى سبيل الذكر».

فأصحاب الإشارات لا ينفون كما ينفى الباطنية وأذنابهم المعنى الذى يدل عليه اللفظ العربى من نحو الأحكام والقصص والمعجزات، وإنما يقولون إنهم يستفيدون من وراء تلك المعانى، وعلى طريق الاعتبار معانى فيها موعظة وذكرى وعلى ما بين مذهبهم ومذهب الباطنية من فرق واضح نرى فى أهل العلم من نازعهم فى إلصاق تلك المعانى بألفاظ القرآن، وقال: إن ما جاء فى صريح القرآن والسنة من مواعظ وحكم يغنى عن ارتكاب هذه الطرق البعيدة التى هى فى الأصل نزعة قوم شأنهم الصد عن هدى الله وتعطيل أحكام شريعته الغراء.

وأنكر ذلك المؤول أن يكون عيسى - عليه السلام - قد تكلم فى المهد فسام قوله تعالى: ﴿ **وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ** ﴾ سوء التأويل، فقال: «فى دور المهد وهو دور

الصبا علامة على الجرأة وقوة الاستعداد فى الصغر» يريد أنه يكلمهم فى سن اعتيد فيها الكلام.

جاء فى الجامع الصحيح للإمام البخارى ما يدل على أن عيسى - عليه السلام - تكلم قبل أوان الكلام، تجد هذا فى حديث: «لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة» وذكر فى أولهم عيسى - عليه السلام - وروى ابن جرير الطبرى بسنده إلى ابن عباس - رضى الله عنه - أنه قال فى تفسير المهد: «مضجع الصبى فى رضاعه» والمهد فى الأصل مصدر مهد أيا بسط ووطأ، وهو كما فى لسان العرب اسم لموضع الصبى الذى يهيأ له ويوطأ لينام فيه، فكان على المؤول إذ فسره بدور التمهيد للحياة أن يقيم على هذا شاهداً من كلام العرب، ويبدى الوجه الذى دعاه إلى الإعراض عن حديث رسول الله ﷺ، وإلا كان هذا التأويل علامة على جرأته واستعداده لأن يخوض فى آيات الله بغير علم وعلى غير أصل.

أنكر أن يكون عيسى - عليه السلام - قد تكلم فى المهد، وتأول آية ﴿**وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ**﴾ [آل عمران: ٤٦] على ما سمعت. ويمثل هذا التأويل تناول قوله تعالى: ﴿**فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا**﴾ [مريم: ٢٩] فقال: أى كان ذاك النهار ولداً صغيراً، فكيف يأمرنا وينهانا ونحن كبار القوم، فهذا ابن حرام.

ولما رأى أن ما قبل الآية وهو قوله تعالى: ﴿**فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ**﴾ [مريم: ٢٧] يدفعه عن هذا العبث، صرفه عن وجهه فقال: «تحمله على ما يحمل عليه المسافر ومنه تفهم أنه كان فى سياحة طويلة».

لم يكف المؤول أن يخرج فيما يكتب عن قوانين اللغة فطاش إلى أن يقول فى التاريخ ما لا يعرفه التاريخ، فمن أين اطلع على أن مريم - عليها السلام - كانت فى سياحة طويلة! كان على المؤول أن يثبت هذه السياحة الطويلة من التاريخ أو من القرآن ثم يقول: «ومنها تعلم أنها كانت تحمله على ما يحمل عليه المسافر» ولكنه قلب الكلام فأتى إلى قوله تعالى «تحمله» الذى هو ظاهر فى أنها تحمله بنفسها، وحرفه إلى معنى تحمله على مركوب، وأذن لك فى أن تأخذ منه أنها

كانت فى سياحة طويلة!.

ومقتضى إنكاره لمعجزات الرسل أن لا يسلم أن عيسى - عليه السلام - خلق من غير أب. وقد كتب عندما وصل إلى آيات هذه المعجزات بلسان يدل على إنكارها فى غير صراحة، فقال فى تأويل قوله تعالى: ﴿ **قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ** ﴾ [مريم: ٢٠] «استنكرت لما طرأ على فكرها أن الولد يأتيها من غير السبب المعروف». وقال فى قوله تعالى: ﴿ **فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ** ﴾ [مريم: ٢٣]: «اختصار فى التعبير لا يعوق دور الحمل الطبيعى»، وقال عند قوله تعالى: ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ** ﴾ [القصص: ٧] (فيه ملحوظة ظريفة هى أن موسى لم يذكر له أب ولكن قومه لم ينكروا أباه أو يقولوا فيه كما قالت النصارى فى المسيح ابن الله بناء على أن المسيح نسب إلى أمه ولم يذكر له أب)، فإذا نظرت إلى قوله: «لما طرأ على فكرها أن الولد يأتيها من غير السبب المعروف»، ثم إلى قوله فى حديثه عن موسى عليه السلام «بناء على أن المسيح نسب إلى أمه ولم يذكر له أب» إذا لاحظت هذا وهو صادر ممن ينكر المعجزات عرفت أنه لا يعترف كما لا يعترف اليهود بأن عيسى - عليه السلام - خلق من غير أب.

وحرف قوله تعالى: ﴿ **فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ** ﴾ [الشعراء: ٦٣] فقال: «اضرب بعصاك البحرك اطرقه واذهب إليه»، وقال: «هذا بيان لحالة البحر يصوره لك بأنه مناطق بينها طرق ناشفة يابسة».

قال هذا ولم يتحدث عن الفاء فى قوله تعالى «فانفلق» وظاهر تأويله أن يكون المعنى: فذهب إلى البحر فانفلق فيكون الانفلاق قد وقع عقب الذهاب إلى البحر، والمؤول يقول: يصور لك البحر بأنه مناطق بينها طرق ناشفة يابسة، ثم إن قوله تعالى: ﴿ **فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ** ﴾ [الشعراء: ٦٣] العظيم ظاهر فى تصوير حال البحر عند انفلاقه ليريك كيف ينجى رسله على طرق يفتحها من أجلهم، فتقف الأهوال حولهم، لا يمسكها أن تطغى عليها إلا قدرته التى يدخل تحت سلطانها كل ما يدخل فى حيز الإمكان.

ومما هو ظاهر في هذا المعني قوله تعالى: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٧-٧٩].. فالمعقول من هذه الآية أن الطريق الذى سلكه موسى - عليه السلام - إنما تنحى عنه الماء حال مروره به، وأن فرعون اقتفى أثره عندما رأى الطريق الذى يسير فيه موسى وقومه يبساً، ولما انحدر فرعون وقومه فى هذا الطريق عاد الماء إلى حاله وغشيهم من اليم ما غشيهم فكانوا من المغرقين، وأما قول المؤول: إن فرعون أضل الطريق اليبس الذى اهتدى إليه موسى، فمن الأشياء التى يفرضها ويحمل عليها الآيات إنكاراً للمعجزة.

وحرف قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ فقال: «بعرشها بملكها يريد أن يضع خطط الحرب ونظام الدخول فى البلد فطلب الخريطة التى فيها مملكة سبأ، ليهاجمها ويريها أنه جاد غير هازل».

يقول الله تعالى: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ ويقول هذا المؤول «يأتينى بخريطة مملكتها» وإذا كان طلب خريطة مملكتها لوضع خطط الحرب فما وجه عرض هذه الخريطة عليها بعد أن جاءت مسلمة؟ وما حكمة سؤالها عن مطابقة هذه الخريطة لحال مملكتها؟!

عبث يهذى به حول كتاب الله، فلا تقوى تحجمه عنه، ولا حكمة يفرق بها بين الجد والمزح فترفعه عن أن يقول ما يضحك الناس منه.

وحرف قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] فتأولها على وجه ينكر به أن يكون إبراهيم - عليه السلام - ألقى فى النار وخرج منها سالمًا فقال: «معناه نجاه من الوقوع فيها» وذكر أن نجاته كانت بالهجرة أى: من وطن قومه إلى ناحية فلسطين.

وظاهر الآية أنه ألقى فى النار وقد سلب الله منها حرارتها، فإن حمل على معنى إيجاد حائل بين النار وجسم إبراهيم فهو تأويل غير بعيد. أما صرف الآية إلى معنى عدم الوقوع فى النار فتأويل لا داعى إليه، ولا مسوغ له إلا ضيق الذهن عن تصور بشر يلقى فى النار ولا تحرقه النار، وإذا لم يقل القرآن ﴿فألقوه فَقُلْنَا يَا نَارُ كُونِي

بَرْدًا ﴾ فلسبك الآية فى إيجاز يلائم حد الإعجاز، فالجمة التى تدل على إلقائهم له فى النار بالوضع والمطابقة حذفت من النظم استغناء عنها بذكر ما يستلزمها ولا يتسقر معناه فى ذهن السامع إلا بتقديرها. وهو قوله تعالى: ﴿ **قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ** ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

وحرف قوله تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ** ﴾ فقال: «الإسراء يستعمل فى هجرة الأنبياء والمسجد الحرام الذى له حرمة، والأقصى الأبعد مسجد المدينة».

وقصد المؤول إنكار واقعة الإسراء فحمل الآية على هجرته - عليه الصلاة والسلام - من مكة إلى المدينة.

أجمع أهل العلم على أن أوائل هذه السورة نزل بمكة أى قبل الهجرة، ولو كان هذا المؤول ممن يفقه فائدة معرفة ما نزل بمكة وما نزل بالمدينة فى تفسير كتاب الله تعالى لما تجاسر على تفسير الآية بواقعة الهجرة، وقد روى واقعة الإسراء من مكة إلى بيت المقدس جمع عظيم من الصحابة رضى الله عنهم، منهم جابر بن عبدالله، وابن عباس، وأنس بن مالك، وأبو هريرة، ومالك بن صعصعة. وجاءت هذه الروايات فى الكتب الصحيحة مثل الجامع الصحيح للإمام البخارى والجامع الصحيح للإمام مسلم، فلو كان هذا المؤول ممن درس كتب السنة، وكان ممن يستضىء فى تفسير كتاب الله تعالى بسنة رسول الله ﷺ، لما رمى بنفسه فى حفرة لا يسمع صيحته فيها إلا فارغ الذهن من مبادئ الدين أو مزلزل العقيدة ما لقى ضليلاً إلا مال به عن السبيل.

○ دعوته إلى الفسوق عن أحكام الشريعة:

يريد المؤول أن يفتح لذوى الأهواء باب الخروج عن الدين وتعطيل أحكام الشريعة، فزعم أن المصلحة قد تكون فى غير ما أمر الله به فحرف قول الله تعالى: ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [النور: ٦٣] وقال: «يفيدك أن المخالفة المحذورة هى التى تكون للإعراض عن أمره، وأما التى

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تكون للرأى والمصلحة فلا مانع فيها بل هى من حكمة الشورى».

فالمؤول يجيز تقرير رأى مخالف لأمر رسول الله ﷺ الذى هو أمر من الله تعالى، ويرى فى هذا الرأى المخالف مصلحة تجعله أهلاً لأن يعمل عليه بدلاً من أمر الله. يقول الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ومصداق هذه الآية من يحكم بغير ما أنزل الله معتقداً أن المصلحة فيما حكم به، ويتناول من يفتى برأيه معتقداً أنه أحفظ للمصلحة مما أنزل الله. فمن يأذن للناس فى تقرير رأى مخالف لأمر الله فإنما يقوده إلى حفرة من النار. هى إنكار أن يكون الله تعالى أحكم الحاكمين.

فإن زعم المؤول أنه قصد ما كان يراجعه فيه بعض أصحابه - رضى الله عنهم - من نحو بعض الآراء الحربية، قلنا له إنك أطلقت فى تأويلك ولم تقصره على هذا النوع من أوامره - عليه الصلام والسلام - ثم إن مخالفة الأمر عدم العمل به وإبداء بعض الصحابة لآرائهم فى شيء من تدابير الحروب لا يسمى مخالفة للأمر، بل كانوا يعرضون عليه الرأى فتارة لا يراه صالحًا فيرده ولو عملوا على مقتضى رأيهم لحق عليهم وعيد الآية. وتارة يرى فيه المصلحة فيأمر بالعمل به، والعمل على هذا النحو من قبيل اتباع أمره فأين المخالفة.

○ إنكــاره للجـن:

يجيء هذا المؤول إلى الآيات التى ذكر فيها الجن، ويحمل الجن على غير المعنى الذى عرفه الصحابة ومن بعدهم من أئمة الدين وعامة المسلمين، واكتفى بأن أسوق ما قاله فى آية هى من أظهر ما يدل على أن الجن خلق غير الإنس، وهى قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ فإنه بعد أن أحال القارئ على آيات من سور متعددة قال: «بعد هذا تفهم أنه يطلق الجن والجنة على الزعماء المستكبرين من السادة المتبوعين، ويعبر عن الإنس بسائر الناس المقلدين والتابعين المستضعفين» ويفسر الجن فى بعض الآيات بقواد الجيش.

لم ينقل عن أحد من المسلمين على اختلاف فرقهم إنكار الجن، وإنما ينكرهم

شبكة الألوكة - قسم الكتب

طائفة من غير المسلمين، قال ابن حزم فى كتاب الفصل: «لما أخبرت الرسل الذين شهد الله - عز وجل - بصدقهم بما أبدى على أيديهم من المعجزات المحيلة للطبائع، بنص الله عز وجل على وجود الجن فى العالم، وجب ضرورة العلم بخلقهم ووجودهم» وقال: «وأجمع المسلمون على ذلك (وجود الجن) نعم والنصارى والمجوس والصابئون وأكثر اليهود حاشا السامرة فقط، فمن أنكر الجن أو تأول فيهم تأويلاً يخرجهم عن هذا الظاهر فهو كافر ومشرك».

وإنما ينكر الجن من جمد عقله فى دائرة من المحسوسات لا يتخطاها أنملة، ونحن نعلم أن العقل وحده لا يصل إلى العلم بوجودهم، كما أنه لا يستطيع إقامة الدليل على نفيهم، بل إذا سئل عنهم وهو صحيح النظر مجرد من كل تقليد أقر بإمكان وجودهم، إذ ليس من شرط كل موجود أن يدرك بإحدى الحواس الخمس، فقدرة الله تعالى تسع خلقًا ينشأ من عنصر لطيف، فلا يقع عليه النظر وإذا أقرت العقول إمكان شيء وأخبر الدين القائم على البرهان بوجوده، تلقينا خبره بالقبول، ولم نفرق بينه وبين ما أدركناه بالمشاهدة أو ثبت بالأدلة العقلية مباشرة.

○ إنكاره للشياطين:

ينكر المؤول الجن، وينكر أن يكون هناك مخلوق غير الإنسان يقال له شيطان تجد هذا الإنكار عندما يرد لفظ إبليس أو الشيطان فى آية، فيأبى أن يبقيه على المعنى المعروف فى الكتاب والسنة وإجماع المسلمين، فانظر إلى أصرح آية فى هذا المعنى وهى قوله تعالى: ﴿**فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ**﴾ [البقرة: ٣٤]، كيف تأول لفظ «إبليس» فيها فقال: «إبليس اسم لكل مستكبر على الحق، ويتبعه لفظ الشيطان والجان وهو النوع المستعصى على الإنسان تسخيره». وكذلك تأول قوله تعالى: ﴿**فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ**﴾ [ص: ٣٦، ٣٧]، فقال: «والشياطين يطلقون على الصناع الماهرين والأشقياء المجرمين» ولما وجد قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ**﴾ [الأعراف: ٢٧] نصًا فى أن الشيطان مخلوق يصل أثر فتنته إلى نفس الإنسان دون

أن يأخذه بأحد حواسه، ذهب في تأويله الآية مذهب من يتظاهر بتفسير القرآن وهو يدس في تفسيره جحوداً فقال: «من حيث لا ترونهم فيها شياطين فيخدعونكم بأنهم من الأولياء الناصحين».

وإذا حمل بعض المفسرين لفظ الشياطين في بعض الآيات على أشرار من الإنس كما قالت طائفة في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ المراد شياطين الإنس، فما كان هؤلاء لينكروا ذلك الصنف من الجن المخلوق من نار السموم، إنما هو تأويل بدا لهم أن اللفظ يحتمله قريباً أو بعيداً، ولا يستطيعون أن يذهبوا إلى مثل هذا التأويل في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٠] فمن حمل مثل هذه الآية على فريق من الإنس فهو ممن لا يؤمن إلا بما يلمس أو يرى، ولم يجعل الله للعقول المتحجرة على تفسير كتابه سبيلا.

○ تأويله للملائكة:

يتخبط المؤول عندما تجيئه آية فيها اسم الملائكة، فمرة يفسره برسل النظام والسنن في الكون. كما قال عند قوله تعالى: ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ﴾ [البقرة: ٢٤٨]: «إشارة إلى أنه يأتيهم بسنن الله ونظامه أي: بتغلبهم على العدو وبقوة الحرب ونظامه، والملائكة - كما قلنا في ص٢٤- رسل النظام والسنن في الكون» وقال عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤]: «الملائكة رسل النظام وعالم السنن، وسجودهم للإنسان معناه أن الكون مسخر له» ومرة يجعل الآية التي ذكر فيها الملائكة من قبيل التمثيل كما قال في قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾ [فاطر: ١]: «يمثل لك السرعة في إجراء سننه في الكون وتنفيذ أوامره في العالم» وفسر جبريل وميكائيل في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: ٩٨] بأنهما قسمان من الملائكة. وقال: «الأول رسول الوحي والإلهام، والثاني رسول السنن والنظام» وقال

عند تأويل الملائكة من قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ ﴾ [البقرة :١٧٧] : « وهذا تابع للإيمان بالله، فمن يؤمن بالله يؤمن بخلقه ونظامه، والملائكة رسل هذا الخلق والنظام » فتحريفه الآية بادعاء التمثيل مرة، وذكره لسنن الكون ونظمه مرة أخرى، وجعله جبريل وميكائيل قسمين من الملائكة دون الاعتراف بأنهما فردان منهم، يدل على أنه يريد من الملائكة معنى غير المعنى المعروف فى صريح الكتاب والسنة، ونصوص الشريعة فى دلالتها على وجود الجن والملائكة متساوية، وهما من جهة إمكان وجودهما فى منزلة واحدة.

○ إنكاره لأحكام معلومة من الدين بالضرورة :

أطلق المؤول قلمه فى الإنكار حتى ألحد فى آيات الحدود والأحكام المعلومة من الدين بالضرورة، فانظر إلى ما صنع فى قوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة : ٣٨] إذ قال : « يعطى معنى التعود أى أن السرقة صفة من صفاتهم الملازمة لهم، ويظهر لك من هذا المعنى أن من يسرق مرة أو مرتين ولا يستمر فى السرقة، ولم يتعود اللصوصية لا يعاقب بقطع اليد ».

وكذلك حرف قوله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ فقال : « يطلق هذا الوصف على المرأة والرجل إذا كانا معروفين بالزنا، وكان من عادتهما وخلقهما فهما بذلك يستحقان الجلد » وهذا الذى قاله فى اسم الفاعل من أنه يدل على التكرار والتعود من بهتانه الذى لا يقف عند حد؟ فاسم الفاعل نحو السارق أو الزانى إنما يدل على ذات قامت بها السرقة أو الزنا، ولا دلالة له على تجدد قيام الوصف بالذات، ولا على تعودها عليه، هذا ما يقوله علماء العربية فى القديم والحديث. قال ابن مالك فى كتاب التسهيل معرفًا اسم الفاعل : « اسم الفاعل هو الصفة الدالة على فاعل، جارية فى التذكير والتأنيث على المضارع من أفعالها، لمعناه أو معنى الماضى ».

فقوله : لمعناه أو معنى الماضى تنبيه على أنه لا يدل على أزيد مما يدل عليه الفعل، وهذا وجه الفرق بينه وبين صيغ المبالغة كفعال ومفعال وفعول، فإن هذه

الصيغ تدل على معنى زائد على حدوث الصفة لمن قامت به، وهو قوتها فيه أو كثرة صدورها منه .

والكوفيون يمنعون عمل صيغ المبالغة فى نحو المفعول، ويعللون هذا المنع بعدم مجاراتها للفعل المضارع فى وزنه، وبمخالفتها له فى معناه لأنها تزيد عليه بالمبالغة، ومقتضى هذا أن اسم الفاعل عمل فى نحو المفعول لأنه لا يخالف المضارع فى معناه . فعلماء العربية من كوفيين وبصريين مجمعون على أن اسم الفاعل لا يدل على أكثر مما يدل عليه الفعل، وإذا كان علماء العربية الذين قضوا أعمارهم الطويلة فى تقصى اللغة، والتفقه فى كلام العرب قد تضافروا على أن اسم الفاعل لا يدل على مقدار من الوصف أكثر مما يدل عليه أصل المضارع والماضى، أفيستطيع المؤول أن ينقض بناءهم بكلمة لا تمت إلى البحث بسبب، وإنما هى وليدة الهوى والانهماك فى مخالفة أهل العلم .

وعمد إلى الآيات الصريحة فى ملك اليمن، وحرفها بالتأويل تحريفًا لا يختلف عن صريح الإنكار إلا أن عليه مسحة من النفاق، فانظر كيف حرف قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [النساء : ٢٥] وحمل الفتيات على الخادمات فقال : « فيه عناية بالخادمات وتسهيل لمن يريدون الزواج ولا يستطيعون النفقات على ذوات البيوتات » وقال عند قوله تعالى : ﴿ وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾ [النور : ٣٢] : « عبادكم وإمائكم : خادميكم وخادماتكم » وقد ارتكب فى الآيات الواردة فى هذا الشأن من التأويل ما لا يخطر على بال أصلب الباطنية جبهة، فانظر إليه ماذا يقول فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ [النور : ٣٣] يقول : « والذين يبتغون الكتاب : كتاب الله وما كتب من الزواج والنسل (فكاتبوهم) : عاونوهم على أداء الكتاب » .

ولو قلت له : إن الذين فسروا الآية بأن يكاتب الرجل رقيقه على مال حتى إذا

أدى له ما كتب عليه صار حراً، قد أقاموا الشاهد على هذا من كتب السنة واللغة، فهل لك شاهد على ما تأولت عليه الآية، وما قلت فى تأويلها من أن المكاتبة: المعاونة على أداء الكتاب، لما كان جوابه إلا أن هذا المعنى قد نفث فى صدره وهو لا يرجع فى تفسير كتاب الله إلى السنة ولا إلى قانون اللغة، ولا مرد لهذا الجواب إلا أن تتلو عليه قوله تعالى: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** ﴾ [النحل: ٤٤] وتقرأ عليه قوله تعالى: ﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ** ﴾ [الشعراء: ١٩٣ – ١٩٥].

ومن مقتضى إنكاره لأصل ملك اليمين إنكاره لأن يتمتع الرجل بما ملكت يمينه من الإماء. وكذلك تجده يحرف الآيات الواردة فى هذا الشأن كما قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ** ﴾، فقال المؤول: «أو ما ملكت أيمانهم من الخدم، فإن لهم ما ليس لغيرهم فقد يكون فى الإنسان فروج أى: نقائص وعيوب يسيئه أن يراها الناس فيه ولكن لا يسيئه أن يراها خدمه».

إذا كان فى بعض تأويله ما ينادى بانحرافه عن الهدى إلى مكان بعيد، ففى بعضه ما ينادى بأن الرجل ليس له فكر يتحامى به فضيحة العبث، ويحبسه عن أن يقول ما يضحك منه المحزون، فالمؤول يصرف الآية عن أن تكون للحث على الطهر والعفاف إلى الأمر بستر العيوب والنقائص عن الناس إلا عن الأزواج والخدم، ولم يكتف بهذا التأويل السخيف فقال عقبه: «ومن البلاغة فى التعبير أن لفظ «أو» أفاد التنويع بين ما يباح للأزواج وما يباح لملك اليمين، إذ يوجد من العيوب ما لا ينبغى كشفه على الخدم» ولا ندرى كيف يفهم من «أو» العاطفة لما ملكت أيمانهم على قوله «أزواجهم» التنويع بين ما يباح للأزواج وما يباح لملك اليمين، وهذا الذى يباح للصنفين فيما زعم لم يذكر فى نظم الآية؟

والإسلام جاء فوجد عادة الرق جارية بين المتحاربين فهذبها وترك الأخذ بها لاجتهاد الإمام، ولكنه أوصى بالإحسان إلى الرقيق والرفق به، وندب إلى تحرير

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الرقاب، وجعله كفارة لبعض ما يرتكبه الإنسان من عمل سيّئ كالظهار، والفطر فى رمضان، والحنث فى اليمين، وقتل النفس خطأ، وجعل فى يد الحاكم عتق الأرقاء الذين يلحقهم ممن هم تحت أيديهم ضرر فادح، وتفويض أمر الاسترقاق إلى الإمام يجعل له الحق فى العدول عنه كما هو مفصل فى كتب الأحكام.

وأنكر إباحة تعدد الزوجات الذى جرى عليه السلف من الصحابة فمن بعدهم، وجعل آية: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء: ٣] خاصة باليتامى فقال: «(من النساء) نساء اليتامى الذين فيهم الكلام، لأن الزواج منهن يمنع الحرج فى أموالهن» ثم قال: «ولتعلم أن التعدد لم يشرع إلا فى هذه الآية بذلك الشرط السابق يعنى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ [النساء: ٣] واللاحق، يعنى «فإن خفتم ألا تعدلوا».

ومن البين تجافى هذا المعنى الذى ذكره المؤول عن نظم الآية، ومن أظهر الوجوه التى يستقيم معها النظم، ولا تمس إجماع المسلمين من الصحابة فمن بعدهم بشىء أن يكون المعنى: وإن خفتم أن تهضموا شيئًا من حقوق اليتامى لضعفهن وتحرجتم منها فدعوا التزوج بهن، وأنكحوا ما طاب لكم من نساء غيرهن مثنى وثلاث ورباع.

○ زعمه أن المسلمين يروون الأحاديث النبوية عن اليهود:

لا يبالى المؤول أن يتكلم فى غير أمانة، ويقول ما لا يطابق الواقع، ومن أمثلة هذا أنه تعرض عند تأويل قوله تعالى: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨] لما ورد فى سحر بعض اليهود للنبى ﷺ وقال: «ومن الغريب مع هذا الدليل المبين أن المسلمين ينقلون فى كتبهم أن النبى سحر بناء على حديث رواه اليهود كما ينقل النصارى أن المسيح صلب بناء على رواية اليهود أيضًا».

من يقرأ هذه الجملة يفهم منها أن حديث سحر النبى ﷺ تلقاه المسلمون عن اليهود، والحقيقة أن الحديث مروى بأسانيد عن النبى ﷺ نفسه، وفى هذا الحديث أن علم بهذا السحر من طريق الوحى، ومن رواته من الصحابة – رضى الله عنهم – عائشة وابن عباس وزيد بن أرقم، ثم رواه عن هؤلاء جماعة من الثقات حتى بلغ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الأئمة : البخارى ومسلما والنسائى والبيهقى وغيرهم، ولا صلة لحديث السحر بيهودى سوى أن النبى ﷺ أوحى إليه بما فعل اليهودى لبيد بن الأعصم من السحر.

وأنكر بعض الناس فى هذا الحديث فى القديم وأخذهم الريب فيه من ناحيتين :

إحداهما : قوله تعالى : ﴿ **إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا** ﴾ [الفرقان : ٨] فهذا مما قصه الله تعالى عن كفار قريش من سياق الإنكار عليهم، ومقتضاه نفى أن يكون قد سحر، والقرآن مقدم على الحديث .

وثانيتهما : أن تأثره بالسحر عليه الصلاة والسلام يقدح فى الثقة بما يبلغه عن الله تعالى من أمر ونهى .

والذين لا يسارعون إلى تكذيب الأحاديث المروية بأسانيد صحيحة ما وجدوا لدفع ما يرد عليها من الشبه طريقًا يقولون : إن قريشًا أرادوا من قولهم « مسحورا » معنى اختلال العقل فيكون مرادفًا لقولهم « مجنون » أو أرادوا أنه مسحور سحراً من أثره هذا الدين الذى يدعو إليه، وهذا موضع الإنكار عليهم بإجماع، ويقولون : إن السحر إنما تسلط على جسده وجوارحه الظاهرة ولم يمس شيئًا من عقله وقلبه، ويدل لهذا حديث ابن عباس - رضى الله عنه - فى رواية ابن سعد : « مرض النبى ﷺ وأخذ عن النساء والطعام والشراب » .

وليس من غرضنا الآن البحث عن حقيقة السحر، ولا بسط القول فى حديث سحره عليه الصلاة والسلام، وإنما أردنا أن نريك كيف يحاول المؤول أن يقذف المسلمين بتهمة تلقى أحوال النبى ﷺ عن اليهود وانظر إلى قوله : « إن المسلمين ينقلون فى كتبهم » فإنها كلمة لا أحسبها صدرت منه إلا فى حال نسيانه أنه استعار ثوب الإسلام ليتمكن من سحر أبناء المسلمين وصدهم عن السبيل .

هذا أمثلة من كتاب حشوه الجحود والهذيان، نسوقها فى هذه الرسالة ليزداد المسلمون علمًا بأن مؤلفه مهزول الفكر، منحرف عن الرشد ﴿ **وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ** ﴾ [الأعراف : ١٤٦] .

الباب الخامس

آداب وأخلاق واجتماعيات ودراسات وفضائل ومُثل ومأمورات ومنهيات

www.alukah.net
شبكة الألوكة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

١

الصّداقـة

عاطفة سامية القدرة غزيرة الفائدة، تلك هى الصداقة، والشارع رغب فى أن تكون المعاملة بين المسلمين، معاملة الصديق للصديق، ألا ترونه كيف أمر المسلم بأن يحب لأخيه المسلم ما يحبه لنفسه، بل استحب للمسلم أن يؤثر أخاه المسلم وإن كان به حاجة، وذلك أقصى ما يفعله الصديق مع صديقه.

○ ما هـى الصداقـة؟:

المحبة إما أن تكون للمنفعة، وإما أن تكون للذة، وإما أن تكون للفضيلة، وقد يطلق على كل واحد من هذه الأقسام الثلاثة اسم الصداقة.

صداقة المنفعة: هى أن يحب الإنسان شخصًا لما يناله منه من منافع، وشأن هذه الصداقة أن تبقى معقودة بين الشخصين مادامت المنافع جارية، فإن انقطعت المنافع، انقطعت هذه الصداقة.

صداقـة اللذة: هى المحبة التى تثيرها الشهوة، وقد تشتد فتسمى عشقًا، وشأن هذه الصداقة أيضًا أن تنقطع عندما تنصرف النفس عن اللذة التى بعثتها.

صداقة الفضيلة: هى المحبة التى يكون باعثها اعتقاد كل من الشخصين أن صاحبه على جانب من كمال النفس، وهذه هى الصداقة التى يهمنا الحديث عنها فى هذا المقام.

الصداقة فضيلة: ليست صداقة المنفعة ولا صداقة اللذة بمعدودة فى خصال الشرف، وإنما الذى يصح أن يعد خصلة شريفة هو الصداقة التى يبعثها فى نفسك مجرد اعتقاد أن صاحبك يتحلى بخلق كريم، وهذه الصداقة تشبه سائر الفضائل فى رسوخها فى النفس، وإيتائها ثمرًا طيبًا فى كل حين، وهى التى توجد من الجبان

شجاعة، ومن البخيل سخاء، فالجبان قد تدفعه قوة الصداقة إلى أن يخوض في خطر ليحمى صديقه من نكبة، والبخيل قد تدفعه قوة الصداقة إلى أن يبذل جانبًا من ماله لإنقاذ صديقه من شدة.. فالصداقة المتينة لا تحل فى نفس إلا هذبت أخلاقها الذميمة، فالمتكبر تنزل به الصداقة إلى أن يتواضع لأصدقائه، وسريع الغضب تضع الصداقة فى نفسه شيئًا من كظم الغيظ، ويجلس لأصدقائه فى حلم وأناة، وربما اعتاد التواضع والحلم فيصير بعد متواضعًا حليمًا، والفضل فى خروجه من رذيلتى الكبر وطيش الغضب، عائد إلى الصداقة.

وإن شئت فقل: إن حب الشخص لك لفضيلتك علامة على كمال أصل خلقه، فإنك لا ترجو من شخص أن يحبك لفضيلتك إلا أن يكون صاحب فضيلة.

وليس يعرف لى فضلى ولا أدبى　　　إلا امرؤ كان ذا فضل وذا أدب

○ الداعى إلى اتخاذ الأصدقاء:

فى اتخاذ صديق حميم لذة روحية يدركها من يسر الله له أن انعقدت بينه وبين رجل من ذوى الأخلاق النبيلة، والآداب العالية، مودة، ولا منشأ لهذه اللذة الروحية إلا الشعور بما بينه وبين ذلك الرجل النبيل المهذب من صداقة.

وصديق الفضيلة هو الذى يجد فى لقاء صديقه ارتياحًا وابتهاجًا، ويعد الوقت الذى يقضيه فى الأنس به من أطيب الأوقات التى لا تسمح بها الأيام إلا قليلاً.

ثم إن الصداقة وإن قامت على أساس الفضيلة، ولم يكن للمنفعة أثر فى تكوين رابطتها، تستدعى بطبيعتها جلب المنفعة أو دفع الضرر، فإنها تبعث الصديق على أن يدفع عن صديقه الأذى بما عنده من قوة وتهزه، لأن يسعده فى الشدائد بما أوتى من جاه أو سطوة.

ولمثل هذا أوصى بعض الحكماء باتخاذ الأصدقاء. فقال: «أعجز الناس من فرط فى طلب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم»، وقال الشاعر الحكيم:

لعمرك ما مال الفتى بذخيرة　　　ولكن إخوان الثقات الذخائر

○ الاستكثار من الأصدقاء:

متى حظى الإنسان بأصدقاء كثيرين، فقد ساقت له الأقدار خيراً كثيراً، ففى الصداقة ابتهاج القلب عند لقاء الصديق، وفيها لذة روحية ولو فى حال غيبة الصديق، وفيها عون على تخفيف مصائب الحياة، وكذلك أوصى بعض الحكماء ابنه فقال: « يا بنى إذا دخلت المصر، فاستكثر من الصديق، أما العدو فلا يهمنك »، **وقال بعض الأدباء:**

ولن تنفك تحسد أو تعادى ... فأكثر ما استطعت من الصديق

ومبنى هذه النصحية على أن شأن حساد الرجل وأعدائه، تدبير الوسائل للكيد له، وطرق كل باب يحتمل أن يكون من ورائه ما يشفى صدورهم، فإذا ساعده القدر على أن يكثر من الأصدقاء، فقد أكثر من الألسنة التى تدحض ما يرمى به من المزاعم، والأيدى التى تساعده على السلامة من الأذى.

○ علامة الصداقة الفاضلة:

ليس من علامة الصداقة الفاضلة أن يقوم لك الرجل مبتدراً، أو يلاقيك باسماً، أو يثنى عليك فى وجهك مسهباً ومكرراً، فذلك شيء يفعله كثير من الناس مع من يحملون له أشد العداوة والبغضاء، وأصبح كثير منهم يعدونه من الكياسة، ويخادعون به من إذا أسمعوه مدحاً فكأنما سقوه خمراً، وربما استثقلوا من لم يسلك هذه الشعبة من النفاق ونسبوه إلى جفاء الطبع، وقلة التدرب على الآداب الجارية فى هذا العصر.

وقد ذكر الأدباء للصداقة الخالصة علامات منها أن يدفع عنك وأنت غائب عنه، قال العتابى:

وليس أخى من ودنى رأى عينه ... ولكن أخى من صدقته المغائب

ومنها أن تكون مودته فى حال استغنائك عنه واحتياجك إليه سواء، قال الأحنف بن قيس: « خير الإخوان من إن استغنيت عنه لم يزدك فى المودة، وإن

احتجت إليه لم ينقصك منها » ومنها أن ينهض لكشف الكربة عنك ما استطاع كشفها، لا يحمله على ذلك إلا الوفاء بعهد الصداقة، **قال بعضهم فى صديق له :**

وكنت إذا الشدائد أرهقتنى ... يقوم لها وأقعد أو أقوم

والألمعى يعرف الصداقة من نظرات العيون، ويحسها فى أساليب الخطاب ويلمحها من وراء أحرف الرسائل.

والنفس تدرك من عينى محدثها ... إن كان من حزبها أو من أعاديها

ومن المثل العالية للصداقة المتينة، صداقة الوزير الوليد بن عبدالرحمن بن غانم للوزير هاشم بن عبدالعزيز، نقرأ فى تاريخ الأندلس أن الوزير هاشما بعثه السلطان محمد بن عبدالرحمن الأموى على رأس جيش فوقع هذا الوزير أسيراً فى يد العدو، وجرى ذكره يوماً فى مجلس السلطان محمد بن عبدالرحمن، فاستقصره السلطان، ونسبه للطيش والعجلة والاستبداد بالرأى، فلم ينطق أحد من الحاضرين فى الاعتذار عنه بكلمة، ما عدا صديقه الوليد، فإنه قال : « أصلح الله تعالى الأمير، إنه لم يكن على هاشم التخير فى الأمور، ولا الخروج على المقدور، بل قد استعمل جهده واستفرغ نصحه، وقضى حق الإقدام ولم يكن ملاك النصر بيده، فخذله من وثق به، ونكل عنه من كان معه فلم يزحزح قدمه عن موطن حفاظه، حتى ملك مقبلاً غير مدبر، ملبياً غير فشل، فجوزى خيراً عن نفسه وسلطان فإنه لا طريق للملامة عليه، وليس عليه ما جنته الحرب الغشوم، وأيضاً فإنه ما قصد أن يجود بنفسه إلا رضا للأمير، واجتناباً لسخطه، فإذا كان ما اعتمد فيه الرضا جالب التقصير، فذلك معدود فى سوء الحظ ».

وقع هذا الاعتذار من السلطان موقع الإعجاب، وشكر للوليد وفاءه لهاشم، وترك تفنيد هاشم، وسعى فى تخليصه.

ووصل خبر هذا الاعتذار إلى هاشم، فكتب خطاب شكر للوليد، ومما يقول فى هذا الخطاب : « الصديق من صدقك فى الشدة لا فى الرخاء، والأخ من ذب عنك فى الغيب لا فى المشهد، والوفى من وفى لك إذا خانك زمان » **ومما جاء فى هذا**

الخطاب من الشعر :

أيا ذاكرى بالغيب فى محفل به   تصامت جمع عن جواب به نصرى
أتتنى والبيداء بينى وبينها   رقى كلمات خلصتنى من الأسر
لئن قرب الله اللقاء فإننى   سأجزيك ما لا ينقضى غابر الدهر

فكتب إليه الوليد جوابًا يقول فيه : « وصلنى شكرك على أن قلت ما علمت، ولم أخرج عن النصح للسلطان بما ذكرته من ذلك، والله تعالى شاهد على أنى أتيت ذلك فى مجالس غير المجلس المنقول إلى سيدى، إن خفيت عن المخلوق فما تخفى عن الخالق، ما أردت بها إلا أداء بعض ما أعتقده لك، وكم سهرت وأنا نائم، وقمت فى حقى وأنا قاعد، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا » .

○ الصداقة تقوم على التشابه :

لا تنعقد الصداقة الصافية بين شخصين إلا أن يكون بين روحيهما تقارب، وفى آدابهما تشابه، **قال عبيدالله بن عبدالله بن عتبة** :

وما يلبث الإخوان أن يتفرقوا   إذا لم يؤلف روح شكل إلى شكل

فإن وجدت صحبة بين بخيل وكريم، أو جبان وشجاع، أو غبى وذكى، أو مهتد ومبتدع، فاعلم أن الصحبة لم تبلغ أن تكون صداقة بالغة، **قال الطائى** :

عصابة جاورت آدابهم أدبى   فهم وإن فرقوا فى الأرض جيرانى
أرواحنا فى مكان واحد وغدت   أبداننا بشآم أو خراسان

○ البعد عن صداقة غير الفضلاء :

ينبغى للرجل أن يتخير لصداقته الفضلاء من الناس، فهؤلاء هم الذين تجد الصداقة فيهم قلوبًا طيبة، فتنبت نباتًا حسنًا وتأتى بثمر لذيذ .

قال عبيدالله بن عبدالله بن عتبة :

عـــزيز إخـــائى لا ينال مــــودتى   من القـــوم إلا مـــسلم كـــامل العـــقل

وقال آخر :

وبغـــضـــاء التـــقى أقل ضـــيـــراً   وأسلم من مــــودة ذى الفـــســــوق

وكثيراً ما يقاس الرجل بأصدقائه، فإن رآه الناس يصاحب الفساق والمبتدعين، سبق إلى ظنونهم أنه راض عن الابتداع ولا يتحرج من الفسوق. وقد صرح أحد الشعراء بأنه ترك مودة رجل من أجل أنه يصاحب الأراذل من الناس، فقال:

يزهدنى فى ودك ابن مـــســـاحق   مـــودتك الأرذال دون ذوى الفـــضـل

○ الاحتراس من الصديق :

قد يوصى بعض الأدباء بالاحتراس من الصديق. كما قال أحدهم:

أمـــا العـــداة فـــقـــد أروك ظنونهم   واقـــصـــد بـــســـوء ظنونك الإخـــوانا

وأتى على هذا المعنى آخر، وأبدى له وجهاً، هو الخوف من أن ينقلب الصديق إلى عدو، فيكون أدرى بوجه الضرر، فقال:

احـــــذر عــــــدوك مــــــرة   واحـــــذر صـــــديقك ألف مـــــرة

فـلـربمـا انـقـلـب الـصـــــديـق   فـكـان أعـلـم بـالمـضـــــــرة

والقول الفاصل فى هذا أن صديق المنفعة متى عرف الإنسان وجه صداقته، كان له أن يحترس منه، ويكون هذا موضع الأشعار التى تنصح بالاحتراس مع الأصدقاء، أما من انعقدت بينك وبينه صداقة الفضيلة، وكنت على يقين من أن هذا وجه صداقتكما فلا موضع للاحتراس منه.

فإن اجتهدت أيها الألمعى رأيك فى صداقة شخص، وبدا لك أنها صداقة فضيلة، ثم رأيت منه ما لم تكن تحتسب، فلا يحملك هذا الخطأ فى الاجتهاد

على الاحتراس من كل صداقة، فإن ما وقع إنما هو أمر نادر، والأمور النادرة لا تتخذ مقياسًا فى معاملة الأصدقاء، ولا تستدعى أكثر من أن تستعيذ بالله من شرها ثم تمضى مع أصدقائك الفضلاء فى وداعة خلق وسماحة نفس.

○ **هل الصداقة اختيارية؟:**

إذا كانت الصداقة الشريفة ترجع إلى محبة الشخص لفضيلته، كانت غير اختيارية، لأنها ترتبط بسبب هو الفضيلة، وقد أشار بعض الأدباء إلى أنه لا منة له فى الصداقة حتى يستحق عليها الحمد، فكتب إلى صديق له: «إن صادفت منك جوهر نفسى، فأنا غير محمود على الانقياد إليك بغير زمام، لأن النفس يتبع بعضها بعضًا».

والواقع أن الاختيار يرجع إلى فتح الصدر لها، وربط القلب عليها، والسير فى الأقوال والأفعال على مقتضى عاطفتها، فإذا حمدت الرجل على صداقته فإنما تحمده على أن أقرها فى صدره مغتبطًا بها، ثم جرى على ما تستدعيه من نحو المواصلة والمؤانسة.

○ **دعوى أن الصداقة الخالصة مفقودة:**

يزعم بعض الأدباء أن الصداقة الخالصة من كل شائبة مفقودة، ومن هؤلاء من ينفيها من الدنيا بإطلاق، **كما قال أبو الجوائز الحسن بن على:**

دع الناس طرًا واصرف الود عنهم ... إذا كنت فى أخلاقهم لا تسامح
ولا تبغ من دهر تظاهر رنقه (١) ... صفاء بنيه والطباع جوامح
وشيئان معدومان فى الأرض درهم ... حلال، وخل فى الحقيقة ناصح

وقال آخر:

زمان كل حب فيه خب ... وطعم الخل خل لو يذاق

---

(١) رنقه: كدره.

له سـوق بضـاعـتـه نفـاق   فنافق فـالنفـاق له نفـاق

ومنهم من يشكو أهل زمانه، ويخبر بأنه لم يجد من بينهم من يصطفيه للصداقة، **كما قال بعضهم:**

خبرت بنى الأيام طرًا فلم أجد   صديقًا صدوقًا مسعدًا فى النوائب

وأصفيتهم منى الوداد فقابلوا   صفاء ودادى بالنوى والشوائب

وما اخترت منهم صاحبًا وارتضيته   فأحمدته فى فعله والعواقب

وكما قال الطغرائى:

فلا صديق إليه مشتكى حزنى   ولا أنيس إليه منتهى جذلى

والحق أن صاحب الفضيلة لا يعدم الصديق الفاضل، وتحمل هذه الأشعار وأمثالها على أن أصحابها قد نظموها فى أحوال خاصة، كأن يروا من بعض من كانوا يعدونهم أصدقاء أمورًا يكرهونها، أو يروا منهم سكونًا حيث يجب عليهم أن يتحركوا لإسعادهم.

○ الصديق المخلص عزيز:

إن كان أصدقاء المنفعة كثيرًا، فإن الذى يحبك لفضلك، وتحبه لفضله حبًا يبقى ما بقيت الفضيلة، عزيز المنال، قال يونس: اثنان ما فى الأرض أقل منهما ولا يزدادان إلا قلة: درهم يوضع فى حق، وأخ يسكن إليه فى الله.

وهذا الصديق هو الذى حثك الشاعر على التمسك به فقال:

وإذا صفا لك من زمانك واحد   فاشدد عليه وعش بذاك الواحد

وكلما قضى الإنسان مرحلة من عمره فى الاعتبار والتجارب، ازداد علمًا بأن أصدقاء الفضيلة لا تسمح بهم الأيام إلا قليلاً.

وإذا بدا لك أن أصدقاءك فى وقت الشباب أكثر من أصدقائك وأنت شيخ، فإن

الشاب مقبل على الحياة فى شىء كبير من النشاط والارتياح، فيكون أسرع إلى اتخاذ الأصدقاء من الشيخ الذى ترك طول السنين فى عظامه فتوراً، وأبقت الحوادث فى صدره ضيقًا، وإن شئت فقل: إن الشباب لم يزل على الفطرة فيقيم صداقته على الظواهر، ولا يبالغ فى نقد الناس مبالغة الشيخ الذى يحمله طول التجارب على أن يتريث فى اختيار الأصدقاء.

ويضاف إلى هذا أن الشيخ لا يبلغ السن الذى يبلغه، حتى يأخذ الموت من أصدقائه فوجًا أو أفواجًا، وفقد الأصدقاء يترك فى نفس الرجل وحشة، وربما وقع فى ظنه، وجرى على لسانه استبعاد أن يجد بعد أولئك الأصدقاء من يماثلهم فى إخلاص المودة والوفاء بالعهد.

○ الإغماض عن عثرات الأصدقاء:

يرى الباحثون فى طبائع البشر أن ليس فيهم من يتخذ صديقًا، ويرجى منه أن يسير على ما يرضى صديقه فى كل حال، ودلتهم التجارب على أن الصديق وإن بلغت صداقته المنتهى، قد يظهر لك من أمره ما لا يلائم صلة الصداقة فلو أخذت تهجر من إخوانك كل من صدرت منه هفوة، لم تلبث أن تفقدهم جميعًا، ولا يبقى لك على ظهر الأرض صديق غير نفسك التي بين جنبيك.

عرف هذا المعنى الشاعر الذى يقول:

ولست بمستبق أخًا لا تلمه   على شعث أى الرجال المهذب؟

والذى يقول:

أغمض للصديق عن المساوى   مخافة أن أعيش بلا صديق

والذى يقول:

ومن يتتبع جاهداً كل عثرة   يجدها ولا يسلم له الدهر صاحب

وقد عبر عن هذا المعنى بشار بن برد إذ قال:

إذا كنت فى كل الأمور معاتبًا   صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه

فعش واحداً أوصل أخاك فإنه ... مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ... ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه؟

وإذا كان الصفح عن الزلات من أفضل خصال الحمد، فأحق الناس بأن تتغاضى عن هفواتهم رجال عرفت منهم المودة، ولم يقم لديك شاهد على أنهم صرفوا قلوبهم عنها.

○ **معاملة الأصدقاء بالمثل:**

يذهب بعض الناس إلى أن يسيروا مع الأصدقاء على مثل سيرتهم معهم، شبراً بشبر وذراعًا بذراع، وأشار إلى هذا المذهب أبو القاسم الحريرى فى مقاماته بمثل قوله: «بل نتوازن فى المقال وزن المثقال، ونتحاذى فى الفعال حذو النعال».

والقول الفصل فى هذا أن ما يصدر من الصديق إن كان من قبيل العثرة التى تقع فى حال غفلة، أو خطأ فى اجتهاد الرأى، فذلك موضع الصفح والتجاوز، ولا ينبغى أن يكون له فى نقض الصداقة أثر كثير أو قليل.

أما إن كان عن زهد فى الصحبة، وانصرافًا عن الصداقة، فلك أن تزهد فى صحبته، وتقطع النظر عن صداقته. وهذا موضع الاستشهاد بمثل قول الكميت:

وما أنا بالنكس الدنىء ولا الذى ... إذا صد عنى ذو المودة يقرب
ولكنه إن دام دمت وإن يكن ... له مذهب عنى فلى فيه مذهب
ألا إن خير الود ود تطوعت ... له النفس لا ود أتى وهو متعب

والفرق بين عثرة قد تصدر من ذى صداقة، وبين جفاء لا يكون إلا من زاهد فى الصداقة، يرجع فيه الرجل إلى الدلائل التى لا يبقى معها ريب، والتفريط من جانب الصديق ليس بالأمر الذى يستهان به، فلا ينبغى الإقدام عليه دون أن تقوم على قصده لقطع المودة بينة واضحة.

○ **عتاب الأصـدقاء :**

لا يخلو الرجل، وهو معرض للغفلة والضرورة والخطأ فى الرأى، أن يخل بشىء من واجبات الصداقة، فإن كنت على ثقة من صفاء مودة صديقك، أقمت له من نفسك عذراً، وسرت فى معاملته على أحسن ما تقتضيه الصداقة.

فإن حام فى قلبك شبهة أن يكون هذا الإخلال ناشئًا عن التهاون بحق الصداقة فهذا موضع العتاب، فالعتاب يستدعى جوابًا، فإن اشتمل الجواب على عذر أو اعتراف بالتقصير، فاقبل العذر، وقابل التقصير بصفاء خاطر وسماحة نفس، **وعلى هذا الوجه يحمل قول الشاعر :**

أعـــاتـب ذا المودة من صــــديق   إذا مـــا ســـامنى منه اغــتــراب

إذا ذهـب العــتـــاب فـــلا وداد   ويبــقى الود مـــا بقى العــتـــاب

ومما يدلك على أن صداقة صاحبك قد نبتت فى صدر سليم، أن يجد فى نفسه ما يدعوه إلى عتابك، حتى إذا لقيته بقلبك النقى وجبينك الطلق، ذهب كل ما فى نفسه، ولم يجد للعتاب داعيا. **قال أحد الأدباء :**

أزور مــحـــمـــداً وإذا التــقــينا   تكلمت الضــمـــائر فى الصــدور

فــــأرجع لم ألمه ولم يلمنى   وقد رضى الضمير عن الضمير

فإن أكثر صاحبك من الإجحاف بحق الصداقة، ولم تجد له فى هذا الإجحاف الكثير عذراً يزيل من نفسك الارتياب فى صدق مودته. **فذلك موضع قول الشاعر :**

أقلل عــتــاب من اســتـربت بوده   ليـــست تنال مـــودة بعــتـــاب

○ **كتم السر عن الأصدقاء :**

من المعروف أن الإنسان لا يكتم عن أصدقائه سراً يخشى من إفشائه ضرراً، وقد يجد الرجل فى نفسه شيئًا متى شعر بأن صديقه قد كتم عنه بعض ما يعلم من

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الشئون، وأشار إلى هذا بعضهم فقال:

والخل كالماء يبدى لى ضمائره ... مع الصفاء ويخفيها مع الكدر

ومن الأدباء من ذهب فى النصح بكتم السر الذى يخشى من إذاعته ضرر إلى حد أن نصح بكتمه حتى عن الأصدقاء، ووجه هذا الرأى إنما هو الخوف من أن يكون لصديقك صديق لا يكتم عنه حديثًا، وإذا انتقل السر إلى صديق لم يؤمن عليه أن يصبح خبرًا مذاعًا، **قال محمد بن عبشون:**

إذا ما كتمت السر عمن أوده ... توهم أن الود غير حقيقى

ولم أخف عنه السر من ظنة به ... ولكننى أخشى صديق صديقى

والقول الفصل فى هذا أن الأمر يرجع إلى قوة ثقتك بصديق الفضيلة، وذكائه وفهمه قصدك لأن يكون هذا السر فى صدره، لا يتجاوزه إلى غيره، فإن كان صديقك على هذا المثال، فأطلعه على ما فى نفسك، فإنما أنت وهو روح واحدة، ولكنها فى بدنين فإن كان - مع صداقته الخالصة - لا تأمن أن يجرى على لسانه بعض ما أفضيت به إليه فذلك موضع قول الشاعر:

ولكننى أخشى صديق صديقى

ومن الأذكياء من يحرص على كتم سر صديقه، فلا يفضى به إلى صديق له آخر، ولاسيما صديقًا ليس بينه وبين الذى أودع عنده السر صلة صداقة، **قال مسكين الدارمى:**

أواخى رجالا لست مطلع بعضهم ... على سر بعض غير أنى جماعها

يظلون شتى فى البلاد وسرهم ... إلى صخرة أعيا الرجال انصداعها

○ أثر البعد فى الصداقة:

شأن الصداقة أن تنعقد بين شخصين يقيمان فى موطن، وتبقى حافظة المظاهر مادام الصديقان يتمتعان بأنس القرب والتزاور، فإن فرقت الأيام بين داريهما، وبدلتهما بالقرب بعدًا، وبالأنس شوقًا، بقيت الصداقة فى قوتها، وإنما يكون للبعد

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أثر فى مظاهرها، وذكر أرسطو أن الغيبة الطويلة من شأنها أن تنسى الصداقة، وساق على هذا المثل الذى يقول: «كثيراً ما أودى بالصداقة سكوت طويل».

ونحن نرى أن صداقة الفضيلة متى بلغت منتهاها لا تأخذ الغيبة الطويلة شيئًا أكثر من مظاهرها.

وربما انعقدت الصداقة بن شخصين لم يتجاورا ولم يلتقيا، وإنما عرف كل منهما فضل الآخر على بعد، ولم يكن بينهما اتصال إلا من طريق المراسلة:

[illegible] غير مسلك الصداقة الناشئة عن لقاء ومشاهدة.

○ الصداقة صلة بين الشعوب:

لا غنى للشعوب أن ترتبط بصلات تجعلها كأمة واحدة، تسير إلى غاية واحدة وهذه الرابطة تتحقق بالصداقات التى تستوثق بين علمائها وزعمائها الناصحين.

فالصداقة التى تنتظم بين طائفة من علماء الصين وطائفة من علماء المغرب الأقصى مثلاً، تجعل القطرين فى اتحاد أدبى، وللاتحاد الأدبى غايات سامية لا يستهان بها.

وإذا دلنا التاريخ أو المشاهدة على صداقة كانت بين علماء متباعدى الأقطار، ولم تعد على تلك الأقطار بفائدة، فإن هذا الزمن يدعونا إلى أن نعمل على تقوية روابط الصداقة بين علماء الشرق والغرب، ونوجه جانبًا من هذه الصداقات إلى خدمة المصالح العامة، والتعاون على أسباب السعادة المشتركة فى الحياة.

○○○○○

٢

الزنـــا

فى الزنا فساد كبير، وشر مستطير، يفتك بالفضيلة، يدنس الأعراض يعكر صفو الأمن، يفصم رابطة الوفاق، يبعث الأمراض القاتلة فى الأجسام وأى حياة لجماعة تضيع أخلاقها وتتسخ أعراضها ويختل أمنها، وتدب البغضاء فى نفوسها وتنهك العلل أجسامها!!

أما فتكه بالفضيلة فإنه يقتلع الحياء من منابته، فلا يبقى فى نفس صاحبه ذرة من الحياء، ويلبس وجهه رقعة من الصفاقة، ومن لم يستح هان عليه ارتكابِ ما لا يليق بالإنسانية أن ترتكبه.

ومن يرتكب فاحشة الزنا ينادى على نفسه بأنه محروم من أدب سام أرشد إليه النبى ﷺ بقوله: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**» ذلك أن كل إنسان يحب لمن تنتمى إليه من بنت أو أخت أو زوجة العفاف، ويجاهد فى صيانتهن إلى آخر نفس من حياته، ومن ثمرات إيمانك الصادق، وخلقك المهذب أن تحب لمحارم غيرك من العفاف والطهارة ما تحب لمحارمك.

ومما يغلب على الزانى أن تكون غيرته على محارمه ضعيفة جداً أو مفقودة، وشعور محارمه بتعاطيه هذه الفاحشة يسقط جانباً من مهابتهن له، ويسهل عليهن بذل أعراضهن إن لم يكن ثوب عفافهن منسوجاً من تربية دينية صادقة، وهذا بخلاف حال من ينكر موبقة الزنى فى ذاتها ويستهجنها إلى حد أن يتجنبها بنفسه ثم لا يرضاها لغيره، ولاسيما من ينتمون إليه بنسب أو صهر، فإن هذه السيرة تكسبه مهابة فى قلوبهن وتساعد على أن يكون بيته بيت طهر وصيانة، ومصداق هذه النظرية الأثر المشهور «عفو تعف نساؤكم».

ولا أرى الذين يذهبون إلى بيوت الزنى إلى نفراً يخونون أوطانهم بعد أن خانوا الفضيلة، وما بيت الدعارة إلا مأوى نفوس أشربت حب الشهوات الممقوتة،

واستغلظت فيها الأخلاق الدنيئة، والوطنية الصادقة أن تحرص على أن يكون وطنك طاهر الموارد، طيب السمعة، فإن رضيت عن تلك البيوت القذرة، وحاربت من يسعى لتطهير وطنك منها، فقد خنت الفضيلة وكنت فى دعوى إخلاصك للوطن مفتريًا أثيمًا.

وأما تدنيسه للأعراض، فإنه يذهب بكرامة الفتاة، ويكسوها عارًا لا يقف عندها بل يتعداها إلى أسرتها غير أن أنصباءهم من هذا العار على قدر قرابتهم منها، وكثيراً ما يدع الرجل الفاضل الاقتران بفتاة لا بأس عليها سوى أن الألسنة قذفت بعض من نبت فى منبتها.

وينبنى على ما يجره البغاء إلى أقارب المرأة من الخزى والمهانة أن تثور بينهم وبين الزانى وأسرته العداوة، فيهيجوا إلى الانتقام منه، وقد تبلغ الفتنة إلى القتل، وذلك مثل من إخلاله بالأمن وفصمه لرابطة الوفاق.

وأما ضرره العائد إلى الصحة فقد قرر كثير من الأطباء أن الزنى منشأ أمراض يعسر علاجها، وندع تفصيل هذا الضرر إلى طبيب ماهر فى صناعته صادق فى شهادته مخلص لدينه ووطنه.

ومن مفاسد البغاء أن أصحابه يلقون نطفهم فى حرام، فيتولد منها مخلوقات ربما اعتدى عليها بالقتل وهى أجنة أو قريبة عهد بالوضع، خشية الفضيحة، فتستتبع فاحشة الزنى جناية قتل النفس بغير حق، وإن سلم ولد الزنى من القتل، عاش محتقر الجانب مقطوع النسب، فلا يجد ما يجده أبناء النكاح من عطف أولى القربى، والسلامة من القذف بأقبح الألقاب.

ولما يحتوى عليه الزنى من المفاسد الكبيرة حذر الدين الحنيف من القرب منه، وسلك فى التحذير منه طرقًا حكيمة، فحرم أمورًا شأنها أن تكون ذريعة إليه، كالاختلاء بالأجنبية أو النظر إليها نظر شهوة، ووضع له عقوبة رادعة فى الدنيا، وتوعد فاعلها بعذاب الهون فى الأخرى.

فمن كان صادق الإيمان، فهذا الدين يحرم الزنى تحريمًا مغلظًا، ومن كان من عشاق الفضيلة، فالزنى فاحشة تتمثل فيها الرذيلة من رأسها إلى عقبها .

ومن كان حريصًا على إعلاء شأن قومه، فالزنى ينقلب بالأمم إلى وراء .

ومن كان يحزن لحرمان أمته من نعمة الصحة فالزنى يبعث فيها أمراضًا يتعذر على الأطباء علاجها .

ooooo

٣

المسكرات

يفضل الإنسان على سائر الحيوان بمزية العقل، وتفاضل الناس فى مراقى الكمال على قدر تفاوتهم فى هذه المزية، وكل شيء يضعف القوة العاقلة أو يعوقها عما خلقت له من تدبر الآيات واستكشاف الحقائق، فهو عدو للإنسانية تجب مدافعته بقدر المستطاع وتجنبه الليل والنهار.

فالنوم يعطل هذه القوة ويلحق الإنسان بالخشب المسندة، وهو أمر غالب ما له من مرد، ولكن أولى الحكمة لا يخضعون لسلطانه إلا حيث يغلب على أمرهم، ولا يعطونه من الوقت إلا أقل ما تفرضه عليهم البشرية، يبتغون بذلك أن تبقى عقولهم فى حركات تثمر علمًا نافعًا أو عملاً صالحًا.

إذا ما مضى يوم ولم أصطنع يداً ولم أكتسب علماً فما ذاك من عمرى

إذا كان من حزم الرجل وحكمته أن يغالب النوم ولا يأخذ منه إلا بمقدار الحاجة حرصًا على وقته، وتوفيراً لثمرات فكره، فإن الخمر يأتى إلى تلك القوة التى هى أكبر مزية للإنسان، فيعبث بها عبث الريح العاصفة بالغصون الناعمة، ولا تسأل عما ينشأ عن هذا العبث من فساد.

للفساد الذى ينشأ من تناول المسكرات ضروب متفرقة، وألوان مختلفة، لا يسع المقام تفصيلها، فأكتفى بوصف جانب منها، وفيه كفاية لمن يبغى حياة طيبة فى الدنيا، وسعادة وحياة خالصة فى الأخرى:

تذهب المسكرات بعقل من يتناولها، ولو أنه يبقى كالجماد لا ينطق ولا يتحرك لكان البلاء مقصوراً عليه، ولكن السفاهة تخلف التعقل والحماية تظهر فى مكان الكياسة فلا تسمع إلا أقوالاً لاغية أو منكرة، ولا ترى إلا حركات مزرية به أو مسيئة إلى من يقرب منه.

قيل لعدى بن حاتم: مالك لا تشرب الخمر؟

قال: معاذ الله أن أصبح حليم قومى وأمسى سفيههم؟

تجىء السفاهة فى القول من جهة أن الخمر تعطل القوة العاقلة، وتترك الخيال يلقى على الألسنة ما شاء، وشأن الخيال الذى لا يعمل تحت سلطان العقل أن يصور المعانى فى غير انتظام، ويمليها على اللسان كما صورها، فإذا هى أقوال تلبس صاحبها ثوب المهانة، أو تضعه موضع من يسخر به أو يثير عليه غضبًا.

دعا بعض الأمراء نصيب بن رباح إلى تناول الخمر، فقال نصيب: أصلح الله الأمير! الشعر مفلفل، واللون مرمد، ولم أقعد إليك بكرم عنصر، ولا بحسن منظر، وإنما هو عقلى ولسانى، فإن رأيت أن لا تفرق بينهما فافعل!

ويكفى متعاطى الخمور حقارة أن يضرب به المثل عندما يتكلم أحد بما يشبه الهذيان.

وتجىء السفاهة فى الحركات من جهة أن الخمر تعزل العقل إلى جانب وتبقى النفوس تحت تصرف الخيال، فتنبعث إرادتها عن غير تعقل، وتصدر أفعالها فى غير حكمة، ومن المعروف فى المسكر أنه يحسن القبيح ويقبح الحسن، **قال أحد الشعراء المبتلين به**:

اسقنى حتى ترانى ... حسنا عندى القبيح

فقولوا لمتعاطى المسكرات إذا طمع من الناس أن يلاقوه باحترام: إن من يعلم أن تلك حالات تخرج بها عن الإنسانية إلى حيوانية تصير بها هزأة، أو حيوانية تنفث سمعها فى غير عدو، لا تراك عينه إلا ازدرتك ولا خطرت على قلبه إلا احتقرك.

ومن مفاسد المسكرات أنها تندفع بالشهوات إلى الفسوق، وهل فى إمكانك أن تجد مولعًا بالخمور يحفظ فرجه عن موبقة الزنى، أو ما يشبه الزنى؟ سقى قوم أعرابية شرابًا مسكرًا، فقالت: أيشرب نساؤكم هذا الشراب؟ قالوا: نعم، قال: فما يدرى أحدكم من أبوه؟

وقد عرفت أن السكران يقول ما يثير غضب نديمه أو من يلقاه فى طريقه، وأنت تعلم ما وراء ثورة الغضب من سوء، وعرفت أن السكران قد ينقلب إلى حيوانية

متحفزة للشر، فلا يبالى أن يبسط يده للاعتداء على الأنفس فيصيب ضعيفًا أو يصيبه قوى، وكم من مشاجرات تعالت فيها أصوات وأصيبت فيها جسوم، وما هى إلا أثر من آثار تعاطى المسكرات.

ولا تزال المسكرات تنقص من عقل المولع بها شيئًا فشيئًا، حتى يقع فى خبال أو ما يقرب من الخبال، ودلت التجارب على أن متعاطى المسكرات يكون ضعيف الفكر، خفيف العقل، ولا يصل ولو بعد صحوة إلى ما يصل إلى أقرانه الأذكياء، من آراء سامية، ونتائج صادقة.

قيل لعثمان بن عفان - رضى الله عنه -: ما منعك أن تشرب الخمر فى الجاهلية ولا حرج عليك؟ قال: رأيتها تذهب بالعقل جملة، وما رأيت شيئًا يذهب جملة ويعود جملة.

ولا يليق بك أن تتخذ ممن يتعاطون المسكرات أصحابًا أو أعوانًا تفضى إليهم بشىء من أسرار عملك، فإن الأسرار المودعة فى النفوس، إنما تحرسها العقول، وعقول المولعين بالمسكرات تفارقهم فى كثير من الأحيان فلا تلبث تلك الأسرار أن تخرج من أفواههم وهم لا يشعرون.

وفى المسكرات فوق هذه المفاسد إنفاق المال فى غير فائدة، بل إنفاقه فيما يعود بخسران، وفيها صرف القلوب عن القيام بكثير من حقوق الخالق جل شأنه، ولا يجتمع الولوع باحتساء أم الخبائث، وتعظيم أمر الله فى نفس واحدة.

ooooo

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٤

الشَجَاعـــة

لا تحوز الأمة مكانة يهابها خصومها، وتقر بها عين حلفائها، إلا أن تكون عزيزة الجانب، صلبة القناة، وعزة الجانب وصلابة القناة لا ينزلان إلا حيث تكون قوة الجأش والاستهانة بملاقاة المكاره، وذلك ما نسميه شجاعة.

* **والشجاعة صنفان**:

أحدهما: الإقدام على مواقع القتال، والثبات على مكافحة الأبطال، وهى الشجاعة الحربية.

وثانيهما: الإقدام على قول الحق وإبداء النصحية ولو لذى جاه أو سلطان يكره أن يؤمر بمعروف أو ينهى عن منكر، وهذا ما نسميه شجاعة أدبية.

ولما كان الإسلام دينًا وسياسة وكان من مقاصده العالية إقامة دولة تسير بالناس على أمر الله، عنى بتربية النفوس على كلتا الشجاعتين فبالشجاعة الحربية تحمى الأوطان من مهاجمة الأعداء ويسود الأمن فى البلاد، وبالشجاعة الأدبية يكون الناس على بصيرة من الحق والباطل، والصواب والخطأ، فيقيمون الحق ويرجعون إلى الصواب.

ومن الآيات الواردة فى تربية الشجاعة الحربية قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَهِنُوا فِى ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴾.

ذكر المسلمين فى هذه الآية بأن ما عسى أن يلاقوه من آلام الحروب يلاقى خصومهم مثلها، فكأنه يقول لهم: لا ينبغى أن يكون خصومكم وهم أشياع الباطل، أصبر على الآلام، وأثبت فى مواقف الأخطار منكم وأنتم حماة الحق والدعاة إلى الخير، ولاسيما حماة ودعاة يرجون من نصر الله وجزيل مثوبته ما لا يرجوه أعداؤهم الغاوون المفسدون.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ربى الإسلام بهذه الآية خلق الشجاعة فى النفوس، فأخرج أمة لا تهاب الخطوب، وترى الموت فى سبيل إعلاء كلمة الحق أو الاحتفاظ بالكرامة خيراً من ألف حياة يقضيها صاحبها فى هون، أو فى مشاهدة الباطل يمشى فى الأرض مرحًا، وكان أولئك الذين رباهم الإسلام، وبث فيهم روح البطولة يتشوقون إلى الإقدام وينطقون فى هذا الشأن بحكمة بالغة.

انظروا إلى قول أبى بكر الصديق – رضى الله عنه – فى وصيته لخالد بن الوليد: «احرص على الموت توهب لك الحياة» يريد بهذا حثه على اقتحام مواقع القتال، والخوض فى غمراتها خوض من ينشد الموت، والحياة العزيزة والفزع من الموت لا يلتقيان بأرض حتى يلتقى البصر والعمى فى عين واحدة، ومما ينظر إلى معنى حكمة الصديق قول الحصين ابن الحمام:

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد ... لنفسى حياة مثل أن أتقدما

ولا يعد الاستخفاف بالموت شجاعة فى كل حال بل الشجاعة رباطة الجأش والثبات فى سبيل الدفاع عن حق أو كرامة، فالمنتحر لحرمانه من شهوة أو لوقوعه فى بلاء، لا يسمى شجاعًا بل هو جدير – كما قال أرسطو – بأن يسمى جبانًا، بل أقول: إن انتحاره نشأ من ناحية استعظام فوات تلك الشهوة أو حصول ذلك البلاء حتى تخيله أشد ألمًا من الموت. فالانتحار فى الحقيقة أثر فقد الرجل لفضيلة الصبر على الشدائد، وما ينشأ عن فقد فضيلة لا يصح أن يسمى باسم فضيلة أخرى.

ومازال الحكماء ينصحون الناس أن لا يقدموا على موقع خطر إلا أن تكون فائدة الإقدام أكبر من خسارته. قال أبو الطيب المتنبى:

الرأى قبل شجاعة الشجعان ... هو أول وهى المحل الثانى

وإذا هما اجتمعا لنفس حرة ... حازت من العلياء كل مكان

فى الشباب شجاعة، وفى الشيوخ تجارب، فإذا صدرت شجاعة شباب الأمة عن آراء شيوخها الحكماء، فلا جرم أن يكون لها الموقف الحميد والأثر المجيد.

يظهر أثر الشجاعة الأدبية فى إقامة شعائر الدين، وتقويم الأخلاق، وإصلاح السياسة، وانتظام المعاملات بين الناس.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فالشجاعة الأدبية هى التى تطلق لسان العالم الأمين بوعظ جاهل غليظ القلب، أو مترف متشعب الأهواء، أو صاحب سلطان لا يحب الناصحين، يعظه ليؤدى طاعة يثقل عليه أداؤها، أو ليتعلق بفضيلة كان منقطعًا عنها، أو ليستقيم فى سياسة انحرف عن رشدها، أو يعدل فى قضايا جار فى أحكامها، أو يحترم فى معاملته حقوقًا أجحف بها .

والشجاعة الأدبية تدعو الرجل إلى أن يؤدى الشهادة على نحو ما علم دون أن يهاب عند أدائها ذا جاه أو سطوة، ولولا الشجاعة الأدبية يضعها الله فى قلوب كثير من الشهداء، لحرم كثير من الضعفاء حقوقًا يستولى عليها الأقوياء ولا سبيل لخلاصها منهم غير القضاء العادل، قال تعالى: ﴿ **وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ** ﴾ .

ولا ينتظم العدل لقاض إلا أن تكون فيه شجاعة أدبية إذ هى التى تساعده على أن يقضى للضعيف على القوى، كما فعل كثير من القضاة فى قضايا كان المدعى فيها رجلاً من السوقة، والمدعى عليه أميرًا أو خليفة فحكموا للسوقى على ذلك الأمير أو الخليفة لا يخافون فى الحق لومة اللائمين أو عقوبة المستبدين . ومما حدثنا به التاريخ أن ابن بشير قاضى قرطبة نظر فى قضية رفعها بعض التجار على الخليفة عبدالرحمن الناصر، فقضى للتاجر على الخليفة، وذهب إلى الخليفة يخبره بالحكم ويهدده بالاستقالة من القضاء إن لم يقرن الحكم بالتنفيذ، قال الله تعالى: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ .

والشجاعة الأدبية تقف بالرجل فى حدود ما يعلم، فيصدر فتواه فى صراحة لا يقول غير ما يعلم، ولا يرتكب طريق المواربة، إرضاء لذى وجاهة أو سلطان . يحدثنا التاريخ أن المأمون فتن الناس بمسألة (خلق القرآن) وأن الإمام أحمد بن حنبل – رضى الله عنه – كان المثال الكامل للشجاعة الأدبية، فلم يجبن كما جبن غيره أمام السلطان، ولم يسلك كما سلك غيره طريق الإبهام فى الجواب، بل قال: إن القرآن كلام الله قديم، واحتمل فى سبيل ذلك السجن والضرب بالسياط .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وفى القديم وقف بعض رجال الدين فى بعض الفتاوى موقف الرهبة من السلطان، وجاروه على الباطل بعلة اتقاء عقابه فتجافاهم الناس، حتى زهد بعض طلاب العلم فى الأخذ عنه، كما ترك أبو زرعة وأحمد بن حنبل الرواية عن أحد كبار الشيوخ إذ أجاب فى فتنة خلق القرآن إلى ما دعى إليه من أن القرآن مخلوق، واعتذر عندما عاتبه أهل العلم على ذلك بأنه قال ما قال اتقاء عقوبة بدنية لا يحتملها.

وأكبر ما يقوى الشجاعة الأدبية فى النفوس تعظيم أمر الله تعالى وشدة الثقة بما وعد به أنصار الحق من العزة فى الدنيا والسعادة فى الأخرى، ومن قرأ التاريخ وقف على أسماء رجال كثيرين لم ينالوا رفعة فى حياتهم، وذكرا جميلا بعد مماتهم، إلا لأنهم كانوا يجهرون بكلمة الحق فى وجوه الوجهاء أو الرؤساء، لا يصدهم عن الجهر بها خوف من مكرهم، ولا طمع فيما بأيديهم.

ففى الدنيا لذة وخير، وفى الدنيا ألم وشر، وفى النفوس طبيعة الارتياح والرغبة فيما فيه لذة أو خير، وطبيعة النفور والخوف مما فيه ألم أو شر، وعلى حال الرغبة والرهبة تقوم فضيلة الشجاعة ورذيلة الجبن.

ذلك أن الإنسان يخاف أن يقع فى ألم، أو يرغب فى إدراك لذة فيبتغى الوسيلة إلى التخلص من الألم، أو الوصول إلى اللذة.

فالشجاع يخاف من العار الذى يلحقه من احتمال الضيم، أو يرغب فى أن يدرك مجداً شامخًا أو ثناء فاخراً، فيلقى بنفسه فى مواقع الدفاع، لا يلوى جبينه عن طعان أو نضال.

ويخاف الجبان الموت، أو يرغب فى نعيم عاجل أو زينة، فيقعد مع القواعد ولا يهمه أن تزدريه كل عين، أو يذمه كل لسان.

إذا ما الفتى لم يبغ إلا لباسه ومطعمه فالخير منه بعيد

وليس كل إقدام على الموت شجاعة، وإنما الشجاعة الإقدام فى المواطن التي ينبغى فيها الإقدام، كمواقف الدفاع عن النفس أو العرض أو الدين أو المستضعفين

من الناس، فليس بالشجاع ذلك الذى يحمل السلاح ويلبس ظلام الليل، ليسفك دمًا معصومًا أو ينهب مالاً بغير حق، وإنما هو سفه الرأى وقسوة القلب، يلتقيان فيلدان بغيًا وفسادًا فى الأرض. وعلماء الأخلاق يسمون مثل هذا الإقدام جراءة وتهورًا.

وليس بالشجاع ذلك الذى يفاجئه مكروه من نحو مرض أو خيبة أمل، فيسود فى عينه وجه الحياة، ويرتكب جريمة الانتحار، فإن إقدام المنتحر على الموت إنما هو أثر ضعف النفس وفقد العزم الذى يعده عظماء الرجال لما يعرض لهم من الشدائد، ومن هنا قال أرسطو فى كتاب الأخلاق: إن الإقدام على الانتحار خليق بأن يسمى جبنًا دون أن يسمى شجاعة.

وإذا كان الإقدام على الموت ونحوه، قد يسمى تهورًا وقد يسمى جبنًا فالشجاعة إنما هى الإقدام الصادر عن روية وحكمة.

ينظر حكيم الرأى إلى ما قد يلحقه فى مواطن الدفاع من نحو مصيبة الموت، ويزنه بما يلحقه عند الإحجام من نحو الذل والهوان، فيبدو له أن الإحجام لا يمنع من الموت.

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره ... تنوعت الأسباب والموت واحد

وإن العار والهوان يمكن اتقاؤهما بالإقدام والثبات، فيكون الإقدام فى نظره أرجح من الإحجام، قال قطرى بن الفجاءة:

وما للمرء خير فى حياة ... إذا ما عد من سقط المتاع

وقد يعتدى على الرجل طائفة من عشيرته أو قومه فينظر إلى اللذة التى قد يدركها بالانتقام منهم، ويقيسها بالضرر الذى يلحقه من هذا الانتقام فيبدو له أن لذة الانتقام عرض زائل، وأن فى الإقدام على حربهم توسيعًا لثلمة العداوة، وتقليلاً لعدد أنصاره، وإضاعة لخصلة من أعظم خصال الشرف وهى الحلم، فيؤثر هنا الإحجام على الإقدام..

قومى هم قتلوا أميم أخى ... فإذا رميت يصيبنى سهمى

وليس من شرط الشجاعة أن لا يجد الرجل فى نفسه الخوف من الهلاك جملة، بل يكفى فى شجاعة الرجل أن لا يعظم فى نفسه الخوف حتى يمنعه من الإقدام، أو يرجع به إلى انهزام. قال هشام بن عبدالملك لمسلمة: يا أبا سعيد: هل دخلك ذعر قط لحرب أو عدو؟ قال مسلمة: ما سلمت فى ذلك من ذعر ينبه على حيلة، ولم يغشنى فيها ذعر سلبنى رأيى. قال هشام: هذه هى البسالة!

وقد يتوهم متوهم أن الجبان يحب نفسه أكثر مما يحب الشجاع نفسه، والواقع أن الشجاع شديد الحب لنفسه، وشدة الحب لنفسه هى التى تحمله على أن يركب الأخطار، ويخوض غمرات الحروب ليكسبها الشرف أو السعادة، قال ابن الحسين:

وحب الجبان النفس أورثه التقى وحب الشجاع النفس أورثه الحربا

يحرص الجبان على الحياة ليتمتع بما يصل إليه من مطعوم أو زينة، ويحرص الشجاع على الحياة ليتمتع بما يكسب من شرف وعزة، وهذه الحياة هى التى توهب للشجاع عندما يخوض غمار الحرب بثبات وعزم، كما قال الصديق لخالد بن الوليد: «احرص على الموت، توهب لك الحياة»، وهذه الحياة هى التى وجدها الحصين بن الحمام فى الإقدام فقال:

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما

يتفاضل الناس فى الشجاعة، فمنهم من يقدم على مواقع الخطر، ويخوض عبابها ثبات الجنان حتى يفوز بالظفر أو يلاقى مصرعه، قال السرى الرفاء فى سيف الدولة:

وأغر يأنف أن يصد عن الوغى حتى يذل معاطسا وأنوفا

وقال المعتمد بن عباد:

ما سرت قط إلى القتال وكان من أملى الرجوع

وقال أبو تمام فى مدح محمد بن حميد:

فأثبت فى مستنقع الموت رجله وقال لها من تحت أخمصك الحشر

وهذا الصنف من الأبطال هم الذين يفخرون، أو يمدحون بأن الطعن لا يقع فى ظهورهم قط، وإذا طعنوا ففى وجوههم أو صدورهم، قال الحصين بن الحمام:

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

ومن أهل هذه الطبقة أولئك الذين يصفونهم فى مواقع الخطوب بطلاقة المحيا، أو ابتسام الثغر، أو ابتهاج القلب، قال ابن الحسين:

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

وقال ابن هانئ:

كأن لواء الشمس غرة جعفر رأى القرن فازدادت طلاقته ضعفا

وقد يحدثونك عن قوة شجاعة القوم، فيصفونهم بأنهم يلذون ذكر المنايا، ويطربون لأحاديث الحروب:

تثنى حديث الوغى أعطافهم طربا كأن ذكر المنايا بينهم غزل

ومن ثقة الرجل بشجاعته أن يقارع خصومه مجابهة، ويأنف أن يقارعهم على وجه المخاتلة، قال بعض مادحى سيف الدولة:

إذا حاول الأقران فى الروع ختله أبر عليهم مقدمًا لا مخاتلا

ويبالغ بعض الأبطال فى عدم المبالاة بالموت، فيدخل مواقع القتال دون أن يقى بدنه بنحو درع أو مغفر وهو قادر على وقايته، كما قال المعتمد بن عباد:

قد رمت يوم نزالهم أن لا تحصننى الدروع
وبرزت ليس سوى القميص على الحشا شيء دفوع

ويعدون من تناهى القوم فى الشجاعة أن يدعوهم إلى الحرب داع، فينهضوا لها من غير أن يسألوا داعيهم عن وجهة الحرب، ولا عن الباعث عليها، قال وداك بن نمير المازنى:

إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم لأية حرب أم بأى مكان

وتعد هذه الطاعة البالغة من قبيل الشجاعة المحمودة، متى كانت إجابة لداع عرفوه بصدق اللهجة وحكمة الرأى.

وليس من لباب الشجاعة، ولا من قشورها أن يسرع الرجل إلى مواقع الخطوب جاهلاً بما يلاقيه عندها من شدائد حتى إذا شاهد طرفا من أهوالها أو وقعت عليه شرارة من نارها، لاذ بالفرار، ورجع إلى أهله بغير قلب.

ومن ظن ممن يلاقى الحروب بأن لا يصاب فقد ظن عجزا

ولا ينقص من قدر الشجاع أن يقتل وهو يخوض فى غمار الحروب، قال أبو تمام فى رثاء محمد بن حميد:

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة تقوم مقام النصر إن فاته النصر

ولا ينقص من قدره أن يثبت فى موقف الدفاع حتى يقع فى أسر، وقع هاشم بن عبدالعزيز قائد جيش السلطان محمد بن عبدالرحمن الأندلسى أسيراً فى يد العدو، فاستقصره السلطان ونسبه إلى الطيش، فاعتذر عنه الوليد بن عبدالرحمن بن غانم، ومما قال فى الاعتذار عنه: إن هاشماً قد استعمل جهده واستفرغ نصحه، وقضى حق الإقدام حتى ملك مقبلا غير مدبر، مبليًا غير فشل، فجوزى خيراً عن نفسه وسلطانه!

والشأن فيمن يعيش فى نعيم وزينة أن يكون أشد الناس كراهة للحروب، فإذا أنبتت بيئات الترف فتى يزدرى النعيم والزينة، ويطمح بهمته إلى الشرف الصميم، كان فضله فى الشجاعة أظهر، وإقدامه أدعى إلى الإعجاب به، ولذلك ترى الأدباء إذا أرادوا أن يجعلوا إعجابك بشجاعة الممدوح أبلغ، أشاروا إلى أن النعمة والزينة لا تذهب برجوليته، ولا تقعد به عن حماية الشرف والكرامة، قال الحطيئة:

إذا هم بالأعداء لم يثن عزمه كعاب عليها لؤلؤ وشنوف
حصان لها فى البيت زى وبهجة ومشى كما تمشى القطاة قطوف

وقال كثير في عبدالملك بن مروان:

إذا ما أراد الغزو لم يثن عزمه ... حصان عليها نظم در يزينها
نهته فلما لم تر النهى عاقه ... بكت فبكى مما شجاها قطينها

قد يعرف الجبان فضل الشجاعة، ولكن الشجاع أعرف بقدرها، وأدرى بقيمة قرنه المطبوع عليها، وربما طاعته مضطر إلى طعانه والأسف يملأ ما بين جوانحه، قال بشر في القصيدة التي وصف فيه مقاتلته للأسد:

وقلت له يعز على أني ... قتلت مناسبي جلداً وقهرا
ولكن رمت أمراً لم يرمه ... سواك فلم أطق ياليث صبرا

ويعجبني تشطير هذه القصيدة:

وقلت له يعز على أني ... أراك معفرا شطرا فشطرا
وأستحيي المروءة أن تراني ... قتلت مناسبي جلدا وقهرا

وللشجاعة الفضل الأكبر في حماية شرف الفرد أو الجماعة، قال عمر بن براقة الهمداني:

متى تجمع القلب الذكي وصارما ... وأنفسا حميا تجتنبك المظالم

وقال حسان بن ثابت يصف قوماً حرموا فضيلة الشجاعة، فوقعوا في ذل وصغار:

كرهوا الموت فاستبيح حماهم ... وأقاموا فعل اللئيم الذليل

وكم من شرف قوم سقط إلى الثرى، وإنما سقط على أيدي أناس خالط قلوبهم الجبن، حتى خيل إليهم أن قعودهم عن الحرب حزم وروية، قال ابن الحسين:

يرى الجبناء أن الجبن حزم ... وتلك خديعة الطبع اللئيم

وللقرآن الكريم أبلغ الكلم في تصوير حال الجبناء، فانظروا إليه إذ يصفهم ويريكم كيف يذوقون موتات الفزع المرة بعد الأخرى، فيقول: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ

صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ [المنافقون : ٤] ويريكم كيف يظهر أثر الجبن فى أبصارهم إذ يقلبونها وهم فى ذهول من أدركه الموت . فيقول : ﴿ **فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ** ﴾ [الأحزاب : ١٩] .

ومن أبدع ما ورد عن رسول الله ﷺ فى تمجيد الأبطال الذين يركبون البحر للدفاع عن الحق، أن شبههم بالملوك على الأسرة، ولفضل الشجاعة فى الذود عن الشرف والكرامة، جاء الفخر بالموت فى مواقف الدفاع دون الموت على الفراش، قال عبدالله بن الزبير فى خطبة تأبينه لأخيه مصعب « إنا والله لا نموت إلا قتلا : قعصاً بالرماح، وتحت ظلال السيوف » .

وخلاصة الحديث أن الأمة لا تحتفظ بعظمتها إلا أن تسود فيها الشجاعة، وأن عظمتها على قدر ما تخفق عليهم رايتها من ذوى البطولة، فكان حقاً علينا أن نعنى فى تربية أبنائنا بخلق الشجاعة الموصولة بالحكمة حتى يروا العظائم صغائر، ويقتحموا الخطوب بعزائم لا يعرف التردد ولا الوهن طريقها .

○○○○○

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٥

قوة التخيّل

وأثرها في العلم والشعر والصناعة والتربية

فى النفس قوة تحفظ الأشياء بعد غيبتها، وتجدد إحساس الإنسان للصور المودعة فى هذه القوة، تسمى تصوراً أو تخيلاً.

ولتجدد إحساس الصور المسمى تخيلاً أو تصوراً أسباب، وأكثر هذه الأسباب عملاً فى النفوس المماثلة، ويليه التضاد ثم الوحدة المكانية.

والتماثل أن يكون بين الشيئين تشابه فى بعض الوجوه المحسوسة أو المعقولة، فمن رأى الماء الصافى تذكر المرآة الصقيلة، ومن رأى القمر تذكر طلق المحيا، ومن رأى النرجس تذكر العيون، ومن جلس إلى كاذب تذكر مسيلمة الكذاب، ومن سمع أن معتوهًا ادعى أنه نبى أو أن باطنيًا حرف آيات الذكر الحكيم عن مواضعها، تذكر زعيم طائفة القاديانية أو زعيم طائفة البهائية، وانظر إلى ابن أبى الأصبع كيف يخطر فى باله ريق المرأة وثغرها فيذكر ما بين العذيب وبارق، ويخطر فى باله قدها، ومدامعها تجرى لفراقها فيذكر مجر الرماح، ومجرى الخيل أخبر بذلك فى قوله:

إذا الوهم أبدا لى لماها وثغرها   تذكرت ما بين العذيب وبارق
ويذكرنى من قدها ومدامعى   مجر عوالينا ومجرى السوابق (١)

والتضاد أن يتنافى الشيئان بحيث لا يجتمعان فى محل كالسرور والحزن، والضحك والبكاء، والشجاعة والجبن، والإخلاص والرياء، فإذا خطر فى البال أمر تبعه ضده، فمن حضر فى ذهنه الشتاء تذكر الصيف ومن وقع فى خاطره التقوى انتقل إلى معنى الفسوق، ومن هذا الباب ترى شخصاً، فتذكر خصمه المبين، وترى آخر فى بلاد فتذكر العافية ولهذا عد علماء البلاغة التضاد من علاقات المجاز.

(١) المصراعان الأخيران للمتنبى وأوردهما ابن أبى الأصبع على وجه التفسير.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

والوحدة المكانية أن تحس الشيئين فى مكان، وإن اختلف زمن الإحساس كأن ترى شخصًا فى مكان صباحًا، وترى شخصًا آخر فى المكان نفسه مساء فمن كثرت مشاهدته لشخصين فى مكان ثم رأى أحدهما حضرت فى ذهنه صورة الأخرى.

ويتصل بهذا أن يجرى ذكر الواقعة فينتقل ذهنك إلى مكانها أو تشاهد المكان فيحضر فى ذهنك صورة الواقعة، ومما يجرى على هذا قول ابن الرومى:

وحـــبب أوطان الرجـــال إليـــهم ... مـآرب قـضـاها الشـبـاب هنالكا

إذا ذكـــروا أوطانـهم ذكـــرتهم ... عـهـود الصبـا فـيـهـا فـحنوا لذلك

والوحدة الزمانية أن تحس الشيئين فى زمن واحد، فإذا وقع بصر الإنسان على شيئين فى وقت واحد، ثم رأى أحدهما بعد، تذكر الآخر، بل إذا حدث عن شخصين فى وقت واحد حتى ارتسم لكل منهما صورة فى قوته الحافظة، ثم رأى أحدهما أو جرى ذكره فى المجلس حضر فى ذهنه صورة الشخص الآخر. ويدخل فى هذا الباب تذكر الأسباب عند ذكر مسبباتها، أو تذكر المسببات عند ذكر أسبابها، كتذكر النار عند ذكر الحرارة أو الدخان، وتذكر الأجنحة عند ذكر الطيران، وتذكر الأمة وسعادتها عندما يطرق سمعك كلمة الاستقلال، ولهذا عد علماء البلاغة من علاقات المجاز السببية والمسببية.

ومما ينبهك على أن اقتران الشيئين فى الزمان يجعل حضور أحدهما داعيًا إلى حضور صورة الآخر قول الخنساء:

يذكـرنى طلوع الشـمس صـخـرًا ... وأذكـــره بكل مـــغـــيب شـــمس

فـإنهـا تذكـره عند طلوع الشـمس لأنهـا كـانت تراه وقت الطلوع فى مظهـر الشجـاعـة والتهـيؤ للغزو، وتذكـره عند مغيب الشـمس لأن وقت المغيب وقت تواردت الضيوف عليه وإطعامه الطعام فى الغالب.

وتسلسل الأفكار يتكون من هذه الروابط، ذلك أنك تنتقل من صورة أمر إلى صورة آخر، ومن هذه الصورة إلى غيرها، وهكذا يذهب بك التخيل من الأمر إلى

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ما يناسبه حتى تضع سلسلة حلقاتها تلك الصورة المتماثلة أو المتضادة أو المحسوسة فى زمان أو مكان واحد، فإذا شاهدت مصادفة ثلجًا على شجر حوله رمل، وفى منتهى الرمل بحر، فقد يخطر ببالك الثلج فى وقت آخر، فتنتقل منه إلى الشجر، ومن الشجر إلى الرمل، ومن الرمل إلى البحر، ولو كنت شاهدت فى البحر سفينة لكنت تنتقل من الرمل إلى البحر، ومن البحر إلى السفينة.

ولو شاهدت الثلج مركومًا فى الشارع، والشارع محاط بمبان ذات نوافذ مفتحة لكان لك عندما يذكر الثلج سلسلة أفكار، حلقاتها الثلج والشارع والجدران والنوافذ المفتحة، ولو اتفق لك أن كنت شاهدت فى زمن آخر نوافذ يشرف منها وجوه بيض، لانتقلت من النوافذ إلى الوجوه البيض، ومن الوجوه البيض إلى الوجوه السود بوسيلة التضاد، ثم إلى البلاد التى تكثر فيها الوجوه السود، فتصل هذه السلسلة فى التخيل بالسلسلة الأولى.

فالفكر يتسلسل بحسب المناسبة بين الصورة وما يقع الانتقال منها إليه، وقد يتحد الشخصان فى بعض حلقات التفكير لتوافقهما فى أسباب ارتباط هذه الحلقات ثم يفترقان فى غيرها من الحلقات، فتضع مخيلة كل منهما سلسلة غير السلسلة التى تضعها مخيلة الآخر، ومثال هذا أن يجرى فى حضرة المولع بالخمر والقائم على أدوات الطعام، ذكر الكأس فينتقل المولع بالخمر من الكأس إلى الخمر، ويذهب متنقلاً فيما يتبع الخمر من لهو وفسوق، أما القائم على أدوات الطعام فإنه ينتقل من الكأس إلى الملعقة، إلى الشوكة إلى الطبق، إلى المنديل، حتى يضع سلسلة من هذه الأدوات وما يتصل بها غير السلسلة التى صنعتها مخيلة المولع بشرب الخمور.

وتسلسل الأفكار يكون على قدر ما تحتويه الحافظة من صور الأشياء، فأفكار البدو لا يطول تسلسلها لعدم كثرة ما تحتويه حافظته من الصور، بخلاف الناشئ أو المتردد على مدينة امتلأت بمظاهر العمران والزينة، فإنه يطول تسلسل أفكاره، وتجد مخيلته مسارح بعيدة المدى.

فالناس يتفاضلون فى التخيل على قدر تفاوتهم فيما وقع إلى قواهم الحافظة من

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الصـور، ويتـفـاضـلون فى التـخـيل أيضًـا من جـهـة قـوة الانتـبـاه لما بين الأشـيـاء من المناسبات.

فالناشئ فى مدينة كبيرة يفوق فى التخيل الناشئ فى بداوة ما يشبه البداوة، وما ذاك إلا لكثـرة مـا يجـده فى حـافظتـه من الصـور المسـاعـدة له على تأليف المعـانى الجيدة.

وإذا وجدت رجلين يعيشان فى بيئة واحدة منذ النشأة، ورأيت فى أحدهما براعة فى نحو الشعر والصناعة قد فاق بها صاحبه، فإن وجه فضله عليه من جهة قوة الانتباه لما بين صور الأشياء من المناسبات.

وقد يكون بين الشيئين ما يقتضى اقترانهما فى الذهن، ولكن النفس قد تحس أحدهما ويشغلها عن الانتقال إلى الأمر الآخر ما فى ذلك الأمر الذى أحسته من معنى يجلب اهتماماً شديداً من حزن أو سرور. وانظر إلى الشاعر حين أراد التنبيه على أن ذكر حبيبه لا يفارقه قط، كيف أخبر أنه يذكره فى أشد حال من شأن الإنسان أن يذهل فيه عن كل غائب. فقال:

ولقـد ذكـرتك والرمـاح نواهل   منى وسـيف الهند يقطر من دمى

ثم إن المخيلة قد تنتقل من صورة إلى أخرى من غير قصد إلى غرض، ومن غير أن تكون تحت رعاية العقل، فتسمى مخيلة آلية، وقد يكون انتقالها صادراً عن إرادة ومحاطًا بانتباه، وهذا قد يكون الغرض منه الوصول إلى إدراك حقيقة، فتسمى مخيلة علمية، وقد يكون الغرض منه الوصول إلى تأليف صور من المعانى جديدة، فتسمى مخيلة إبداعية.

فالمخيلة الآلية هى التى تسير دون قصد إلى جهة خاصة أو غرض معين، كأن يحصل للإنسان استغراق فى التخيل، ويذهب متنقلاً من معنى إلى آخر، ويجول فى جملة من صور الأشياء التى عرفها فى الماضى من غير انتظام ولا قصد إلى استنتاج.

ومن المرائى المنامية ما يرجع إلى عمل هذه المخيلة، حيث يزول الانتباه ولا يبقى للإرادة سلطان، فتجرى المخيلة طلقة من غير عنان، فتعرض على النفس صوراً غريبة أو لذيذة أو مؤلمة، ومن المرائى ما هو إلهام إلهى كما ثبت فى نصوص الشريعة القاطعة، ودلت عليه التجارب الصحيحة.

والمخيلة العلمية هي التى تتوجه بإرادة صاحبها، وتعمل تحت مراقبة قوته العاقلة فتنتقل من صورة إلى أخرى تناسبها حتى تجتمع فى الذهن صور يحصل من ترتيبها على قانون المنطق إدراك حقيقة كانت خافية. ويقول المتحدثون عن العالم «نيوتن» إن مخيلته العلمية قد انتقلت به من مشاهدة تفاحة سقطت على الأرض وانساقت به إلى النظر فى قانون الجاذبية.

والمخيلة الإبداعية يتمكن بها الشخص من إحداث صور غريبة إما محسوسة كما يفعل الصانع الماهر، أو معنوية كما يفعل الشاعر المجيد، فالصانع يفسح المجال لمخيلته فتنطلق فى صور ما شاهده من الأشياء ويساعده ذوقه على أن ينتقى من تلك الصور ما يركب منه صورة جديدة.

وكذلك الشاعر يبعث مخيلته فيما عنده من صور الأشياء، ومازال يقع على صورة بعد أخرى حتى يجتمع عنده ما يمكنه أن يركب منه صورة معنى لا عهد للأذهان به من قبل.

أما أثر التخيل فى التربية فإنك إذا لقنت الناشئ الأخلاق الحميدة والأعمال الصالحة، وذكرت له ما يترتب عليها من خير وسعادة، وجدته لا يذكر تلك الأخلاق والأعمال إلا وقد حضر فى ذهنه ما يقع عقبها من الخير والسعادة، فينهض لها بقوة، وهذا شأنه حين تذكر له السيرة القبيحة، وتبين له ما يتصل بها من عواقب تعود عليه بالضرر والتهلكة، فإنه لا يخطر بباله شيء من الخلق الرذيل أو العمل القبيح إلا وقد حضر فى ذهنه ما يعقبه من ضرر. فيدعوه ذلك إلى الكف عنه.

ولا ريب أن من لم يلقن فوائد الآداب الفاضلة والأعمال الصالحة ويكون خالى الذهن مما يترتب على الأعمال المكروهة من فساد، تجده يذكر الفعلة القبيحة فلا ينتقل ذهنه إلى شىء يردعه عنها فيأتيها إجابة لداعى الشهوة.

ومتى كان تعليم الأخلاق وتقويم السيرة من جهة الدين، رأيت الناشئ يذكر الله فى كل وقت يهم فيه بأمر نهى عنه ذو الجلال، وفى ذلك عصمة أى عصمة!

ooooo

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٦

المساواة في الإسلام

يتفاضل الناس بحسب جودة أفكارهم، وصفاء بصائرهم، وسعة معارفهم، وسماحة أخلاقهم، وسمو هممهم، وصحة عزائمهم، وصلاح أعمالهم، وبلاغة أقوالهم درجات، وقد تجرى المعاملات بينهم على حسب تفاضلهم فى هذه الخصال والشئون وليس على الناس من حرج فى رعاية هذه المزايا، وربط صداقاتهم ومعاملتهم الخاصة بها.

أما المساواة بينهم التى يلهج بها أنصار الحرية، ويتوقف عليها انتظام السياسة، وبها يستتب الأمن فى البلاد، فهي أن يكون الناس فى عصمة دمائهم وأموالهم وأعراضهم وفى التمتع بكل ما هو حق لهم على سواء.

والسياسة لا تجرى فى مأمن إلا أن تكون قائمة على رعاية المساواة فى التشريع والقضاء والتنفيذ، ومعنى هذا أن يكون الناس فى نظر واضع القانون، والقاضى به، والمنفذ له فى منزلة واحدة.

أما المساواة فى التشريع فإن الشرع الإسلامى قد راعى فى تقرير الحقوق المصالح العامة من غير نظر إلى أحوال الطوائف والطبقات، ومن هنا كانت الأحكام الواردة فى صيغ خاصة محمولة على العموم، كالأحكام الواردة فى خطاب الرجال تتعداهم إلى النساء، والأحكام الواردة فى خطاب أشخاص بأعيانهم تتعداهم إلى سائر من هو أهل للتكليف، كما هو مقرر فى علم أصول الفقه «فكل خطاب منه ﷺ لواحد فيما يفتيه به ويعلمه إياه، هو خطاب لجميع أمته إلى يوم القيامة» (١).

وهناك نظم توضع لضبط الأعمال فى نحو الدوائر الحكومية، والمؤسسات العلمية أو الخيرية، وهذه هى التى قد يستخف فيها بقاعدة المساواة، ويراعى فى وضعها منافع بعض الطوائف أو الأشخاص فتجد غير المخلص فيما ألقى إليه من إدارة

(١) كتاب الأحكام لابن حزم.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بعض الشئون العامة، يتصرف فى تلك النظم على حسب ما يوافق هواه، ويرضى أشياعه.

وأما المساواة فى القضاء فهى أن يتجه القاضى إلى القضية فى نفسها قاصراً النظر على تفهم البينات وتعرف حكم الشارع الذى ينطبق عليها، دون أن يكون لشخصية المتخاصمين أثر فى مقطع الحكم كما قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فى رسالة القضاء إلى أبى موسى الأشعرى: «وسو بين الناس فى مجلسك ووجهك وعدلك».

لطم جبلة بن الأيهم رجلاً من بنى فزارة وطئ إزاره وهو يطوف، فهشم أنفه، فاستعدى الفزارى عليه عمر بن الخطاب، فقال لجبلة: إما أن ترضى الرجل، وإما أن أقتص له منك. فقال جبلة: كيف وهو من السوقة وأنا ملك؟ فقال: إن الإسلام جمعك وإياه، فلست تفضله إلا بالتقى والعافية! ففر جبلة ليلا، وعاد إلى نصرانيته.

سمعت بعض من يتحدث فى السياسة ينقد فعل عمر هذا، ويعده مخالفًا لما تقتضيه السياسة من تأليف رؤساء الأقوام للإسلام، فقلت: هذه نظرة عجلى وإخلاص عمر للشرع الحكيم، وحرصه على تقرير الأمن فى البلاد هما اللذان أمليا عليه أن يحكم بما حكم، وأن يعزم على تنفيذ حكمه لو بقى جبلة تحت سطوته، وماذا يكون موقف عمر لو هدم قاعدة المساواة فى هذه القضية، وكسر قلوب الضعفاء وأيأسهم من أن يجدوا فى عدله ناصراً على الأقوياء؟

وكذلك كانت سيرة القضاة العادلين، فقد حكم أبو يوسف ليهودى فى قضية رفعها على الخليفة هارون الرشيد، وحكم ابن بشير قاضى قرطبة لتاجر خامل فى قضية رفعها على الخليفة عبدالرحمن الناصر.

وأما المساواة فى التنفيذ، فقد عنى الإسلام برعايتها ودل على أن التعامى عنها من أسباب سقوط الأمم وهلاكها، ويكفى شاهداً على هذا قوله عليه الصلاة والسلام كما روى فى الصحيح: «**فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق**

فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» (١).

والواقع أن عدم المساواة في التنفيذ جناية على التشريع والقضاء، حيث يجعلهما عملا بلا ثمر، وحبراً على ورق، وماذا ينفع تشريع أو قضاء لا نفاذ له؟ قال عمر بن الخطاب فى رسالة القضاء: «وإذا تبين لك الحق فأنفذ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له».

يتساوى الناس فى التمتع بحقوقهم، ويتساوون فيما تقتضيه المصلحة العامة من أعمال أو أداء أموال، فإذا اقتضى الحال محاربة عدو مثلاً، كان مناط الدعوة إليها من فيهم الكفاية لها، وإذا دعا الحال إلى الإنفاق فى الذود عن الحوزة أو إقامة منشآت عامة، كان مناط الدعوة إليه ذوى اليسار، فلا يعفى من الحرب أو الإنفاق وجيه لوجاهته، أو صديق لصداقته، أو قريب لقرابته، ونحن نعلم أن عبدالله وعبيدالله ابنى الخليفة عمر بن الخطاب كانا يخرجان فى الجيوش التى توجه إلى الجهاد فى عهد عمر كجنديين لا يختلفان عن سائر الجنود فى شىء.

ولا يظفر القابضون على زمام الأمور من شعوبهم بمثل حسن الطاعة، ولا طريق إلى حسن طاعة الشعوب إلا المساواة بينهم فى الحقوق والواجبات. ومن شواهد هذا أن النعمان بن بشير - رضى الله عنه - خصه أبوه بشير بهبة، وجاء إلى النبى ﷺ ليشهده على ذلك، فقال له: **«أكل ولدك نحلته مثل هذا؟»** قال: لا، قال: **«أتحب أن يكونوا لك فى البر سواء؟»** قال: نعم، قال: **«اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم فى العطية»**. والشعوب للقائمين على تدبير شئونهم بمنزلة الأبناء للآباء، فمن أحب أن يكونوا له فى حسن الطاعة سواء، فليسلك بسياستهم طريق المساواة فى الحقوق والواجبات.

هذه المساواة من أكبر الدعائم التى تقوم عليها السياسة العادلة، ولكنها تبتلى فى كثير من العصور أو المواطن بآفة تزلزل أساسها، وتقوض بناءها وهى المحسوبية، وما أفتك هذه الآفة بوحدة الأمة، وما أسرعها بإنزال الدول عن المكانة المحفوفة بالمهابة إلى درك منظور إليه باستهانة!

---

(١) صحيح مسلم.

إباءة الضَّيْم

الضيم: الظلم والاضطهاد. **وإباءته**: كراهته والنفور منه، والنفور الصادق من الضيم يستلزم الغضب عند وقوعه، كما قال مهيار الديلمى يمدح أسعد بن عبدالرحيم:

نفى الضيم عنه أنف غضبان ثائر   يخف وقسط الحادثات ثقيل

وإذا غضب الرجل من الضيم غضبة ملتهبة، بذل وسعه فى التخلص منه أو فى التوقى منه قبل وقوعه، فمن لم يغضب لوقوع الضيم أو لم يبذل وسعه فى التخلص أو الحذر منه، فهو محروم من هذا الخلق المجيد.

ولهذا الخلق صلة محكمة بخلقين عظيمين: عزة النفس والبطولة، فمن لم يكن عزيز النفس لم يتألم من أن يضام، ومن لم يكن بطلاً احتمل الضيم رهبة أو حرصاً على الحياة.

ومن طالع تاريخ العرب فى عهد جاهليتهم عرف أنهم كانوا يأبون الضيم فى حماسة وصلابة، ويعدونه فى أول ما يفتخرون به من مكارم الأخلاق، وقد أخذ هذا الخلق فى أشعارهم ومفاخراتهم مكاناً واسعاً، فنبهوا على أن احتمال الضيم عجز، والعاجز لا يرجى لدفع ملمة، ولا للنهوض بمهمة، **قال المتلمس**:

ولا تقبلن ضيما مخافة ميتة   وموتن بها حرا وجلدك أملس

وضربوا لاحتمال الضيم أبشع الأمثال وأشدها تنفيراً منه فقال المتلمس أيضاً:

ولا يقيم على ضيم يراد به   إلا الأذلان عير الحى والوتد

هذا على الخسف مربوط برمته   وذا يشج فلا يرثى له أحد

ونبهوا على أن حرية النفس والإقامة على ضيم لا يجتمعان أبداً فقال الشنفرى:

ولكن نفساً حرة لا تقيم بى   على الضيم إلا ريثما أتحول

وأشاروا فى حكمهم إلى أن ذوى النفوس الزكية يتجافون عن مواطن الضيم، وينأون عنها ولو إلى مواقع الخطوب الدامية. **قال معن بن أوس:**

إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته ... على طرف الهجران إن كان يعقل

ويركب حد السيف من أن تضيمه ... إذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل

وإباءة العرب للضيم أيام جاهليتهم ملأت أعين الدول المجاورة لهم مهابة، فعاشوا ولم يكن لواحدة من تلك الدول عليهم من سبيل. قال النعمان بن المنذر يصف العرب فى محادثة له مع كسرى: «وأما عزها ومنعتها (يعنى العرب) فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوخوا البلاد، ووطدوا الملك، ولم يطمع فيهم (أى العرب) طامع، ولم ينلهم نائل».

جاء الإسلام فوجد العرب قد يتجاوزون فى هذه الخصلة حد الاعتدال فهذبها وأحاطها بحكمة حققت فيها معنى ابتغاء العزة، وهيأتها لأن تلتقى بالعدل وترافق الحلم، وتساير السياسة الرشيدة أينما سارت، وأضرب المثل لتجاوزهم بإباء الضيم حد الاعتدال أن القبيلة كانت عندما تقتل القبيلة واحداً منها، قامت تدفع هذا الضيم عن ساحتها، ولا ترضى إلا أن تقتل بالواحد جماعة، وربما قامت من أجل قتل نفس واحدة حرب شعواء بين قبيلتين تستمر أعوامًا طوالا ولا تضع أوزارها حتى تسيل فيها أنهر من الدماء، كحرب البسوس المعروفة فى تاريخهم، وقد قوم القرآن الكريم هذا العوج فقال تعالى: ﴿ **وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا** ﴾ [الإسراء: ٣٣] وقال تعالى: ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ** ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وكانوا لا يبالون عند الانتقام من ظالم أن يقابلوه بأكثر أو أشد من مثل ما اعتدى به عليهم فقال تعالى: ﴿ **فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ** ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقال: ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا** ﴾ [الشورى: ٤٠].

فأنتم ترون أن القرآن الكريم قد نبه على أن الضيم الذى حصل للقبيلة بقتل واحد منها يرتفع بالقصاص الذى هو قتل القاتل وحده، وأن الاعتداء الذى يقع

على الفرد أو الجماعة يكفى فى جزائه مقابلته بالمثل، فالقبيلة إذا اكتفت بقتل القاتل وحده، والمعتدى عليه إذا اقتصر فى جزاء المعتدى بمثل ما اعتدى به، فقد أعطى كل منهما إباءة الضيم حقها، وليس لأحد أن يعيره بسبة احتمال الضيم إلا أن يكون خادماً للشيطان أو جاهلاً بمواقع العدل، غير بصير بمكارم الأخلاق.

هذب الإسلام إباءة الضيم، وجعلها من الخصال التى يقتضيها الإيمان الصادق، فأصبحت خلقاً إسلامياً أينما وجد الإيمان الصادق وجدت إباءة الضيم بجانبه، ألا تقرءون فيما تقرءون من الكتاب المجيد قوله تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾، ولا عزة لمن يسومه عدوه ضيما فيطأطئ له رأسه خاضعاً، وإنما قتل فى نفسه الشعور بالمهانة الحرص على الحياة أو على شيء من متاعها وكل متاعها فى جانب العزة حقير.

يأبى الرجل الراسخ فى مكارم الأخلاق أن يلحقه الضيم فى نفسه ويأبى بعد هذا أن يضام من يمت إليه بصلة قرابة أو جوار أو استجارة، إذ اضطهاد أحد من أمثال هؤلاء يجر إليه عاراً، ويلبسه صغاراً.

ورجل الأخلاق يغضب لأن يضام المنتمى إليه بصلة قرابة، وإن كان هذا القريب ممن يناوئه ويضمر له سوءاً قال المغيرة بن حنباء:

وأغضب للمولى فأمنع ضيمه ... وإن كان غشا ما تجن ضمائره

يغار الرجل على ذوى القرابة والصداقة والجوار، ويبذل فى إنقاذهم من الضيم دمه أو ماله أو جاهه، فيعظم بهذه المزية فى أعين من يقدرون المكارم قدرها، وأكبر أباة الضيم همة، وأرقاهم فى سماء السيادة مقاماً من يغار على الأمة التى يجمع بينه وبينها دين أو وطن، ويأبى أن تمسها لفحة من ضيم، فيجاهد فى سبيل سلامتها من أن يهضم حق من حقوقها أو يغتصب شبر من أوطانها، ويصور لك إباءة الرجل لأن يضام قومه قول عتبان الشيبانى حين نزلت ثقيف متغلبة على أرض قومه:

فلا صلح مادامت منابر أرضنا ... يقوم عليها من ثقيف خطيب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ودفع الضيم عن الأمة حق على كل من يستطيع الاشتراك فيه بنفس أو مال أو تدبير أو تحريض. وقد نص علماء الشريعة على أن العدو إذا أقبل مهاجماً، كان فرضاً على كل شخص حتى النساء أن يخرجوا لدفاعه بما استطاعوا.

ووقاية الأمة من مهانة الضيم تستدعى العمل لأن تكون للأمة قوتان: مادية ومعنوية، أما المادية فبإعداد ما يتطلبه الدفاع من وسائل الانتصار على العدو، وهذا ما أشار إليه القرآن المجيد بقوله تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ** ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وأما المعنوية فبتربية النشء على خلق الشجاعة وصرامة العزم والاستهانة بالموت. فالأمة التى تأبى الضيم بحق هى الأمة التى تلد أبطالاً وتبذل كل مجهود فى إعداد وسائل الدفاع، لا يقعد بها بخل، ولا يلهيها ترف، وتفاضل الأمم فى التمتع بالحرية والسلامة من أرجاس الضيم، على قدر ما تلد من أبطال، وما تعده من أدوات الرمى والطعان.

متى تجمع القلب الذكى وصارما   وأنفا حـمـيـا تجتنبك المظالم

إباءة الضيم خلق محمود أينما حل، وأهم موقع له نفوس الرجال الموكول إليهم تدبير شئون الأمة، وتنفيذ ما يحقق آمالها، وإنما تسقط الأمة فى هاوية الاحتلال الأجنبى إذا وقع زمام أمرها فى يد من صعرت همته، فلا يغضب للضيم الذى يلقى على عنقه، ويسوق الأمة بعصاه إلى جهل وفقر وشقاق.

وأذكر أن أحد قواد الأسبان وقع أسيراً مع ابنته فى يد أمير أندلسى فأخذت ابنته الفتاة تظهر التودد للأمير الأندلسى، ولكن حزمه أبى له أن ينحدر مع شهوته، ويقربها إليه حتى فتشت فوجد معها منديل صغير مشرب بسم، وكانت قد أرادت أن تغتال به الأمير عند اتصاله بها، فابتعد منها وقال: لو كان قلب هذه الفتاة فى صدر أبيها ما تغلبنا عليه ولا وقع فى أسرنا!

والضيم من أى معتد صدر، شديد الوقع، خبيث الطعم، ولكن الضيم الذى يلحق الإنسان من وضيع مالك قوة، أو اعتز بذى قوة يكون وقعه فى نفسه أشد

شبكة الألوكة - قسم الكتب

إيلامًا من ضيم يلحقه من عظيم فى قومه. وقد أشار إلى هذا حاتم الطائى حين لطمته جارية وهو أسير فى بعض أحياء العرب فقال: «لو ذات سوار لطمتنى!» وأذكر بهذا أن من أشد النكبات تمزيقًا للقلوب مد اليهود الصهيونيين أيديهم إلى بلاد عربية إسلامية ليضعوها تحت سيطرتهم الغاشمة. ولنطو الحديث عنهم وعن الدول التى انحازت إلى جانبهم وظلت تنحط فى أهوائهم، وتسارع إلى العمل لتثبيت أقدامهم، فستقدر هذه الدول يقظة الشرق قدرها، وتعرف أن السلام العام الذى تزعم أنها تنشده لا يتيسر، وللصهيونيين طمع فى أن يقيموا فى قلب الأمة العربية الإسلامية دولة.

ومن الحكمة أن يعمل الإنسان للتخلص من الضيم بعد شىء من التدبر وإحكام الرأى حتى لا تفضى به مكافحة الضيم الصغير إلى ضيم أفظع منه، أو تفوت على الجماعة مصلحة أو مصالح كبيرة لا يعد ذلك الضيم فى جانبها شيئًا مذكورًا، **وأورد فى بيان هذا مثلين**:

أحدهما من السيرة النبوية، **وثانيهما** من التاريخ الصحيح. أما السيرة فقد جاء فى قضية الحديبية أن النبى ﷺ عقد مع المشركين صلحًا قد يبدو فى أول النظر أن فيه إجحافًا بحقوق المسلمين حتى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - جاء إلى النبى ﷺ وقال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطى الدنية فى ديننا! قال ﷺ: «**أنا عبدالله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى**».

ومن نظر فى الفوائد التى ترتبت على هذا الصلح وجدها من العظم بحيث لا يعد الصلح وقبول ما تمسك به المشركون من الشروط إلا شيئًا لا يقام له وزن، وعرف أن السياسة التى سار عليها رسول الله ﷺ أقوم سبيلا مما بدا لعمر بن الخطاب فى نظرته الأولى.

وأما التاريخ: فإن الأسبان لما طغوا على ملوك الطوائف بالأندلس وشعر هؤلاء الملوك بضعفهم عن مقاومتهم، ظهر للمعتمد بن عباد ملك أشبيلية أن يستعين فى دفاعهم بسلطان المغرب يوسف بن تاشفين، فقال له بعض أولئك الملوك، نخشى أن يدخل بلاد الأندلس ويرد العدو، ثم يبسط سلطانه علينا، فقال المعتمد تلك المقالة الخالدة «لأن أرعى الجمال خير من أرعى الخنازير».

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٨

أثر الرحلة في الحياة العلمية والأدبية

يكثر الراحلون من بلاد إلى أخرى، والغرض من هذا البحث عن رحلات أهل العلم والأدب، وما تأتى به من ثمار طيبة لنعرف كيف تكون الرحلة من وسائل ترقية العلوم والآداب، وتهذيب النفوس، وإصلاح حال الاجتماع.

ولعل قائلاً يقول: إن فائدة الرحلة قد عرفها الناس على اختلاف أصنافهم، وتفاوت طبقاتهم، وأصبحت من المعلومات الموضوعة على ظاهر اليد، فالحديث عنها صرف للوقت فى غير جدوى.

وأقول فى الجواب: إنى فى شك من هذا، لأنى أرى كثيراً ممن وهبهم الله القدرة على الرحلة وهيأ لهم وسائلها، لا يقبلون عليها، وينصرفون عنها انصرافهم عن الأشياء التى يرونها خالية من كل فائدة ولذة.

على أنى أريد التنبيه لما فى الرحلة من فوائد، لأضعها أمام نشئنا، حتى إذا خطر لهم ما فى الرحلة من حرج وعناء، نظروا إلى هذه الفوائد فيخف وزن تلك المتاعب، وتذهب أمام أنظارهم غير محتفل بها.

○ الرحلة فى نظر الإسلام:

لم يدع الإسلام وسيلة من وسائل الرقى إلا نبه عليها، وندب إلى العمل بها، وهذا شأنه فى الرحلة، فقد دعا إليها رامياً إلى أغراض سامية منها طلب العلم. قال تعالى: ﴿ **فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾ [التوبة: ١٢٢]، ويلحق بالتفقه فى الدين كل علم يعد فى وسائل الرسوخ فى علوم الدين كالنحو والبلاغة، بل يلحق بالتفقه فى الدين كل علم يتوقف عليه استقلال الأمة وسلامتها من أيدى أعدائها، كفن صنع الغواصات

شبكة الألوكة - قسم الكتب

والطائرات وما شاكلها من وسائل القوة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ** ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ومن هذه الأغراض: الاعتبار بأحوال الأمم الماضية، قال تعالى: ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾ [الأنعام: ١١] ويلحق بأحوال الأمم الماضية أحوال الأمم الحاضرة متى كان فى النظر إليها عبرة ينتفع بها فى وجه من وجوه الإصلاح.

ومن هذه الأغراض السامية: التخلص من دار البغى والضلال إلى الإقامة فى دار عدل وهداية، قال الله تعالى: ﴿ **وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ** ﴾ [النساء: ١٠٠] وهذه الآية وأمثالها واردة فى قوم كانوا يقيمون فى دار غواية وعسف، وكان فى هجرتهم إلى المدينة بعد عن مشاهدة المنكرات، وشد لأزر المسلمين وتكثير لسوادهم، فإذا تشابهت البلاد فى الاستخفاف بأمر الدين، فعلى كل عالم أن يجاهد فى الدعوة إلى الحق والإصلاح أينما كان.

○ المثبطات عن الرحلة:

لا أريد من المثبطات عن الرحلة العوائق التى ليس فى استطاعة الشخص علاجها كفراغ يده من نفقات السفر، وكقيامه على أسرة إذا فارقها وقعت فى حاجة ونكد من العيش، بل أريد من المثبطات ما يعرض للنفوس الضعيفة ويغلب على أمرها، ولولا ضعفها لما كان له عليها من سبيل.

ومن هذه المثبطات استعظام الرجل مفارقة من يعز عليه من قريب أو صديق، أُلقى على إمام الحرمين وهو على المنبر سؤال وهو: لماذا كان السفر قطعة من العذاب؟ فقال: لأن فيه فراق الأحبة.

وفى الناس من يذكر ما فى الرحلة من متاعب بدنية، فيحجم عنها، وأكثر الذين يعرض لهم هذا المثبط أولئك الذين ينشئون فى ترف وانحلال عزيمة فيخشون أن يفوتهم ما اعتادوا من راحة ورفاهية ولو أياماً قليلة.

وقد يحجم الرجل عن الرحلة مخافة أن ترمى به بين أقوام لا يعرفون أدبه أو حسبه، فيجد من مرافقتهم أو معاشرتهم كدراً، **وإلى مثل هذه الآلام النفسية أشار ابن جبير بقوله:**

لا تغــــتـــرب عن وطن ... واحـــذر تصـــاريف النوى
أمـــا ترى الغـــصن إذا ... مـــا فـــارق الأصل ذوى

وقال للرحالة ابن سعيد الأندلسي متألمًا من بعض ما لاقاه في بعض بلاد الشرق:

وأنادي مـــغـــربيًّـــا ليتني ... لم أكن للغـــرب يومًـــا أنسب
نسب يشـــرك فـــيـــه خـــامل ... ونبـــيـــه أين منه المهـــرب
أتراني ليس لي جـــد له ... شـــهـــرة أو ليس يدري لي أب

○ علاج هذه المثبطات:

يعالج الرجل هذه المثبطات الناشئة عن ضعف النفس وقلة تمرينها على احتمال المكاره، بأن يذكر ما تأتي به الرحلة من الفوائد العلمية أو الأدبية خاصة أو عامة، فإذا وثقت نفسه بغايتها النبيلة، وعواقبها الحميدة سهل عليها كل صعب، واستهانت بكل خطر، قال عبدالملك بن سعيد في وصية ابنه على عندما أراد الرحلة إلى بلاد الشرق

وكل مـــا كـــابدته في النوى ... إياك أن يكســـر من همـــتك

وليذكر أن هذه المؤلمات تذهب، وأن ثمرة الرحلة لذيذة باقية، قال القاضي محمد بن عيسى أحد الراحلين من الأندلس إلى الشرق بعد أوبته:

كـأن لم يكن بين ولم تك فرقة ... إذا كـان من بعـد الفـراق تلاقي
كـأن لم تؤرق بالعـراقين مقلتي ... ولم تمر كف الشـوق مـاء مـآقي
ولم أزر الأعراب في جنب أرضهم ... بذات اللوى من رامـــة وبراق
ولم أصطبح بالبيد من قوة الندى ... وكـأن سـقـاها في الأزاهر سـاق

ونرى فى كتب الأدب شعراً كثيراً يقصد ناظمه الرد على من يحاول تثبيطه عن الرحلة، كما قال أبو تمام:

آألفه النحيب كم افتراق | أظل فكان داعية اجتماع

وقال آخر:

تقول سليمى لو أقمت بأرضنا | ولم تدر أنى للمقام أطوف

وقال ابن دراج:

ألم تعلمى أن الثواء هو النوى | وأن بيوت العاجزين قبور

ويروى أن المأمون أراد الخروج فى بعض الحروب، فوقفت له جارية ممن شغف بهن ورغبت إليه أن لا يخرج، فقال: لولا قول جرير:

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم | دون النساء ولو باتت بأطهار

لما خرجت.

○ فوائد الرحلة:

إذا درسنا تاريخ العلماء والأدباء الذين رحلوا عن أوطانهم، ووجهنا النظر إلى ما نتج عن رحلاتهم من فوائد تعود عليهم أنفسهم أو على قومهم أو على الأوطان التى نزلوا بها، وقفنا على فوائد كثيرة يقدرها الباحثون عن وسائل رقى الأفراد والجماعات.

○ أثر الرحلة فى حياة الراحل:

من أنفس ما يكسبه الرجل فى رحلته أن يعلم أشياء لم يكن يعلمها من قبل، فكم من عالم لم يبلغ المقام الذى يشار إليه بالبنان إلا بالرحلة، ولابن خلدون فى المقدمة مقالة افتتحها بقوله: «إن الرحلة فى طلب العلم ولقاء الأساتذة مزيد كمال فى التعلم» وختمها بقوله: «فالرحلة لا بد منها فى العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ والتلقى عن الرجال».

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفى الرحلة عون على التمكن من بعض الأخلاق السامية، مثل خلق الصبر، لكثرة ما يلاقيه الراحل من متاعب بدنية، وآلام نفسية ومثل أدب المداراة، فإن البعيد عن وطنه أشد شعوراً بالحاجة إلى هذا الأدب ممن يعيش بين قوم يعرفون من حسبه ومكانة بيته مما يجعل صراحته خفيفة على أسماعهم.

ولا يخلوا الراحل من أن يلاقى فى رحلته رجالا صاروا مثلا عالية فى مكارم الأخلاق، فيزداد بالاقتداء بهم كمالا على كمال، بقى يحيى بن يحيى بن بكير النيسابورى عند مالك بعد أن أتم الرواية عنه، وقال: أقمت لأستفيد من شمائله.

وقد يرى الرجل فى وطنه سلطاناً طاغياً وحكماً جائراً، فيتخلص بالرحلة إلى بلد يكون مجال الحرية فيه أوسع، كان أبو جعفر أحمد بن صابر القيسى كاتباً للأمير أبى سعيد فرج بن الأحمر ملك الأندلس، فكان يرفع يديه فى الصلاة على ما صح فى الحديث. فبلغ ذلك السلطان فتوعده بقطع يده، فقال: إقليم تمات فيه سنة رسول الله ﷺ حتى يتوعد بقطع اليد عليها لجدير أن يرحل منه، فخرج وقدم مصر.

وقد ينشأ الفتى فى نبوغ، ويضيق بلده عن أنظاره الواسعة فيرحل إلى مدينة تكون أوسع مجالاً للآراء الخطيرة، فتعظم مكانته ويكثر الانتفاع بحكمته، ولولا الرحلة لما عظم شأنه ولما كثرت ثمرات نبوغه، أذكر أن الشيخ عز الدين بن عبدالسلام مر عند خروجه من الشام بالكرك فتلقاه صاحبها وسأله الإقامة عنده، فقال له الشيخ بلدك صغير عن علمى، وتوجه إلى القاهرة وأسوق شاهداً على هذا أن القاضى يوسف بن أحمد بن كج الدينورى قد بلغ فى العلم مرتبة كبيرة، وقال له بعض من لقيه: يا أستاذ الاسم لأبى حامد الغزالى والعلم لك، فقال القاضى: ذاك رفعته بغداد وأنا حطتنى الدينور.

وقد تكون رحلة العالم أو الأديب من أسباب ظهور علمه أو أدبه وانتشاره فى الآفاق، قال الأديب أبو بكر المعروف بابن بقى:

ولى همم ستقذف بى بلادا　　نأت إما العراق أو الشآما

شبكة الألوكة - قسم الكتب

لكيما تحمل الركبان شعرى ... بوادى الطلح أو وادى الخزاما
وكيما تعلم الفصحاء أنى ... خطيب علم السجع الحماما
وقد أطلعتهن بكل أرض ... بدوراً لا يفارقن التماما

وربما أدرك الرجل فى وطنه ضيق عيش يخشى أن يعوقه عن الازدياد من العلم أو التفرغ لنشره بالتدريس والمذاكرة، فيرحل حيث يلقى كفافًا أو يساراً يساعده على أن يقبل على الدرس والبحث بنفس مطمئنة.

رحل القاضى عبدالوهاب بن نصر من بغداد إلى مصر، ونبه على سبب رحلته فقال:

سلام على بغداد فى كل موطن ... وحولها منى السلام المضاعف
فوالله ما فارقتها عن قلى لها ... وأنى بشطى جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت على بأسرها ... ولم تكن الأرزاق فيها تساعف

وكذلك قال أبو سعد النبرمانى:

فقد سرت فى شرق البلاد وغربها ... وطوفت خيلى بينها وركابيا
فلم أر فيها مثل بغداد منزلا ... ولم أر فيها مثل دجلة واديا
ولا مثل أهليها أرق شمائلا ... وأعذب ألفاظا وأحلى معانيا
وكم قائل لو كان حبك صادقًا ... لبغداد لم ترحل فكان جوابيا
يقيم الرجال الموسرون بأرضهم ... وترمى النوى بالمقترين المراميا

ومما يظفر به الرجل الفاضل فى رحلته أن يتخذ فى البلاد التى ينزل بها أصدقاء يغتبط بصداقتهم، والصداقة الخالصة من ألذ ما يمتع به الإنسان فى هذه الحياة، وكتب الأدب مملوءة بالرسائل والقصائد التى دارت بين علماء وأدباء اختلفت مواطنهم، وهى عامرة بروابط ناشئة بوسيلة الرحلة، وهذا ابن خلدون ارتبط بصداقات كثيرة من علماء البلاد كلسان الدين بن الخطيب وابن زمرك، وجرت

بينه وبينهم مراسلات، وأذكر من قصيدة بعث إليه بها ابن زمرك بعد نزوله مصر قوله:

بعيشك خبرنى ولا زلت مفضلا أعندك من شوق كمثل الذى عندى

ومثل الحافظ بن عساكر رحل إلى بلاد العجم بعد بلاد العرب، وأذكر من قصيدة بعث بها إلى صديقه أبى سعد السمعانى قوله:

أنسيت ثدى مودة بينى وبينك وارتضاعه

*** ماذا يستفيد قوم الرجل من رحلته؟**

قد تحظى البلاد بالعلم بعد انقطاعه عنها، أو تقوم سوقها فيما بعد خمولها والفضل فى ذلك لرجال يرحلون إلى الحواضر التى هى منبع العلوم ثم يعودون، وقد امتلئوا مما اغترفوه من العلوم والفنون، وقد بلغت الحالة العلمية بالأندلس بعد عودة أبى الوليد الباجى من رحلته الشرقية منزلة أرفع وأرسخ مما كانت عليه قبل أن يعود، وارتحل أبو القاسم بن زيتون التونسى فى أوساط المائة السابعة إلى المشرق فبرع فى العقليات والنقليات ورجع إلى تونس فأمتعها بعلمه الكثير، وأسلوب تعليمه البديع.

ويرحل العالم أو الأديب من وطنه وهو يحمل علماً غزيراً أو يتحلى بأدب سنى، وينزل بين جماعات من بلاد مختلفة، فيرونه مثالاً لأهل العلم والأدب من قومه، فيرتفع شأن قومه فى أنظارهم، هذا إلى ما يصفه لهم من محاسن قومه أو ينقله إليهم من ثمرات أفكارهم.

*** ماذا تستفيد البلد ممن يرحلون إليها؟**

يرحل العالم أو الأديب وينزل ببلد، فيبذر بها متى كانت فى حاجة إلى أمثاله: علماً وأدباً، ومن ذا ينكر أن بلاد الأندلس قد استفادت من العلماء الذين رحلوا إليها من الشرق، مثل تاج الدين بن حمويه السرخسى وأبى على القالى، كما استفادت دمشق من أمثال ابن مالك وابن السبكى واستفادت مصر من أمثال أبى حيان، وابن خلدون.

وهذا المعرى يحمد السفر الذى جاء بالقاضى عبدالوهاب بن نصر من بغداد إلى المعرة . فقال :

والمالكى ابن نصـر زار فى سـفـر   بلادنا فـحـمـدنا النأى والسـفـرا
إذا تحـدث أحـيـا مـالكا جـدلا   وينشـر الملك الضليل إن شـعـرا

وتفقـه البـربر فى علوم الدين عن عـشرة من فقـهـاء التـابعين بعثـهم عمـر بن عبدالعزيز لهذا الغرض خاصة .

ونرى فى تراجم كثير من العلماء الراحلين أنهم يلقون فى البلاد التي ينزلون بها دروساً أو يدرسون بها علوماً يتلقاها عنهم بعض أهل العلم .

فرحلات العلماء والأدباء تنقل العلم والأدب من بلد إلى آخر على وجه أثبت وأنفع مما تنقله المؤلفات وحدها .

○ أثر الرحلة فى تنمية العلوم :

للرحلة فضل فى نماء العلوم واتساع دائرتها، وكم من كتاب يعد فى علمه من أمهات الكتب هو وليد الرحلة، ومثال ذلك أن أسد بن الفرات الراحل من القيروان إلى الشرق ورد مصر بعد أن تلقى العلم فى الحجاز والعراق، وألقى على ابن القاسم أسئلة يطلب الجواب عنها على مقتضى مذهب الإمام مالك، وجمع تلك الأسئلة وأجوبتها فى كتاب كان يسمى الأسدية، ثم رحل سحنون من القيروان بالأسدية إلى ابن القاسم وعرضها عليه، وهذبها، وأضاف إليها مسائل أخرى، وصارت تسمى المدونة وهى المشار إليها بقول بعض أهل العلم :

أصبحت فيمن له علم بلا أدب   ومن له أدب عـــار عن الدين
أصبحت فيهم فقيد الشكل منفرداً   كبيت حسان فى ديوان سحنون

وبيت حسان الذى لم يرد فى المدونة غيره من الشعر هو قوله :

وهان على ســـراة بنى لؤى   حـريق بالبـويرة مــسـتطير

شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومن فضل الرحلة أنها حفظت جانبًا عظيمًا من التاريخ، حفظته الكتب التى يودعها مؤلفوها ما شاهدوه فى أسفارهم من وقائع وأحوال، مثل رحلة ابن بطوطة ورحلة العبدرى ورحلة ابن جبير ورحلة خالد بن عيسى البلوى وغيرها، فإنا نرى فى هذه الرحلات أشياء لا نجدها فيما بين أيدينا من كتب التاريخ.

○ أثر الرحلة فى ثراء الأدب:

للرحلة أثر فى ثراء الأدب لا يقل عن أثرها فى ثراء العلم، فكم من قصيدة لا ينظمها الشاعر إلا حين يعزم على الرحلة لإلقائها بين يدى ملك أو وزير أو وجيه. مثل قصيدة:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا　　　إن السبيل إلى منجاتها درس

فإن صاحبها أبا عبدالله بن الأبار الراحل من الأندلس قد نظمها استنجاداً لأمير تونس وألقاها بين يديه.

ومما يرجع الفضل فيه للرحلة ذلك الشعر الوارد فى التشوق إلى الوطن أو الأهل أو الإخوان، ومن هذا الباب قول محمد بن يوسف الدمشقى يتشوق إلى دمشق وهو ببلاد الروم:

بعاد يزيد الجوى والحنينا　　　وبين يعلم قلبى الأنينا

فراق أذاب الحشا أدمعا　　　فأجرى بصافى الدماء العيونا

إلى أن قال:

وجاد الحيا أربعًا بالشآم　　　وسلم صحبًا بها قاطنينا

رحلنا فما تابعتنا القلوب　　　وسرنا فظلت لديكم رهونا

وأذكر بهذه المناسبة أن أستاذنا المرحوم الشيخ سالم أبا حاجب كان قد سافر إلى إيطاليا وبعث رسمه إلى بعض أصدقائه فى تونس وكتب عليه البيتين:

لما شكت شحط النوى روحى التى　　　أبقيتها عند الأحبة بالوطن

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أرسلت تمثالى لها بوا (١) عسى تسلو فلا تبغى التحاقا بالبدن

○ أثر الرحلة فى تعارف الشعوب :

لا ينزل الرجل الفاضل بوطن إلا التقى بطائفة من فضلائه، والشأن أن يصف لهم بعض النواحى من حياة قومه العلمية والاجتماعية . ثم إذا عاد إلى قومه وصف لهم حال الأوطان التى نزل بها، فيكون كل من الشعوب التى رحل منها أو نزل بها على خبرة من حال الشعوب الأخرى .

وقد نبهنا على أن الرجل الطيب السريرة يتخذ فى كل وطن أصدقاء، وهذه الصداقات تعد فيما يربط بين الشعوب الرابطة الوثيقة، وتعارف الشعوب بوسيلة العلماء والأدباء يثير فى نفوسهم عواطف الائتلاف والاحترام .

وإذا كان من أفضل آثار الرحلة عقد رابطة التعارف والتعاطف بين الشعوب، فعلى المستطيعين منا أن يخصوا البلاد الشرقية بجانب عظيم من رحلاتهم ولو وجدوا فى سبيل ذلك مشاق فوق ما يلاقونه فى سبيل الرحلة إلى البلاد الأجنبية .

○ أدب الرحلة :

الآداب السنية هى كمال الإنسانية، فيجب على الإنسان الاحتفاظ بها فى وطنه كما يحتفظ بها فى غير وطنه، ورأينا بعض الحكماء يوجهون إلى الغريب أو من رام الغربة عناية خاصة، فيؤكدون عليه فى الاحتفاظ بالآداب الشريفة، كما قالوا : يا غريبًا كن أديبًا، ومن هذا القبيل وصية عبدالملك بن سعيد الأندلسى لابنه على بن سعيد عند عزمه على الرحلة إلى بلاد الشرق . تلك الوصية التى يقول فيها :

أودعك الرحمن فى غربتك مرتقبًا رحماه فى أوبتك
فلا تطل حبل النوى إننى والله أشتاق إلى طلعتك

---

(١) البو جلد الحوار يخشى ثماما أو تبنا فيقرب من أم الفضيل فتعطف عليه . فتدر .

وقال:

فليس يدرى أصل ذى غـربة ... وإنما تعرف من شيمتك

ونبهه لآداب سامية فقال:

وامش الهوينا مظهراً عفة ... وابغ رضا الأعين عن هيئتك
وكل ما يفضى لعذر فلا ... تجعله فى الغربة من إربتك
ولا تجادل حاسداً أبداً ... فإنه أدعى إلى هيبتك

وقال:

وانطق بحيث العى مستقبح ... واصمت بحيث الخير فى سكتتك

ومن أدب الراحل أن ينصف البلد التى ينزل بها، فيذكر محاسنها ويغتبط بما يلاقيه به أهلها من احتفاء ومؤانسة، ورد تاج الدين بن حمويه السرخسى بلاد المغرب، فسأله سلطان المغرب يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن قائلاً: أين هذه البلاد من بلادك الشامية؟ فقال السرخسى: «بلادكم حسنة أنيقة، وفيها عيب واحد، فقال السلطان: ما هو؟ قال: أنها تنسى الأوطان».

وممن قاموا على هذا الأدب الجميل العلامة المقرى صاحب كتاب «نفح الطيب» فقد نظم فى الثناء على دمشق أشعاراً، وتمثل فيها بأشعار ومما أنشده قول شمس الدين الأسدى:

إذا ذكرت بقاع الأرض يوماً ... فقل سقياً لجلق ثم رعيا
وقل فى وصفها لا فى سواها ... بها ما شئت من دين ودنيا

○○○○○

عظـم الهمـة

شئون الأمم شتى، وأعز شئونها مكارم الأخلاق، وحقوق الأمم على علمائها وزعمائها كثيرة، وأهم حقوقها القيام على هذه المكارم. فالجماعة التى تعمل على تقويم الأخلاق وترقية الآداب هى التى تحمل من أعباء حقوق الأمة ما كان أرجح وزنًا وأكبر نفعاً.

إذًا رجال جمعية مكارم الأخلاق يعنون بأعز شئون الأمة ويقومون على أهم وسيلة من وسائل سعادتها. فجمعية المكارم جديرة بالمؤازرة، خليقة بأن يكون أصلها ثابتًا وفرعها فى السماء.

شدة أثر الأخلاق السامية فى تقدم الشعوب وتفوقها، وقيام جمعية المكارم على بث الفضيلة وإعلاء كلمتها، هما اللذان يسرا على أن أتقدم إلى هذا المجمع الكريم وألقى فيه كلمة صغيرة أصف بها خلقًا من أجل الأخلاق وهو عظم الهمة.

○ ما هو عظم الهمة؟

أحكم علماء الأخلاق بيان هذا الخلق فقالوا: «هو استصغار ما دون النهاية من معالى الأمور».

فعظيم الهمة يستخف بالمرتبة السفلى أو المرتبة المتوسطة من معالى الأمور، ولا تهدأ نفسه إلا حين يضع نفسه فى أسمى منزلة وأقصى غاية ويعبر عن هذا المعنى النابغة الجعدى بقوله:

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا　　　وإنا لنبغى فوق ذلك مظهراً

وإذا كان هذا الخلق لا يقع إلا على معالى الأمور فلا عظمة لهمم قوم يبتغون النهاية فى زينة هذه الحياة، ويغرقون فى التمتع بلذاتها المادية، كهؤلاء الذين يسرفون فى الملابس المنمقة، والمطعومات الفاخرة، والمبانى الشاهقة، فإن الزينة واللذائذ المادية لا تعد فيما تتسابق فيه الهمم من معالى الأمور.

إذا كـان فى لبس الفـتى شـرف لـه   فـمـا السـيـف إلا غـمـده والحـمـائل

والشاعر الذى يقول :

هـمـم المـلـوك إذا أرادوا ذكــــرهـا   من بـعــدهـم فــبـألسـن البـنيــان

لم يقل صواباً ولم ينطق بحكمة إلا أن يريد من البنيان ما أقاموه لمصالح عامة، كأن يكون مدارس أو مستشفيات أو دوراً للكتب أو مساجد يذكر فيها اسم الله أو ملاجئ تأوى إليها اليتامى أو المساكين وابن السبيل.

يستصغر عظيم الهمة ما دون النهاية من معالى الأمور.. وإذا رأى الوسائل فى الخارج تخونه وتأبى أن تساعده على إدراك النهاية، فإنه يمضى فى عزمه ويرضى بمبلغ جهده وإن كان دون المرتبة العليا.

ومن الخطل فى الرأى أن ينزع الرجل إلى خصلة شريفة حتى إذا شعر بالعجز عن بلوغ غايتها البعيدة انصرف عنها جملة، والتحق بالطائفة التى ليس لها فى هذه الخصلة من نصيب ، والذى يوافق الحكمة ويقتضيه حق التعاون فى سعادة الجماعة أن يذهب الرجل فى همه إلى الغايات البعيدة ثم يسعى لها سعيها، ولا يقف دون النهاية إلا حيث ينفد جهده، ولا يهتدى للمزيد على ما فعل سبيلا.

• والناس فى الحقيقة أصناف :

رجل يشعر بأن فيه الكفاية لعظائم الأمور، ويجعل هذه العظائم همته، وهذا من يسمى « عظيم الهمة » أو « عظيم النفس »، ورجل فيه الكفاية لعظائم الأمور ولكنه يبخس نفسه فيضع همه فى سفساف الأمور وصغائرها، وهذا من يسمى « صغير الهمة » أو « صغير النفس »، ورجل لا يكفى لعظائم الأمور، ويحس بأن لا يستطيعها وأنه لم يخلق لأمثالها، فيجعل همته وسعيه على قدر استعداده، وهذا الرجل بصير بنفسه متواضع فى سيرته. هؤلاء ثلاثة ورابعهم لا يكفى للعظائم ولكنه يتظاهر بأنه قوى عليها مخلوق لأن يحمل أثقالها، وهذا من يسمونه « فخوراً » وإن شئت فسمه « متعظماً ».

○ من أين ينشأ عظم الهمة ؟

يتربى عظم الهمة من طريق الاقتداء، كأن ينشأ الفتى تحت رعاية ولى أو أستاذ يطمح إلى النهايات من معالى الأمور، أو من طريق تلقين الحكمة وبيان فضل عظم الهمة وما يكسب صاحبه من سؤدد وكمال، أو من طريق درس التاريخ والنظر فى سير أعاظم الرجال، فإنا لو أخذنا نبحث عن مفاخر أولئك الذين يلهج التاريخ بأسمائهم لوجدنا معظم مفاخرهم قائمة على هذا الخلق الذى نسميه « عظم الهمة » . والقرآن يملأ النفوس بعظم الهمة، وهذا العظم هو الذى قذف بأوليائه ذات اليمين وذات الشمال، فأتوا على عروش كانت ظالمة، ونسفوها من وجه البسيطة نسفًا ثم رفعوا لواء العدل والحرية والمساواة، وفجروا أنهار العلوم تفجيراً، وإذا رأينا من بعض قرائه هممًا ضئيلة ونفوسًا خاملة فلأنهم لم يتدبروا آياته، ولم يتفقهوا فى حكمه .

○ فضل عظم الهمة :

يسمو هذا الخلق بصاحبه فيتوجه به إلى النهايات من معالى الأمور، فهو الذى ينهض بالضعيف يضطهد أو يزدرى فإذا هو عزيز كريم، وهو الذى يرفع القوم من سقوط، ويبدلهم بالخمول نباهة والاضطهاد حرية، وبالطاعة العمياء شجاعة أدبية .

هذا الخلق هو الذى يحمى الجماعة من أن تتملق خصمها، وتسل يدها من أسباب نجاتها ومنعتها، أما صغير الهمة فإنه يبصر بخصومه فى قوة وسطوة، فيذوب أمامهم رهبة، ويطرق إليهم رأسه حطة، ثم لايلبث أن يسير فى ريحهم ويسابق إلى حيث تنحط أهواؤهم .

نعم، يورد هذا الخلق صاحبه موارد التعب والعناء، ولكن التعب فى سبيل الوصول إلى النهاية من معالى الأمور يشبه الدواء المر فيسيغه المريض كما يسيغ الشراب عذبًا بارداً، وعظيم الهمة قد يشتد حرصه على الشرف حتى لا يكاد يشعر بما يلاقيه فى سبيله من أنكاد وأكدار .

وربما كان الشرف الذى يركب له الأخطار والشدائد أعز وقعًا وأدل على عظم همته من الشرف الذى يناله فى يسر وسهولة .

أراد أبو الوليد الباجى – حين كان يناظر أبا محمد بن حزم – أن يثبت لهمته فضلا على همة ابن حزم فقال له: «أنا أعظم منك همة فى طلب العلم، لأنك طلبته وأنت تعان عليه، تسهر بمشكاة الذهب، وطلبته وأنا أسهر بقنديل بائر السوق».

وأجابه ابن حزم قائلاً: «أنت طلبت العلم فى حال فاقة رجاء تبديلها بمثل حالى، وأنا طلبته فى حين ما تعلمه وما ذكرته، لا أرجو إلا علو القدر العلمى فى الدنيا والآخرة».

فضل أبو الوليد الباجى همته على همة ابن حزم بما كان يلاقيه فى سبيل طلب العلم من شدة وعناء، وفضل ابن حزم همته على همة أبى الوليد الباجى بأنه كان يطلب العلم لفضيلته، ولو صح قول ابن حزم وثبت ما اتهم به أبا الوليد من أنه كان يطلب العلم لليسار والرفاهية، لكان أعظم همة ممن يريد اتخاذ العلم وسيلة إلى منصب أو وجاهة أو مال.

يتعلق عظم الهمة بكل شأن رفيع ومقام محمود، ولا تسع هذه الكلمة إلا أن نعرج فيها على عظم الهمة من العلم، وعظم الهمة فى النصح والإرشاد.

عظم الهمة فى العلم

تتفاضل العلوم بغاياتها، وبقدر ما يكون لها من الاتصال بسعادة الإنسان، وتتفاضل همم الطلاب بالنظر إلى هذه العلوم المتفاضلة فى نفسها، فلكل من علم الأخلاق وعلم العروض – مثلاً – أثر فى الحياة الأدبية، ولكن علم الأخلاق أقرب إلى السعادة منزلة، وأوسع فيما ينفع الناس جولة، فمن يعنى بالأخلاق ليتحلى بمكارمها يكون أرفع همة ممن يعنى بالعروض ليعرف أوزان الشعر وما يلحقها من زحاف أو علة، وأعظم من هاتين الهمتين همة من جمع بين درس الأخلاق والعروض.

أخذ بعض أهل العلم يدرس العروض بعد أن بلغ من الكبر عتيًا، ولما لامه بعض أصحابه على اشتغاله بهذا العلم الصغير وهو شيخ كبير، قال له: شهدت مجلس قوم كانوا يتحاورون فى هذا العلم، ولم أكن على معرفة به وكان نصيبى بينهم السكوت، فأخذتنى ذلة.

فمن درس علمًا فأتقنه ثم بسط نظره فى علوم أخرى، كان أعظم همة ممن درس علمًا ثم قعد لا يلقى لغيره من العلوم بالا، ولا يعرف لثمرها اللذيذ طعمًا.

كان لطلاب العلم فى الشرق حرص على أن يستكثروا من العلم ويضعوا أيديهم فى فنون شتى، وما كانت رغبة الواحد منهم فى الاطلاع على العلوم والفنون بعائقة له عن أن يرسل نظره فى بعضها حتى يرسخ فيه فهمًا، ويأخذ بأطرافه علمًا، ويرقى إلى المنزلة التى تسمى «تخصصًا». فشيخ الإسلام ابن تيمية كان طودًا راسخًا فى علوم الشريعة، وأضاف إلى رسوخه فى هذه العلوم أن بلغ فى علوم اللغة مرتبة تخوله أن يخطئ سيبويه فى نحو أربع عشرة مسألة من علم النحو، وهذا حجة الإسلام الغزالى كان متضلعًا من علوم الشريعة ووسائلها، وجمع إلى تضلعه فى هذه العلوم أن كان يهاجم الفلاسفة فى كثير من آرائهم ويناقشها بمنطق وروية، وهذا القاضى عبدالوهاب بن نصر كان فقهيًا نحريرًا وأديبًا فائقًا، وهو الذى يقول فيه أبو العلاء المعرى:

والمالكى ابن نصر زار فى سفر ... بلادنا فحمدنا النأى والسفرا
إذا تفقه أحيا مالكًا جدلاً ... وينشر الملك الضليل إن شعرا

فعظم الهمة يدعو طلاب علوم الشريعة الإسلامية أن يمدوا أنظارهم إلى هذه العلوم الحديثة، ليكونوا منها على بصيرة وليزدادوا بها بينة على بيناتهم المفحمة لهذه الفئة التى تزعم أن بين الدين والعلم خلافًا، وأن من العلم ما لا يستقر مع حقائق الدين فى نفس واحدة.

ومن عظم همة القائم على بعض هذه العلوم الحديثة أن يأخذ نفسه بالاطلاع على حقائق الإسلام وآدابه، ليحرز بها الكمال والسعادة، وليتعالى عن أن يمشى

وراء نفر يجتمعون على أن يحاربوا ما فى هذا الدين القيم من حكمة وفضيلة.

تتفاوت الهمم فى العلم الواحد من ناحية الاطلاع على مسائله، ثم من ناحية التصرف فى هذه المسائل بتحقيق النظر وإجادة البحث، فطالب العلم الذى لا يدع بابًا من أبوابه إلا ولجه، ولا يغادر بحثًا من مباحثه إلا ألم به، يكون أعظم همة ممن لا يطرق منه كل باب، أو لم يعرج فيه على كل مسألة قيمة، وطالب العلم الذى يخوضه بنظر حر، ويتناول مباحثه بنقد وبصيرة يكون أعظم همة ممن يجمع مسائله حفظًا ويتلقاها كما يتلقاها حاكى الصدى لا يكلفك غير إملائها عليه، وطالب العلم الذى يتحرى لبابه ويجول فى أصوله يكون أعظم همة ممن يقضى الزمن فى قشوره ويحبس النظر فى دائرة ضيقة من فروعه.

كذلك نرى الأستاذ النحرير يبخل بأوقاته النفيسة عن أن ينفقها فى مناقشات واهية، وإنما يندفع إلى الخوض فى حقائق العلم والغوص على أسراره، وإذا توجه إلى نقد عبارة مؤلف فإنما يمس الخلل الذى يشوه صورة المسألة التى هى موضع البحث.

هذا والأمل معقود على أن هذه المعاهد والمدارس تنبت لنا رجالاً تعظم هممهم فيجمعون من العلوم ما يجعل الشرق بحرًا زاخرًا، ويسيرون فى كل علم سيرة الباحث الذى يفتح فيه طرقًا قيمة ويجعل نتائجه فى تجدد ونماء.

○ عظم الهمة فى النصح والإرشاد:

فى سبيل الدفاع عن الحق أو الدعوة إلى الإصلاح عقبة لا يقتحمها إلا ذوو الهمم الكبيرة. فإن فى طوائف المبطلين أو المفسدين نفوسًا طاغية وأحلامًا طائشة وألسنة مقذعة، وربما كانت فيهم أيد باطشة وأرجل فى غير الخير ساعية.

فأنصار الحقيقة ينصبون أنفسهم أمام هذه الشرور كلها، وإنما تعظم هممهم على قدر ما يتوقعونه من فقد محبوب أو لقاء مكروه، فالذى ينكر على الحكام خرقًا فى السياسة أو حيفًا فى القضاء يكون أعظم همة ممن لا يحمى الحقيقة إلا إذا عبثت بها أيدى الضعفاء والذين لا يجدون ما ينفقون.

يتمثل لكم عظم الهمة فى نذر بن سعيد قاضى قرطبة حين قام فى خطبة الجمعة ينكر على الخليفة عبدالرحمن الناصر إسرافه فى الإنفاق على تشييد المبانى وزخرفتها، وأخذ يلقى الخطبة فى كلام جزل افتتحه بقوله تعالى: ﴿ **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ** ﴾ وسلك ذلك الكلام الجزل وهو على علم بأن الخليفة حاضر مستمع إليه، ولكن الخليفة انصرف بعد أن قضيت الصلاة ولم يزد على أن صار يصلى فى جامع لا يخطب فيه منذر به سعيد.

يشهد العالمان الرجل من ذوى الشأن يعمل عملا غير صالح، وأعظمهما همة هو الذى يسبق إلى إنكار عمله. وتذكيره بسوء عاقبته.

دخل عثمان بن إدريس ومنذر بن سعيد البلوطى على الخليفة الناصر وهو فى الزهراء، فأنشد أبو عثمان أبياتًا أطرى بها الخليفة على هذا البناء فابتهج الناصر واهتز لهذا الإطراء، أما منذر بن سعيد فإنه أطرق رأسه ساعة، ثم رفع رأسه وقال:

يا بانى الزهراء مستغرقًا أوقاته فيها أما تمهل

لله ما أحسنها رونقًا لو لم تكن زهرتها تذبل

فقال الناصر: إذا هب عليها نسيم التذكار، وسقتها مدامع الخشوع لا تذبل إن شاء الله. فقال منذر: اللهم اشهد. فإنى قد بثثت ما عندى ولم آل نصحًا.

وأصاب منذر فيما قال، فقد ذبلت زهرة الزهراء وتهدمت قصورها يوم قام محمد بن هشام على بنى عامر وانتزع الملك من أيديهم واستولى على قرطبة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة.

وإذا كانت الدعوة من معالى الأمور، فنهايتها التى يبلغها الداعى المصلح أن يرشد إلى ما يراه حقًا، ويحذر مما يراه منكرًا غير حافل بما يحفل به ضعيف الإيمان، أو قليل الإخلاص من رضا الملأ الذين استكبروا.

رفع القرآن مكان الدعوة، ثم جعل الدعاة إلى حق أو إصلاح خير أمة أخرجت للناس، وقد خرج بفضل القرآن رجال عظمت هممهم، فكانوا يؤثرون الحق والنظام على منافعهم الخاصة، ويحتملون فى سبيل النصح والإرشاد ما تدعوهم الحكمة إلى احتماله من فقد السراء أو لقاء الضراء.

وسنرى بتوفيق الله تعالى من هذه المعاهد والمدارس رجالاً كثيراً يقدرون عظم الهمة فى النصح للأمة، وينهضون بهذا الواجب ضاربين بمنافعهم الخاصة إلى وراء، وإذا فاتهم أن يروا ثمرة جهادهم بأعينهم ففى شرف الجهاد وإنارة السبيل للأجيال القابلة كفاية.

ooooo

المدنيــة

قد تدرك العقول بنفسها حسن بعض الأفعال أو قبحها، لأول نظرة أو بعد تأمل وروية، وتتفاوت العقول فى إدراك حسن الأفعال وقبحها حتى إن الفعل الواحد قد يبدو لعقل حسناً، ولعقل آخر قبيحاً، وقد يكون فى بعض الأفعال وجه من الحسن أو القبح لا تجتليه العقول فتقف تجاهه غافلة عنه أو مشتبهة فى أمره.

ولاختلاف العقول فى إدراك حسن الأشياء وقبحها، اختلفت المذاهب وتعددت الفرق: إلى عباد النار، وعباد الكواكب، وعباد الأحجار، وعباد بعض الحيوان، واختلفت الآراء فى مظاهر العبادات، وفى القوانين التي تساس بها الرعايا، وفى العادات، هذا يستحسن أمراً وهذا يستهجنه.

وعلى فرض أن تكون العقول متفقة أو متقاربة فى إدراك الحقائق والمصالح، فهناك قوة فى النفس قد تعارض العقل، وتشق عصا طاعته فى كثير من الأحيان، وهى الإرادة، فقد يدرك الإنسان حسن شيء، وتأبى إرادته أن تتجه إليه، أو يدرك قبح شيء وتنصب عليه إرادته، فإن الإرادة قد تنبعث عن علم صحيح، وقد تسوقها أهواء طاغية، أو عادات مستحكمة.

فالناس فى حالة إلى قوة تفيض أشعتها على العقول، فتتقارب فى إدراك الحقائق والمصالح، وتوجه الإرادة إلى ما أدرك العقل حسنه، أو تصرفها عما أدرك العقل قبحه، وليست هذه القوى سوى الدين الحق.

فالدين يهدى العقول إلى ما تغفل عنه، أو تقصر عن إدراكه من وجوه الإصلاح، ويروض الإرادة حتى تساير العقل فى اتجاهه السديد.

وللدين مزية أخرى فى إصلاح المجتمع، هى أن البراهين القائمة على أنه وضع إلهى تكسو أوامره مهابة فتتلقى بالطاعة فى السر والعلانية.

ومن مزايا الدين فى الإصلاح أن المؤتمر بأوامره يشعر بأنه يعمل ابتغاء رضا الخالق جل شأنه، فهو يرجو الجزاء الأكبر فى حياته الأخرى زيادة على أن عمله الصالح

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كلبنة فى رقى أمته، أو حلقة فى نظام حياتها المطمئنة، وذلك الشعور يزيد عزمه على القيام بالأعمال الجليلة شدة، ويحثه على أن يتحرى بأعماله غاية ما يستطيع مع الإتقان.

وإذا رأينا فى بعض من ينتمون إلي الدين الحق وهنا فى العزم، أو صغراً فى الهمة أو ضيقاً فى العمل، فالدين برىء من تبعة هذه النقائص وإنما تبعتها على أصحابها، وخاصة إن كانوا يعلمون أو على من يوكل إليهم أمر التعليم حيث لم يقوموا عليه بكفاية وأمانة.

ومن هنا كان تعرف حقائق الأديان من أحوال المنتمين إليها خطأ مبيناً، إنما تعرف حقائق الدين من كتابه السماوى أو حديث المبعوث به حيث لم يطرأ عليه تغيير أو تحريف.

فما وعد الله به أهل الدين من عزة فى الدنيا، أو فوز على الأعداء، إنما هو وعد لمن تلقوا ذلك الدين بإيمان يحملهم على أن يمتثلوا أوامره ويجتنبوا نواهيه ما استطاعوا، فلا يخالجك ريب فى صدق الوعود التى وعد الله بها الموقنين من العزة والسيادة إذا رأيت جماعة أو أمة تنتمى إليه وهى تحت سلطان عدو يذيقها عذاب الهون صباحًا ومساءً، ذلك أن وعد الله حق، وهو موجه إلى من يجيبون داعيه بامتثال أمره فى نحو قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وباجتناب نهيه فى مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣].

وإذا كان الدين الحق هو المنظم لشئون الأفراد والجماعات على وجه تقصر عنه النظم البشرية، فمن واجب الحكومات الإسلامية متى أرادت الخير لشعوبها، واستتباب الأمن فى أوطانها، والمباهاة بعدل محاكمها وبطولة جنودها، أن تبذل ما لديها من عناية فى نشر تعاليم الإسلام بين سائر الطبقات، وأن تستمد قوانينها من تشريعه الواسع النطاق.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

صـدق اللهجَـــة

فى كل خصلة فاضلة شرف وخير، ولكُلٍّ خصلة فاضلة أثر فى سعادة الجماعة، وقد تتفاوت هذه الخصال بكثرة الحاجة إليها، ومن الخصال التي تكثر مواضع الاحتياج إليها صدق اللهجة، فلا غنى للجماعة عن أن يكون فيها صدق وحلم، والأحوال التي يحتاج فيها إلى الصدق أكثر من الأحوال التى يحتاج فيها إلى الحلم، ونحن لا نشعر بالحاجة إلى شجاعة السيدات والأطفال، وكل منا يشعر بالحاجة إلى صدق الطفل الآخذ فى التردد على المدرسة، وصدق الصناع فى مصنعه والأمير على كرسيه.

فالكلمة التى نلقيها فى هذه الليلة إنما نصف بها فضيلة شأنها رفيع، وأثرها فى الاجتماع كبير، وهى صدق اللهجة.

ولا تثريب علينا إذا تناولنا فى أثناء بحث هذه الفضيلة نبذة من الحديث عن ضدها وهوالكذب، فإن حقائق الفضائل تتجلى بمعرفة أضدادها.

○ مـا هــو الصــدق؟:

الصدق فى لغة العرب: إلقاء الكلام على وجه يطابق الواقع والاعتقاد، ومقتضى هذا الشرح أن الكلام الذى يخالف الواقع والاعتقاد معا أو يخالف أحدهما لا يدخل فى حقيقة الصدق، بل يندرج تحت اسم الكذب والكذب ذو ضروب وألوان.

للصدق صورة واحدة:

وهى أن تصوغ القول على نحو ما تعتقد، ويكون اعتقادك مطابقًا للواقع، كأن تقول وأنت الناصح الغيور: سلطة العدو أمر من الصبر، وأشد مضاضة من وقع الحسام.

وللكذب ثلاث صور:

إحداها: ما يخالف الواقع والاعتقاد، كمن يتملق فاسقًا أو باغيًا فيصفه بالاستقامة، وهو على بينة من سيرته المغضوب عليها.

ثانيتها: ما يخالف الاعتقاد ويطابق الواقع كالزائغ المنافق ينطق على نحو ما ينطق به أولو الحكمة والهداية.

ثالثتها: ما يخالف الواقع ويطابق الاعتقاد كالغبى يعتقد صلاح بعض الفجار فيصفه بالولاية أو التقوى.

هذه صور الكذب فى مجارى كلام العرب، وقد رأيتموها ممثلة فى المتملق والمنافق والغبى، والذى يرجع عيبه إلى الأخلاق العملية من هذه الصور ما جاء الحديث فيه مخالفًا للاعتقاد، وسواء بعد هذه أخالف الواقع أيضًا وهى الصورة الأولى أم كان مطابقًا للواقع وهى الصورة الثانية.

وبيان هذا أن الباحث فى الأخلاق العملية يوجه عنايته إلى نفس المتكلم حين إلقائه الحديث وينظر إلى اعتقاده وما بينه وبين الحديث من مطابقة أو مخالفة، فإن وجد الرجل يسوق الحديث على غير ما يعتقد وضع عليه اسم الكذب وعده فى حملة هذه الرذيلة الساقطة، ولو اتفق لحديث أن كان مطابقًا للواقع، وإن وجده يلقى الحديث على نحو ما يعتقد لا يعده فى أصحاب رذيلة الكذب وإن لم يجئ حديثه موافقا للواقع.

وهذا الذى تحدث عن اعتقاده وجاء حديثه مخالفًا للواقع لا يرميه الباحثون فى الأخلاق بسبة الكذب، وقد يؤاخذ من جهة أخرى وهى انقياده إلى الظنون الواهية وحديثه عن الأمر قبل التثبت من أنه حقيقة واقعة.

فالكذب فى إطلاق علماء الأخلاق ينصرف إلى من يحدثك بالأمر وهو يعتقد أنه غير واقع، ومعظم ما ورد فى الشريعة من ذم الكذب، محمول على أولئك الذين تنطق عليك ألسنتهم بأشياء يزعمون أنها واقعة وقلوبهم تنكرها.

○ الاحتراس فى صدق اللهجة :

يحدثك الرجل عن أشياء يحس بها فى نفسه، كالحب والبغض والعطش والرى، ويحدثك عن أمور يدركها بمحساته الخمس: البصر والسمع وغيرهما. وهو فيما يدركه بإحساسه الباطن أو إحساسه الظاهر يستطيع أن لا يحدثك إلا بما يطابق الواقع والاعتقاد، فالرجل الصادق لا يقول: « أحببت » وهو يبغض، ولا يقول « سمعت » أو « رأيت » إلا إذا سمع أو رأى.

وقد يحدثك عن حادثة تلقى خبرها عن طريق الرواية، أو يحدثك عن أمر أدركه على وجه النظر والاستدلال، وهذان الصنفان هما ما يعثران به فى مخالفة الواقع أحيانًا، وينزلان به إلى أن تحوم حوله الظنون، فعلى صادق اللهجة أن يحترس فيما يتحدث به عن رواية أو يتحدث به عن ظن واستنباط، والاحتراس فى الأخبار التى تجىء من طريق الرواية أن لا يحدث بها قبل أن ينقدها نقداً بالغًا، وإن بدا له أن يخبر بها على نحو ما سمعها فليذكر أسماء رواتها حتى يبرأ من عهدتها، والاحتراس فى الحديث الذى يستند فيه إلى ظن وأمارة أن لا يطرحه إلى الناس فى صورة المقطوع به، بل ينبه على أنه تحدث به على وجه الظن، كما يصنع كثير من الملأ الذين يعافون الكذب ويريدون أن يجعلوا بينه وبين ألسنتهم حجابًا مستوراً.

فسياج صدق اللهجة الاحتراس فى الحديث المستند إلى رواية أو ظن، ومن حدثك بما علم واحترس فيما روى أو ظن فقد قضى حق فضيلة الصدق ووفى.

○ صدق اللهجة والمجاز:

لا يخرج عن حدود الصدق ما يجرى على ألسنة البلغاء من ضروب الكناية وفنون المجاز، كأن تقول لشخص: « جئتك ألف مرة » تكنى بالألف عن كثرة التردد ولا تريد بها عدد المرار. وكأن تقول: رأيت أسداً مخلبه الحسام. وأنت تريد بطلاً لا يلوى جبينه عن منازلة الأقران، وقد جاء فى كتب الأصول أن قومًا منعوا أن يكون فى القرآن مجاز، وهم الظاهرية. ولا شبهة لهؤلاء إلا زعمهم أن المجاز من قبيل الكذب، والقرآن قول فصل وما هو بالهزل، وهذه الشبهة مدفوعة بقيام

القرينة الدالة على أن المتكلم لا يقصد سوى معنى المجاز، وإذا كان قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] يحتوى قرينة تنفى أن يكون المراد من الظلمات سواد الليل، ومن النور بياض الشمس والقمر والسراج، لم يكن هناك إخبار بما يخالف الواقع أو الاعتقاد حتى يتناوله اسم الكذب الذى لا يحوم على كتاب الله فى حال، وإنما الكذب ذلك الإغراق أو الغلو الذى يضعه الشاعر خيالاً بحتًا كقول بعضهم:

ليس ذا الدمع دمع عينى ولكن هى نفسى تذيبها أنفاسى

وقول الآخر:

وأخفت أهل الشرك حتى أنه لتخافك النطف التى لم تخلق

○ صدق اللهجة والقصص الخيالية:

القصص الخيالية ضروب:

أحدها: ما يحكى على ألسنة الجماد أو الحيوان كقصة كليلة ودمنة.

ثانيها: ما يحكى على ألسنة ذوى نفوس ناطقة، ويدل المتكلم بالقرينة أو بالصريح من القول على أنه اخترعها لتكون مأخذ عبرة أو أدب لغة، كما صنع أبو القاسم الحريرى فى مقاماته. وهذان الضربان من قبيل الإخبار بما يخالف الواقع والاعتقاد، والذى يستر عيب الكذب هنا أن المتكلم لم يوقع المخاطب فى غلط وسوء تصور، وإنما يعرض عليه حكمة أو أدب لغة فى أسلوب طريف.

ثالثها: ما يحكيه الرجل على ألسنة ذوى نفوس ناطقة، ولا ينبه على أن القصة غير واقعة، وهذه أيضًا خارجة عن حد الصدق إلى مكان بعيد، ولو كان الداعى إلى وضعها ما تحتويه من عبرة أو أدب لغة. فالذين يزعمون أن فى القرآن قصصًا غير واقعة وأنها سبقت لما تحتويه من موعظة لا يريدون إلا أن يطعنوا فى القرآن ويخادعون المؤمنين، والمؤمنون لا يخدعون.

○ صدق اللهجة وإخلاف الوعد :

الوعد إخبار عما ستفعله فى المستقبل من إحسان، والصدق والكذب يجريان فى الأخبار المستقبلة كما يجريان فى الأخبار الماضية، وقد وصف الله تعالى إسماعيل - عليه السلام - بصدق الوعد لوفائه بما يعد فقال: ﴿**إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا**﴾ [مريم: ٥٤] وإذا كان الوفاء بالوعد يجعله صادقًا فإخلافه يجعله كاذبًا محالة.

وقد اختلف أهل العلم بعد هذا فى لزوم الوفاء بالوعد، فذهبت طائفة إلى أن من وعد شخصاً بإحسان وجب عليه إنجاز ما وعد، وقضى عليه بأدائه وهذا مذهب عمر بن عبدالعزيز - رضى الله عنه -، ورجحه أبو بكر بن العربى فى عارضة الأحوذى فقال: «والصحيح لزوم الوعد. وخلفه كذب ونفاق». وذهبت طائفة أخرى إلى أن الوفاء بالوعد من مكارم الأخلاق وأن صاحبه يملك الرجوع عنه، وإذا بدا له أن يرجع فليس للقاضى عليه من سبيل، وذهب جماعة من فقهاء المالكية إلى تفصيل وهو أن الوعد المطلق غير لازم وأما الوعد المنوط بسبب فإنه يصير بمنزلة الدين الذى لا مناص له من قضائه، ومثال هذا أن تقول لشخص: تزوج وأنا أدفع المهر. فإذا تزوج كان للحاكم أن يقضى عليك بدفع المهر قضاء نافذاً.

○ صدق اللهجة وإخلاف الوعيد :

الوعيد إخبار عما ستفعله من شر. فإخلافه يجعله كالوعد المخلف قولا كاذبًا، والرجل الذى يوعد آخر ثم يضرب عنه عفواً إنما يمدح من جهة أن مصلحة إخلاف الوعيد أرجح من مصلحة إنفاذه. ففضيلة العفو تغمر عيب الكذب وتجعله فى نظر الأخلاق شيئًا منسيًا، ولتضاؤل نقص الكذب تحت عظم فضيلة العفو ساغ للإنسان أن يتمدح بإخلاف الوعيد الذى يقول:

وإنى إن أوعدته أو وعدته لأخلف إيعادى وأنجز موعدى

ولاشك أن من يقرن الوعيد بنحو المشيئة يحميه أن يجعل إخلافه كذبًا، ولكن الوعيد شأنه أن يصدر فى حال غضب لا يملك صاحبه النظر إلى العواقب، فهو لا يكاد يلفظ به إلا بعد عزم وتصميم.

○ صدق اللهجة والمعاريض :

فى هذه الحياة بلاء، وأشد بلائها ما يمنعك من أن تقضى حق فضيلة، فقد يلاقى الإنسان حالا ترغمه على أن ينطق بما يكره، ويسلك فى القول ما لم يألف، ولو وقف علم الأخلاق أمام هذه الأحوال المرغمة صلبًا جامدًا لضاقت سبيله ووجد بعض النفوس للخروج على أمره عذرًا بينًا، وقد وجدنا علم مكارم الأخلاق - الذى رفع الإسلام قواعده - فسيح الصدر بمقدار ما يسع مقتضيات الحياة الفاضلة.

فصدق اللهجة يعد من الفضائل نظرًا إلى ما هو شأنه من حفظ المصالح ودرء المفاسد، ولو عرضت على وجه الندرة حال يكون حديث الرجل فيها على نحو ما يعلم جالبًا عليه أو على غيره ضررًا فاحشًا، لوجد فى قانون الأخلاق مرونة تسمح له بأن يصوغ حديثه فى أسلوب لا يجلب ضررًا.

فإذا وقع الإنسان فى حال لا يليق معه التصريح بأمر واقع، ولم يكن بد من أن يقول فى شأنه شيئًا، فها هنا يفسح له بمقتضى قانون الأخلاق الذى أتقن الإسلام صنعه أن يأخذ بالمعاريض، وهى ألفاظ محتملة لمعنيين يفهم السامع منها معنى ويريد المتكلم منها معنى آخر، وإن شئت فقل: هى ألفاظ ذات وجهين: أحدهما غير حقيقة وهو ما يسبق إلى فهم المخاطب، وثانيهما حقيقة وهو ما يقصد المتكلم ويحق لك أن تسمى اللفظ من أجله حديثًا صادقًا، وهذا ما يفعله الذين أشربوا صدق اللهجة متى عرفوا أن فى القول الصريح حرجًا أو خطرًا، ومما يساق مثلاً لهذا أن أبا بكر الصديق كان يسأل عن النبى ﷺ فى طريق هجرتهما من مكة إلى المدينة وهو يريد كتم أمره فيقول هذا يهدينى السبيل. يريد أبو بكر من السبيل سبيل الخير والسعادة ويحملها السائل على الطريق التى يسلكها المسافرون.

وما كانوا يرضون عن الحديث ذى الوجهين إذا عمد إليه الرجل لغرض غير صالح. قال عبدالله بن عقبة: دخلت مع أبى على عمر بن عبدالعزيز فخرجت وعلى ثوب، فجعل الناس يقولون هذا كساكه أمير المؤمنين فكنت أقول: جزى الله أمير المؤمنين خيرًا. فقال لى أبى: يا بنى اتق الكذب وما أشبهه، نهاه عقبة عن

إجابة السائلين بقوله: جزى الله أمير المؤمنين خيرًا، لأنه يلقى فى أذهانهم أن الخليفة هو الذى خلع عليه هذا الثوب، ولا داعى له إلى أن يجيبهم بهذه الجملة التى يتبادر منها غير الواقع سوى قصد الفخر، والفخر بإصابة حظوة عند الأمراء - ولو كان مثل عمر بن عبدالعزيز - لا يحسب فى الأغراض المحمودة حتي يحل للرجل أن يرتكب له حديثًا ذا وجهين.

عنى الإسلام بصدق اللهجة جهد العناية، ويريد مع هذا للأمة إخاء وائتلافًا يجعلها كالبنيان يشد بعضه بعضًا، ويريد لجيشها الفوز على الأعداء يهاجمون أن يتحفزوا، ويرغب فى أن يكون الزوجان على وفاق وحياتهما فى نظام. لهذا خفف المصطفى - صلوات الله عليه - فى الكلمة يقولها الرجل ليطفئ عداوة استمرت بين طائفتين أو يقولها فى حرب ليكفى قومه قارعة تسلط الأعداء. أو ليسكت غضب زوجته الصالحة، وقد ذهب القاضى أبو بكر بن العربى فى تأويل الحديث إلى أنه أذن فى المعاريض فذكر هذا الحديث الذى يروى فى استثناء الحرب والإصلاح وإسكات غضب الزوجة، ثم قال: «ولكن ذلك بالمعاريض وهي الألفاظ التى يفهم منها السامع خلاف ما يريد القائل، فهذا هو المأذون فيه».

○ أثر صدق اللهجة فى سعادة الفرد:

يتحلى الإنسان بأدب الصدق فيشرف قدره، وتطيب حياته، ويصفو باله. أما الشرف فلأن الصدق يدل على نقاء السريرة وسمو الهمة ورجحان العقل، كما أن الكذب عنوان سفه العقل وسقوط الهمة وخبث الطوية. وقد جاء فى حديث أكمل الخليقة ما يرشد إلى أن الصدق حسنة تنساق بصاحبها إلى حسنات وأن الكذب سيئة تنجر به إلى السيئات. قال المصطفى - صلوات الله عليه - فيما رواه الإمام البخارى «**إن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقًا، وإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا**» ولا يستقيم لأحد سؤدد أو يحرز فى قلوب الناس مكانة إلا حيث يهبه الله لسانًا صادقًا. وإذا ابتغى بالكذب

منزلة فإنما يتبوؤها بين طائفة ضربت فى أدمغتهم الغباوة، أو طائفة تؤثر اللهو على الجد ويشغلها الخداع عن النصيحة.

وأما طيب العيش فإن الناس لا يطمئنون إلا إلى معاملة الصادق الأمين وشأنهم الانصراف عمن ألفوه يضع الكلمة فى غير واقع، وقد يحرص التاجر أو الصانع على درهم أو دينار يقتنصه بكلمة غير صادقة، فإذا هو يضيع سمعة طيبة وربحًا وافرًا.

ومن الشاهد أن الصدق يكسب الرجل وقارًا ويلقى له المودة فى عشيرته والناس أجمعين، احترام الناس للرجل مما يدعوهم إلى النصح فى صحبته وإذا وضع بين أيديهم شأنا من شئونه الحيوية قاموا عليه بإخلاص.

وأما صفاء البال فمن ناحيتين:

أولاهما: أن مرتكب الرذيلة لا بد أن يحس بوخز فى ضميره ويسمى توبيخ الضمير، والكذب من أفظع الرذائل، فوخزه فى الضمير غير يسير، ومتى سار الإنسان فى طريق الصدق وأقام بينه وبين الكذب حصنًا مانعًا عاش فى صفاء خاطر وراحة ضمير، ولم يكن هذا الوخز النفسى عليه من سبيل.

أخراهما: أن من يلطخ لسانه برجس الكذب لابد من أن تبدو سريرته ويجر عليه شؤم هذه الرذيلة شقوة، فلا يلاقى من الناس إلا ازدراء، وربما رموه بالتوبيخ فى وجهه. أما صادق القول فإنه يظل صافى الكرامة آمنًا من مثل هذا الخطاب المشين.

أثر صدق اللهجة فى سعادة الجماعة:

تسعد الجماعة وتنتظم شئونها على قدر احتفاظها بفضيلة الصدق، فالمعاملات كالبيع والإجارة والقرض والشركة لا يتسع مجالها ويستقيم سيرها إلا أن تديرها لهجة صادقة، والأمة التى تسود فيها فضيلة صدق اللهجة حتى يكون القائم بأى عمل موضع ثقة الجمهور، تتقدم حالتها الاقتصادية ولا يجد عدوها الوسيلة إلى مزاحمتها فى نحو التجارة والصناعة.

والصداقات التى تجعل أفراد الأمة كالجسد الواحد إنما يشتد رباطها على قدر ما يكون لهؤلاء الأفراد من الاحتفاظ بصدق اللهجة.

وقد يكون للكاذب صديق من صنف أصدقاء المنفعة، ولكنه لا يستطيع أن يتخذ من إخوان الفضيلة صديقًا حميمًا.

فالذى يستهين بالكلمة الكاذبة يطلق بها لسانه، يؤذى نفسه ويرهق المجتمع خللاً وفساداً، فالكاذب لا يعد عضواً أشل فقط، وإنما هو عضو يحمل دمًا مسمومًا لا يلبث أن يسرى إلى الأعضاء المتصلة به فيؤذيها.

○ أثر صدق اللهجة فى العلم:

يمرق الرجل من فضيلة الصدق على طرق شتى، وأبعد هذه الطرق ضلالاً أن يتحدث فى العلم بما ليس من العلم أو يضيف إلى أحد قولا لم يصدر عنه، يفعل هذا من يرغب فى التفوق على قرين ينافسه، أو يرغب فى أن تطير له سمعة أعلى من منزلته، ومن يحاول التفوق على قرينه بزخرف من الباطل فهو أخو الساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى.

ومن رضى بأن تكون سمعته فوق منزلته فإن وراء السمعة عقولا تزن الرجال بالآثار فلا يدعون السمعة تغلو فى طيرانها، بل يأخذون بناصيتها ويهبطون بها إلى أن تكون مع منزلة صاحبها على سواء.

ولو أيقن أولئك الذين يدسون فى العلم ما ليس من العلم أن من حولهم بصائر نافذة وأقلاماً ناقدة لما انسلخوا من لباس الصدق، ولكنهم قوم لا يوقنون.

يتحدث العالم فى غير صدق فتذهب الثقة به من القلوب. ويذهب معها شطر علمه وهو ما يرجع إلى النقل والرواية، وكم من منتم إلى العلم اطلعوا له على اصطناعه خبراً فطرحوه من حساب الموثوق بنقلهم، وكذلك الرجل يخرج عن أدب الصدق مرة فيتعدى شؤم الكذب إلى سائر أقواله فتوشك أن تذهب كما يذهب هذيان المبرسمين هزواً.

كـذبـت ومن يـكذب فـإن جـزاءه   إذا مـا أتى بالصـدق أن لا يصـدقا

○ علل التهاون بصدق اللهجة :

ينحرف الرجل فى حديثه عن قصد السبيل لدواع مقبوحة ومآرب دنيئة، وليس فى وسعنا ذكر هذه الدواعى والمآرب، وإنما نسوق منها أمثلة تريكم أن من لا يقدر قيمة الصدق قد يبيعه بثمن بخس، وكل ما يرضى به ثمناً للصدق فهو بخس ولو حثوا له من هذه الصفراء والبيضاء ما لا يأتى عليه حساب .

ينحرف الرجل عن الصدق ليتملق ذا مقام وجيه، وليتزلف إلى ذوى المقامات الوجيهة بقول الزور إلا من صغرت نفسه وضاق عليه مجال القول الصائب الحكيم، نحن نعلم أن بعض ذوى المناصب قد مسخت فطرهم فلا يرضون عمن يجلس إليهم إلا أن يدخل عليهم من باب التملق والنفاق، ونعلم مع هذا أن كرم الأخلاق يدعوك إلى أن ترعى حرية ضميرك وتحافظ على صدق لهجتك، فأجب داعيه وذر الذين يحبون أن تشيع فاحشة فى الأمة فإنهم قوم لا يفقهون .

ينحرف الرجل عن الصدق ليغرب عند الناس ويريهم أنه صاحب سمر حتى يخف عليهم ظله ويرغبوا فى منادمته، وإنما يفعل هذا من يحرص على أن يغشى كل منزل وتتم به حلقة كل مجتمع . أما من يبتغى الحياة الزاهرة الشريفة فيتقلد فضيلة الصدق فى كل حال، ثم لا يوالى إلا أولى الجد، ولا يبذل خطواته إلا حيث تحترم الحقيقة والفضيلة .

وقد ينطوى بعض الناس على عداوة الشخص فيرميه بمساوئ ليصرف عنه القلوب ويسقط مهابته من العيون، ولا أشأم على الرجل من أن يناصل عدوه بالبهتان، ومن كانت له حاجة فى أن يؤلم أعداءه فإنه لم يؤلمهم بأشد من احتفاظه بمكارم الأخلاق، ومن أعز هذه المكارم أن يكون حر الضمير عفيف اللسان .

وفى الناس من إذا أخذ يحدثك فى شأنه أو شأن سلفه أذن لقريحته فيخترع، وأطلق لسانه فيرتع فى غير واقع، والألمعية تشهد بأن الرجل لا يستطيع أن ينال بمثل هذا الحديث ذرة من فخر أو حمد . وربما قام حديثه هذا شاهداً على أنه لم ينشأ فى أدب متين، فيطرح نفسه فى زراية من حيث يريد أن يرفعها إلى فخار .

ومن لا يؤمن بأن خالق الكون يجازى هذه الألسنة على ما تصنع من تحريف أو تزوير، لا يبالى أن يلبس الحقيقة بالباطل ويصور بلسانه أشياء ليس لها فى الواقع من مثال، ولا يكاد الملحد يحتفظ بصدق القول إلا حين يريد أن يتشبه بذوى المروءة، وحين يخشى افتضاح زوره ويخشى من افتضاحه ضرراً، وانظر فى قصة أبى سفيان حين استدعاه هرقل فى ركب من قريش وأخذ يسأله فى شأن النبى ﷺ فإنكم تجدون أبا سفيان وهو زعيم قريش يومئذ يقول: «فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عنى كذبًا لكذبت عليه» قال أبو سفيان هذا أيام جاهليته وهو سيد قومه، أما صدق اللهجة القائم على الإيمان فلا يختل نظمه ولا يختلف غيب صاحبه عن حال علانيته. فمن تصدى جماعة وعنى بأن يجعلهم المثل الأعلى لفضيلة الصدق فليسع لأن يكون إيمانهم بالله راسخًا والإيمان الراسخ مطلع كل فضيلة.

○○○○○

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مقاصد الإسلام في إصلاح العالم

يدخل الفساد فى العقائد والآراء والأخلاق، وفيما يقصد به التقرب إلى الخالق جل شأنه. وفيما يتناوله الإنسان من نحو المطعوم والملبوس، وفى المعاملات الجارية بين الأفراد والجماعات من الناس، بل يدخل الفساد فى معاملة الإنسان للحيوان.

وقد دلنا التاريخ أن كثيراً من عقائد الأمم كانت زائغة، وكثيراً من آرائهم كانت مزاعم ينبذها العقل، وأن الأخلاق كانت منحطة، والتقرب إلى مبدع الخليقة لا يقع على وجهه الصحيح، والتمتع بالمطعومات والملبوسات وما يتخذ من المراكب لا يقف عند الطيبات والزينة وما يوافق الحكمة، ومعاملات الأفراد والجماعات من الناس والحيوان لم تكن جارية على نظام الرحمة والعدل.

فكان من مقاصد الإسلام تقويم العقائد، وتطهير العقول من المزاعم السخيفة، وإصلاح الأخلاق، وشرع العبادات الصحيحة، وبيان الطيبات من الرزق، وما لا يخرج عن حدود الحكمة من نحو الملابس والمراكب، وتنظيم المعاملات على وجه العدل والرفق.

أما العقائد فقد أنكر الإسلام على أصحاب الملل الباطلة، وأقام الحجج على بطلان تلك الملل، وقرر العقائد السليمة وثبتها بالبراهين القاطعة.

حارب عقيدة الشرك بالله، ونهى عما يفضى إليها كالمبالغة فى تعظيم بعض المخلوقات، وصرح ببطلان كل عبادة يتوجه بها إلى مخلوق من نحو صنم أو كوكب أو نار أو حيوان أو إنسان. ونظر فى الأديان السماوية السابقة كاليهودية والنصرانية. فدل على ما طرأ عليها من تغيير وما دخلها من مبتدعات حتى بعدت عن هداية الله، وأصبحت تلك الأديان فى واد والسعادة فى واد.

وأما الآراء فقد قصد الإسلام لتقويمها بطريقة عامة هى نهيه عن التقليد وحثه على الرجوع إلى العقل وإقامة العلم على قاعدة الاستدلال، ثم أتى إلى مزاعم

شبكة الألوكة - قسم الكتب

كانت ذائعة بين الناس، فنبه على بطلانها كزعم الشؤم فى بعض الأشياء، وكزعم أن خسوف الشمس أو القمر يقع لموت رجل عظيم.

وأما الأخلاق فقد وجه إليه الإسلام جانباً كبيراً من عنايته؛ فأنكر الجبن والبخل والكذب والخيانة والرياء والحسد، إلى غير ذلك من الأخلاق الذميمة وحث على الشجاعة والكرم والصدق والأمانة والحلم والإخلاص. إلى نحو هذا من الأخلاق الحميدة.

وأما العبادات التى هى صلة بين الخالق والمخلوق، فقد قرر أوضاعها، ورسم حدودها، ونبه على شروط صحتها مثل الصلوات والصيام والحج والزكاة والذكر، ونبه على فساد أعمال قد يحسبها الناس عبادات تقربهم إلى الله، نبه على ذلك بوجه عام كما قال ﷺ: «**من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**». وقصد لكثير من الأعمال الخاصة، فدل على أنها ليست من العبادات فى شىء، كشد الرحال للصلاة فى مسجد غير المساجد الثلاثة وكوصل الليل بالنهار فى الصيام.

وأما المطعومات فقد ذكر الطيبات، وأذن فى التمتع بها وذكر الخبائث ونهى عن تناولها وأما الملبوسات فقد حرم بعضها، كما حرم على الرجال لبس الحرير والذهب والفضة لما فى استعمالها من السرف والرفاهية، والرجال فى حاجة إلى الكمال النفسى، وليسوا فى حاجة إلى زخرف المظهر، وإذا كان الحرير والذهب والفضة تزيد فى ظاهر المرأة حسناً، فإن الرجل لا يباهى إلا بسمو خلقه واستنارة فكره واستقامة سيرته وصلاح أعماله، وتطوحه فى النعيم إلى حد بعيد يعود على الرجولة الكاملة بشىء من النقص كثير أو قليل.

وأما المراكب فقد أذن فى ركوب بعض الحيوان، كالخيل والبغال والحمير والإبل. ونهى عن ركوب البقر ويلحق بالبقر كل حيوان يحصل له ما يحصل للبقر من ضرر الركوب عليه.

وأما المعاملات بين الناس فقد أخذت من شريعة الإسلام أوسع مكان، ونريد من المعاملات ما يجرى بين شخصين أو أشخاص من نحو عقود البيع والإجارة والقرض

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والهبة، ويدخل فى هذا القبيل مراعاة حقوق الزوجين والأقارب والأرقاء والأطفال. فيعد فى قبيل المعاملات أحكام النكاح والطلاق والعتق والحضانة والنفقات والإيصاء.

وأما معاملة الحيوان فقد أخذت جانبًا من عناية الإسلام إذ نهى عن تعذيب الحيوان وحث على الرفق به، وقد سقنا الشواهد على هذا فى الرسالة الثامنة عشرة من هذا الكتاب (١).

ثم إن الإسلام أرشد إلى أشياء قصد لها قصد الوسائل التى لا تتحقق المقاصد الأصلية إلا بها كالجهاد وعقوبات الجناة المشروعة للزجر عن الاعتداء على الدين والنفس والعرض والمال والعقل. وكالشورى فإنها طريق الوصول إلى الحكم العادل، وطريق تدبير الأمور على نهج السداد. وكإطلاق العقل من أسر التقليد لأن طريق الإيمان الصادق، واستنباط الأحكام الصحيحة، وتوسيع دائرة العلوم على اختلاف موضوعاتها.

فالإسلام لم يقتصر على إصلاح العقائد، وتنظيم الصلة بين العبد وربه كما يقول بعض من يظهر الإسلام ويخفى الإنكار.. بل الإسلام دين سماوى نظر إلى كل ناحية من نواحى الحياة الفردية والاجتماعية، وقرر لها نظمًا مفصلة أو وضع لها أصولاً عامة، وعد الخروج على هذه النظم وهذه الأصول فسقًا وظلمًا، بل سماه فى بعض الآيات كفرًا كما قال تعالى: ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾ [المائدة: ٤٤] وليس من شك فى أن من خرج على نظم الإسلام وأصوله معتقدًا أن ما خرج إليه أقرب إلى الحكمة وأحفظ للمصلحة فقد خلع طوق الدين الحنيف من عنقه.

ooooo

(١) الجزء الأول.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الإخلاص

خلق الإنسان ليعرف مبدعه الحكيم، ويعمل فى حياته على صراط مستقيم، والعمل القيم ما كان موافقًا لما رسمه الشارع، وصحبته نية طيبة، فإن كان العمل غير موافق لما ورد عن الشارع، فهو عمل باطل وإن قصد به صاحبه التقرب إلى الله، وذلك هو البدعة التى سماها النبى ﷺ ضلالة، وإن كان العمل على نحو ما رسمه الشارع، ولكن صاحبه لم يقصد به امتثال أمر الله، فهو مردود على صاحبه، لأنه فقد الروح الذى يعطيه حياة وبهجة وهو الإخلاص.

ومدار الإخلاص على أن يكون الباعث على العمل أولاً امتثال أمر الله، ولا حرج على من يطمح بعد هذا إلى شىء آخر، كالفوز بنعيم الآخرة أو النجاة من أليم عذابها، بل لا يذهب بالإخلاص بعد ابتغاء وجه الله أن يخطر فى باله أن للعمل الصالح أثاراً فى هذه الحياة كطمأنينة النفس، وأمنها من المخاوف، وصيانتها من مواقف الهون إلى غير هذا من الخيرات التى تعقب العمل الصالح، ويزداد به إقبال النفوس على الطاعات قوة على قوة.

ومن المعروف عند أهل العلم أن قصد المصلحة الدنيوية من عمل الخير بعد تحقق قصد الامتثال لأمر الله لا ينزل به عن درجة القبول، كأن يقصد من رحلته التجارة مع قصد أداء فريضة الحج، أو يقصد التبرد بعد قصد التطهر بالماء لأداء فريضة الصلاة، أو يقصد التلذذ بالعلم بعد أن يقصد الوجه الذى اقتضى أمر الشارع بدراسته، فمن يطلب علوم الدين ليصلح نفسه ويرشد غيره أو يدرس فنون الحرب ليدافع عن شريعته ويحمى ذمار أمته. فلا جناح عليه بعد هذا أن يذكر ما فى العلم من لذة فيزداد ارتياحه ويقوى نشاطه.

حضر الشريف التلمسانى وهو صبى درس الأستاذ أبى زيد بن الإمام، فذكر أبو زيد نعيم الجنة، فقال له الشريف: هل يقرأ فى الجنة العلم؟ فقال أبو زيد: نعم، فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، فقال الشريف: لو قلت لا، لقلت لك لا لذة فيها. فعجب منه الشيخ ودعا له.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والإخلاص يرفع شأن الأعمال حتى تكون مراقى للفلاح، وهو الذى يحمل الإنسان على مواصلة عمل الخير، فمن يصلى رياء أو حياء من الناس لا بد أن تمر عليه أوقات لا ينهض فيها إلى صلاة، ومن يحكم بالعدل ابتغاء السمعة أو خوف العزل من المنصب قد تعرض له منفعة يراها ألذ من السمعة، أو يصادفه عهد حكومة يأمن فيه من العزل، فلا يبالى أن يدع العدل جانبًا، ومن يدعو إلى الإصلاح ابتغاء الجاه قد ينزل بين قوم لا يحظى بينهم إلا من ينحط فى أهوائهم فينقلب داعيًا إلى الأهواء.

وقد أرتنا الأيام أشخاصًا كانوا يظهرون فى اعتدال وغيرة على الحق، ثم اتصلوا بنفر من أهل الدنيا يناوئون هداية الله، فلم يكن منهم إلا أن طرحوا ثوب الاعتدال، وصاروا ينطقون بلهجة أولئك النفر فى شيء من التورية.

ومن يفعل المعروف لتردد ذكره الألسنة فى المجالس أو الصحف قد يرى بعينه سبيلا من سبل الخير فى حاجة إلى مؤازرة، ولكنه لا يرى بجانبه لسانًا أو قلمًا شأنه إطراء المؤازرين، فيصرف عنه وجهه وهو يستطيع أن يمد إليه يده، ويسد حاجته.

والإخلاص هو الذى يجعل فى عزم الرجل متانة، ويربط على قلبه فيمضى فى عمله إلى أن يبلغ الغاية، وكثير من العقبات التى تقوم دون بعض المشروعات لا يساعدك على العمل لتذليلها إلا الإخلاص، ولولا الإخلاص يضعه الله فى نفوس زاكيات؛ لحرم الناس من خيرات كثيرة تقف دونها عقبات.

قد يخلص الرجل فى بعض الأعمال، ويتغلب عليه الهوى فى بعض؛ فيأتى بالعمل صورة خالية من الإخلاص، والذى يرفع الشخص إلى أقصى درجات الفضل والمجد إنما هو الإخلاص الذى يجعله الإنسان حليف سيرته فلا يقدم على عمل إلا وهو مستمسك بعروته الوثقى، ولا أكون مبالغًا إذا قلت: إن النفس التى تتحرر من رق الأهواء، ولا تسير إلا على ما يمليه عليها الإخلاص، هى النفس المطمئنة بالإيمان المؤدبة بحكمة الدين ومواعظه الحسنة.

فالإخلاص الذى يقوم على الإيمان الصادق، والتهذيب الدينى، هو الذى يسمو

شبكة الألوكة - قسم الكتب

سلطانه على كل سلطان، ويبلغ أن يكون مبدأ راسخًا تصدر عنه الأعمال الصالحة بانتظام، وهو الذى يجد له صاحبه حلاوة فيسهل عليه أن يكون أحد السبعة المشار إليهم بقوله ﷺ: «**سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله**» إلى أن قال: «**ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**» وحكى أشعب بن جبير أنه كان فى بعض سكك المدينة فلقيه رجل وقال له: كم عيالك؟ قال فأخبرته، فقال لى: قد أمرت أن أجرى عليك وعلى عيالك ما كنت حيًا. فقلت: من أمرك؟ قال: لا أخبرك، قلت: إن هذا معروف يشكر، قال: الذى أمرنى لم يرد شكرك. قال: فكنت آخذ ذلك إلى أن توفى خالد بن عبدالله بن عمر بن عثمان، فحفل له الناس فشهدته، فلقينى ذلك الرجل فقال: يا أشعب؛ هذا والله صاحبك الذى كان يجرى عليك ما كنت أعطيك!

هذا فاعل للخير من وراء حجاب، وأين هو من أشخاص لا يتورعون أن يلبسوا الحق بشىء من الباطل، ويزيدون على هذا أن يزعموا أن هذا اللبس إصلاح، ويعلنون بأجهر صوت أنهم مخلصون فيما يقولون أو يفعلون؟

ولعلك لا تجد أحداً يتصدى لعمل إلا وهو يدعى الإخلاص فيما يعمل، ذلك لأن الإخلاص موطنه القلب، والقلوب محجوبة عن الأبصار، وإذا وصفت أحداً بالإخلاص أو عدم الإخلاص فإنما ترجع فى وصفك إلى أمارات تبدو لك من أحواله الظاهرة.

ومن هذه الأحوال ما يدلك على سريرة الرجل دلالة قاطعة، ومنها ما لا يتجاوز بك حد الظن، وهذا موضع التثبت والاحتراس، ففى وصف المخادع بالإخلاص، ووصف المخلص بالخداع، ضرر اجتماعى كبير فإن وثقت بمجرد الظن لم تأمن أن تقضى على فاسد الضمير بالإخلاص، فيتخذه الناس موضع قدوة فيستدرجهم إلي فساد صغير حتى إذا ألفوه نقلهم إلى فساد كبير، وربما قضيت على طاهر القلب بعدم الإخلاص فكنت كمن يسعى لإطفاء سراج والناس فى حاجة إلى سرح تنير لهم السبيل.

والإخلاص الذى يخالط النفوس حتى يكون القابض على عنانها هو فى نفسه فضيلة؛ وهو لا ينزل إلا حيث تنزل فضائل كثيرة فالإخلاص يمد جأش صاحبه بقوة، فلا يتباطأ أن ينهض للدفاع عن الحق، ولا يبالى ما يلاقى فى دفاعه عنه من أذى، والإخلاص يشرح صدره صاحبه للإنفاق فى بعض وجوه البر، فتراه يؤثرها بجانب من ماله وإن كان به خصاصة، والإخلاص يعلم صاحبه الزهد فى عرض الدنيا، فلا يخشى منه أن يناوئ الحق أو يلبسه بشىء من الباطل ولو أمطر عليه أشياع الباطل فضة أو ذهباً.

والإخلاص يحمل القاضى على تحقيق النظر فى القضايا؛ فلا يفصل فى قضية إلا بعد أن يتبين له الحق، والإخلاص يوحى إلى الأستاذ أن يبذل جهده فى إيضاح المسائل، وأن لا يبخل على الطلاب بما تسعه أفهامهم من المباحث المفيدة، وأن يسلك فى التدريس الأساليب التى تجدد نشاطهم للتلقى عنه.

والإخلاص يصون التاجر عن أن يخون الذى يأتمنه فى صنف البضاعة أو قيمتها؛ ويحمل الصانع على إتقان عمله حسب الطاقة.

والإخلاص يردع قلم الكاتب عن أن يقلب بعض الحقائق، أو يكسوها لوناً غير لونها إرضاء لشخص أو طائفة.

وإذا كان للإخلاص هذه المآثر العظيمة فحقيق علينا أن نربى الناشئين على أن يكونوا مخلصين فى كل ما يقولون أو يفعلون؛ ونلقنهم ماذا يناله المخلص من حمد وكرامة وحسن عاقبة لكى تخرج لنا معاهد الدين والعلم رجالاً يقوم كل منهم بالعمل الذى يتولاه بحزم وإتقان.

ooooo

الأمانـــة

فلاح الأمة فى صلاح أعمالها، وصلاح أعمالها فى صحة علومها، وصحة علومها أن يكون رجالها أمناء فيما يروون أو يصفون، فمن تحدث فى العلم بغير أمانة فقد مس العلم بقرحة، ووضع فى سبيل فلاح الأمة حجر عثرة.

لا تخلو الطوائف المنتمية إلى العلوم من أشخاص لا يطلبون العلم لينحلوا بأسنى فضيلة، أو لينفعوا الناس بما عرفوا من حكمة، وأمثال هؤلاء لا تجد الأمانة فى نفوسهم مستقراً، فلا يتحرجون أن يرووا ما لم يسمعوا، أو يفوا ما لم يعلموا، وهذا ما كان يدعو جهابذة أهل العلم إلى نقد الرجال، وتمييز من يسرف فى القول ممن يصوغه على قدر ما يعلم، حتى أصبح طلاب العلم على بصيرة من قيمة ما يقرءونه فلا تخفى عليهم منزلته، من القطع بصدقه أو كذبه أو رجحان أحدهما على الآخر، أو احتمالها على سواء.

قيض الله للسنة النبوية رجالا أشربوا فى قلوبهم التقوى، فنهجوا فى روايتها نهج أصحاب رسول الله ﷺ فلا يروون إلا ما وثقوا من صحته، وهم بعد هذا الاحتراس البالغ على فريقين: فريق يحافظون فى الرواية على الألفاظ لا يغيرون منها حرفًا، ومن أصحاب هذه الطريقة القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق، ورجاء بن حيوة، ومحمد بن سيرين.

وفريق من أولئك الراشدين يحافظون فيما يروون من الحديث على المعنى ولم يروا بأساً فى التعبير عنه بلفظ غير لفظ الرواية على شرط أن يؤدى المعنى كما هو، ومن أصحاب هذه الطريقة الحسن البصرى، والشعبى وإبراهيم النخعى.

اندس بين هؤلاء الأمناء أشخاص يتشابهون فى الاستخفاف بصدق اللهجة، ويختلفون فى الأغراض التى دعتهم إلى هذا الاستخفاف، فمنهم الجاهل الذى يحسب أن من طرق الإحسان إلى الدين وضع أحاديث للترغيب فى بعض ما ندب إليه من أعمال صالحة، كما وضع نوح بن أبى مريم أحاديث فى فضل سور القرآن،

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقال: رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبى حنيفة ومغازى ابن إسحاق، فوضعت هذه الأحاديث حسبة.

ومنهم المغلوب على رشده يضع الحديث لنحو تأييد مذهب أو إصابة عرض زائل، كأن يضع حديثًا فيما يوافق هوى ذى سلطان ليزداد عنده حظوة مثل غياث ابن إبراهيم: رأى المهدى يلعب بالحمام فتصرف فى حديث «لا سبق إلا فى نصل أو خف أو حافر» فزاد فيه «أو جناح» وقد شاء الله تعالى أن يتنبه المهدى لهذه الخيانة، فأنب غياثًا وترك الحمام وأمر بذبحها.

ومنهم الزنديق: يضع أحاديث ليفسد القلوب ويزعزع الإيمان، كما وضع بعض عباد الأوثان حديث «لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه».

ونهض باللغة العربية وآدابها رجال طبعوا على الأمانة، مثل أبى عمرو بن العلاء، والمفضل الضبى، والخليل بن أحمد، وسيبويه، والأصمعى وابن الأعرابى، وابن عمرو الشيبانى، ومحمد بن مسلم الدينورى؛ ولم تخلص اللغة وآدابها من أن ينتمى إليها نفر لا يتحاشون أن يدخلوا فيها ما ليس من حقائقها كقطرب (١)، وحماد الراوية، ولولا العلماء الذين ينقدون ما يرويه أمثال هؤلاء لأصيبت اللغة بفساد كبير.

وللتاريخ القسط الأوفر من اختلاق الرواة، وتزوير الكتاب فكم من حقائق شاخصة حاولوا أن يذهبوا بها هباء! وكم من سير نقية أخرجوها فى صورة ما يستحق هجاء، وسير مدنسة ألبسوها ثوب ما يستأهل ثناء! ومن ناحية المحرومين من نعمة الأمانة فى العلم صدرت كتب مثل كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة - وصفت كثيرًا من أفاضل السلف فى غير إنصاف، وولغت فى أعراض الصحابة وهم خير أمة أخرجت للناس، وقد حذر أهل العلم من التسرع إلى تسليم ما يكتبه المؤرخون فى شأنهم، وإنما يعول فى أخبارهم على الروايات الموثوق بها كالأخبار الواردة على طريق علماء الحديث.

---

(١) كان متهمًا فى رأيه وروايته عن العرب (مقدمة التهذيب لأبى منصور الأزهرى).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وكذلك ترى فى غير الحديث واللغة والتاريخ من العلوم رهطًا يمسونها بأيد غير مؤتمنة، ويحشرون فيها ما لا يصح رواية أو لا يقبل دراية، فيتناولها الجهابذة بالنقد فينفون خبثها كما تنفى النار خبث الحديد.

فالأمانة زينة العلم وروحه الذى يجعله زاكى الثمر لذيذ المطعم، وإذا قلبت النظر فى تراجم رجال العلم، رأيت بين العالم الأمين وقرينه غير الأمين بونًا شاسعًا، ترى الأول فى مكانة محفوفة بالوقار، وانتفاع الناس منه فى ازدياد، وترى الثانى فى منزلة صاغرة ونفوس طلاب العلم متصرفة عن الأخذ عنه أو متباطئة.

وقد تقرأ كتابًا فتراه حافلاً بالمسائل النادرة، فيكبر صاحبه فى عينك، ومتى عرفت أنه من المطعون فى أمانتهم شعرت بأن شطراً من ذلك الإكبار قد ذهب، وخالطك الريب فى صحة ما أعجبت به من المسائل الراجعة إلى الرواية

كيف تكون منزلة الجاحظ عندك لو درست حياته فخرجت مالئًا يدك بالثقة من أنه رواية أمين؟ لا أشك فى أن الأمانة إذا انحازت إلى مثل ذكاء الجاحظ وسعة اطلاعه بلغ صاحبها فى الشرف والسؤدد المكانة القصوى، ولكنك تقرأ ما شهد به بعض (١) ناقدى علماء العربية من أن الجاحظ غير مأمون فيما يروى، فلا يبقى فى نفسك من احترامه إلا ما جاءها من ناحية سعة علمه وبراعة بيانه.

ولا أظنك بعد أن تعلم أن أبا الفرج الأصبهانى صاحب كتاب الأغانى غير معدود فيمن يطمأن إلى روايته (٢) إلا أن تقرأ كتاب الأغانى على أنه كتاب أدب يجمع بين الصحيح والسقيم، حتى إذا أردت تحقيق موضوع تاريخى لم تعول على ما ينفرد بروايته فتورده كما تورد ما يرويه ابن جرير الطبرى مثلاً - وأنت مطمئن إليه - ولو كنت إذ درست حياة أبى الفرج وجدتها خالصة مما يخدش فى أمانته لأخذ فى نفسك مكانة فوق المكانة التى حازها من جهة سعة إطلاعه وإتقانه لصناعة التأليف.

---

(١) أبو منصور الأزهرى فى مقدمة كتاب «التهذيب».

(٢) انظر عيون التواريخ لابن شاكر.

فالرجل الذى يكون على جانب من العلم ولا يتصرف فيه بأمانة حصينة، يرمقه الناس بازدراء؛ وتذهب ثقتهم به فلا يكادون ينتفعون بما يمكنهم أن ينتفعوا به من معلوماته الصحيحة، وهذا صاعد بن الحسين البغدادى دخل قرطبة أيام المنصور بن أبى عامر، وكان عالمًا باللغة والأدب والأخبار، ولكن أهل العلم اختبروه فوجدوه يتنفق بالكذب، فأعرضوا عنه ولم يأخذوا منه شيئًا، وألف كتابًا سماه الفصوص نحا فيه نحو الأمالى لأبى على القالى، فغلب شؤم ما فيه من كذب على ما فيه من صدق، وكان شكرهم لهذا الكتاب أن طرحوه فى النهر.

قد يقع الرجل فى حال يرى أن الاعتراف فيه بالجهل يذهب بشىء من احترام سائليه له فيقف بين داعيين: فضيلة الأمانة تدعووه إلى أن يقول «لا أدرى»، وحرصه على أن يبقى احترامه فى نفوس سائليه غير منقوص يدعوه إلى أن يستمد من غير الحقيقة جوابًا، وفى مثل هذا الحال يظهر مقدار صلة العالم بمزية الأمانة، فإن كان راسخًا فيها رسوخ الجبل تشتد به العواصف فلا تزحزحه قيد شعرة، أجاب داعيها واستيقن أن الاحترام الحق فى الوقوف عند حدودها، وإن كانت الأمانة كلمة يقولها بفمه ويسمعها بأذنه دون أن تتخلل مسلك الروح منه، آثر لذة الاحترام فى ذلك المشهد، وأجاب بما ليس له به علم.

حضر بعض أدباء المغرب مجلس السلطان إسماعيل أو ابنه محمد، وقرأ هذا الأديب بين يديه صحيفة، فجاءت كلمة «الوخيد»(١) فقرأها «الوخيذ» بالذال المعجمة، فأرجعه السلطان فقال ذلك الأديب: إنه بالمعجمة والمهملة فطلب منه شاهدًا على ذلك فارتجل:

أقول لصاحبى لما ارتحلنا … وأشرعنا النجائب فى الوخيذ
تمتع من لذيذ كلام حورا … فما بعد العشية من لذيذ

وإذا كان هذا الأديب قد خرج من مجلس السلطان فى ستر، فقد لقى ما يلقاه المستخف بحق الأمانة فى العلم، فافتضح أمره ووعت صحف التاريخ حديثه فأزرى بقدره.

---

(١) الوخيد للإبل: الإسراع.

وإذا أبديت فى العلم رأيًا ثم أراك الدليل القاطع أو الراجح أن الحق فى غير ما أبديت فمقتضى الأمانة أن تصدع بما استبان لك أنه الحق، ولا يمنعنك من الجهر به أن تنسب إلى سوء النظر فيما رأيته سالفًا، فما أنت إلا بشر، وما كان لبشر أن يبرئ نفسه من الخطأ، ويدعى أنه لم يقل ولن يقول فى حياته إلا صوابًا، والأمانة هى التي كانت تحمل كبار أهل العلم على أن يعلنوا فى الناس رجوعهم عن كثير من آراء علمية، أو اجتهادات دينية، تبينوا أنهم لم يقولوا فيها قولاً سديداً، توجد هذه الفضيلة فى الأئمة المقتدى بهم كمالك بن أنس وأبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل؛ والفتاوى التى رجع عنها أمثال هؤلاء العظماء منبه عليها فى كتب الأحكام، ولا يعد شيء منها فيما يصح الاقتداء به إلا أن يراه بعض المجتهدين صحيح الاستنباط ثابت الأصل، فحكمه العمل على ما رأى.

يسئل العالم ذو الخلق العظيم عما لا يعلم؛ فلا يجد فى صدره حرجاً أن يقول «لا أعلم» وهذه سيرة علمائنا الأجلاء، يلقى على الواحد منهم السؤال فى العلم الذى علا فيه كعبه، فإذا لم يحضره الجواب أطلق لسانه بكلمة «لا أدرى» غير مستنكف ولا مبال بما يكون لها من الأثر فى نفوس السائلين، وإذا فاته أن يجيب طالب العلم عما سأل، لم يفته أن يعلمه خلقًا شريفًا هو أن لا يتحدث فى العلم إلا على بصيرة، فيحفظ مقامه من أن يرمى بضعف الرأى إن كانت المسألة من قبيل الدراية، أو بقلة الأمانة إن كانت عائدة من الرواية، ولأن يقال: سئل فقال: لا أدرى، خير من أن يقال: سئل فقال خطلا، أو روى ما لم يكن واقعًا. قال ابن هرمز: ينبغى للعالم أن يورث جلساءه قول «لا أدرى».

والمسائل التى قال فيها كبار العلماء «لا أدرى» بالغة من الكثرة ما لا يحيط به حساب. سأل رجل مالك بن أنس عن مسألة، وذكر أنه أرسل فيها من مسيرة أشهر من المغرب، فقال له: أخبر الذى أرسلك أنه لا علم لى بها، قال: ومن يعلمها؟ قال: من علمه الله. وسأله آخر عن مسألة استودعه إياها أهل المغرب. فقال: «ما أدرى ما هى؟ فقال الرجل: يا أبا عبدالله تركت خلفى من يقول: ليس على وجه الأرض أعلم منك، فقال مالك غير مستوحش: إذا رجعت فأخبرهم أنى لا أحسن.

وقال الكاتبون فى سيرته: لو شاء رجل أن يملأ صحيفته من قول مالك «لا أدرى» لفعل.

ونقرأ فى سيرة الشعبى أنه سئل عن مسألة فقال: «لا أدرى» فقال له السائل: فبأى شىء تأخذون رزق السلطان؟ فقال: لأقول فيما لا أدرى «لا أدرى».

ومن شواهد أمانة محمد بن الأعرابى أن محمد بن حبيب سأله فى مجلس واحد عن بضع عشرة مسألة من شعر الطرماح، فكان يقول: لا أدرى، ولم أسمع أفأحدس (١) لك برأيى!

وقد تخون الرجل ذاكرته أو تأخذه غفلة فيقع لسانه فى خطأ وينبه بعد أو يتنبه من نفسه إلى هفوته، فإن كان على حظ عظيم من الأمانة بادر إلى إصلاح خطئه بنفسه غير مستنكف من الاعتراف بما أخذه من ذهول قلب أو غلط لسان. حضر أبو بكر بن العربى (٢) مجلس أبى الفضل النحوى فسمعه يقول: طلق رسول الله ﷺ، وآلى وظاهر (٣) فلما انصرف قصده إلى منزله، وقال له: أصلحك الله! قلت: إنه ﷺ طلق وآلى وظاهر، وإنه ﷺ لم يظاهر، فإن الله جعل الظهار منكراً من القول وزوراً، فكان من أبى الفضل أن شكره ومن الغد قال أبو الفضل لأهل مجلسه بعد أن قرب ابن العربى إليه: إنى قد قلت لكم بالأمس: إن رسول الله ﷺ طلق وآلى وظاهر وإن هذا أرشدنى إلى أنه لم يظاهر، وهو كما قال، وإنه شيخى فى هذه المسألة

من الأمانة الرجوع إلى الحق، وهو كمال لا تحرص عليه إلا نفوس ذللت لها سبل المكارم تذليلاً، ومن الأمانة أن تنقد الآراء ولا تغمض فيما تراه باطلاً وإن كان بينك وبين صاحبها صلة الصداقة أو القربى. قدم أبو جعفر أحمد بن يوسف الفهرى

---

(١) الحدس: التخمين.

(٢) هكذا وردت هذه القصة فى كتاب الفائق لابن راشد القفصى وأوردها أبو بكر بن العربى فى كتاب «الأحكام» على أنها وقعت لمحمد بن قاسم العثمانى حين حضر لمجلس أبى الفضل الجوهرى.

(٣) آلى: أى حلف على أن لا يدخل على نسائه مدة من الزمن، وظاهر: أى قال لامرأته: أنت على كظهر أمى.

للملك المستنصر في تونس كتابًا في النحو، فدفعه المستنصر للأستاذ أبي الحسن حازم، فزار أبو جعفر حازمًا يومًا، فرأى الكتاب بين يديه، فقال له: يا أبا الحسن «وعين الرضا عن كل عيب كليلة» فقال له حازم: أنت سيدى وأخى، والعلم لا يحتمل المداهنة، فقال له أبو جعفر: فأخبرنى بما عثرت عليه، فأراه مواضع فسلمها وأصلحها بخطه.

ومن أمانة العالم أن لا يفتى أو يقضى بما يراه باطلاً، فحرام عليه أن يفتى أو يقضى برأى غيره وهو لا يتردد في بطلانه، ويبقى النظر في المسائل التي تعود إلى الاجتهاد ولا يتعدى حكمها مراتب الظنون، وهذا ما يمكن أن يكون موضع اختلاف الفقهاء في قضاء العالم أو إفتائه بغير مذهبه؛ كأن يقضى بين خصمين من أتباع بعض المذاهب على مقتضى المذهب الذى تقلداه.. كان العالم الجليل قاسم بن محمد بن سيار يفتى في الأندلس بمذهب مالك وهو يخالفه في كثير من المسائل، فقال له أحمد بن خالد: أراك تفتى الناس بما لا تعتقد وهذا لا يحل لك، فقال: إنما يسألوننى عن مذهب جرى في البلد فعرف فأفتيهم به، ولو سألونى عن مذهبى لأخبرتهم به.

ويسهل على العالم السبيل لإفتاء القوم بمذهب إمام تقلدوه أن المجتهد وإن خالف غيره من المجتهدين في بعض الأحكام المستنبطة؛ يرى أن عبادات كل مجتهد ومن يقلدونه في مذهبه صحيحة، لأنها قائمة على الاجتهاد الذى هو أقصى ما كلفهم الله بالعمل عليه، وليس عليهم أن يكون اجتهادهم مطابقًا لما هو الصواب عند الله.

وممن لا يجيز للعالم أن يحكم بمذهب غير راجح في نظره أبو بكر الطرطوشى، فإنه كان ينكر ما يفعله ولاة قرطبة من أنهم إذا ولوا أحداً القضاء شرطوا عليه أن لا يخرج عن قول ابن القاسم، وقال: هذ جهل عظيم.

والحق أن ولاية القضاة المتبعين لمذهب بعض الأئمة المقتدى بهم - عند فقد المجتهدين - صحيحة، ولولى الأمر أن يشترط عليهم الحكم بالمشهور أو الراجح في مذهب بعينه عند الولاية، ضبطًا للأحكام وسداً لأبواب اتباع الأهواء. ولا حرج في

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قضائهم على هذا الشرط وإن حكموا بما لا تطمئن إليه نفوسهم، فإن آراء من لم يبلغ رتبة الاجتهاد المطلق أو المقيد تسقط أمام آراء المجتهدين، وليس لها فى نظر الشارع من قيمة، أما بالغ رتبة الاجتهاد فليس له أن يحكم بغير ما قامت الأدلة القاطعة أو الراجحة على أنه حكم الله الذى شرع لعباده.

وإذا كانت الأمانة فى العلم منبع حياة الأمم وأساس عظمتها، زيادة على أنها الخصلة التي تكسب صاحبها وقاراً وجلالة، كان حقاً علينا أن نعطف على نشئنا من طلاب العلم، ونتخذ كل وسيلة إلى أن نخرجهم أمناء فيما يروون أو يصفون، ذلك بأن نتحرى فى دروسنا الأمانة فيما نروى؛ ولا نجيب سؤالهم إلا بما ندرى أو بقولنا «لا ندرى»، وإذا أوردنا رأياً استبنا بعد أنه مأخوذ من غير أصل، قلنا لهم فى صراحة: قد أخطأنا فى الفهم، أو خرجنا على ما تقتضيه أصول العلم.

ومن أساليب تلقينهم الأمانة فى العلم أن نتلقى مناقشاتهم بصدر رحب؛ ولا نقتل آراءهم بالكلمات الجارحة، أو نتعسف فى ردها فندافعها بما نعتقد فى أنفسنا أنه غير كاف لدفاعها.

وعلى الأستاذ بعد أن يقوم بحق الأمانة ملاحظة سير الطلاب حتى إذا وقع أحدهم فيما يدل على أنه غافل عن رفعة شأنها وغزارة فوائدها، أرشده إلى أن العلم بغير أمانة شر من الجهل؛ وأن ذكاء لا يصاحبه صدق اللهجة نكبة على العقل ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا﴾ [الإسراء: ٣٦].

○○○○○

شبكة الألوكة - قسم الكتب

التعليم الديني

يشعر كل من يطلع على ما ينشر فى الصحف، أو يشهد مجالس طوائف من الناس مختلفة، أن انحرافًا غريبًا طرأ على الأخلاق، وأخذ يدب فى نفوس النشء دبيب السم الناقع فى جسم اللسيع، ويمتاز هذا الانحراف بأنه ناشئ عن زيغ العقيدة، لا عن مجرد الأهواء الغالبة، وزيغ العقيدة مصدر الأخلاق المرذولة فى كل حين، إلا أن الدعاية إلي القبائح فيما مضى لم تبلغ علانيتها ما بلغته اليوم، ألم يبلغ الحال أن يكتب الكاتب أو يخطب الخطيب داعيًا إلى ما يمزق رداء العفاف والكرامة مخادعًا الشباب باسم الحرية أو الفن الجميل، ولا جمال إلا مع الفضيلة، ولا حرية إلا لمن يلقى الناس بعرض سليم.

والانحراف الناشئ عن زيغ العقيدة أصعب علاجًا من الانحراف الناشئ عن طغيان الشهوة، فإن زائغ العقيدة يستهين ببعض محاسن الآداب بزعم أنها ليست من الحسن فى شيء، ويخرج عن حدود المكارم بدعوى أن هذه الحدود رسمت على غير حكمة.

والمغلوب للشهوة وحدها قد ينصرف عن الحسنة معترفًا بأنه أقبل على سيئة وينتهك حرمة الحق غير منازع فى أنه ارتكب جريمة، وإذا احتجت فى تهذيب أخلاق الزائغ إلى إصلاح عقيدته بالحجة، فإنه يكفيك فى تقويم أخلاق المنحط فى أهوائه شيء من الموعظة، وتأثير الموعظة فى زجر من يعرف الحق حقًا، والباطل باطلاً، أيسر من تأثير الحجة فيمن يبصر الباطل حقًا أو الحق باطلاً.

وقد يندى جبين المغلوب لأهوائه إذا أنبته، ويعرف لك فضل النصيحة إذا ذكرته، أما زائغ العقيدة فإنه يحمل بين حاجبيه وناصيته، ما هو أشد قسوة من الحجارة، ويرى إرشادك له لغوًا فى القول، فلا يعيرك فؤادًا صاغيًا إلا أن تبقى فيه للإنصاف وحرية النظر بقية.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولا مرية فى أن انحراف الزائغين أظهر فساداً وأشد فتنة من انحراف الشاعرين بقبح ما يفعلون، فإن الزائغ يندفع فيما لا يليق إلا أن يرهب قانونًا حازمًا؛ ولا يبالى أن يبصر به من لا يملك للقانون نفاذًا، أما الشاعر بقبح ما سيفعل فشأنه أن يجتهد فى التستر عن أعين الناس حتى فى حال أمنه من أن يناله القانون بأذى، فإذا قست الجاحد بأمثاله فى التعلم أو الأمية، وجدت لخروجه عن مكارم الأخلاق مواطن أكثر، ومشاهد أظهر؛ فتكون جنايته فى الناس أكبر وأفظع، فلا شبهة فى أن إصلاح العقائد أساس لتهذيب الأخلاق وأن الأخلاق الكريمة لا تستقيم إلا على العقيدة السليمة.

لم يتفش زيغ العقيدة فيما سلف تفشيه اليوم، لأن وسائل ساعدت على سريان وبائه لم توجد قبل، وأمهات هذه الوسائل ثلاثة أمور:

أحدها: هذه المدارس التى يفتحها الأجانب فى أوطاننا باسم العلم، ويغفل بعض المسلمين عن سريرتها، فتأخذهم بمظاهرها حتى يسلموا أطفالهم وهم على الفطرة إلى من يصبغ هذه الفطر بسواد، وينزع منها روح الأدب الذى يجعلهم أولياء لعشيرتهم نصحاء لأمتهم.

ثانيها: تهاون بعض الآباء بواجب أبنائهم، إذ يرسلون الناشئ إلى معاهد العلم بالغرب قبل أن يلقن من علوم الدين ما يجعل عقيدته مطمئنة، فيلاقى فى أثناء الدراسة هنالك أو فى بعض المحادثات شبها لا يجد فى نفسه من الحجج ما يدفعها، وإذا تواترت الشبه على الناشئ رانت على قلبه، وأصبح يبصر وجه الحق أسود قاتمًا، فيعود إلى وطنه وهو يحمل لأبويه عقيدة أنهما فى ضلال قديم، وذلك جزاء من يستهين بهدى الله، ولا يهمه إلا أن يكون لابنه مورد رزق واسع، أو منصب فى أحد الدواوين وجيه.

ثالثها: إن كثيرًا من الحكومات الإسلامية ضعف فيها روح الاعتزاز بالدين الحنيف، فاستباح واضعو برامج التعليم العام فى مدارسها أن لا يضربوا لعلوم الدين بسهم، ومن يضرب لها فبسهم لا يغنى من جهل، والتعليم الذى يهضم فيه جانب العلوم الدينية لا يرجى منه تهيئة نشء تتساقط عليهم الشبه فيطردونها، أو توسوس إليهم الشياطين فيستعيذون منها.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وإذا كان سوء الأخلاق الذى هو علة اختلال النظام، ينشأ من زيغ العقيدة تارة، ومن طغيان الشهوات تارة أخرى، فإن الإسلام دين ينير العقول بالحجة، ويهذب النفوس بالحكمة، وكم أخرجت مدارسه أو مجالس القوامين على هدايته من رجال يلاقون الأسود فيصرعونها، ويجارون الرياح فيسبقونها يخفضون أجنحتهم تواضعاً للمستضعفين، ويرفعون رءوسهم عزة على الجبارين، تعترضهم الأخطار فيخوضون غمارها، وتعتل قلوب أو عقول فيضعون الدواء موضع عللها، عدل كأنه القسطاس المستقيم، وسخاء كأنه الغيث النافع العميم، وجد فى طلب العلم وإن كان بمناط الثريا، وطموح إلى المعالى وإن انتبذت وراء الفلك الدوار مكاناً قصياً، إلى ما يشاكل هذا من الخصال التى ترفع بعض الأمم على بعض درجات.

والأمة فى حاجة إلى نشء ترتبط قلوبهم بالتعاطف؛ وتمتلئ صدورهم بالغيرة على حقوق الوطن، والإخلاص فى كفاح من يروم تضليلها، والدين يفجر ينبوع التعاطف، ويجعل الغيرة على الحقوق حامية، ويبعث فى النفوس إخلاصاً يأبى لها أن تتخذ من المنافع الخاصة غرضاً.

والتاريخ يملأ آذاننا بأسماء رجال أحرزوا بعلمهم الزاخر مكانة تكفيهم لأن يعيشوا بين الناس فى هناءة وإجلال، ولكن ما يبذره الدين فى نفوسهم من غيرة وإخلاص يأبى لهم أن يقضوا حياتهم بين جدران المدارس أو المساجد دون أن ينفقوا منها فى تعرف الشئون العامة، والجهاد فى نجاة الأمة قسطاً وافراً، ولو أخذنا نضرب الأمثال على أن التعليم الدينى يطبع النفوس على خصال الشرف، ويملؤها همماً لا تقف عند حد، وغيرة لا تلهو عن حق، لملأنا صحفاً كثيرة أو أسفاراً، ولكن المقام للتذكرة ومن مقامات التذكرة ما يغنى فيه الإيجاز عن الإسهاب.

وإذا رأينا فى بعض المتلقين لعلوم الدين عوجاً، فتلك سنة الله فى الخليقة أن لا تخلص الطوائف الكثيرة من أفراد يشربون بكأسها، ويظهرون فى زيها، ثم هم يشذون عنها، ويسيرون فى غير وجهتها، لعوارض تجد فى نفوسهم من الاستعداد للهو أكثر من الاستعداد للجد، ويكفى شاهداً على استقامة الطريق أن يبلغ أكثر سالكيه غاية الفلاح، فإن قعد فى منتصفه ذو همة خامدة، أو التوى عنه ذو هوى

www.alukah.net
شبكة الألوكة

غالب، فالطريق لايزال طريق رشد وفلاح، والوزر على رقبة من قعد فى منتصفه لاهيًا أو التوى عنه قبل أن يدرك من الاهتداء به حظًا كافيًا.

فسماحة الدين وماله من الأثر الخطير فى إعداد أمة روحها البطولة، وزينتها التقوى، وغايتها السيادة من أشد ما يبعث أولى الأمر منا على أن يضعوا علوم الدين بالمكانة العليا، ويقرروا لها فى جميع المدارس وفى كل سنى الدراسة ما فيه الكفاية.

ومما يقضى عليهم بأن يعنوا بها عناية ضافية أن الأمة مسلمة، والأمة المسلمة لا ترضى إلا أن يكون أبناؤها مطمئنين بحجج الدين الحنيف، سائرين فى ضوء حكمته الغراء، فمن سلك فى تعليم أبنائها طريقًا لا يأتى بهم على هذه الحجج، ولا يدخل بهم فى نهار من ضوء هذه الحكمة فقد تصرف فى شئونها تصرف من لا يرعى ذمتها، ولا يحترم وكالته على أمرها، وإذا وجد فى الناس من لا يؤلمه أن يكون ولده فى ظلام من الغى، فأمثال هؤلاء على قلتهم طائفة استهواهم زخرف الحياة غرورًا، ولم يهتدوا إلى خير أبنائهم سبيلا، وما كان للحكومة الرشيدة إلا أن تقيم سياستها على رعاية ما فيه خير النشء، وما يرتضيه أهل العلم والعقل، ويكون قسط تلك الطائفة من هذه السياسة تقويم عوجهم، وإصلاح ما فسد من أخلاقهم، وإذا أهملت التعليم الدينى حكومة باض الإلحاد فى أدمغة رؤسائها وفرخ، فأعلنوا فسوقهم عن الدين فى غير استحياء؛ فإن حكومة يكون على رأسها رئيس يعتز حكمه الرفيع بعزة الدين الحنيف، وينص فى دستورها على أن دينها الرسمى الإسلامى، لجديرة بأن يكون للتعليم الدينى فى مدارسها شأن لا يقل عن شأن غيره من العلوم النافعة فى الحياة.

ولا يكفى فى تعليم الدين أن تكون له جامعة كالأزهر وما يتصل به من معاهد، فإن قصره على الأزهر والمعاهد الدينية يجعل تربيته العالية فى طائفة من الناس خاصة، والخير فى أن تكون روح الدين سارية فى نفوس الأمة قاطبة، وبثها فى جميع الأفراد مدعاة إلى الائتلاف والاتحاد الذى هو أساس كل نهضة، وكل عمل اجتماعى يقام على غير هذا الأساس، فمنقلب إلى فساد.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ولو كان التعليم الدينى آخذاً حقه فى جميع مدارسنا، لم ير الناس ما يرونه من التجافى بين أفراد نشئوا فى مدارس دينية، وآخرين نشئوا فى مدارس ليس للدين فيها من نصيب، ولا منشأ لهذا التجافى إلا بعد النشأتين، وإدخال العلوم الحديثة فى المعاهد الدينية يذهب بجانب هذا التجافى، فإذا عنيت وزارة التربية والتعليم بدراسة علوم الدين درساً جدياً، اتحد أبناؤنا فى أصل التربية، فيكون فضل المعاهد الدينية والمدارس الرسمية على الشرق فى إخراجهما نشئاً يتقارب شعورهم وتتدانى عواطفهم فيتسابقون إلى أعباء الحياة بكواهل متساوية، ويرمون فى وجوه العظائم عن قوس واحدة.

ولا يغيب عنا أن فى بعض الأمم التي لا تعنى وزارات تعليمها بدرس علوم الدين شيئاً من كمال أو قوة، ونقول مع هذا: إن الأمم التى يقوم تعليمها على روح دينية قوية تبلغ من العظمة ما لا تبلغه أمة تساويها فى غير هذه الروح من مسائل الحياة.

فإذا تقدمت أمريكا - مثلاً- على بعض الشعوب الشرقية، وكانت أبسط منه سلطاناً وأنعم بالا، فإنما فضلته بالقوة المادية، ثم بجانب من الأخلاق التى ينتظم بها شأن الاجتماع فى بلادها ويجعلها قوية أمام خصومها، ولو جاراها ذلك الشعب الشرقى فى وسائل الحياة المادية، واستنار فى تقويم أخلاقه بحكمة الدين لكان أسعد منها حالا، وأرسخ فى السيادة قدماً، وأعلى يوم ينادى المنادى علماً، وها قد وضح ذبول حضارتها بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١م.

وليس فى إعطاء علوم الدين بمدارس الحكومة حقها ما يجحف بحق دراسة العلوم الأخرى، لأنا لا نرجو من وزارة التعليم أن تغذى التلاميذ من علوم الدين بمقدار ما يتغذى به طلاب العلم بالمعاهد الدينية، وإنما نرجو منها أن تقرر من هذه العلوم ما يستنير به التلميذ فى كل سنة من سنى الدراسة، وتجعله مادة أساسية فى امتحانى النقل والشهادة، وأن تسن لهذه العلوم مناهج حكيمة، ولا تغمض عن كفاية من تعهد إليهم بتدريسها.

وقد دلنا التاريخ والمشاهدات على أن وزارات التعليم فى بعض الشعوب الإسلامية، قد تستخف بالتعليم الدينى متى ألقى أمرها إلى من نشأ فى غفلة عن آداب الدين، وقصر فى السياسة شأوه، فليس له بصيرة يحس بها فضل الدين ومحاسنه، ولا بعد نظر فى السياسة يفقه به أن خير ما تتألف به الأمم الإسلامية رعاية دينها، وجعله روحاً فى تربية أبنائها، ومن أشد ما تبلى به المصالح العامة أن يصرفها من لا يدرى كنهها ولا يتدبر العواقب فى تصريفها، وإذا انتهز أولئك الخاطئون غفلة الأمة فرصة لاهتضام حق التعليم والتربية، فإنها اليوم فى يقظة تميز بها المهوشين من المصلحين، فتقابل المهوش بامتعاض وتنديد، وتلاقى المصلح بإقبال وتأييد، ورجاؤنا فى وزير التعليم أن يكون الرجل الذى يؤثر إقبال الأمة على امتعاضها، وتأييدها على تنديدها، بل صلاحها على فسادها وسعادتها على شقوتها؛ فيوفى للتعليم الدينى حقه حتى تصبح مدارسنا منبع العلم ومطلع الهداية.

ومن فائدة الشرق أن تكون له عاصمة تلتقى فيها آراء المصلحين، ويتدفق منها الشعور السامى إلى سائر الأقطار حتي تقام الخلافة الإسلامية، وموقع مصر فى البلاد يستدعى أن تكون مصر هى ملتقى تلك الآراء، ومصدر ذلك الشعور، ولا يكفيها لهذه الزعامة أنهارها التى تجرى من تحتها، والعلوم والفنون المالئة ما بين جوانبها، وإنما تحن لها القلوب، وتملئ بمهابتها العيون، إذا أضافت إلى هذه الأنهار والمدارس تربية دينية عامة حتى يقول كل زائر لها فاضل - مثل ما قال العلامة أبو عبد المقرى - حين زارها وعاد إلى المغرب فى أثناء المائة الثامنة «من لم ير مصر لم ير عز الإسلام».

ooooo

القضاء في الإسلام

أحاط الإسلام بضروب السعادة هداية وتعليماً، فدل على كل ضرب منها دلالة تقوم بها الحجة، وتقطع عن الناس عذر الجهل به؛ وله فى هدايته درجات، فقد يرشد إلى الشيء دون أن يلهج به، أو يلحف فى الترغيب فيه حيث يكون سهل المأخذ على النفس، أو يكون فى طبيعة البشر ما يسوق إليه كإحسان الوالد لولده، والسعى فى الأرض لابتغاء الرزق.

وقد يكون فى الأمر ثقل على النفس وصرف لها عن بعض شهواتها، فلا تكاد تقبل عليه إلا بعزم صميم، ونظر فى العواقب بعيد، كإقامة الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد، وهذا ما يأمر به المرة بعد الأخرى، ويسلك فى الدعوة إليه أساليب شتى، حتى يأخذ إليه النفوس على تفاوت هممها واختلاف رغائبها، وكذلك ترى مسلكه فى الدعوة إلى العدل فى القضاء.

يتقدم الخصمان إلى القاضى وكثيراً ما يجد فى نفسه ميلا – شديداً أو ضعيفاً– إلى أحدهما، يميل إليه لنحو قرابة أو صداقة أو وجاهة أو غنى أو يميل إليه لأنه فقير أو ضعيف أو خصم لمن يناوئه، وقلما استطاع القاضى فى هذه الأحوال أن يضع الخصمين من نفسه فى درجة واحدة إلى أن يفصل فى القضية بما أراه الله من الحق.

تلك العواطف التى تثور فى القاضى حال النظر فى القضية هى فى حكم المعفو عنه إلا أن يكون لها فى رجحان أحد الخصمين على الآخر أثر غير ما تقتضيه البينة وأصول الحكم.

شأن تلك العواطف أن تجاذب القاضى وتناجيه أن ينحو بالحكم نحو منفعة المعطوف عليه، وعلى قدر العطف تكون هذه المجاذبة والمناجاة، ومتى قويتا فى نفس لا تخاف مقام ربها، ولم تكن على بصيرة مما فى لباس العدل من زينة وفخار، نبذت الحق وراء ظهرها، وانحدرت مع عاطفتها إلى هاوية الظلم، وما هاوية الظلم إلا حفرة من النار.

هذه العواطف التى تجاذب القاضى وتناجيه أن يرضي خصما بعينه، تجعل العدل فى القضاء من قبيل ما يثقل على النفس ويجمح عنه الطبع، فكان من حكمة الدعوة الإسلامية أن تعنى به عناية صافية، وتدخل إلى الترغيب فيه من أبواب متعددة.

عنيت الشريعة بالعدل فى القضاء عنايتها بكل ما هو دعامة لسعادة الحياة، فأتت فيه بالعظات البالغات: تبشر من أقامه بعلو المنزلة وحسن العاقبة، وتنذر من انحرف عنه بسوء المنقلب وعذاب الهون.

فمن الآيات المنبهة لما فى العدل من فضل وكرامة قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ فقد أمر بالعدل ونبه على أن خيراً عظيمًا ينال الحاكم بالقسط: هو محبة الله له، وما بعد محبة الله إلا الحياة الطيبة فى الدنيا والعيشة الراضية فى الأخرى.

ومن الأحاديث الدالة على ما يورثه العدل من شرف المنزلة عند الله تعالى قوله ﷺ: «**إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين: الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا**»(١). وهذا كناية عن شدة قربهم من رب العالمين وفوزهم برضوانه وفى ذكر «الرحمن» تربية للرجال والثقة بأن الحاكم العادل يجد من النعيم ما تشتهيه نفسه وتلذه عينه، شأن من يكون قريب المنزلة من ذى رحمة وسعت كل شيء.

وإن شئت مثلاً من آيات الوعيد فانظر فى قوله تعالى: ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ**﴾ تجد الآية تنادى بأن الفصل فى القضايا جريًا مع الأهواء ضلال عن سبيل الله، والضلال عن سبيل الله ملق فى شديد من العذاب. ومن ذا الذى يستخف بعذاب وصفه الكبير المتعال

---

(١) صحيح الإمام مسلم.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بالشدة، ويشتريه بمتاع من هذه الحياة إلا من سفه نفسه، ولم ينفذ الإيمان إلى سويداء قلبه؟

فلهذه الآية أثر بليغ فى النفوس المطمئنة بالإيمان، كان أحمد بن سهل جاراً لقاضى مصر بكار بن قتيبة، فحدث أنه مر على بيت بكار فى أول الليل فسمعه يقرأ هذه الآية، قال: ثم قمت فى السحر فسمعته يقرؤها ويرددها. فلا عجب أن يكون بكار هذا من أعدل القضاة حكماً، وأشرفهم أمام أولى الأمر موقفاً.

ومن الأحاديث الواردة فى الوعيد على الجور فى القضاء قوله ﷺ: «**من ولى القضاء فقد ذبح بغير سكين**» (١) ففى هذا الحديث تمثيل القاضى إذ يلاقى جزاءه فى الآخرة، بأشد الناس عذاباً فى هذه الحياة، وهو المذبوح بغير سكين، وهذا حال من يكون حظه من علم القضاء بخساً، أو يكون خلق العفاف فى نفسه واهياً.

ويصح حمل الحديث على معنى الإشارة إلى صعوبة القضاء حتى كأن القاضى من أجل ما يلاقيه من تعرف الحق وتنفيذه من مكاره ومجاهدة للأهواء، مذبوح بغير سكين، وهو بعد هذا مشعر بسمو منزلة القضاء، إذ كان القاضى العادل يضاهى القتيل فى سبيل الله بما انقطع عنه من شهوات وقاساه من آلام، يبتغى أجر الله، والله عنده أجر عظيم.

ومما جمع بين الوعد والوعيد قوله ﷺ: «**القضاة ثلاثة: اثنان فى النار، وواحد فى الجنة: رجل عرف الحق فقضى به فهو فى الجنة، ورجل قضى للناس على جهل فهو فى النار، ورجل عرف الحق وجار فى الحكم فهو فى النار**» (٢).

وصف هذا الحديث عاقبة من يقضى بالحق على بينة منه، وهى المصير إلي الجنة وآذن بعاقبة من يقضى على جهل أو جور، وهى المصير إلى النار. ولا يتناول هذا الوعيد العالم بأصول الشريعة يجتهد رأيه فلا يصيب الحق،، ويقضى بما رأى، قرأ الحسن البصرى قوله تعالى: ﴿**وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ**

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه

(٢) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والحاكم.

غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ..
وقال: لولا ما ذكر الله من أمر هذين لرأيت أن القضاة هلكوا، فإنه أثنى على هذا بعلمه، وعذر هذا باجتهاده.

وصف الإسلام ما في العدل من فوز، وأعلن بما في الحيف من شقاء، وكان قضاؤه ﷺ المثل الأعلى لصيانة الحقوق والتسوية بين الخصوم، ويكفي شاهداً على هذا أنه ﷺ أراد إقامة الحد على امرأة مخزومية سرقت؛ فخاطبت قريش أسامة ليكلم رسول الله ﷺ في إسقاط الحد عنها؛ فقال صلوات الله عليه وسلم: «**أتشفع في حد من حدود الله**» ثم قام فخطب قال: «**يا أيها الناس إنما ضل من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها**».

رسم عليه الصلاة والسلام طريق العدل في القضاء قيمة غير ذات عوج، وزادها بسيرته العملية وضوحًا واستنارة، فاستبانت لأصحابه من أجلى مظهر، فاقتدوا بهديها الحكيم، وأروا الناس القضاء الذي يزن بالقسطاس المستقيم. انظر إلى قول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في رسالته إلى أبي موسى الأشعري: «آس (١) بين الناس في مجلسك وفي وجهك وقضائك حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك».

كان للإسلام وسيرة الذين أوتوا العلم من رجاله أثر في إصلاح القضاء كبير، ولا تشرق المحاكم بنور العدل إلا أن يمسك زمامها رشيد العقل، راسخ الإيمان بيوم الفصل.

فتقوى الله تحمل القاضي على تحقيق النظر في كل واقعة حتى يتعرض الحق، ولا يأخذ بأول ما يلوح له من الفهم وإن تيقن أن قضاءه نافذ، وماله في الرؤساء من معقب، ومن أمراء الأندلس من كان يعزل القاضي متى رأى منه السرعة في فصل القضايا التي تستدعي بطبيعتها شيئًا من التروي إذ يفهم من هذه السرعة عدم تحرجه من إثم الخطأ في الحكم.

(١) آس: سو بينهم واجعل كل واحد أسوة خصمه.

وتقوى الله هى التى تقف القاضى فى حدود العدل : لا يخرج عنها قيد أنملة فى حال . قيل للقاضى إسماعيل بن إسحاق المالكى : ألا تؤلف كتاباً فى أدب القضاء؟ فقال : «اعدل . ومد رجليك فى مجلس القضاء، وهل للقاضى أدب غير الإسلام»! وفى سيرة أبى عبدالله محمد بن عيسى أحد قضاة قرطبة أنه «التزم الصرامة فى تنفيذ الحقوق ، والحزامة فى إقامة الحدود والكشف عن البيان فى السر، والصدع بالحق فى الجهر ولم يهب ذا حرمة، ولا داهن ذا مرتبة، ولا أغضى لأحد من أرباب السلطان وأهله حتى تحاموا حدة جانبه، فلم يجسر أحد منهم عليه» ونقرأ فى وصف إبراهيم بن أبى بكر الأجنادى أحد قضاة مصر أنه : «كان لا يقبل رسالة ولا شفاعة، بل يصدع بالحق، ولا يولى إلا مستحقاً» .

وامتحن عبدالله بن طالب - أحد قضاة القيروان - فكان يقول فى سجوده وهو فى السجن : «اللهم إنك تعلم أنى ما حكمت بجور، ولا آثرت عليك أحداً من خلقك ولا خفت فيك لومة لائم» ووصف المؤرخون محمد بن عبدالله بن يحيى - أحد قضاة قرطبة - بأنه «لم يداهن ذا قدرة، ولا أغضى لأحد من أصحاب السلطان، ولم يطمع شريف فى حيفه، ولم ييأس وضيع من عدله، ولم يكن الضعفاء قط أقوى قلوباً ولا ألسنة منهم فى أيامه» .

ومن القضاة العادلين من تطرح بين يديه قضية يدلى فيها أحد الخصمين بشهادة الخليفة نفسه فيرد الشهادة فى غير مبالاة، شهد السلطان بايزيد عند شمس الدين محمد بن حمزة الفنارى قاضى الأستانة فى خصومة رفعت إليه فرد القاضى الشهادة، ولما سأله السلطان عن وجه ردها قال له : إنك تارك للجماعة! فبنى السلطان أمام قصره جامعاً وعين لنفسه فيه موضعاً، ولم يترك الجماعة بعد ذلك .

ورفعت قضية إلى محمد بن بشير قاضى قرطبة، أحد الخصمين فيها سعيد الخير عم الخليفة عبدالرحمن الناصر، وأقام سعيد بينة أحد شهودها الخليفة نفسه، ولما قدم كتاب شهادة الخليفة إلى القاضى نظر فيه، ثم قال لوكيل سعيد : هذه شهادة لا تعمل عندى فجئنى بشاهد عادل، فمضى سعيد إلى الخليفة، وجعل يغريه على عزل القاضى، فقال الخليفة : القاضى رجل صالح لا تأخذه فى الله لومة لائم،

ولست والله أعارضه فيما احتاط به لنفسه ولا أخون المسلمين في قبض مثله! ولما سئل ابن بشير عن رد شهادة الخليفة قال: إنه لا بد من الأعذار في الشهادة، ومن الذي يجترئ على القدح في شهادة الأمير إذا قبلت! ولو لم أعذر لبخست المشهود عليه حقه.

فالإسلام يلقن القاضي أنه مستقل ليس لأحد عليه من سبيل؛ وقد قص علينا التاريخ أن كثيراً من القضاة العادلين كانوا لا يتباطئون أن يحكموا على الرئيس الذى أجلسهم على منصة القضاء حكمهم على أقصر الناس يداً وأدناهم منزلة. قال ابن عبدالسلام يصف القضاة العادلين: «وربما كان بعضهم يحكم على من ولاه، ولا يقبله إن شهد عنده». وقال المقرى يصف القضاء في الأندلس: «أما خطة القضاء بالأندلس فهى أعظم الخطط عند الخاصة والعامة؛ لتعلقها بأمور الدين، وكون السلطان لو توجه عليه حكم حضر بين يدى القاضى». وحكم ابن بشير قاضى قرطبة على الخليفة عبدالرحمن الناصر فى قضية رفعها عليه أحد المستضعفين من الرعية، وأبلغ الخليفة الحكم مقروناً بالتهديد بالاستقالة من القضاء إذا لم يسلم الحكم ويبادر إلى تنفيذه.

ومن القضاة العادلين من يرمى بالمنصب فى وجه الدولة إذا أخذ بعض رجالها يتدخل فيما يرفع من خصومات، فعل هذا إبراهيم بن إسحق قاضى مصر حين تخاصم إليه رجلان، وأمر بكتابة الحكم على أحدهما فتشفع المحكوم عليه إلى الأمير، فأرسل إليه يأمره بالتوقف عن الحكم إلى أن يصطلحا، فترك القضاء وأقام فى منزله، فأرسل إليه الأمير يسأله الرجوع، فقال لا أعود إلى ذلك أبداً، ليس فى الحكم شفاعة.

وفعل هذا برهان الدين بن الخطيب بن جماعة أحد قضاة مصر، عارضه محب الدين ناظر الجيش فى قضية، فقال: لا أرضى أن أكون تحت الحجر، وصرف أتباعه، وصرح بعزل نفسه وأغلق بابه؛ فبلغ أمره الملك الأشرف فانزعج ومازال يسترضيه حتى قبل واشترط أشياء تلقاها منه بالإجابة.

والرئيس الناصح يكبر القاضى الذى يأنس منه استقامة ويعلم بإرضائه حتى يصرفه عن الاستقالة، أرسل أبو عبيد قاضى مصر أبا بكر بن الحداد إلى بغداد ليستعفى عن القضاء، فأبى الوزير على بن عيسى بن الجراح أن يعفيه وقال: ما أظنه إلا أنه كره مراقبة هلال بن بدر لأنه شاب غر لا يعرف قدره، فأنا أصرف هلالا وأولى فلانًا وهو شيخ عاقل يعرف قدر القاضى،

والرئيس العادل يعجب بالعالم الذى دلته التجربة على استقامته عند الحكم، وتجرده من كل داعية غير داعية ظهور الحق، ويدعوه هذا الإعجاب إلى إقامته قاضيًا بين الناس، أخذ عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فرسًا من رجل على سوم، فحمل عليه فعطب، فخاصمه الرجل، فقال عمر: اجعل بينى وبينك رجلاً، فقال الرجل: إنى أرضى بشريح العراقى.

فقال شريح: أخذته صحيحًا سليمًا، فأنت ضامن له حتى ترده صحيحًا سليمًا قال الشعبى - وهو راوى القصة - فكأنه أعجبه فبعثه قاضيًا.

ولصعوبة القضاء من ناحية التثبت من الحق أولا، والقدرة على تنفيذه ثانيًا، أبى كثير من العلماء الأتقياء أن يقبلوا ولايته، ورفضوها بتصميم يخشون أن يعترضهم فى التنفيذ ما لا طاقة لهم بدفعه، أو يخشون الزلل عند النظر فى بعض النوازل وتعرف أحكامها، فإن إدراج الوقائع الجزئية تحت الأصول الكلية عسير المدخل لكثرة ما يحوم حوله من الاشتباه، فكثير من الجزئيات تحتوى أوصافًا مختلفة؛ وكل وصف ينزع إلى أصل، وقد يكون فى الأصل الذى هو أمس بالواقعة خفاء لا ينكشف إلا أن يردد القاضى الألمعى نظره، ويجهد فى استكشافه رويته. عرض هارون الرشيد على المغيرة بن عبدالرحمن بن الحارث قضاء المدينة المنورة بجائزة قدرها أربعة آلاف دينار، فأبى وقال: لأن يخنقنى السلطان أحب إلى من القضاء.

ومن العلماء من يأبى قبولها ويكون الأمير ممن يقدر قدره ويراه أقدر أهل العلم على القيام بها، فيهدده بالعقاب أو يسومه العذاب ليكرهه على قبولها، ومنهم من

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يقبلها بعد التهديد البالغ، مثل عيسى بن مسكين أحد الفقهاء بالقيروان؛ عرف الأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلب من زهده فى المناصب أنه يأبى ولاية القضاء، فأحضره وقال له: ما تقول فى رجل جمع خلال الخير أردت أن أوليه القضاء وألم به شعث هذه الأمة فامتنع؟ قال له عيسى بن مسكين: يلزمه أن يلى، قال: تمنع، قال تجبره على ذلك بجلده، قال: قم فأنت هو، قال: ما أنا بالذى وصفت، وتمنع حتى أخذوا بمجامع ثيابه وقربوا السيف من نحره، فتقدم لها بعد أمر خطير.

ولارتباط سعادة الأمة باستقامة القضاء جاز للرئيس الأعلى متى رأى فى أهل العلم من هو أدرى بمسالكه، وأقدر على القيام بأعبائه أن يكرهه على ولايته بالوسائل الكافية، قيل للإمام مالك: هل يجبر الرجل على ولاية القضاء؟ قال لا، إلا أن لا يوجد منه عوض فيجبر عليه، قيل له: أيجبر بالضرب والسجن؟ قال: نعم. وطلب ابن الأغلب أمير القيروان الإمام سحنون لولاية القضاء فامتنع، وبقى نحو سنة يطلبه لها وهو يمتنع، حتى قال له حالفًا: لئن لم تتقدم لها لأقدمن على الناس رجلاً من غير أهل السنة: فاضطره هذا الحلف إلى قبولها.

ومن العلماء من يطلب للقضاء فلا يجيب إلا على شرط يصعب على رجال الدولة قبوله ولا يسعهم إلا أن يتركوه، طلبوا أبا محمد بن أبى زيد لقضاء القيروان وقطعوا دون قبوله كل عذر، فشرط عليهم أن يجعلوا لمن بين يديه من الأعوان ما يقوم بكفايتهم من بيت المال بحجة أن من واجب السلطان أن يوصل لكل ذى حق حقه؛ وليس على صاحب الحق أن يعطى من حقه شيئًا (١) فاستكثروا ما ينفق فى هذا السبيل، وتركوه.

وإن شئت مثلاً يريك الاعتزاز بالعلم والزهد فى المناصب إلا أن يتيقن السير بها فى استقامة، فإليك قصة زياد بن عبدالرحمن: دعاه هشام عند ما تولى الخلافة بالأندلس إلى القضاء فأبى، وبعث إليه الوزراء فلم يتخلص منهم حتى قال لهم: على المشى إلى مكة إن وليتمونى القضاء وجاء أحد يشتكى بكم، لآخذن ما

(١) نص على هذا ابن رشد فى كتاب البيان، وعمل القضاة جار على غير هذا وهو أن أجرة العون على طالب الحق.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بأيديكم وأدفعه إليه وأكلفكم البينة، لما أعرفه من ظلمكم! فعرفوا أنه سيفعل ما يقول فتركوه.

وعناية الإسلام بالقضاء رفعته إلى درجة أفضل الطاعات، فمن سار فيه على بينة وهدى كانت الأوقات التى يشغلها بالنظر فى النوازل وإعداد الوسائل لساعة الفصل أوقاتًا معمورة بالعمل الصالح، كافلة لصاحبها الكرامة فى الدنيا والفوز فى الأخرى، ولهذا ترى بعض العلماء يتقلدون القضاء ويأبون أن يأخذوا عليه رزقًا، ومن هؤلاء العلماء الزاهدين أبو القاسم حماس بن مروان ولاه زيادة الله بن الأغلب قضاء إفريقية فتولاه وأبى أن يأخذ عليه أجرًا «وكانت أيامه أيام حق ظاهر، وسنة فاشية، وعدل قائم» وكان سحنون قاضى إفريقية «لا يأخذ لنفسه رزقًا ولا صلة من السلطان، وإنما يأخذ لأعوانه وكتابه من جزية أهل الكتاب».

ومن أبى أخذ الأجر على القضاء فليدخر ثوابه كاملاً عند الله، أو لأنه كان فى غنى، وليس فى أهل العلم من يكفى كفايته، فتكون ولايته من قبيل القيام بفرض عين، ومن تعين عليه القضاء وهو فى بسطة من المال فهو الذى لا يجيز له الفقهاء أن يأخذ على ولايته عوضًا.

حقيقة إن الإسلام بنى القضاء على أسس محكمة، ونظم صالحة، وأخرج للناس قضاة سلكوا إلى العدل فى الحكم، والحزم فى التنفيذ مسلكًا هو أقصى ما يستطيعه البشر، وأرقى ما يجده الباحث فى القديم والجديد، فإذا وفقت الدول الإسلامية لأن تربى رجالاً مثل من وصفنا علمًا وجلالة، أمكنها أن تحتفظ بروح العدل الذى لا يجرى إلا على يد من تفقه فى كتاب الله وسنة رسوله، واهتدى بحكمتهما إلى أن الدنيا متاع وأن الآخرة هى دار القرار.

ooooo

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الإنصاف الأدبي

لا أريد أن أبحث تحت هذا العنوان عن الإنصاف الذى يفسر بالعدل، ويوصف به من ينتصب للحكم بين المتخاصمين، فقد سبق لنا أن تعرضنا لهذا الموضوع فى مقال «القضاء العادل فى الإسلام» كما أنى لا أريد البحث عن الإنصاف الذى هو خلق يحمل صاحبه على أن يعطى الحقوق المادية من نفسه، كأن يعرف الرجل أن هذا المال أو المتاع حق لفلان، فيكف يده أو يرفعها عنه من تلقاء نفسه، لا يخشى سطوة حاكم أو لومة لائم، فللحديث عن الإنصاف الذى هو تبرئة الذمة من الحقوق المادية مقام غير هذا المقام، وإنما الغرض البحث عن ضرب خاص من ضروب الإنصاف، وهو أن يقول الرجل صوابًا فتعترف بأنه محق أو يحرز خصلة حمد فتقر بها ولا تنازع من يصفه بها، ولا أجد مانعًا من أن أسمى هذا النوع من الإنصاف «الإنصاف الأدبى» ويقابله من الأخلاق المذمومة «العناد» وهو جحود الحق، ورده مع العلم بأنه حق.

والإنصاف الأدبى من الخصال التى لا ترسخ إلا فى نفس نبتت فى بيئة صالحة، وارتضعت من ثدى التربية الصحيحة لبنًا خالصًا، والجماعة التى تفقد هذا الخلق تفقد جانبًا عظيمًا من أسباب السعادة، ويدخلها الوهن بعد الوهن حتى تتفرق أيدى سبا، وعليك الإنصات وعلينا البيان.

بين الأخلاق روابط، وكثيرًا ما يكون بعضها وليد بعض، كالعدل قد يكون وليد القناعة، وكالشجاعة قد تكون وليدة عزة النفس، وكالجبن قد يكون وليد الطمع، وكذلك خلق العناد وعدم الإذعان للحق قد يكون وليد الحسد، وقد ينشأ عن طبيعة الغلو فى حب الذات، وللغلو فى حب الذات فرعان: حب الانفراد بالفخر، وإيثار النفس على كل شىء حتى الحق، فالحاسد أو الحريص على الانفراد بالفخر هو الذى يسمع الرجل يقول صوابًا، فيقول له: أخطأت، أو يسمع الثناء عليه ببعض ما أحرز من خصال، فيقول للمثنى عليه: كذبت. وإيثار النفس على

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الحق هو الذى يحمل الرجل على التعصب لرأيه والدفاع عنه وهو يعلم أنه فى خطأ مبين .

فمن أراد أن يطبع ناشئًا على خلق الإنصاف نقب على علتى الحسد والغلو فى حب الذات، فإن وجد لهما فى نفس الناشئ أثرًا، راضه بالحكمة والموعظة الحسنة حتى يتهيأ الناشئ لأن يكون على هذا الخلق العظيم، أعنى خلق الإنصاف .

وإذا كان منشأ الحسد قلة ملاحظة أن النعمة تصل إلى صاحبها من علام الغيوب، وهو لا يرسلها إلا لحكمة، فإن من وسائل علاج هذا الداء تلقين الناشئ أن النعم مادية أو أدبية إنما ينالها الناس بمشيئة العليم الحكيم؛ وإذا كان منشأ الحرص على الانفراد بالفخر هو الغلو فى حب الذات، كان على المربى تهذيب عاطفة حب الذات فى نفس الناشئ حتى تكون عاطفة معتدلة . . تجلب له الخير، وتأبى له أن ينال غيره بمكروه .

وإذا شفى الناشئ من مرض الحسد، وخلص من لوثة الغلو فى حب الذات، لم يبق بينه وبين فضيلة الإنصاف إلا أن تعرض عليه شيئًا من آثارها الطيبة، وتذكره بما يدرك المحرومين منها والمستخفين بها من خسار وهوان .

وقلة الإنصاف تبعد ما بين الأقارب أو الأصدقاء، وكم من تجاف نشأ بين أخوين أو صديقين، وإنما نشأ من جحود أحدهما بعض ما يتحلى به الآخر من فضل، أو من رده عليه رأيًا أو رواية وهو يعلم أنه مصيب فيما رأى أو صادق فيما روى، قال الحكيم العربى :

ولم تزل قلة الإنصاف قاطعة ... بين الرجال وإن كانوا ذوى رحم

ومتى شعر الرجل من آخر بإنكار شىء من فضله، أو بتعسفه فى معارضة رأيه، رآه غير موضع للصحبة والمعاشرة، وربما وقع فى ظنه أن الراحة فى عدم لقائه .

قلة الإنصاف تجر إلى التقاطع، والإنصاف يدعو إلى الألفة، ويؤكد صلة الصداقة فإذا كنت فى مجلس، فقرر الرجل رأيًا واضح الحجة، فغلبك ما فى نفسك، وحاولت أن تصوره للناس خطأ، فقد ألقيت بينك وبينه عداوة، فإن خضعت

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لحجته وأعربت له عن استحسان رأيه، فقد مددت بينك وبينه سببًا من أسباب الألفة، إذ يشعر من إنصافك أنك لا تحمل له ضغنا، ولا تكره له أن ينال حمداً؛ فإن سبق هذا الإنصاف خصومة شعر بأنك خصم شريف، فيسعى لأن تنقلب الخصومة سلماً ويتبدل التقاطع ولاء.

وقلة الإنصاف تسقط احترامك من العيون، فإن من يراك تهاجم الآراء المؤيدة بالحجة، قد يحمل هذا الهجوم على قصر نظرك وعجزك عن تمييز الباطل من الحق، فإن حمله على أنك تهاجمها كراهة أن تكسب صاحبها حمداً، وقع فى نفسه أنك تتمنى لغيرك زوال النعمة، أو أنك حريص على الانفراد بخصال الحمد، فإن ذهب فى تأويل إبايتك لقبول الحق إلى أنك تموه على الناس حتى لا ينسبوا إليك نقيصة الخطأ، علم ما لم يكن يعلم من إيثارك النفس على الحق، ولا احترام لمن لا يدرك الآراء المؤيدة بالحجة، أو يتألم من أن يرى غيره فى نعمة، أو من يعمل للانفراد بالحمد من طريق التعسف والعناد، أو من يدافع عن نفسه نقص الخطأ بمحاولة قتل الحق.

قلة الإنصاف تسقط احترامك من القلوب، والإنصاف يزيد احترامك في القلوب مكانة، ذلك لأن إنصافك للرجال يدل على صفاء سريرتك ونقائها من أن تكون قد حملت شيئًا من دنس الحسد أو حام بها الغلو فى حب الذات.

نقرأ فى كتب الأدب أن منذر بن سعيد البلوطى دخل مصر، وحضر مجلس أبى جعفر النحاس وهو يملى أخبار الشعراء، فأنشد أبو جعفر أبيات مجنون ليلى هكذا

خليلى هل بالشام عين حزينة ... تبكى على نجد لعلى أعينها

قد أسلمها الباكون إلا حمامة ... مطوقة باتت وبات قرينها

تجاوبها أخرى على خيزرانة ... يكاد يدنيها من الأرض لينها

فأراد منذر أن ينبهه على أن قراءة «باتت وبات» من عجز البيت الثانى بالتاء المثناة خطأ، فقال: يا أبا جعفر ماذا أعزك الله باتا يصنعان؟ فقال أبو جعفر: كيف تقول أنت يا أندلسى؟ قال منذر: «بانت وبان قرينها».

شبكة الألوكة - قسم الكتب

كيف يكون مقام أبى جعفر فى نفسك لو قص عليك التاريخ أنه تلقى تصحيح منذر بن سعيد بالارتياح، وقال له: أنا أخطأت، وأنت أصبت؟ لاشك أنك تحمل له من الاحترام فوق ما كنت تحمل، ولكن منذر بن سعيد يقول: إن ابن النحاس سكت ومازال يستثقلنى، ثم عاد بعد حين إلى ما كنت أعرفه منه يعنى من الإقبال والحفاوة.

وقلة الإنصاف تحول بين الرجل وبين أن يزداد علمًا؛ فمن لم تنصفه من أهل العلم وجد فى نفسه مثبطًا عن أن يسرع إلى إفادتك أو يفيض القول فى مذاكرتك، فيفوتك حظ من العلم لولا عدم إنصافك لازددت به قوة فى الفهم وسعة فى العلم، وقد يكون من أثر جحودك لفضل الرجل أن تقل رغبتك فى ملاقاته والتزود من آرائه أو رواياته، وكم وصل الرجل بإنصافه إلى علم وأدب جم. قال أبو إسحاق الزجاج: لما قدم المبرد بغداد آتيته لأناظره؛ وكنت أقرأ على أبى العباس ثعلب، وأميل إلى قول الكوفيين، فعزمت على إعنات المبرد، فلما فاتحنى ألجمنى بالحجة وطالبنى بالعلة؛ وألزمنى إلزامات لم أهتد إليها، فتبينت فضله واسترجحت عقله وجددت فى ملازمته.

فلو كان أبو إسحاق من أولئك الذين يجمح بهم التعصب للأشياع أو المذهب حتى ينبذوا الإنصاف ناحية، لما اعترف بفضل المبرد وقد فاتحه بالمناظرة عازمًا إعناته، ولفاته العلم الذى غنمه بالجد فى ملازمته.

وقلة الإنصاف تحدث فى العلم فساداً كبيراً، ذلك لأن من لا يقدر الإنصاف قدره، قد يرى بعض الآراء العلمية الصحيحة قد صدرت من شخص لا يرتاح هو لأن تكون قد صدرت منه، فيقابلها بالرد والإنكار؛ وقد تكون له براعة بيان، فيصرفها فى تشويه وجه الحق وهو يعلم أنه حق، فيظهر الجهل على العلم ولو فى فئة قليلة أو دائرة صغيرة.

قلة الإنصاف تخذل العلم، وتطمس شيئًا من معالمه، والإنصاف يؤيد العلم، ويجعل موارده صافية سائغة، ولو أخذ الإنصاف حظه من نفوس جميع الباحثين

عن الحقائق لقلت مسائل الخلاف فى كل علم، فيكون حفظ العلوم أيسر، ومدة دراستها والرسوخ فيها أقصر.

نقرأ فى تاريخ العلامة محمد بن عبدالسلام أن ابن الصباغ اعترض عليه فى أربع عشرة مسألة، فلم يدافع عن واحدة منها، بل أقر بالخطأ فى جميعها.

ومن النواحى التى غفل فيها بعض الناس عن فضيلة الإنصاف، فكانت منبت فساد غير قليل، ناحية التعصب للمذهب تعصب من لا يسمع ولا يرى، ولصاحب المذهب أو المقتدى به أن يبسط القول فى تقرير أصوله وإيراد حججه، وله أن يناقش أقوال مخالفيه وأدلتهم، فيردها، ويصفها بالخطأ إذا شاء، ومن الإنصاف أن يناقشها استبانة للحق، ولا يصفها بالخطأ إلا بعد أن تأذن له الحجة فى وصفها، والعالم الذى يطول نظره فى أقوال الأئمة يشهدهم كيف يرمون إلى غرض واحد هو الحكم المطابق للحق، فيمتلئ قلبه باحترامهم، ويقف فى حدود الإنصاف عند درسه لمسألة من المسائل التى جرى فيها اختلافهم، قال الإمام الشافعى: الظرف فى الوقوف عند الحق كما وقف.

لا يصعب على النفوس التي فيها بقية من خير أن تنصف الرجل يبتكر رأيًا، أو ينهض لعمل، فتعترف لرأيه بالإصابة، أو لعمله بالإجادة، والإنصاف الذى قد تجمع عنه نفسك كثيرًا أو قليلاً، أن تقول قولاً تظنه صوابًا، أو تعمل عملاً تحسبه حسنًا فينقده آخر بميزان العلم الصحيح، ويريك أنك قد قلت خطأ، أو عملت سيئًا، ففى مثل هذا المقام قد تجد فى نفسك كراهة للاعتراف بالخطأ فى القول أو الإساءة فى العمل؛ فإن كنت على ذكر من فضيلة الإنصاف وما تؤتيه من ثمار طيبة لم تلبث أن تكظم هذه الكراهة، ولا تجد فى نفسك حرجًا من أن تقول للناس: إنى قد أخطأت فى قولى، أو أسأت فى عملى، وتاريخ علماء الإسلام مملوء بقصص الذين رجعوا عن آرائهم بعد محاورات أو مناظرات ظهر لهم منها أن الحق فى جانب من دارت بينهم وبينه المحاورة أو المناظرة. ومما يروى فى هذا الصدد أن مناظرة جرت بين الإمامين: مالك بن أنس، وأبى يوسف صاحب الإمام أبى حنيفة

فى مقدار الصاع الذى تؤدى به زكاة الفطر، فقال مالك: هو خمسة أرطال وثلث، وكان أبو يوسف يذهب إلى أنها ثمانية أرطال، فاحتج عليه مالك بالصيعان الموجودة لذلك العهد عند أبناء المهاجرين والأنصار بالمدينة، فرجع الإمام أبو يوسف إلى ما قاله الإمام مالك.

لا يصعب على الرجل أن ينصف قريبًا أو صديقًا، بل لا يصعب عليه أن ينصف من لا تربطه به قرابة أو صداقة، ولا تبعده منه عداوة، والإنصاف الذى قد يحتاج فيه إلى مراوضة النفس كثيراً أو قليلاً، أن يبدى بعض أعدائه رأيًا سديداً، أو يناقشه فى رأى مناقشة صائبة، فهذا موطن تذكير النفس بأدب الإنصاف، وإنذارها ما يترتب على العناد من إثم وفساد.

ومن الإنصاف الذى يدل على الرسوخ فى الفضيلة أن يتحدث الرجل عن خصمه فينسب إليه ما يعرفه له من فضل. أنشد فى مجلس الإمام على بن أبى طالب قول الشاعر:

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه إذا ما هو استغنى ويبعده الفقر

كأن الثريا علقت بجبينه وفى خده الشعرى وفى الآخر البدر

فلما سمعها على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال: هذا طلحة بن عبيدالله، وكان السيف ليلتئذ مجرداً بينهما.

يسهل على الرجل أن ينصف من هو أبر سنًا منه، أكثر مما يسهل عليه أن ينصف قرينه، ذلك لأن أكبر عائق عن الإنصاف التحاسد. وحسد الإنسان لأقرانه أكبر وأشد من حسده للمتقدمين عليه فى السن ويسهل عليه أن ينصف أقرانه أكثر مما يسهل عليه أن ينصف من هو أحدث سنًا منه، إذ يسبق إلى ظنه أن ظهور مزية لمن هو أحدث عهداً منه، قد تفضى إلى أن يكون ذكره أرفع، وفضل القرين على بعض أقرانه شائع أكثر من فضل المتأخر على المتقدم، وشيوع الشىء يجعله أهون على النفس مما هو أقل شيوعًا منه.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فينبغى للإنسان أن يتيقظ للأحوال التى تتقوى فيها داعية العناد، ويعد للوقوف عند حدود الإنصاف، ومقاومة تلك الداعية ما استطاع من قوة.

ويقص علينا التاريخ أن فى الأساتذة من يحرص على أن يرتقى تلاميذه فى العلم إلى الذروة، ولا يجد فى نفسه حرجًا من أن يظهر عليه أحدهم فى بحث أو محاورة. يذكرون أن العلامة عبدالله الشريف التلمسانى كان يحمل كلام الطلبة على أحسن وجوهه، ويبرزه فى أحسن صوره، ويروى أن أبا عبدالله هذا كان قد تجاذب مع أستاذه أبى زيد بن الإمام الكلام فى مسألة، وطال البحث اعتراضًا وجوابًا حتى ظهر أبو عبدالله على أستاذه أبى زيد، فاعترف له الأستاذ بالإصابة، وأنشد مداعبًا:

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رمانى

ومن نظر بروية إلى أن فضل العلم من جهة أنه وسيلة إلى إصلاح العمل وإسعاد البشر، وكان مع هذا النظر ناصحًا لأمته، وقف عند حد الإنصاف، لم ينحرف عنه إجابة لداعى الحسد؛ أو انسياقًا مع حب العلو فى الأرض ولو بغير حق.

أخذ رجال بأدب الإسلام فرسخوا فى فضيلة الإنصاف على قدر صفاء سرائرهم واحترامهم لأصول الدين وأحكامه؛ وقد مثل الصحابة - رضى الله عنهم - الإنصاف فى أكمل صورة. بدا لعمر بن الخطاب مرة أن يضع للمهور حدًا فخطب قائلاً: «لا تزيدوا فى مهور النساء على أربعين أوقية فمن زاد ألقيت زيادته فى بيت المال» فقامت امرأة من صف النساء، فقالت: ما ذاك لك، قال: ولم؟ قالت: لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ فقال عمر: «امرأة أصابت ورجل أخطأ» ولو كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - من أولئك الذين يألمون من أن ينسب إليهم نقص أكثر من ألمهم لتحريف آية عن موضعها، أو استبدال خاطر بشرى بحكم إلهى، لما عدم وجهًا من أمثال تلك الوجوه التى يصورها المخادعون أو ضعفاء الإيمان تعصبًا لآرائهم المخالفة للقرآن.

اختلف ابن عباس وزيد بن حارثة - رضى الله عنهما - فى مسألة من باب

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الحيض، فقرر ابن عباس حكمًا؛ وخالفه زيد فرأى فيها رأيا آخر، فقال له ابن عباس: سل نُسيَّاتك: أم سليمان وصويحباتها، فذهب زيد فسألهن، ثم جاء وهو يضحك فقال لابن عباس: القول ما قلت. وموضع العبرة من هذه القصة أن زيداً تمسك برأيه في مخالفة ابن عباس حتي استبان له أن الحق مع ابن عباس، فلم يجد فى نفسه حرجًا من أن يرجع إليه ضاحكًا ويقول له: القول ما قلت.

ويروى أن الإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنه - تكلم فى مسألة، فقال له أحد الحاضرين: ليس الأمر كذلك يا أمير المؤمنين، ولكنه كذا وكذا، فقال على: أصبت وأخطأت، وفوق كل ذى علم عليم. وعشاق الأخلاق الكريمة يجلون الإمام عليًا لهذا الإنصاف إجلالهم له عندما يفتى فيصيب الحق أو يعظ فينطق بالحكمة.

وقد اقتدى بالصحابة فى هذا الخلق الكريم من جاء بعدهم من كبار العلماء، وهذا الإمام الشافعى - رضى الله عنه - يقول: «ما ناظرت أحداً على الغلبة، ووددت إذا ناظرت أحداً أن يظهر الحق على يديه».

والراسخون فى فضيلة الإنصاف لا يبالون أن يكون رجوعهم عن الخطأ أمام من خالفهم وحده، أو بمحضر جمع كبير لم يشعروا بالخلاف، ولا بخطأ المخطئ أو إصابة المصيب. وها هو ذا التاريخ يحدثنا عن رجال من علماء الإسلام بلغوا هذه الغاية من الإنصاف، قال عبدالرحمن بن مهدى: ذاكرت القاضى عبيدالله بن الحسين فى حديث وهو يومئذ قاضٍ، فخالفنى فيه فدخلت عليه بعد وعنده الناس سماطين (١)، فقال لى: ذلك الحديث كما قلت أنت؛ وأرجع أنا صاغراً، فعبيدالله ابن الحسين قد أحسن إلى نفسه إذ أخذها بفضيلة الإنصاف، وأحسن إلى الناس إذ علمهم كيف يعترفون بالخطأ إذا أخطئوا، ولا يتلبثوا فى الرجوع إلى الحق ولو عظمت مناصبهم، وعلت أقدارهم.

العناد قبيح، ويشتد هذا القبح بمقدار ظهور الحجة على الرأى الذى تحاول رده على صاحبه، فمتى كانت الحجة أظهر كان العناد أقبح؛ والإنصاف جميل، ويكون

---

(١) سماط القوم صفهم، يقال قام القوم حوله سماطين أى صفين.

جماله أوضح وأجلى حيث يكون فى حجة الرأى الصائب شيء من الخفاء، وحيث يمكنك أن تتحيز لرأيك وتهيّئ كثيراً من الأذهان لقبوله.

وقد ينقل التاريخ شذرات من حوادث المنصفين لمن خالفهم فى أمر، أو المعترفين لبعض خصومهم بفضيلة فتهتز فى نفوس قرائها عاطفة احترام لمن أقر بالخطأ أو اعترف لخصمه بخصلة حمد، وربما كان إكبارهم لمن أقر بالخطأ فوق إكبارهم لمن خالفه فى الرأى فأصابه، وربما كان إكبارهم لمن شهد لخصمه بمكرمة فوق إكبارهم للشخص المشهود له بتلك المكرمة، وسبب هذا الإكبار عظمة الإنصاف، وعزة من يأخذ نفسه بها فى كل حال، قال ابن وهب: سمعت مالك بن أنس يقول: ما فى زماننا شيء أقل من الإنصاف.

وإذا لم ينصفك الرجل، فرد عليك الحق بالشمال واليمين، أو جحد جانباً من فضلك وهو يراه رأى العين، فلا تكن قلة إنصافه حاملة لك على أن تقابله بالعناد، فترد عليه حقًا، أو تجحد له فضلاً، واحترس من أن تسرى لك من خصومك عدوى هذا الخلق الممقوت، فيلج فى نفسك وينشط له لسانك أو قلمك وأنت تحسبه من محاربة الخصوم بمثل سلاحهم. كلا. لا يحارب الرجل خصومه المبطلين بمثل الاعتصام بالفضيلة، ولاسيما فضيلة كفضيلة الإنصاف تدل على نفس مطمئنة، ونظر فى العواقب بعيد، ومن وجد فى خصمه فضائل، حصر محاربته فى الأمر الذى هو منشأ الخصومة، وترك تلك الفضائل قارة فى مكانها بادية لمن أراد أن يقتدى بها.

وإذا كان الإنصاف فضيلة ترتفع بها أقدار الرجال، وتتسع بها دوائر العلوم، وتصفو بها موارد الآداب، ويشتد بها حبل الاتحاد، وينتظم بها شأن الاجتماع، كان من واجب أولياء الأطفال وأساتذة الأخلاق، ودعاة الإصلاح، أن يجعلوا له من تربيتهم وتعليمهم ودعوتهم نصيباً، يكفى لأن نرى أنديتنا ومؤلفاتنا وصحفنا نقية من إنكار الحق، بريئة من جحود الفضل.

ooooo

١٨

العلماء والإصلاح

نود من صميم قلوبنا أن تكون نهضتنا المدنية راسخة البناء، رائعة الطلاء، محمودة العاقبة، ولا يرسخ بناؤها، ويروع طلاؤها، وتحمد عاقبتها، إلا أن تكون موصولة بنظم الدين، مصبوغة بآدابه. والوسيلة إلى أن يجرى فيها روح من الدين يجعلها رشيدة فى وجهتها، بالغة غايتها، أن يزداد الذين درسوا علوم الشريعة عناية بالقيام على ما استحفظوا من هداية، فلا يذروا شيئًا يشعرون بأنه موكول إلى أمانتهم إلا أحسنوا أداءه.

ينظر أهل العلم فى حال الناس من جهة ما يتقربون به إلى الخالق، ويزنون أعمالهم ليميزوا البدعة من السنة، ويرشدوهم إلى أن يعملوا صالحًا ومن الذى لا يدرك أن البدع تقف كقطع من الليل المظلم فتغطى جانبًا من محاسن الشريعة الغراء، وهى بعد هذا ضلالات تهوى بأصحابها فى ندامة وخسران؟

ينظرون فى أحوال الناس من جهة ما يدور بينهم من المزاعم الباطلة والأحاديث المصنوعة، وينفون خبثها نفى النار لخبث الحديد، يفعلون هذا ليكون الناشئ المسلم نقى الفكر صافى البصيرة، لا يحمل فى نفسه إلا عقائد خالصة وحقائق ناصعة.

ينظرون فى أحوال الناس من جهة ما يجرى بينهم من المعاملات، فيصلحون ما كان فاسدًا ويصلون ما كان متقطعًا، وما شاعت المعاملات التى نهى عنها الدين فى غير هوادة كالربا والميسر إلا حيث قل من يعظ الناس فى ارتكابها ويبسط القول فى شؤم عاقبتها.

ينظرون فى أحوال الناس من جهة ما يمسهم من السراء والضراء، ويسعون ما استطاعوا فى كشف الضر عنهم ولو بعرض حالهم على أولى الشأن وإثارة دواعيهم إلى أن يعالجوا العسر حتى ينقلب بفضل تدبيرهم يسرًا. يحدثنا الكاتبون فى تاريخ الأندلس أن العلماء المقيمين فى ضواحى قرطبة كانوا يأتون يوم الجمعة

www.alukah.net
شبكة الألوكة

للصلاة مع الخليفة ويطالعونه بأحوال بلدهم، وقال أحد علمائهم:

وأتعب إن لم يمنح الناس راحــة وغيرى إن لم يتعب الناس يتعب

ينظر أهل العلم بعين الاحتراس إلى كل من يدعو إلى مذهب باسم الدين، ويتخذون الوسائل إلى الاطلاع على حقيقة قصده، ومن أسباب وهن حبل الإسلام وتقطع أوصاله مذاهب يبتدعها ملاحدة يمكرون، أو جهال لا يفقهون. أفلم يكن المذهب البهائى يعمل لهدم قواعد الإسلام واستهواء أبنائه من خلف ستار، وقد أحس بعض أتباعه اليوم بقوة فصاروا يخطبون على منابر بعض النوادى ويجهرون بشيء من مزاعمه، وعرف بعض خصوم الإسلام قصدهم فقاموا يشدون أزرهم ويرددون الثناء على مذهبهم.

نحن نعلم أن فى كل أمة فئة يفتحون صدورهم لقبول كل دعوة توافق أهواءهم، أو تأتيهم فى طلاء يلائم أذواقهم، ولكن نهوض العلماء بعزم وحكمة إن لم يسحق آراء زعماء هذه الفئة سحقًا، فإنه يكشف عما فيها من سوء، فلا يسكن إليها إلا من هم إلى الحيوان الأعجم أقرب منهم إلى الإنسان.

يرقب أهل العلم كل حركة تقوم بها جماعة من الأمة، فينقدونها بالنظر الخالص، ويصدعون فيها بآرائهم مدعومة بالأدلة المقنعة، ولا تعد هذه المراقبة وهذا النقد خارجين عن خطة العالم الإسلامى، بل هما واجبان فى عنقه كواجب التعليم والإفتاء، وإذا قص علينا التاريخ أن فريقًا من أهل العلم قضوا حياتهم فى بحث المسائل العلمية البحتة، فقد قص علينا أن أمة من عظمائهم كانوا ينظرون فى الشئون العامة، ويمثلون السيرة التي تكسو صاحبها جلالة، وترفع له بين الخلائق ذكرًا.

كان أهل العلم يوجهون هممهم إلى الوسائل التى تقى الأمة ممن يبغونها الأذى، فهذا أبو بكر بن العربى قاضى أشبيلية رأى ناحية من سور أشبيلية محتاجة إلى إصلاح ولم يكن فى الخزانة مال موفر يقوم بسدادها، ففرض على الناس جلود ضحاياهم وكان ذلك فى عيد أضحى، فأحضروها وصرفت أثمانها فى إصلاح تلك

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الناحية المتهدمة، وكان محمد بن عبدالله بن يحيى الليثى قاضى قرطبة كثيراً ما كان يخرج إلي الثغور ويتصرف فى إصلاح ما وهى منها حتى مات فى بعض الحصون المجاورة لطليطلة.

وظهور العلماء فى أمثال هذه المواقف يغرس لهم فى نفوس الأمة وداً واحتراماً، ويورثهم فى رأى أولى الأمر مقاماً كريماً، أفلا نذكر أيام كان أمراء الإسلام يعرفون فى طائفة من العلماء رجاحة الرأى وصراحة العزم وخلوص السريرة فيلقون إليهم بقيادة الجيوش فيكفون بأس أعدائهم الأشداء، وما كان أسد بن الفرات قائد الجيش الذى فتح صقلية إلا أحد الفقهاء الذين أخذوا عن مالك بالمدينة ومحمد بن الحسن فى بغداد وعبدالرحمن بن القاسم فى القاهرة.

ينظر أهل العلم إلى ما غرق فيه بعض شبابنا من التشبه بالمخالفين وتقليدهم فى عادات لا تغنى من الرقى شيئاً، وقد يرى بعضهم انحطاط كثير من أبنائنا فى هذا التشبه والتقليد، فيعده قضاء مبرماً، ويملكه خاطر اليأس حتى ينتكث من التعرض للشئون العامة ومعالجتها، ولكن الذى يعرف علة هذا التسرع ويكون قد قرأ التاريخ ليعتبر، يرى الأمر أهون من أن يصل بالنفوس إلى التردد فى نجاح الدعوة، بله اليأس من نجاحها.

وأذكر بهذا أن كاتباً كتب فى إحدى المجلات مقالا تحت عنوان «وحدة العالم» يدعو فيه إلى مسايرة أوروبا فى السفور ونحوه، وقال فى علة الدعوة إلى هذه المسايرة: ليخرج الشرق والغرب فى مدينة واحدة، وأشار على دعاة الإصلاح فى الشرق بأن لا يقفوا فى سبيل هذه المدينة زاعماً أنهم لا يستطيعون مقاومتها، ولا يزيدون على أن يجعلوا سيرها بطيئاً، ورغب إليهم أن يحثوا الناس على المسارعة إلى قبولها.

والذين ينظرون إلى مدينة أوروبا باعتبار، يبصرون فيه على البداهة مالا يرتضيه العقل ولا يقبله الشرع، واختلاف الأمم بالحق خير من اتحادها على باطل، ولا يفوت الحكمة أن تجد نفوساً مهذبة وعقولا سليمة فتقبلها. فحقيق على العلماء أن

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يبتسموا لهذا الرأى تبسم الازدراء ولا يقيموا لمثله وزنًا إلا أن يكشفوا سريرته ويعرضوا على الأنظار سوء مغبته، والعالم بحق من يتدرع بالإيمان البالغ والثقة بما وعد الله به الداعى إلى الحق من الظهور على أشياع الباطل وإن أوتوا زخرفًا من القول وسعة من المال وكانوا أكثر قبيلا .

لا ينبغى لأهل العلم أن يغفلوا عن سير أرباب المناصب والولايات، فمن واجبهم أن يكونوا على بينة من أمرهم حتي إذا أبصروا عوجًا نصحوا لهم بأن يستقيموا، أو رأوا حقًا مهملاً لفتوا إليه أنظارهم وأعانوهم على إقامته، أمر السلطان سليم بقتل مائة وخمسين رجلاً من حفاظ الخزائن، فبلغ هذا النبأ الأستاذ علاء الدين الجمالى وكان متوليًا أمر الفتوى، فذهب إلى السلطان وقال له : وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان، وهؤلاء الرجال لا يجوز قتلهم شرعًا، فعليك بالعفو عنهم . فغضب السلطان سليم، وقال له : إنك تتعرض لأمر السلطنة وليس ذلك من وظيفتك، فقال الأستاذ علاء الدين : لا بل أتعرض لأمر آخرتك، وإنه من وظيفتى فإن عفوت فلك النجاة، وإلا فعليك عقاب عظيم، فانكسرت سورة غضب السلطان وعفا عن الجميع، ومتى كان فى ولاة الأمور شىء من العدل، وكان فى الداعى إلى الإصلاح حكمة وإخلاص نجحت الدعوة فى سعيها، وبلغت بتأييد الله مأربها .

يكون العالم رفيقا فى خطابه لينًا فى إرشاده، أما إذا أراده ذو قوة على أن يقول ما ليس بحق أو يأتى ما ليس بمصلحة، أخذ بالتى هى أرضى للخالق، وكان مثالا للاستقامة صالحًا . أذكر أن أحمد بن طولون دعا القاضى بكاربن قتيبة إلى خلع الموفق من ولاية العهد فأبى، فحبسه وكرر عليه القول فأصر على الإباءة، وبقى فى السجن حتى ثقل ابن طولون فى مرض الوفاة، فبعث إلى القاضى بكار يقول له : أردك إلى منزلتك أو أحسن منها، فقال بكار للرسول : قل له شيخ فان، والملتقى قريب، والقاضى الله عز وجل . فأبلغ الرسول ابن طولون ذلك فأطرق ساعة ثم قال : شيخ فان والملتقى قريب . . والقاضى الله عز وجل، وأمر بنقله من السجن إلى دار اكتريت له .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وإنما يقوم العالم بإسداء النصحية إلى ذى قوة أو لا يوافقه فيما يخدش أمانته وتقواه متى قدر مقامه العلمى قدره، وكان شأن العلم أسمى فى نظره من كل شأن، وهذا الشعور هو الذى يهيئه بعد داعية الغيرة لأن يجاهد فى سبيل الحق مستهيناً بكل ما يعترضه من أذى.

ومن أدب العلماء أن ينصحوا للأمة فيما يقولون أو يفعلون، ويحتملوا ما ينالهم فى سبيل النصحية من مكروه، وكم من عالم قام فى وجه الباطل فأوذى فتجلد للأذى، وأجاب داعى التقوى متأسياً بقوله ﷺ: «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون». وممن جرى على هذا الخلق المتين أبو بكر بن العربى يوم كان قاضياً بأشبيلية، قال فى كتاب (القواصم والعواصم): حكمت بين الناس فألزمتهم الصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى لم يك يرى فى الأرض منكر، واشتد الخطب على أهل الغصب، وعظم على الفسقة الكرب، فتألبوا وألبوا، وثاروا على، فاستسلمت لأمر الله وأمرت كل من حولى ألا يدفعوا عن دارى، وخرجت على السطوح بنفسى، فعاثوا على حتى أمسيت سليب الدار، ولولا ما سبق من حسن الأقدار لكنت قتيل الدار. يعنى بقتيل الدار عثمان رضى الله عنه.

ولا يستحق لقب عالم أو مصلح ذلك الذى يدعو الناس إلي العمل الصالح ويقبض عنه يده، أو ينهاهم عن العمل السيّئ ولا يصرف عنه وجهه، فمن أدب العلماء أن يسابقوا الأمة إلى اجتناب ما يؤاخذ به، وعمل ما يحمد عليه كأن ينفقوا فى وجوه البر والمشروعات الصالحات ما ينفقه أمثالهم من المكثرين أو المقلين، فإن ذلك أدل على إخلاصهم، وأدعى إلى توقيرهم وقبولهم نصائحهم.

وإذا كان العدد القليل فيما سلف يكفى لحراسة الدين وإرشاد من ينحرف عنه حتى يعود إليه، فلأن سلطان الإسلام يومئذ، وصوت غالب الجهل عليه خافت، أما اليوم فالحال ما ترون وما تسمعون، فلا يمكن للدعوة أن تأتى بفائدتها إلا أن تضم المعاهد الإسلامية بين جدرانها طوائف كثيرة من أولى الغيرة والعزم، يصرفون جهدهم فى الدفاع عن الدين والدعوة إلى الخير، ويعيدون الدعوة مرة بعد أخرى.

عوامل النهوض

أخذ نبهاء الأمم الخاملة أو مهضومة الجانب يسعون إلى أن تكون أممهم فى رقى وسعادة، وخطوا فى هذا السبيل خطوات قصيرة أو واسعة، ووضعوا أسسًا متينة أو واهية. والذى يعنينا فى هذا المقام أن نقول كلمة فى وسائل نهوض الشعوب الإسلامية إن كانت خاملة، أو ظفرها بالحرية الصادقة إن كانت محرومة من التمتع بحقوقها التى أوصى بها دينها الحنيف.

لا نفتأ نذكر ذلك السلطان الكريم الذى بسطه خلفاء الإسلام الراشدون على المعمورة، فعلم الناس كيف يعيشون أحرارًا، والملوك كيف يقيمون عروشهم على قواعد العدل والمساواة، ورجال الدين كيف يدعون إلى الحقيقة والفضيلة فى سماحة ووقار، ولا نجحد مع هذه الذكرى أن الشعوب الإسلامية قد وقعت منذ عهد بعيد فى وهدة من الخمول، وانقطعت الصلة بينها وبين الأمم فلم تدر ماذا يصنعون؟ حتى تراءى لها ما نبهها من غفوتها وحثها أن تنهض من كبوتها، فمسك بقيادتها فريق كانوا على بصيرة من هداية الإسلام، وإن شئت فقل تقدم لقيادتها رجال مستنيرون من أبناء المعاهد الإسلامية، وآخرون مهتدون من القائمين على جانب من العلوم الكونية، فمن يتحدث عن النهضة المصرية - مثلا - لا يحيد عن ذكر رجال استنارت عقولهم بين جدران الجامعة الأزهرية.

ولو استمر العمل لرقينا المدنى بأيدى طوائف تجمع بين علماء الدين المصلحين ورجال العلم الحديث المهتدين، لقطعنا فى سبيل السعادة شوطًا أبعد مما قطعنا، ولكنا أثبت موقفًا وأقرب إلى أن يهابنا الذين يعملون لشقائنا، ولكن حركة تقدمنا لم تستمر على ما وصفنا، ومسها مرض إذا لم نبادر إلى إنقاذها منه كان شرها أكبر من خيرها، وخيبتنا أقرب إلينا من نجاحها.

○ **بليت نهضتنا المدنية بعلتين:**

أولاهما: أن بعض نشئنا المتخرجين من مدارس غير إسلامية قد وقفوا موقف

الدعوة إلى الإصلاح ولم يصبروا أنفسهم على تعرف آداب الدين فحادوا عن طرق الإصلاح النقية ولم يبالوا أن يجهلوا على الدين ويجحدوا أن يكون له فى الحياة المدنية كبير أو صغير.

ثانيتهما: أن كثيراً ممن درسوا العلوم الإسلامية تقاعدوا عن أن يخوضوا فى شئون الحياة المدنية فكان انزواؤهم وزهدهم فى منصب الإرشاد العام فرصة لظهور الدعايات المنحرفة عن الطريق المستقيم.

إن الأمة التى تأخذ بنصائح الدين وتقتدى بآدابه فى السر والعلانية لهى الأمة التى يمكنها أن تتحد وتتآزر فى صفاء، وهى التى تستطيع أن تبنى عظمة وتحوط أكنافها بمنعة، فلا تجد الأيدى العادية إلى هضم حق من حقوقها منفذاً.

سنواصل - بتوفيق الله - القول فى نصائح الدين التى تأخذ بيد الجماعة إلى هضبة الشرف القصوى، ونقف على أثر النصحية بأخرى حتى يستبين لك أن الإسلام صنع الله الذى أتقن كل شىء. وإنما أذكر فى هذا المقام خصالا كالدعائم يقوم عليها صرح الحياة المدنية بهى المنظر شامخ البناء، وما هذه الدعائم إلا العلم الصحيح والعمل النافع والخلق الرفيع.

أما العلم فقد عنى به الدين فيما عنى، ونوه بذكره فيما نوه، فقال تعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الزمر: ٩]. ومن دلائل أن الإسلام ينظر إلى العلم بإقبال ويعده فى أكبر النعم التى يتقلب فيها الإنسان، أنك ترى فى أول ما نزل به الروح الأمين قوله تعالى: ﴿ **اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾، وقد اندفع المسلمون إلى اقتناء ما لغيرهم من العلوم برغبة حريصة وهمم كبيرة، وتناولوا بحثها بعقول راجحة علاوة على العلوم التى استمدوها من الكتاب والسنة كأحكام الفقه وأصوله، أو العلوم اللغوية كالنحو والبيان.

فالإسلام ينصح لأوليائه أن يبتغوا العلوم أينما كانت ويحضهم على أن ينظموا شئونهم الحيوية على مقتضى ما علموا، ولم يجئ الإسلام فى عقائده أو أخباره بما

يخالف العلم الصحيح، ولم يجئ فى نصائحه بما ينقص الرغبة فى العلم على اختلاف فنونه، فشأن الأمة التى تبتغيه دينا أن تكون أصفى الأمم بصائر وأغرزها معارف، وأبعدها فى البحث نظراً.

وإذا أضاف أحد على جهالة أو سوء قصد إلى الدين شيئًا لا يقبله العلم، فالإسلام كله حقائق، وهو من تبعة ما يلصقه به الجاهلون أو المفسدون براء، وإذا صدر من بعض المنتمين إلى الدين كلمة تصرف الناس عن علم مادى أو أدبى فأقصى مصدر هذه الكلم ذهن صاحبها، وليس بينها وبين الدين من صلة، بل شأن الدين أن لا يكون عنها راضياً.

ولم يبق اليوم بعد أن ظهر من نتائج العلوم الكونية من أمثال هذه الغواصات والطائرات والمقذوفات ووسائل المخابرات من لا يرجع إلى قوله تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ** ﴾ [الأنفال: ٦٠] ويتفقه فيها أكثر مما كان يتفقه، ويشهد بأن العلوم التى يسمونها الطبيعيات والرياضيات هى من فروض الكفايات التى يجب أن تقوم عليها طائفة من الأمة، فإن الله لا يرضى لها إلا حياة العزة والكرامة، وهى لا تحيا هذه الحياة إلا أن تكون على بينة مما يعلم أو يصنع خصومها.

وأما الأخلاق الشريفة فإن الإسلام لم يدع مكرمة إلا نبه على مكانها وندب على التجمل بحليتها، وقد عنى بمزايا هى أساس رقى الأمة وانتظام حياتها الاجتماعية: كالصدق والأمانة والعفاف والحلم والعفو والتراحم والعدل وعزة النفس والشجاعة وحرية الضمير والإقدام على قول الحق وبذل المال فى وجوه البر، وسنبحث فى هذه المزايا ببسط القول وإقامة الشواهد فى مقام آخر إن شاء الله.

وأما العمل النافع فإن الدين يحث على العمل لهذه الحياة كما يحث على العمل للحياة الأخرى، وجعل لعمل الشخص فى هذه الحياة نصيبًا من ثواب الآخرة فوق ما يناله من منفعة عاجلة متى كان قصده من العمل خالصا.

ولما نسميه أعمالا أخروية - وهى العبادات - الأثر الطيب فى الحياة الدنيا قبل الحياة الآخرة، أليست الصلاة المقرونة بحضور القلب وعمارته بجلال الله تنهى عن

الفحشاء والمنكر، وتكف يد صاحبها عن أن يعمل سوءاً فتحميه من جرائم شأنه أن تجره إلى عقوبات بدنية أو مالية، وفيها بعد هذا غنى عن طائفة من الشرط والسجون ينفق عليها أولوا الأمر أموالا طائلة؟

أو ليس في الصيام رياضة النفوس وتدريبها على احتمال المكاره والصبر عن الشهوات حتى لا تكون أسيرة في ملاذها! وفي النفوس التي اعتادت الصبر عما تشتهي وهو حاضر لديها قوة وجلادة لا تجدها في النفوس التي لا تكف عن المشتهيات إلا عند فقدانها، فالصيام بحق يشفي النفوس من علة الانحطاط في الشهوات كما عرضت، ويسبكها في صورة النفوس القوية التي يسهل عليها أن تنصرف عن ملاذها ساعة ترى الخير في الانصراف عنها.

أو ليس في الحج فوائد اقتصادية واجتماعية لو وجه إليها زعماء الحجيج عنايتهم لعادوا إلى أوطانهم بما ينفعهم في الأولى بعد أن قدموا للآخرة من العمل الصالح ذخراً باقياً!

ولا أرى حاجة إلى أن أذكر في هذا النسق فريضة الزكاة، فإن أثرها في سد حاجات كبيرة من حاجات الأمة ظاهر ظهور الشمس في كبد السماء.

ولم يشرع الدين من العبادات ما يضيق به وقت العمل للحياة مقدار أنملة، فنحن نرى الذين هم عن الآخرة غافلون يشغلون جانباً من أوقاتهم في راحة ولهو، أفلا يحق للمؤمن أن يقضي جزءاً من وقت راحته في الوقوف بين يدي الخالق وابتغاء رضوانه، وهذا الجزء لا يزيد على ساعة في اليوم والليلة إذا شاء! ليفعل هذا وليقس حياته بحياة من يصرف أوقاته في جمع المال وإذا انتقل عنه فإلى راحة ولهو، فإنه يجد من طمأنينة القلب وارتياح النفس ما يجعل عيشه أهنأ وحياته أطيب، مصداق قوله تعالى: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [النحل: ٩٧].

لا أدري كيف حدث خاطر أن قلة إقبال المسلمين على العمل لجمع المال وتفشي الفقر في شعوبهم آتيان من ناحية دينهم، وهؤلاء علماؤنا يقررن أن كل صنعة

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تحتاج إليها الأمة فرض كفاية لا تخلص الأمة من واجبها حتى تقوم بها طائفة منهم، وقالوا إن نحو التجارة هي مباحة بالنسبة للأفراد أى يجوز للرجل أن يتخذها حرفة يستمر عليها، وله أن يختار غيرها فى بعض الأحيان، ولو تركها الناس جميعاً لأثموا بتركهم لما هو من الضروريات المأمور بها (١). وهذا الزركشى يقول فى بحث فروض الكفاية من قواعده: «الدنيوى كالحرف والصنائع وما به قوام المعاش كالبيع والشراء والحراثة وما لا بد منه حتي الحجامة والكنس» ثم قال: «ولو فرض امتناع الخلق منها أثموا».

والتوكل فى لسان الدين إنما يراد به توجه القلب إلى الخالق حال العمل واستمداد المعونة منه، فلم يكن داعية إلى البطالة والإقلال من العمل ألبته، بل كان للتوكل الأثر العظيم فى إقدام عظماء الرجال على الأعمال الجليلة التى يسبق إلى ظنونهم أن استطاعتهم وما لديهم من الأسباب الحاضرة يقصران عن إدراكها، وإذا فسرته فئة غير عالمة بقبض اليد عن العمل وطرح الأسباب جملة، فذلك تفسير لا يقره الدين الذى يقول: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ** ﴾ [الأنفال: ٦٠] ويقول: ﴿ **وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ** ﴾ [النساء: ١٠٢].

فالشريعة الإسلامية تأمر بالعمل لهذه الحياة، وتجعل السعى على العيال والعمل للتعفف عما فى أيدى الناس أو للإنفاق فى سبيل الخير من قبيل العمل الذى يستحق صاحبه ثواب الله فى الأخرى، وتكره للرجل أن يوصى بما فوق الثلث وتقول له: «إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس فى أيديهم».

إن شريعة هذا شأنها لشريعة مدنية تجمع إلي تهذيب النفوس الذى هو القوة المعنوية أسباب البسطة فى المال الذى هو القوة المادية، وإذا جمع قوم بين القوتين فقد أحرزوا الكفاية لأن يعيشوا كما ولدتهم أمهاتهم أحراراً.

(١) انظر بحث «المباح بالجزء المطلوب بالكل» من موافقات الشاطبى.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فالإسلام ينادى أممه إلى أن يتعلقوا من العلم بكل فن، وينوه بشأن الأخلاق أبلغ تنويه، ويجعل كل ما تدعو إليه حاجة الجماعة من العمل النافع أمرًا واجبًا، فما من أمة تريد أن تصعد إلى أفق السيادة الأعلى إلا وجدت فى مبادئه أجنحة تطير بها إلي حيث تطمح همتها، وعلى قدر ما تنفق من عزمها، وكذلك قص علينا التاريخ الصادق أن الإسلام أخرج للناس أمة بهرت العالم بعلومها الزاخرة وأخلاقها الزاهرة وأعمالها الفاخرة، وإذا شاءت الشعوب الإسلامية أن تكون المثل الأعلى للمدنية الفاضلة ففى استطاعتها أن تتحرى نصائح الدين الحنيف، وفى احترام رؤسائها وزعمائها لأحكام الدين ونصائحه أخذ بالسياسة الرشيدة وهى التصرف فى شئون الأمة على مقتضى إرادتها.

ooooo

٢٠

سعادة الأمة

سعادة الأمة أن تستنير عقولها وتسمو أخلاقها، وتغتبط بالنظم التى تساس بها، وترضى عن طريق تطبيقها وترتاح إلى تنفيذها، وتأمن أن تمتد يد غريبة إلى حق من حقوقها.

أما استنارة عقولها فبإقامة معاهد كافية للتعليم، فإن الأمة التى تتألف من متعلمين وغير متعلمين، يصعب على قادتها متى أرادوا توجيهها نحو الحياة الصالحة أن يجدوها لينة القياد خفيفة الخطأ، والتعليم الصحيح ما يؤخذ فيه بأرقى النظم وأحكم الأساليب. وتلقى العلم بأساليب غير مهذبة هو العلة فى تباطؤ النهضة العلمية وعدم انتظام طرق البحث والتفكير.

ولا سبيل إلى أن يغبط الشعب بنهضته العلمية حتى يتربى نشؤه على أن يطلبوا العلم بداعى اجتلاء الحقائق والحرص على أسمى الفضائل، ومما يقعد بهم عن مرتبة النبوغ والابتكار فى العلوم أن يجعلوا لطلب العلم غاية مادية حتى إذا أدركوها انقطعوا.

والتعليم الذى تؤمن عاقبته وتزكوا ثمرته ما اهتدى فيه الطلاب إلى طريقة نقد الآراء وتمحيصها حتى لا يقبلوا رأيا إلا أن يستبينوا رجحانه بدليل، وقد رأينا رأى العين أن طائفة من أبنائنا قد انحرفوا عن طريق الرشد، ولو كانوا ممن يرد الآراء إلى قوانين البحث المعقولة لاستقاموا على هدى الله وما كانوا من المفتونين.

وأما سمو أخلاقها فلتستقيم، أعمالها وتنتظم المعاملات بينها، والأعمال الخطيرة إنما تقوم على نحو الصبر والعزم والكرم والإقدام، والمعاملات الرابحة لا تدوم فى تماسك وصفاء إلا أن تكون محفوفة بنحو الصدق والأمانة والحلم وسماحة النفس ورقة العاطفة، وهذا الوجه من وجوه السعادة ملقى فى عهدة من يتولي أمر التربية كالأمهات والآباء ورجال التعليم، ولا يكون فى الأمهات والآباء والمعلمين

كفاية لأن يخرج الطفل من بين أيديهم طاهر السريرة مستقيم السيرة حتى يكون التعليم الديني ضارباً بأشعته في جميع مدارسنا، وإذا وصلت التربية الدينية إلى النفوس من طريقها الصحيح فلا ترى منها إلا حياء وعفافا، وصدقًا وأمانة، واستصغاراً للعظائم وغيرة على الحقائق والمصالح، وما شئت بعد من عزة النفس وكبر الهمة، تلك خصال لا تثبت أصولها وتعلو فروعها إلا أن يتفيأ عليها ظلال الهداية ذات اليمين وذات الشمال.

وأما توافر وسائل الثروة فلتكون مرافق الحياة بين يديها، والعيش ميسوراً لكل فرد من أفرادها، وما أبعد الأمة عن سعادة الحياة إذا كثر فيها أولئك الذين يتكففون الناس في أيديهم، وأولئك الذين يترددون على المقاهي والنوادي في الصباح كما يترددون عليها في المساء.

من حقوق الأمة أن يهيّئ لها ولاة أمورها الوسائل للأعمال العامة، وينظروا في ترقية الصناعة والزراعة والتجارة وتوسيع دائرتها، وبمثل هذه المساعي تجد الأيدي العاطلة مجالا للعمل، ولا تخرج أثمان ملابسنا وأمتع منازلنا وسائر مرافق حياتنا عن حدود أوطاننا.

وليست تبعة الحالة الاقتصادية ملقاة على عاتق أولي الأمر وحدهم بل على الموسرين حظ من هذه التبعة عظيم، إذ في ميسورهم تأليف شركات تراعي في نظمها أصول الدين الحنيف، فتفيض بربح مبارك غزير ويعيش من العمل بها خلق كثير، ونقضي على مظاهر الشذوذ والانحراف والعنف والإرهاب.

وكثير من أمراء الإسلام كانوا ينظرون إلى الأمة برأفة ويجتهدون في أن يخففوا عنها متاعب الحياة ما قدروا. وهذا طاهر بن الحسين يقول في كتابه الذي بعث به إلى ابنه عبدالله حين ولاه المأمون مصر والرقة وما بينهما: «وتعاهد ذوي البأساء ويتاماهم وأراملهم، واجعل لهم أرزاقًا من بيت المال، وانصب لمرضى المسلمين دوراً تأويهم، وقواماً يرفقون بهم وأطباء يعالجون أسقامهم، وأسعفهم بشهواتهم ما لم يؤد ذلك إلى سرف في بيت المال».

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفى فتح طرق العمل للمستطيعين، وإقامة مستشفيات وملاجئ للمرضى والعاجزين، إنقاذ للأمة من أن تقود الحاجة طائفة من أبنائها إلى نواد أو مستشفيات يفتحها من يقصد إلى إفساد عقائدها الدينية، أو إطفاء غيرتها الإسلامية.

وأما الاغتباط بالنظم المدنية فذلك ما يدعوها إلى أن تحترمها من صميم أفئدتها، فتراعيها فى السر كما تنقيها فى العلانية، فيكتفى الناس فى أكثر الخصومات بمعرفة الحق من طريق الاستفتاء، وأولو الأمر هم الذين يقررون النظم المدنية ويقومون على تطبيقها، فأولوا الأمر على اختلاف طبقاتهم وتفاوت مقاماتهم طائفة من الأمة تولوا النظر فى شئونها العامة، فيجب أن يتجلى فيهم روح النيابة عنها، ولا يتجلى هذا الروح إلا أن يعملوا على ما يكفل مصالحها ومقتضى هذا أن تساس بنظم تراها أحكم وضعًا وأرعى للمصالح، والأمة الإسلامية إنما تشهد للنظم بالحكمة ورعاية المصالح.. متى وافقت أصول شريعتها ولم ينتهك بها شىء من حرمتها.

وأما الرضا عن حال التطبيق فلأن صحة النظم إنما يظهر أثرها على أيدى من يوكل إليهم أمر تطبيقها، وما مزية القانون العادل إذا وكل العمل به إلى من لم تحسن المدرسة أدبه؟ فتطبيق القوانين على الحوادث يرجع إلى أدب الحاكم ومبلغه من العلم والفهم، فمن حق الأمة أن لا يتولى الحكم فيما شجر بينها إلا ذو ثقافة يجيد بها عمل التطبيق، واستقامة يقف أمامها القوى والضعيف على سواء، وهذا ما يدور عليه فضيلة العدل المأمور به فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨] وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

وأما الارتياح لطرق التنفيذ فيعود إلى السلطة الإجرائية كإدارة الشرطة وحق الشعب على هؤلاء أن تأخذهم به الرحمة، ويشعرون بأنه جسد هم بعض أعضائه.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

نحن نعلم أن انتشار التعليم فى الشعب يساعد رجال الأمن وغيرهم على تنفيذ النظم العامة بكلمة ينبهون بها من يروم مخالفتها، ولكن المحروم من التعليم هو فى حاجة إلى أن ينظر إليه بشفقة، ويعالج بشىء من الرفق إلا أن يخرق النظام متمرداً. قال معاوية بن أبى سفيان: «لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى».

وتطبيق النظم على الواقع وتنفيذها بعدل، حق من حقوق الأمة على ولاة أمورها، وإذا توقف على شىء رجع الخطاب فيه إلى بعض أفراد الأمة كأداء الشهادة على وجهها، كانت تبعته على أولئك الذين يستطيعون أن يشهدوا بحق ويكتمون الشهادة وهم يعلمون.

وأما أمن الأمة من أن تسطو يد غريبة على حق من حقوقها فلتطمئن على عزتها وكرامتها، ولتشعر بأن من تلدهم سيعيشون كما تعيش الأمم ذات الشوكة أحراراً، ولا تأمن بأس خصومها ولا تنظر إلى مستقبل أبنائها فتراه أغر محجلا إلا أن يكون ما بينها وبين رعاتها عامراً بالنصح من ناحية وبحسن الطاعة من ناحية أخرى فبالنصح ترقى معاهد التعليم فتستغنى بعلم أبنائها وكفايتهم للعمل عن أن تستمد وسائل الدفاع والمنعة من وطن غير وطنها، وبحسن الطاعة ينتظم أمر الجند وتبلغ القوة المالية غايتها.

وقد عنى الإسلام فيما عنى بهاتين الخصلتين العظيمتين: إخلاص ولاة الأمور للأمة، وطاعة الأمة لولاة أمورها، فأوجب على الولاة أن يقيموا سياستهم على رعاية الحقوق والمصالح، قال رسول الله ﷺ: «**ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصحه إلا لم يجد ريح الجنة**» ثم التفت إلى الرعية فأمرهم بحسن الطاعة[1]، ومن شواهد هذا قوله عليه الصلاة والسلام: «**والسمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**»[2].

(١، ٢) صحيح البخارى.

فالحق أن سعادة الأمة فى أيدى رؤسائها، فإذا استقاموا على الطريقة وساسوها برفق وحرص على مصالحها وكرامتها، وسارت بجانبهم مستقيمة، فلا تلبث أن تنجح فى سيرتها وتظفر ببغيتها ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٤].

ooooo

شبكة الألوكة - قسم الكتب

صدق العزيمة.. أو قوة الإرادة

يخطر فى النفس أمر فتثق بأنه حق أو نافع، فتحرص على حصوله، فإذا أضافت إلى هذا الحرص النظر فى وسيلة بلوغها إياه؛ وبدا لها أنه فى حدود استطاعتها، فسرعان ما تقبل عليه وتبذل سعيها للوصول إليه، وذلك ما نسميه بالعزم أو الإرادة.

فما يخطر فى النفس مما تعتقد حقيته أو نفعه، وتود أن يكون حاصلاً لديها ثم لا تسعى له سعيه، ولا تضع لبلوغه خطة، فإنما هو التمنى الذى لا يفرق بين المحال والمستطاع، والذى يخطر فى نفوس القاعدين كما يخطر فى نفوس المجاهدين، وما مثله إلا كمثل الشرر الذى يلمع حوله النار ثم يتصاعد هباء.

وإذا تحدثنا فى هذا المقال عن قوة الإرادة وذهبنا فى حديثها مذهب خصال الحمد، فإنما نعنى الإرادة المتوجهة إلى ما هو خير، ومن أفضل ما يمدح به الرجل أن يتوجه بعزمه القاطع إلى إظهار حق أو إقامة مصلحة.

تنشأ قوة الإرادة إلى التجارب، فمن تعلق همه بأمر كان قد عرف بطريق التجربة أنه ميسور وأن عاقبته سلامة ونجاح، انقلب همه فى الحال عزمًا صادقًا، أما من لم تسبق له تجربة فقد يتخيل الأمر بمكان لا تناله يده أو يخشى من أن يلاقى وراء السعى إليه خيبة، فيقف فى تردد وإحجام، فذو العمر الطويل من أولى الألباب قد يكون أسرع إلى بعض الأمور وأشد عزمًا عليها من حيث السن، لما تفيده التجارب من إمكانها ونجاح السعى لها.

وتنشأ قوة الإرادة من درس التاريخ؛ فالذى يخطر فى باله أمر قرأ فى سيرة شخص أنه كان قد هم بمثله وعمل لحصوله فنجح عمله وصلحت عاقبته، شأنه أن يعزم على ذلك الخاطر ويجعله بعد العزم عملا نافذًا. فمن يخطر فى باله أن يدعو الحاكم الجائر بالموعظة الحسنة، وقد قرأ سير العلماء الذين كانوا يأمرون بعض

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الجبارين بالمعروف فيأتمرون، أو يكظمون فى الأقل غيظهم ولا يبطشون، يكون أقوى عزمًا على الدعوة ممن لم يقرأ فى هذا الشأن خبرًا، لما عرفه من أن للحق الذى يخرج فى أسلوبه الحكيم سطوة على النفوس وإن كانت طاغية، فيقدم على وعظة فى رفق وحسن خطاب، فإن لم يهده سبيل الرشد قضى حق النصيحة له، وما على الذين أوتوا الحكمة إلا البلاغ.

وتنشأ قوة الإرادة من أدلة خاصة تجعل الرجل على يقين من نجاح العمل وحسن العاقبة، واعتبروا فى هذا بتصميم أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - على قتال أهل الردة ومانعى الزكاة، فإنه كان عالمًا بأنه على حق من قتالهم، وكان على ثقة من أنه سينتصر بفئته القليلة على جموعهم الكثيرة، ومما دله على أنه الظافر وأن المرتدين عن الدين لا يفلحون قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ ولو تقاعد أبو بكر عن جهاد تلك القبائل وخلى الردة تتفشى فى جزيرة العرب وباء فاتكًا لانفصمت عرى الوحدة العربية الإسلامية، ولم يستقم أمر تلك الفتوح التى كانت عاقبتها ظهور دين الحق على سائر الأديان.

وتنشأ قوة الإرادة من كمال بعض السجايا الأخرى وبلوغها غاية قصوى كسجية إباء الضيم تهز الضعيف وتثير فى نفسه العزم على أن يدافع القوى عن حقوقه ما استطاع دفاعه، وكذلك خلق الشجاعة يجعل الرجل أمضى عزمًا وأسبق إلى الحروب من الجبان الذى يتمثل له الموت فى كل سبيل.

ومما يساعد الرجل على صدق العزيمة خلق التعفف وشرف الهمة، فلتجدن أنزه القوم نفسًا وأبعدهم عن الطمع وجهة، أشدهم عزمًا على أن يقول حقًا أو يعمل صالحًا وإن لم يرض عن قوله الحق أو عمله الصالح ذو مال أو سلطان.

تتفاوت الإرادة فى القوة، وتفاوتها على قدر قوة شعور الرجل بما للشيء من حقيقة أو نفع، وعلى قدر ثقته من تيسره وإمكان حصوله، فالذى أتقن علمًا فأحاط بأصوله وغاص على أسراره يكون عزمه فى الدعاية إلى الأعمال المرتبطة به

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أقوى من عزم ذلك الذى وقف فى دراسته عند حد لا يجعله من أعلامه، والرئيس العادل يكون أقوى عزمًا على حرب أعدائه من الرئيس الجائر، لأن العادل يثق من قومه بحسن الطاعة أكثر مما يثق الجائر، ومن ظفر من قومه بحسن الطاعة فقد ظفر بأكبر أسباب الفوز والانتصار.

نقرأ فى التاريخ أن المنصور بن أبى عامر الذى جذب عنان الملك من يد هشام بن الحكم فى قرطبة قد غزا ستا وخمسين غزوة دون أن تنتكس له راية أو يتخاذل له جيش، أو يصاب له بعث، أو تهلك له سرية، ومن درس سيرته لم يعجب لهذا الانتصار المطرد، إذ يجد فيها عدلاً ومساواة يأخذان النفوس إلى أن تلقى إليه بالمودة والامتثال، ومن الأخبار الشاهدة بما وصفنا أن رجلا من العامة وقف بمجلسه وقال له: إن لى مظلمة عند ذلك الوصيف الذى على رأسك، وأشار إلى الفتى صاحب الدرقة [1]، وكان للفتى فضل محل عنده، فقال المنصور: ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية، ثم نظر إلى الفتى وقال له: ادفع الدرقة إلى فلان وانزل صاغرًا وساو خصمك فى مقامه حتى يرفعك الحق أو يضعك، ثم قال لصاحب شرطته الخاص به: خذ بيد هذا الفاسق الظالم وقدمه مع خصمه إلى صاحب المظالم لينفذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق من سجن أو غيره، وبعد أن جازاه القضاء بما يستحق أبعده المنصور عن خدمته، وصاحب مثل هذه السيرة حقيق بأن يكون له متى هم بالحرب عزم لا يختلج بتردد.

فمن وضع أمامه غاية شريفة ورام من قومه العمل لها بعزم لا يخالطه فتور، فما عليه إلا أن يريهم بالأسلوب السائغ والدليل المقنع وجه شرف تلك الغاية، ثم يصف لهم طريقها الناجح، فلا يكون منهم إلا أن يتسابقوا إليها، ويقتحموا كل عقبة تلاقيهم فى سبيلها.

فإذا رأيت قومًا يذكرون فى صبحهم ومسائهم شيئًا من معالى الأمور ولم ترهم يسعون له سعيه، ولا يتقدمون إليه بخطوة فاعلم أن العزم لم يأخذ من قلوبهم مأخذه، فهم إما أن يكونوا عن حقيقته وشرف غايته غائبين، وإما أنهم ضلوا طريقه وما كانوا مهتدين.

---

(١) الدرقة: الترس.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وإذا ذكرنا العزم النافذ في خصال الشرف، فإنما نريد الإقدام على الأمر بعد استبانة عاقبته ولو على وجه الظن الغالب، وذلك ما يعنيه عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فى قوله: «ولكن الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث» والمكيث: من لا يخف إلى الهجوم إلا بعد روية وتدبر.

ولا يعد فى قلة العزم أن يستبين الرجل الحق أو المصلحة ويقف دون عزمه مانع؛ كأن يعلم أن عقول الجمهور لا تتسع لقبوله ويخشى الفتنة فيرجئه ريثما يمهد له بما يجعله مقبولاً سائغًا، قال عبدالملك بن عمر بن عبدالعزيز لأبيه عمر: يا أبت مالك لا تنفذ الأمور؟ فو الله لا أبالى فى الحق لو غلت بى وبك القدور، فقال له عمر: لا تعجل يا بنى إن الله تعالى ذم الخمر مرتين وحرمها فى الثالثة، وإنى أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة فيدفعوه وتكون فتنة.

ولا يعد فى قلة العزم أن يرى الرجل رأيًا ويعقد النية على إنفاذه ثم يبدو له على طريق الحجة أنه غير صالح فينصرف عنه، وقوى العزيمة هو الذى تكون إرادته تحت سلطان عقله، فيقبل بها على ما يراه صوابًا ويدبر بها عما يراه فسادًا.

وإذا قال الشاعر مادحًا:

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ... ونكب عن ذكر العواقب جانبًا

فإنما يريد الهم الناشئ عن رجاحة رأى، وقوي العزم متى بصر بالأمر ووثق بأنه سداد قطع نظره عن العواقب ونهض له فى قوة، أما ضعيف العزم فإنه يترك نفسه مجالاً للخواطر وذكر العواقب، هذه تغريه على العمل، وهذه تصده عنه حتى تفوت الفرصة ويذهب وقت العمل ضائعًا.

ومن صرامة العزم أن تفرغ فؤادك من كل داعية شأنها أن تلحق بعزمك وهنا أو تصرف وجهك عنه صفحًا، وتتمثل هذه الصرامة فى عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) [1] إذ خرج من البحر أول قدومه على الأندلس وأهديت له جارية بارعة

---

(١) قال أبو جعفر المنصور لأصحابه يومًا: أخبرونى عن صقر قريش، فذكروا له طائفة من الخلفاء وهو يقول (لا) فقالوا: من يا أمير المؤمنين؟ فقال: عبدالرحمن بن معاوية الذى عبر البحر وقطع القفر ودخل =

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الجمال، فنظر إليها وقال: إن هذه من القلب والعين بمكان، وإن أنا شغلت عنها بما أهم به ظلمتها، وإن أنا اشتغلت بها عما أهم به ظلمت همتى، فلا حاجة لى بها الآن، وردها على صاحبها.

وكثيراً ما يجىء التردد فى أمر من ناحية الشهوات والعواطف، كالذى يثق بما فى طلب العلم من خير وشرف ويقعده عنه حب الراحة وإيثار ما تنزع إليه النفس من اللذات الحاضرة، والذى يقول:

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة ... فإن فساد الرأى أن تترددا

إنما ينبه على التردد الناشئ عن نحو الشهوات والعواطف، فذلك هو التردد المفسد للرأى والموقع فى خسر.

لقوة الإرادة أثر فى انقلاب حال الأفراد والجماعات عظيم، فكم من فتى يساويه فى نباهة الذهن وسائر وسائل السؤدد فتيان كثيرون، ولكنه يجد من قوة الإرادة ما لا يجدون فيكون له شأن غير شأنهم، ويبلغ فى المحامد شأوا أبعد من شأوهم، ولو نظرت إلي كثير ممن ظهروا أكثر مما ظهر غيرهم، وأقمت موازنة بينهم وبين كثير من لذاتهم لم تجد فى أولئك الظاهرين مزية يرجع بها وزنهم غير أنهم يهمون بالأمر فيعملون.

وإذا جعلت تتقصى أثر دولة الموحدين التى وضعت قدمها فى (فاس) وبسطت أجنحتها على الأندلس والجزائر وتونس، وجدت أقصى هذه الدولة همة طفحت بها نفس محمد بن تومرت بعد انصرافه عن مجالس أبى حامد الغزالى وأبى بكر الطرطوشى وغيرهما عائداً إلى بلده بالمغرب الأقصى.

وكم من أمة أو دولة لم ينقذها ممن يبتغى بها سوءاً سوى قوة الإرادة، وقد يكون فيما صنع هارون الرشيد بالبرامكة غلو فى الانتقام وسرف فى القتل، ولكن تنقية مناصب الدولة منهم لم تكن إلا بنت اليقظة والإرادة التي لا يأخذها التردد

= بلداً أعجمياً مفرداً فمصر الأمصار وجند الأجناد ودون الدواوين وأقام ملكاً بعد انقطاع لحسن تدبيره وشدة شكيمته.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فى قطع المكر السيّئ من جذوره، وإذا صح ما يصفهم به بعض أهل العلم (١) من أنهم كانوا يكيدون للإسلام كيد الباطنية، كان لهارون الرشيد موقف خير من موقف المنتقم لملكه أو ملك أسرته من بعده.

فإذا كان صدق العزيمة من أفضل خصال الشرف وأجلها فى الإصلاح أثرًا فجدير بأساتذة التربية أن يعطوه من عنايتهم نصيبًا وافرًا؛ وحقيق بالرجال القوامين على الشئون العامة أن يأخذوا به أنفسهم، ويقيموه شاهداً على كفايتهم، فإن ما بينها وبين المدنية الفاضلة والحياة الآمنة مسافة طويلة المدى، صعبة المرتقى إذا لم نقطعها بالعزم الصارم والعمل المتواصل ظلمنا أنفسنا، ولم نقض حق الأجيال بعدنا، فمن واجبهم علينا أن نبنى لهم صروحًا من العز شامخة، فإن لم نستطع هيأنا لهم أسسًا ليرفعوا عليها قواعد الشرف والمنعة، فإذا هم أحرار فى أوطانهم حقًا مكرمون لنزلائهم طوعًا.

وما اقترن العزم الصحيح بأدب التوكل على من بيده ملكوت كل شيء إلا كانت عاقبته نجاحًا ورشدًا ﴿ **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ooooo

(١) هذا ما قرره القاضى أبو بكر بن العربى فى كتاب (القواصم والعواصم).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الغيــرة

متى نظر الإنسان أو تدبر أمرًا ووثق بأنه حقيقة أو مصلحة، وجد فى نفسه ارتياحًا عندما يلاقى شخصًا يشاركه فى الشعور به، ويكون ارتياحه أشد حيث يراه يعمل على مقتضى هذا الشعور، كما أنه يتألم حينما يشاهد أمرًا ينكر تلك الحقيقة أو المصلحة، ويكون تألمه أشد حيث يراه مجدًا فى مناوأتها سالكًا غير سبيلها، وهذا التألم الذى يشتد فيدفعك إلى أن تسهب فى إيضاح وجه الحقيقة أو المصلحة، أو تعمل على أن تكف يد من يبغى عليها ما أمكنك هو ما نعنيه بالغيرة.

فإذا حدثك الرجل فى أمر وأراك أنه مطمئن إلى أنه حق ثم، لا تلبث أن تراه متحيزًا إلى من يكيد له ويدعو إلى من ينقضه. فاعلم أنه خالى القلب من الاطمئنان إليه، وإنما أراك ظاهرًا يخالف ما يكنه صدره وتطمئن إليه نفسه. والعقل السليم لا يستطيع أن يفهم كيف يجتمع الإيمان بالحق مع موالاة من يحاربه فى السر أو العلانية، فالغيرة على الحق من مقتضيات الإيمان به، تقوى بقوته، وتضعف بضعفه، وتفقد حيث لا يكون القلب مؤمنًا.

وفى الناس من يلهج بكلمة «التسامح» يملأ بها فمه حتى لا تنكر عليه حين تراه قد اتخذ من المضلين أو المفسدين فى الأرض أولياء يطيل التردد على أعتابهم، ويغمس لسانه أينما جلس فى إطرائهم، ويجهد نفسه فى تمويه باطلهم. والتسامح المعقول أن لا تؤذى من خالفك فى العقيدة أو تخلف له وعدًا، ومن التسامح المقبول أن تبره وتقسط إليه وتمد إليه يد التعاون على المصالح المشتركة، وقد حرمت الشريعة الإسلامية الإساءة إلى المخالفين الذين لم يخرجونا من ديارنا ولم يطعنوا فى ديننا ولم يوقدوا نارًا لحربنا. وردت أحاديث تنهى عن مس الناس بشىء من الأذى، فحمل الفقهاء النهي فيها على وجه يعم المخالفين المقيمين فى ظل الإسلام، كما قالوا فى حديث «**لا يبع بعضكم على بيع أخيه**» إن النهى شامل لبيع

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المسلم على بيع غير المسلم لما ينشأ عن صرف المشترى عنه من تقاطع وشحناء، وأذنت فى أن نبرهم ونقسط إليهم، قال تعالى: ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ [الممتحنة: ٨].

وقد علمنا رسول الله ﷺ أن نداري من ينتمون إلى الإسلام ونعاشرهم بالمعروف وإن عرفنا فى لحن أقوالهم أو غيره من الدلائل الخفية أنهم من طائفة المنافقين.

أما الرجل الذى يملك قلماً أو لساناً أو حساماً أو جاهاً فيصرفه فى نقض أساس ما هو دين حق أو شريعة صالحة، فذلك ما لا يتولاه إلا غبى لا يفرق بين الأعمى والبصير، أو زائغ عن سبيل الرشد فما له من نور. وقد أنكر الله على من يتزلف لأشياع الغى فقال: ﴿**أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا**﴾ [النساء: ١٣٩] وفى الآية شاهد صدق على أن العزة بيد الله يخلعها على من يغار على الحقائق غير مكترث بمن يناوئونها وإن كانوا أولى جاه أو سلطان.

فمن الغيرة على الحق أن تقاوم المبطلين أو المفسدين قاطعاً النظر عن كل صلة وعاطفة، ومن التسامح المقبول أن تدفعهم بالتى هى أحسن حتي كأنك لا تعرف شيئاً من شئونهم غير ما تصديت لمناقشتهم فيه، وذلك ما يستبين به الناس أنك لا تقصد إلا أن تكف بأسهم وتحمى النفوس من وباء دعايتهم.

تتفاضل الحقائق والمصالح من ناحية ما يتصل بها من خير، فوجود الخالق أو صدق محمد ﷺ فى رسالته مثلاً يقوم على الإيمان به من سعادة الأفراد والأقوام أكثر مما يقوم على الإيمان بعدل أبى بكر وعمر بن الخطاب؛ وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة يترتب عليها من الفلاح فوق ما يترتب علي زيارة أخ أو عيادة مريض.

وكذلك الغيرة على الحقائق والمصالح تكون على قدر تفاضلها فيما يترتب عليها من العواقب، فالغيرة الصادقة أن يتألم الرجل من الجهل على مقام الإلهية أو الرسالة العظمى أشد مما يتألم للطعن فى نفسه أو فى أخ له أو صديق، ويتألم لهدم مسجد أو إلغاء مدرسة أشد مما يتألم لهدم بيت أو إهمال حديقة.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بعيد من الغيرة عن الحقائق ذلك الذى يسمع سوء القول فى الله أو فى رسوله فلا يجد فى نفسه لسماع هذا السفه أثراً، وإذا مس جانب من يتصل به نسباً أو يمد له من متاع هذه الحياة سبباً هاج غضبه وارتعدت فرائصه.

بعيد عن الغيرة على المصالح ذلك الذى يكون تحت يده مال فيبخل به على بناء مدرسة يستنير فيها الناشئون، أو إقامة ملجأ يأوى إليه البائسون، ويبسط به يده فى إنشاء مرقص أو ملهى يتخذ فيه الفتيان والفيتات أنصاباً يسفكون عليها دم الفضيلة.

ضعف الغيرة على الحق أو فقدها نقيصه تنزل بصاحبها إلى الحضيض، وكذلك ينبغى للإنسان أن يملك الغيرة عند ثورتها فلا يخرج فى معاملة المنتهك لحرمة الحق عن حدود العدل، فالذى يغار على أمر جعل الشارع لمنتهكه حداً مفروضاً لا يحل له أن يتجاوز ما حده الشارع استرسالا مع طغيانها، فإن كان الجزاء موكولا لاجتهاد القاضى اجتزأ القاضى بالمقدار الذى يكفى للردع، وليس من الغيرة المحمودة أن يتعدى فى جزاء السيئة ما يكفى للزجر عن اقترافها. والغيرة الصادقة هي التى تنهض بصاحبها إلى مكافحة المبطل أو المفسد وتقويم عوجه فى تثبت وحزم.

الغيرة تبعث الرجل على الجهاد فى الحق بأى وسيلة استطاعها، فالرئيس الغيور يذود عن الحق بما فى يده من قوة متى كان الهاجم عليه فى غشاوة تمنعه من أن يفقه الحجة، والعالم الغيور لا يفتأ يذب عن الحق بلسانه أو قلمه، ولا يسوقه طمع أو رهبة إلى الخمول أو الصمت، وما خمول العالم وصمته سوى قلة الثقة بما وعد الله به أنصار الحق من فوز وحياة طيبة، والموسر الغيور ينفق فى سبيل الإصلاح باليمين واليسار، ومن كان صافى البصيرة يرتاح لظهور الحق وقيام المصلحة العامة أكثر مما يرتاح لأن يكنز ذهباً، أو تكون له قصور فيحاء وحدائق غناء.

وإذا أردت أن تميز فاقد الغيرة على المصالح ممن يغارون عليها فهو الذى يجري وراء منافعه الخاصة أينما رآها أو تخيلها، يراها بجانب مصلحة عامة فيظهر فى زى الداعى إلى هذه المصلحة ويملأ الجو نداء للتعاون عليها، حتى إذا تراءت له منفعة

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لا يصل إليها إلا أن يقضى على ما ينفع الناس جميعًا داسه بكلتا قدميه، وذهب إلى منفعته توًا لا يلوى على شيء.

قد يسلك الرجل طريق العدل محافظة على المنصب أو رغبة فى حسن الأحدوثة، ولكن الغيرة على الحق هى التى تجعل الحاكم عادلاً فى كل قضية، فالغيرة على الحق هى التى تقف بالقاضى فى حدود الإنصاف حين ترفع إليه خصومة بين ذى سلطان وأشعث أغبر ذى طمرين فلا يبالى أن ينصف ذا الطمرين[1] ويقضى على ذى السلطان، وكذلك يفعل القضاة العادلون. دعى العلامة محمد بن بشير إلى قضاء قرطبة فاستشار صديقًا له فى قبول الولاية فقال له: كيف حبك لمدح الناس لك وثنائهم عليك؟ وكيف حبك للولاية وكراهيتك للعزل؟ قال: والله ما أبالى من مدحنى أو ذمنى، وما أسر للولاية ولا أستوحش للعزل! فقال: اقبل الولاية ولا بأس عليك، وفى سيرة ابن بشير هذا ما يشهد بصدق غيرته على الحق ويحقق ما وصف به نفسه من أنه لا يسر للولاية ولا يستوحش من العزل.

من الخطر على الحقوق والمصالح أن يتولى أمرها محروم من الغيرة عليها، وكم من حق أهمل ومصلحة أميتت، والسبب فى إهمال ذاك وإماتة هذه أن ألقى أمرهما إلى من لم يذق للغيرة عليهما طعمًا، وماذا يكون العمل فى قضية الاعتداء على هتك عرض الفتاة إذا أسندت إلى من تقلب فى بيئة لا تعرف للعفاف سبيلا؟ وماذا يكون العمل فى قضية الاعتداء على الدين إذا وضعت بين يدى من لا يرى له حرمة ولا يرعى للأمة التى تعتصم به ذمة؟ وكيف تدار مدرسة ترجع نظم التعليم فيها إلى من يؤثر اللهو على الجد، ويفتنه زخرف الحياة عن طرق الرشد التى تخرج رجالاً يعملون صالحًا ويبتكرون عظيمًا؟ ونحن نرى فى الشعوب من حيل بينها وبين واجبات دينها، وأكرهت على التعامل بغير ما تأذن به شريعتها، واستبد عليها فى طريقة تعليم أبنائها، ذلك لأنها وقعت تحت ذى قوة استضعفها، ولم يكن له نصيب من الغيرة على شريعتها!

---

(١) الطمر: الثوب الخلق.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

إن أمة لها دين قيم وشرع حكيم ومجد لم يصف التاريخ له من نظير، لا يستقيم أمرها إلا لمن يغار على شرعها أو يتودد لها باحترامه والمحافظة على أصوله.

وإذا حكى لنا التاريخ أن ذا سلطان آذى أمة إسلامية فى دينها أو قهرها بالسيف أو بوسيلة التعليم على أن تنسلخ من هداية ربها، فلأنه إنما وضع سلطانه على رءوس جماعات متفرقة غافلة، أما الأمم المتيقظة التى تقدر الحق قدره فليس من السهل على ذى القوة أن يؤذيها فى دينها، ويستخف بالحقوق التى قررها شرعها إلا أن يكون جهولاً بالعواقب، أو غير راغب فى أن يكون سلطانه ثابت القواعد.

الغيرة على الحق تتمثل فيمن ينظر إلى الدليل ويصدع بما أراه الله وإن كره السائلون.

حضر لدى ابن هبيرة الحسن البصرى فاستفتاه ابن هبيرة فى كتب تأتيه من عند يزيد بن عبدالملك وفيها من الأمر بما لم يأذن به الله، وقال: «إن أنفذتها وافقت سخط الله، وإن لم أنفذها خشيت على دمى!» فقال الحسن: «يا ابن هبيرة خف الله فى يزيد ولا تخف يزيد فى الله، يا ابن هبيرة إن الله مانعك من يزيد، وإن يزيد لا يمنعك من الله، يا ابن هبيرة لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، فانظر ما كتب إليك فيه يزيد فاعرضه على كتاب الله تعالى فما وافق كتاب الله تعالى فأنفذه، وما خالف كتاب الله فلا تنفذه، فإن الله أولى بك من يزيد، وكتاب الله أولى بك من كتابه»! فضرب ابن هبيرة على كتف الحسن، وقال: «هذا الشيخ صدقنى ورب الكعبة»!

وتتمثل الغيرة على الحق فيمن يفسح له بعض الوجهاء فى الإكرام مكانه ولا يمنعه ذلك من أن ينظر إلى ما أكرمه الله به من عقل ورفعه به من علم فلا يسكت لذلك الوجيه عما يأتي من منكر ويذهب فى تقويمه كل مذهب ممكن. وأضرب المثل لهذا بإبراهيم بن محمد بن طلحة إذ قربه الحجاج وعظم منزلته. وقدم به على عبدالملك بن مروان وقال له : قدمت عليك برجل الحجاز لم أدع له بها نظيراً فى الفضل والأدب والمروءة وهو إبراهيم بن محمد بن طلحة، ولكن إبراهيم بن طلحة

قال لعبد الملك: عندى نصيحة لا أجد بدا من ذكرها ولا أقدر على ذلك إلا وأنا خال، فصرف عبدالملك الحجاج من المجلس وقال لابن طلحة: قل نصيحتك، فقال: «تالله يا أمير المؤمنين لقد عمدت إلى الحجاج فى تغطرسه وتعجرفه وبعده عن الحق وقربه من الباطل فوليته الحرمين وهما ما هما، وبهما من بهما من المهاجرين والأنصار والموالى والأخيار، يسومهم الخسف ويحكم فيهم بغير السنة بعد الذى كان من سفك دمائهم وما انتهك من حرمهم» ! ولم يخبر عبدالملك الحجاج بما قال ابن طلحة ولكنه عزله عن الحرمين وولاه العراقين، واعتذر لابن طلحة عن توليته العراقين بأن فيها من الأمور ما لا يدحضها إلا مثله.

وفصل القول فى هذا أن الغيرة على الحق والمصلحة ما غلبت على نفوس الأمة إلا استقامت سيرتها، وعلت فى الأمم سمعتها، وحسنت فى كلتا الحياتين عاقبتها، ولا حق أجلى مما يدعو إليه الخلاق العليم، ولا مصلحة أعظم مما تهدى إليه أصول شرعه الحكيم، فإذا لم نرسم فى نفوس نشئنا الغيرة على حقائق الدين، وما أرشد إليه من مصالح وما سنه من آداب، ضلوا عن أسمى الحقائق، وأضاعوا أكبر المصالح، وتجردوا من أسنى الآداب، وهل غير هذه العاقبة من خسران مبين؟

فمن أهم واجباتنا أن نربى نشأنا على الشعور بعظمة الله، ثم لا نفتأ نذكر لهم آيات نبوة محمد ﷺ حتى يطمئنوا إلى صحتها، ولا ندع أن نقرر لهم أصول الشريعة على وجه يجعلهم على بصيرة من حكمتها، وهذا ما يربى فيهم الغيرة المهذبة، ويعدهم لأن يكونوا للحقائق والمصالح أنصارا

ooooo

٢٣

الهِمَّــة

الحديث عن فضل العلم وما يناله طالبه من مجد وكرامة حديث لا يكشف عن غامض ولا يطرق السمع بجديد، فأقصد إلى شيء غير هذا هو لفت أنظار نشئنا إلى ناحية تجعل المعارف لدينا غزيرة والمباحث محررة، والآراء مبتكرة، وهى الوسيلة التى صعدت بعلمائنا الذين خدموا الدين والعلم والمدنية، فكانت لهم المكانة التى يصفها التاريخ بإجلال وإعجاب، ونعنى بهذه الوسيلة: كبر الهمة فى العلم.

لكبر الهمة فى العلم مظاهر هى أن تقضى الوقت فى دروس أو مطالعة أو تحرير، وأن تقتحم فى سبيل ذلك المصاعب وتدافع ما يعترضك من العوائق، وأن تبسط النظر فى كل مسألة تصديت لبحثها حتى تنفذ إلى لبابها، وأن تضع يدك فى كل علم استطعت إليه طريقًا، ثم تحط رحلك فى علم تكون فيه النجم الذى يهتدى به المدلجون، والغيث الذى ينتجعه الظامئون، وكبر همتك فى العلم يأبى إلا أن يكون للعلم مظهر هو العمل به والسير على ما يرسمه من الخطط الصالحة فى هذه الحياة.

أما صرف الوقت فى ابتغاء العلم فإن للعمر أجلا إذا جاء لا يستأخر، وللعلم بحرًا طافحًا ليس له من آخر، فكل ساعة قابلة لأن تضع فيها حجرًا يزداد به صرح مجدك ارتفاعًا، ويقطع به قومك فى الساعة باعًا أو ذراعًا، فإن كنت حريصًا على أن يكون لك المجد الأسمى، ولقومك السعادة العظمى، فدع الراحة جانبًا، واجعل بينك وبين اللهو حاجبًا، وإذا رجعنا البصر فى تاريخ النوابغ الذين رفعوا للحكمة لواء، وجدناهم يبخلون بأوقاتهم أن يصرفوا شيئًا منها فى غير درس أو بحث أو تحرير.

قدم الحافظ ابن أبى حاتم صاحب كتاب «علل الحديث» القاهرة ليتلقى عن شيوخها ما لم يكن يعلم، فقضى فى مصر سبعة أشهر لم يجد هو وأصحابه من الوقت ما يهيئون فيه لطعامهم مرقًا، وكانوا بالنهار يطوفون على الشيوخ، وبالليل

ينسخون ويقابلون . ونقرأ فى حياة الفيلسوف أبى على بن سينا أنه لم ينم مدة اشتغاله بالعلم ليلة كاملة، ولم يشتغل بالنهار بسوى المطالعة، ونجد فى التاريخ أن الفيلسوف ابن رشد لم يدع النظر ولا القراءة منذ عقل إلا ليلة وفاة أبيه وليلة بنائه على أهله .

لم يقض حق العلم، بل لم يدر ما شرف العلم ذلك الذى يطلبه لينال به رزقًا أو ينافس فيه قرينًا، حتى إذا أدرك وظيفة أو أنس من نفسه الفوز على القرين أمسك عنانه ثانية، وتنحى عن الطلب جانبًا، وإنما ترفع الأوطان رأسها، وتبرز فى مظاهر عزتها بهمم أولئك الذين يقبلون على العلم بجد وثبات، ولا ينقطعون عنه إلا أن ينقطعوا عن الحياة .

وأما اقتحام المصاعب فى الطلب فإن معالى الأمور وعرة المسالك محفوفة بالمكاره، والعلم أرفع مقام تطمح إليهم الهمم، وأشرف غاية تتسابق إليها الأمم، فلا يخلص إليه الطالب دون أن يقاسى شدائد ويحتمل متاعب، ولا يستهين بالشدائد إلا كبير الهمة ماضى العزيمة . كان سعيد بن المسيب يسير الليالى فى طلب الحديث الواحد، ورحل أبو أيوب الأنصارى من المدينة إلى عقبة بن نافع وهو فى مصر ليروى عنه حديثًا، فقدم مصر ونزل عن راحلته ولم يحل رحلها، فسمع منه الحديث وركب راحلته وقفل إلى المدينة راجعًا، ولم ينتشر العلم فى بلاد المغرب أو الأندلس إلا برجال رحلوا إلى الشرق ولاقوا فى رحلاتهم عناء ونصبًا، مثل أسد بن الفرات وأبى الوليد الباجى وأبى بكر بن العربى .

يتجرع كبير الهمة مرارة حين تقف بينه وبين جانب من العلم عقبة، فإذا وجد مرعى العلم خصبًا، فعناؤه فيما يدعونه راحة، وانقباضه فيما يسمونه لهوًا، وألمه فى ساعة ينقطع فيها عن العلم يساوى ألم المستهتر فى الشهوات حين يقضى يومه فى غير شهوة . وقد يحسب من لم تصف بصيرته حتى يرى الحكمة فى أسنى مظاهرها أن الذى يقول :

سهرى لتنقيح العلوم ألذ لى ... من وصل غانية وطيب عناق

إنما هو شاعر لا يبالى أن يفضل الشىء على ما هو أكمل فى وجه الشبه وأقوى، ويبعد فى نظره أن يبلغ ابتهاج النفس عند تحقيق بحث علمى مبلغ ابتهاجها بلقاء الغانيات، ولكن الذى يقدر الحكمة يرى أن ناظم البيت لم يجد شيئًا يحاكى به اللذة التى يجدها عندما يطلق فكره وراء شوارد العلوم فيظفر بها، فجاء إلى هذا الذى اشتهر بين الناس أنه لذيذ بالغ، ووصف لذة الحكمة بأنها فوق لذته، فصاحب البيت لم يتجاوز فى تصوير ارتياحه لتنقيح العلوم حد الحقيقة.

وأما نفوذ النظر فى لباب المسائل فلأن وقوف طالب العلم عند ظواهرها واكتفاءه بالمقدار الذى يقصر به عن حسن بيانها وإجادة العمل بها، لا يبعدان به عن منزلة خالى الذهن منها. فإنما وضعت العلوم لتهدى إلى العمل النافع، ولا شرف لها فى نفسها، وإنما شرفها بما يترتب عليها من عمل صالح أو كلم طيب، فمن يقضى زمنًا فى طلب علم ينفصل عنه وهو لا يستطيع أن يدفع عن أصوله شبهًا، أو يضرب له من العمل مثلاً، ذهب وقته ضائعًا، وبقى اسم الجهل عليه واقعًا.

فالفقيه بحق من تعرض عليه الواقعة لم يفصل لها الشارع حكمًا ولم يتناولها باجتهاد، فيرجع إلى الأصول الثابتة والقواعد المقررة ويقتبس لها حكمًا موافقًا.

ولا نكتفى ممن يدرس البلاغة أن يتصور قوانينها، ويعرف أمثلتها إلا أن يبصر بها كيف تسرى فى كتاب الله سريان الماء فى الأزهار الناضرة وحتى يستطيع أن يخطب أو يكتب على وفق ما درس من مناهجها الواضحة وأساليبها الساحرة.

ولا يحق لنا أن نفتخر بفتيان درسوا الطبيعة والكيمياء، إلا أن يعودوا وفى قدرتهم أن يستقلوا بإدارة مصانع للدفاع، ومعامل لمرافق الحياة، فإنا نريد أن نعود كما كنا أساتذة فى العلوم نقلية أو عقلية، نظرية أو مادية.

ومما رمى الأفكار فى خمول ووقف بها حقبة عن الخوض فى عباب العلوم إلى أمد بعيد، هذه المختصرات التى يقضى الطالب فى فتح مغلقها وحل عقدها قطعة من حياته، جديرة بأن تصرف فى اكتساب مسائل هى من صميم العلم، والملكات تقوى بالبحث فى لباب العلم أكثر مما تقوى بالمناقشة فى ألفاظ المؤلفين. وممن نبه

www.alukah.net
شبكة الألوكة

على أن الاختصار عائق عن التحقيق فى العلم أحد علماء القرن الثامن العلامة محمد المعروف(١) بالأيلى إذ قال: «كل أهل هذه المائة على حال من قبلهم من حفظ المختصرات، فاقتصروا على حفظ ما قل لفظه ونزر حظه، وأفنوا أعمارهم فى حل لغوزه وفهم رموزه ولم يصلوا إلى رد ما فيه إلى أصوله بالتصحيح، فضلا عن معرفة الضعيف والصحيح».

فمن أسباب الرسوخ فى العلم وطموح الهمم إلى التوسع فى البحث وعدم الرضا بما دون الذروة، قراءة الكتب التى تنسج على طريقة الاستدلال والغوص على أسرار المسائل، وهى طريقة المتقدمين من علمائنا.

وأما بسط النظر فى علوم متعددة فلارتباط العلوم بعضها ببعض، وكلما كان الاطلاع على العلوم أوسع، كان البحث فى المسائل أجود، والخطأ فى تقريرها أقل، والاحتجاج عليها أسلم، فلا يجيد دراسة التفسير أو الحديث من لم يكن ضليعاً فى العربية، ولا يحكم الاستدلال على العقائد ويدفع ما يحوم عليها من شبه إلا من كان عارفًا بالتفسير والحديث والقوانين المنطقية والمذاهب والآراء الفلسفية، ولا يقوم على دراسة الفقه أو أصوله من لم يملأ يده من الحديث والتفسير والعلوم العربية.

واطلاع الرجل على علوم كثيرة يعرف موضوع بحثها ويقف على جانب عظيم من مبادئها، لا يمنعه من الإقبال على علم يجعل له من الدرس والمطالعة ما يعرفه إلى مرتبة أئمته الذين يكتبون فيه فيحققون، ويسألون عن أخفى مسائله فيجيبون، والذى يضع يده فى علوم شتى يمكنه أن يجارى طوائف العلماء فى المباحث المختلفة، وعلى قدر ما يكون للرجل من خبرة بالعلوم يبعد عن مواقع الذلة، ويزدد فى أعين الناس تجلة.

عكف أبو صالح أيوب بن سليمان على كتاب العروض حتى حفظه، فسأله بعضهم عن إقباله على هذا العلم بعد الكبر، فقال: حضرت قوماً يتكلمون فيه فأخذنى ذل فى نفسى أن يكون باب من العلم لا أتكلم فيه.

---

(١) من أساتذة ابن خلدون

شبكة الألوكة - قسم الكتب

تقضى الحياة الراقية أن يقوم بكل علم طائفة يكونون السند الذى يرجع إليه، وكذلك كان علماؤنا فيما سلف. يقبل كل طائفة منهم على علم يقومون عليه دراية، ويقتلونه بحثًا، وبهذا اتسعت دائرة المعارف وظهرت المؤلفات الفائقة، وتراهم قد عرفوا من قبل أن نجاح قصد الطالب على الرسوخ فى علم، يرجع إلى ترك الطالب وما تميل إليه نفسه من العلوم. ومما نقرأ فى ترجمة أبى عبدالله محمد الشريف التلمسانى وكان راسخًا فى المنقول والمعقول - أنه كان «يترك كل أحد من الطلبة وما يميل إليه من العلوم، ويرى أن كل ذلك من أبواب السعادة».

ومن لطف مبدع الكون أن جعل النفوس تختلف فى استعدادها للعلوم والفنون والصنائع، لينتظم شأن الحياة، وتتوافر وسائل السعادة. وربما نشأ أفراد فى مهد واحد واختلف ميلهم إلى العلوم فبرز كل فى العلم الذى وافق رغبته ووجه إليه همته، كأبناء الأثير الثلاثة: على الملقب [١] بعز الدين: إمام فى التاريخ، ومحمد[٢] الملقب بمجد الدين: نحرير فى الحديث والأدب، ونصر الله [٣] الملقب بضياء الدين: بارع فى الأدب وتحرير الرسائل، وكثير من علمائنا كانوا يدرسون علومًا مختلفة يبلغون فى بعضها الذروة ويكتفون فى بعضها بالمقدرة على تدريسها أو تحقيق مباحثها عند الحاجة. فهذا أبو إسحاق الشاطبى تقرأ له كتاب الموافقات فتحس أنك تتلقى الشريعة من إمام أحكم أصولها خبرة، وأشرب مقاصدها دراية ثم تقرأ شرحه على الخلاصة فى النحو فتشعر بأنك بين يدى رجل هو من أغزر النحاة علمًا، وأوسعهم نظرًا، وأقواهم فى الاستدلال حجة، والقاضى إسماعيل من فقهاء المالكية البالغين درجة الاجتهاد فى الفقه قد سمت منزلته فى العربية حتى تحاكم إليه علمان من أعلامها فى مسألة، وهما المبرد وثعلب.

وكبير الهمة فى العلم يريد أن يكون النفع بعلمه أشمل، ومما يدرك به هذا

---

(١) صاحب كتاب الكامل المعروف بتاريخ ابن الأثير.

(٢) صاحب كتابى النهاية فى غريب الحديث، وجامع الأصول فى أحاديث الرسول.

(٣) صاحب كتاب المثل السائر.

الغرض احترامه لآراء أهل العلم، ولا نعنى باحترامها أخذها بالقبول والتسليم على أى حال، وإنما نريد نقدها بتثبت، وعرضها على قانون البحث ثم الفصل فيها من غير تطاول عليها ولا انحراف عن سبيل الأدب فى تفنيدها، والفطر السليمة والنفوس الزاكية لا تجد من الإقبال على حديث من يستخفه الغرور بما عنده مثل ما تجد من الإقبال على حديث أحسن الدرس أدبه، وهذب الأدب منطقه.

وإذا كان الأستاذ كمدرسة يتخرج فى مجالس درسه خلق كثير فحقيق عليه أن يكون المثال الذى يشهد فيه الطلاب كيف تناقش آراء العلماء مع صيانة اللسان من هجر القول الذى هو أثر الإعجاب بالنفس، والإعجاب بالنفس أثر ضعف لم تتناوله التربية بتهذيب.

كبير الهمة يستبين خطأ فى رأى عالم أو عبارة كاتب فيكتفى بعرض ما استبان من خطأ على طلاب العلم ليفقهوه، ويأبى له أدبه أن ينزل إلى سقط الكلام أو يخف إلى التبجح بما عنده، وقد حدثنا التاريخ عن رجال كانوا أذكياء ولكنهم ابتلوا بشىء من هذا الخلق المكروه، فكان عوجًا فى سيرهم، ولطخًا فى صحفهم، ولو تحاموه لكان ذكرهم أعلى، ومقامهم فى النفوس أسمى، ومنزلتهم عند الله أرقى.

وخلاصة القول: تذكير النبهاء من نشئنا بأن يقبلوا على العلم بهمم كبيرة، صيانة للوقت من أن ينفق فى غير فائدة، وعزم يبلى الجديدان وهو صارم صقيل، وحرص لا يشفى غليله إلا أن يغترف من موارد العلوم بأكواب طافحة، وغوص فى البحث لا تحول بينه وبين نفائس العلوم وعورة المسلك ولا طول مسافة الطريق، وألسنة مهذبة لا تقع فيه لغو أو مهاترة.

ذلك عنوان كبر الهمة فى العلم، وذلك ما يجعل أوطاننا منبت عبقرية فائقة، ومطلع حياة علمية رائعة، وما نبتت العبقرية فى وطن نباتًا حسنًا إلا كانت أرضه كرامة، وسماؤه عزة وجوانبه حصانة ومنعة.

الدهاء والاستقامة

خصلتان يبلغ بهما الرجل أن يكون عظيمًا، وحق لمن استولى على الأمد الأقصى منهما أن يكون زعيمًا، هما بعد النظر فى استكشاف غوامض الأمور، وذلك ما نسميه الدهاء أو الكياسة؛ والسير فى سبيل الرشد بقلب سليم، وذلك ما نسميه الاستقامة أو التقوى، ولا نقصد فى هذا المقام إلى الحديث عن بعد النظر فى إدراك العويص من مباحث العلوم، وإنما نقصد الحديث عن الدهاء من ناحية تقدير وسائل النفع والضرر، أو من حيث شعور صاحبه بما يحمل له من ضغن، أو ينصب له من كيد.

يقارن الدهاء الاستقامة. فيصرف فى تدبير الوسائل التى تكفى شرًا مقبلاً أو تجلب خيرًا متعسرًا، ويقارن زيغ العقيدة أو لؤم الطبيعة فيندفع بصاحبه فى شعاب الباطل، ويكون نصيبه من الإفساد فى الأرض فوق نصيب الغباوة، إذ يزيد عليها أن يبتكر للشر فنونًا غير معروفة، ويلبس الباطل ثوب الحق، ويخرج المفسدة فى لون المصلحة، فإذا لم تجد الحقائق أو المصالح دهاء يمحق دهاء المبطلين أو المفسدين، عمى على العامة أمرها، وظهرت الضلالة والسفاهة مكانها.

ولكثرة ما يصاحب الدهاء من المكر والنزوع إلى الشر، توهم بعض العامة أنه لا يجتمع مع سلامة الضمير والحرص على فعل الخير، فتراهم يعدون غفلة الرجل عما ينطوى عليه الحديث من مغامز، وما يراد به من مكايد أثر صلاحه وطيب سريرته، وكاد بعض الكاتبين على حديث «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» يحوم حول هذا الوهم، إذ حمل الحديث على عدم الانخداع فى الدين بأن يصدق الكاذب الذى ظهر له كذبه مرة ثانية، ثم قال: «وأما الانخداع فى أمور الدنيا بناء على قلة التفاته إليها وعدم اهتمامه بها فهو ممدوح مطلوب». والحق أن الغفلة عن نواحى الشر دينية أو دنيوية لا تدخل فى سلك الكمال ولا تستدعى مدحًا، وإنما الكمال

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فى اليقظة والكياسة. والقصد من الحديث الشريف تحذير المؤمن من أن يكون مغفلاً، وإرشاده إلى استعمال الفطنة فى شئونه دينية أو دنيوية، وإذا كان الحديث مسوقًا للإخبار عن حال المؤمن فإنما يريد المؤمن الكامل، وهو الذى يستنير بالحكمة ويعتبر بالحوادث فتصفو بصيرته ويهتدى إلى غوامض الأمور حتى يكون حذراً مما سيقع، إذا أخذته الغفلة مرة فنكب من ناحية كانت نكبته من هذه الناحية هى الأولى وهى الآخرة، ويوافق هذا قول عمر بن الخطاب: «لست بخب والخب لا يخدعنى»، وأما المؤمن الذى يكون حظه من الحكمة والاعتبار بخساً، فقد يلدغ من الجحر الواحد مرتين أو مراراً.

ولا يعارض هذا حديث «المؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم» فقد تكلم الحفاظ فى سنده حتى ذهب بعضهم إلى أنه موضوع، وهو بقطع النظر عن سنده قد وقع لفظ الغر فيه مقابلاً للفظ الخب الذى هو الجُرْبُز أى: الخداع، فيكون المراد من الغرارة غفلته عن الشر، فإن كريم الأخلاق طيب السريرة لا يبحث عن الشر بحث من يريد التوغل فى طرقه والخوض فى غماره، وهو مع كونه لا يبحث عن هذه الطرق بحث المولع بها، يأخذ بسنة الاحتراس، فلا ينخدع لخب يزخرف له القول مداهنة، أو ينصب فى طريقه حباله، فغفلة الرجل عن وسائل الشر لانصرافه إلى الخير لا تنقص من كياسته فى تدبير وسائل الخير أو الاحتراز عما يهيأ له أو لقومه من الشر، فلا يصح أن يكون الإيمان الذى هو أساس استنارة الفكرة سبب الانخداع لتمويه مبطل أو مخاتلة ذى مأرب.

نجد فى سيرة رسول الله ﷺ ما يرشدنا إلى أن السياسة الإسلامية لا ينهض بها المستقيم إلا أن يكون أريباً، ولا الأريب إلا أن يكون مستقيماً.

فرسول الله ﷺ على ما كان محفوفًا به من رعاية الله وتأييده، لم يترك أمر السياسة الحربية أو المدنية دون أن يجريه على سنة التدبير والاحتراس من أمور يتبعها فى العادة عواقب سيئة، فمما نقرؤه فى سيرته الزاهرة أنه كان إذا قصد السفر لحرب قوم أخذ يسأل عن ناحية قوم آخرين حتى يظن السامع أنه ينوى السفر إلى الناحية التى يسأل عنها، ونقرأ فيها أنه كتب لأمير سرية كتاباً وقال له:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

« لا تقرأه حتى تبلغ مكان كذا وكذا » فلما بلغ ذلك المكان قرأه على الناس وفيه ذكر الناحية التى أمرهم بالتوجه إليها . ومن مثل هذا أخذ يحيى بن أكثم قوله فى حديث مع المأمون : « لا يستقيم كتمان شىء إلا بإذاعة غيره » .

ومن بديع سياسته عليه الصلاة والسلام صلح الحديبية ، فقد خفى على بعض كبار الصحابة حكمته فلم يرتح له ، ولكنه أتى بخير كثير إذ كان توطئة لفتح مكة دون أن تراق فيه دماء طاهرة ، أو تقصم فيه ظهور انحنت بعد الفتح راكعة لله ، وخرج منها رجال جاهدوا فى الحق بحماسة وإخلاص ، وكان صلوات الله عليه مع ما يجده فى الناس من حسن الطاعة والتسليم ، قد يستحسن الأمر ويدعه حذراً من أن يلاقيه بعضهم بإنكار . فانظروا إلى ما جاء فى الصحيح من أنه عليه الصلاة والسلام استحسن نقض البيت وبناءه على أساس إبراهيم ، وإنما تركه مخافة أن تنكره قلوب من كانوا حديثى عهد بالجاهلية من قريش ، وإنما يراعى عليه الصلاة والسلام إنكار الناس فيما لم ينزل به وحى ولم تقتض حاله أن يكون شرعًا نافذاً .

وإذا قال ابن خلدون فى الحديث عن العرب : « إنهم أبعد الأمم عن السياسة » فإنما يريد العرب قبل أن يستضيئوا بحكمة الإسلام ، أما بعد أن نزل القرآن وشاهدوا سيرة أحكم الخليقة صلوات الله عليه فقد كان نصيبهم من البراعة فى السياسة فوق كل نصيب .

نقرأ فى تاريخ فتح الفرس أن سعد بن أبى وقاص أرسل المغيرة بن شعبة إلى رستم القائد الفارسى ، فأقبل حتى جلس معه على سريره ، فوثب إليه أتباع رستم وأنزلوه من السرير ، فقال المغيرة : « إنا يا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضاً ، فظننت أنكم تتواسون كما نتواسى ، وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض ، اليوم علمت أنكم مغلوبون وأن ملكًا لا يقوم على هذه السيرة ، ولا على هذه العقول » .

قصد المغيرة بما صنع وما قاله تعليم القوم المساواة التى جاء بها الإسلام ليألفوه ، وإشعارهم بأنهم يعيشون تحت راية تلك الدولة عيش المستعبدين ليجنى من وراء هذا سقوط مكانتها من أنفسهم ، فلا يدافعون عنها من صميم أفئدتهم .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لا يستغنى رؤساء الشعوب عن الدهاء فى السياسة، وأشدهم حاجة إلى تدابيره الغامضة رئيس قبض على زمام طوائف اختلفت أهواؤهم سبلا وتفرقت آراؤهم مذاهب، فإذا رأينا السياسة فى عهد أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - تسير على مناهج من العدل واضحة فلأن الرئيس عادل، ومعظم الأمة على سبيل من الهداية لا تختلف، وما استقام الأمر لمعاوية مع ما خالط الأمة يومئذ من التفرق فى الآراء إلا لأنه كان يسلك فى السياسة مسالك خفية، ويركب لها من الطرق الوعرة ما يركبه الخلفاء من قبله، ومعاوية هو الذى يقول: «لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت» فقيل له: وكيف ذلك؟ فقال: «كنت إذا مدوها أرخيتها وإذا أرخوها مددتها».

ومن أساليب الدهاة فى إضعاف الجماعة التى تناوئ سلطانهم، أن يغروا بين كبرائها العداوة، فتنفصم رابطتهم وتشتد الخصومة فيما بينهم، وهو مسلك قد يضطر إليه المصلحون فى تفريق الجماعة التى تتحالف على ما لا خير منه، ومن هذا القبيل ما فعله نعيم بن مسعود - رضى الله عنه - حين تحالفت قريش وغطفان وبنو قريظة على حرب النبى ﷺ فى واقعة الأحزاب، إذ ألقى بينهم ما تقطع به حبل اجتماعهم على الباطل فانصرفوا خائبين.

وقد يعمل الطامع فى الأمة الغافلة على هذا المسلك حذراً من أن يتنبه شعورها، فتجمع أمرها وتوجه إليه قوتها، فمن واجب الأمة التى يربطها دين أو مصالح وطنية أن تؤكد أواصر الإخاء بينها، وتجعل المصلحة العامة نصب أعينها، وتوجه ما تستطيع من قوة إلى من يريد القضاء على دينها، أو الاستئثار بمنافع بلادها. لما تحفز الملك «الأذفونش» للهجوم على بلاد الأندلس، عقد كبراؤها مؤتمراً للنظر فى دفاعه وقرروا الاستنجاد بسلطان مراكش «يوسف بن تاشفين»، ولما أبدى بعضهم التخوف من أن ينقذ هذا السلطان البلاد من «الأذفونش» ثم يضع عليها يده قال له المعتمد بن عباد: «لأن يرعى أبناؤنا الجمال خير من أن يرعوا الخنازير».

ومن أساليب الدهاة فى القديم أن يسوسوا الجماعة الناشزة بأيدى رجال منهم، قال عباد بن زياد يصف زياداً لعبدالملك بن مروان: «قدم العراق وهى جمرة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

تشتعل، فسل أحقادهم، وداوى أدواءهم، وضبط أهل العراق بأهل العراق » . وهو أسلوب بعيد الشأو ظاهر الأثر قد يأخذ به ذو السياسة الرشيدة لزيادة تأليف القوم وتأكيد الإخلاص فى نفوسهم، دلت السيرة النبوية على هذا الضرب من السياسة، ومن شواهده ترتيبه عليه الصلاة والسلام الجيش يوم فتح مكة، إذ نظمه على حسب القبائل، وجعل على رأس كل قبيلة واحدا من سراتها، وعلامة كون السياسة رشيدة أن يوضع أمر القوم فى يد من ينصح لهم، ويرعى مصالحهم ويعمل لسعادتهم.

ومما يتخذه الدهاة فى وسائل أخذ القوم إلى جانبهم بذل شىء من المال إلى ذوى النفوذ من رجالهم، وهذا أحد الوسائل التى استطاع بها معاوية – رضى الله عنه – أن يقف تجاه على – كرم الله وجهه – ويأخذ منه شطر الخلافة على ما كان لعلى من المكانة الراجحة فى العلم والبيان، والقرب من رسول الله ﷺ وبذل النفس فى الجهاد، وبلوغه فى تقوى القلب أبعد غاية.

وهذه الوسيلة قررها الإسلام فى سياسة الدعوة إليه، فأذن فى صرف جانب من الزكاة لأناس قالوا: أسلمنا، تأليفًا لقلوبهم، واستدعاء لاطمئنان عقيدتهم، كما قال تعالى فى آية مصارف الزكاة: ﴿ **وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ** ﴾ [التوبة : ٦٠] .

لا يعتمد رئيس القوم على القوة يستطيع أن يخمد بها كل فتنة، ويرى أنه فى غير حاجة إلى أن ينظر فى منابت الفتن بدهاء، فاللدهاء مواضع يظهر فيها فضله على القوة، منها دفع الخطر الذى يتراءى شبحه من بعيد بحيث لا يشعر به إلا البصير بما وراء الخير من شرور، فقد يكون استعمال القوة فى الشر المتوارى موضع إنكار أو مثار فتنة، أما الدهاء فيرده والنفوس مطمئنة والفتن نائمة.

ويحتاج الحاكم إلى الدهاء فى استبانة الحقوق حيث ترفع إليه الدعاوى مجردة من كل بينة، وفى مثل هذه الدعاوى يظهر مبلغ ذكاء القاضى كما يظهر فضله فى نقد البينات وتمييز زائفها من صحيحها ومن دهاء المنصور بن أبى عامر أن أحد التجار قدم قرطبة ومعه كيس فيه ياقوت نفيس فتجرد ليسبح فى البحر وترك

الكيس على ثيابه وكان أحمر، فاختطفته حدأة فى مخالبها وتغلغلت به فى البساتين، فأبلغ أمره إلى ابن أبى عامر فجعل يستدعى أصحاب البساتين ويسأل العاملين فيها عمن ظهر عليه تغيير حال من بؤس إلى سعة حتى ذكر له شخص ظهر عليه من اليسر ما لم يعرف به من قبل، فاستدعاه وفاجأه بقوله : أحضر الكيس الأحمر، فتملكه الرعب وجاء به وقد نقص منه ما عفا له عنه صاحبه .

يحتاج الولاة إلى الدهاء فى سياسة الجماعات واستبانة الحقوق، ويحتاج إليه العلماء فى الدعوة إلى الخير، فقد تكون مواجهة الرجل بالأمر بالمعروف أو النهى عن المنكر لا تأتى بفائدة فيعدل الداعى إلى طريق يكون له الأثر المقصود من الدعوة، وهو السمع والامتثال .. عزم المعتصم على قتل محمد بن الجهم البرمكى لجولان يده فى مال الدولة، فرأى القاضى أحمد بن داود هذا التصميم وعرف أن الموعظة أو الشفاعة لا تحول دون هذا القتل، فسلك لإنقاذ محمد بن الجهم طريقًا آخر هو أن قال للمعتصم : وكيف تأخذ ماله إذا قتلته؟ قال : ومن يحول بينى وبينه! قال : يأبى الله تعالى ذلك ويأباه رسوله ﷺ، ويأباه عدل أمير المؤمنين فإن المال للوارث إذا قتلته حتى تقيم البينة على ما فعله، وأمره باستخراج ما اختانه وهو حى أقرب عليك، فرجع المعتصم عن عزمه وخلص محمد بن الجهم من القتل .

وينتفع الرجل من دهائه عند لقاء الطبقات المختلفة، يزن عقول من يلاقونه، ويحس ما تكن صدورهم وتنزع إليه نفوسهم، فيصاحب الناس ويشهد مجالسهم وهو على بصيرة مما وراء ألسنتهم من عقول وسرائر وعواطف، فيتيسر له أن يسايرهم إلا أن ينحرفوا عن الرشد، ويتحامى ما يؤلمهم إلا أن يتألموا من صوت الحق، ومراعاة عقول الناس وطباعهم ونزعاتهم فيما لا يقعد حقًا ولا يقيم باطلاً مظهر من مظاهر الإنسانية المهذبة، ومتى كان الدهاء – أعنى جودة النظر فى سياسة الأمور وتقدير وسائل الخير – عائداً إلى الألمعية، وهى فى أصولها موهبة إلهية، فإن التدبر فى سير أعاظم الرجال والنظر فى مجارى الحوادث باعتبار، مما تقوى بهما خصلة الدهاء فمن حق الملقى إليهم بتربية النشء من أوليائهم ومعلميهم أن يصرفوا العناية إلى تغذيتهم بالحديث عن دهاة الرجال وتنبيههم لما دبروه من وسائل

يبتغون بها إصلاحًا أو شرفًا، ومن حقهم أن يلاحظوا الحوادث التى تظهر من ناحية عرفت بالدهاء فيكشفوا غطاءها، ويقفوهم على بطائنها، ذلك لأننا نريد أن نعد للمستقبل ناشئة تستقيم على هدى الله، وتخوض لجج الحياة بكياسة تبصر بها مواقع الشر والخير، فتسعى إلى أن يكون الشر بعيداً منها والخير طوع أيديها، وعلى قدر ما يكون فى دعاة الشعب وقادته من دهاء وتقوى، يبعد فى سبيل الشرف شأوه، وتثبت فى مواقف الجهاد قدمه، ويرقى فى السماء ذكره، والذكر الذى تحوطه التقوى ويحرسه الدهاء لا يخفت صوته إن شاء الله.

○○○○○

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الاجتماع والعزلة

خلق البشر لحكمة سامية، هى عبادة مبدع الكائنات وحده، والعبادات عقلية كالإيمان، وبدنية كالصلاة، ومالية كالزكاة، ومركبة من مالى وبدنى كالحج والجهاد، فالعبادات لا تقام على وجهها إلا بوسائل هى: صحة الفكر، وسلامة البدن، وذات اليد، ولهذه الوسائل وسائل تسبقها كالزراعة والصناعة، والتفقه فى الدين، وبعض العلوم النظرية كالمنطق، أو الكونية كالطب، وليس فى استطاعة الفرد أو الرهط من الناس الاستقلال بهذه الوسائل، فاحتاج الناس بمقتضى فطرتهم وما خلقوا من أجله إلى التعارف والتعاون، ولا تعارف ولا تعاون إلا بالاجتماع.

فالاجتماع هو الذى تقتضيه الفطرة، وبه تنتظم العلوم، وتبلغ المدنية الفاضلة أشدها، فيتهيأ للناس أن يعبدوا الله على بصيرة، ويتقربوا إليه بضروب من الأعمال الصالحة لا تحصى.

يظهر إيثار الإسلام للاجتماع على العزلة فى كثير من الأحكام والآداب، فانظروا إلى ما دعا إليه على وجه التوكيد من إقامة الصلوات الخمس فى جماعة، ثم ما فرضه من الاجتماع لصلاة يوم فى الأسبوع، هى صلاة الجمعة وعين للحج وقتًا فى السنة، فكان من حكمة هذا التعيين التقاء أمم من بلاد وأقطار مختلفة على صعيد واحد، وشرع ليوم عيد الفطر ويوم عيد الأضحى صلاة تؤدى فى جماعة، وتوصل بوعظ وإرشاد.

وشرع إقامة الولائم فى مثل عقد النكاح، أو البناء، ويوم سابع الولادة، وحث على إجابة الدعوة حتى أن عبدالله بن عمر كان يجيب الدعوة فى العرس وغيره وهو صائم.

دعا إلى الاجتماع فى أوقات السرور كأيام الأعياد. ودعا إلى الاجتماع فى أوقات المكاره والشدائد، كالاجتماع لصلاة الكسوف، والاجتماع للصلاة على

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الميت وتشييع جنازته حتى يكون الاجتماع مالئًا لمواطن السرور والحزن، ولا يبقى للعزلة الجافية مظهر فى حال.

ومما يومئ إلى اختيار الاجتماع قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ فإن من مقتضى الأخوة الائتلاف والاجتماع فى أوقات كثيرة، وقال تعالى: ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ**﴾ وكيف يتسنى للمبتعد عن الجماعة فى ناحية أن يعرض عليهم آراءه، أو يستطلع منهم أمثالهم فضلا عما تقتضيه الشورى من مناقشة الآراء؟ وقال تعالى وفى وصف ما يدعو به المؤمنون الفائزون ﴿**وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**﴾ [الفرقان: ٧٤].

وكيف يصلح المفارق للجماعة أن يكون مثلا كاملاً للهداية، يشهد الناس سيرته فيما يفعل أو يذر، فيسيرون على أثره مقتدين؟

ومما يومئ إلى اختيار الاجتماع من حديث رسول الله ﷺ قوله: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**»(١)، وليس المعتزل من الناس باللبنة المرصوفة فى الجدار تمسك لبنة، وتمسكها لبنة، وما مثله إلا اللبنة تخرج عن الصف المستقيم فى البناء، ولا يزال اتصالها بالبناء يضعف حتى تهوى ساقطة إلى الأرض.

دعا الإسلام إلى الاجتماع، وشرع للاجتماع أحكامًا عادلة، وآدابًا فاضلة كالحث على القرض والمهاداة، وقضاء الحاجات، والإحسان لأولى القربى، واليتامى والمساكين وابن السبيل، وتحريم الربا والميسر، ووضع عقوبات للاعتداء على الأنفس والأموال والأعراض، إلى ما يشاكل هذا من الأحكام القضائية والنظم السياسية، والآداب التى تحمى الاجتماع من كل نقيصة، وتجعله مصدر خير وسعادة.

فشريعة الإسلام مشربة روح الاجتماع، ومن ثم ترى علماءها يخوضون فى المجامع يقولون طيبًا، ويعملون صالحًا، وهذا عبدالله بن مسعود - رضى الله عنه - يقول: «خالط الناس ودينك لا تَكْلمنَّهُ». وإذا نقل عن بعض من عرفوا بالتدبر فى القرآن والسنة آثار تدل على إيثارهم العزلة على الاجتماع، فإنما هى حال خاصة

---

(١) صحيح الإمام البخارى.

تعرض للشخص، فتجعل الاعتزال فى رأيه أرجح من الاجتماع، ولا يصح حملها على أنهم يقصدون إلى جعل العزلة مذهبًا يسع كل الناس، وانظر إلى ما يحكى عن الإمام مالك من أنه كان يشهد الجنائز، ويعود المرضى، ويعطى الإخوان حقوقهم، ثم ترك ذلك فى آخر حياته، وإنما ترك مالك هذا النوع من الاجتماع لحاله خاصة عرضت له؛ ويدلك على أنه رأى العذر فى ترك تلك الحقوق قائمًا، وقوله حين سئل عن ذلك: لا يتهيأ للمرء أن يخبر بكل عذر له.

فانظر كيف جعل العزلة من الشئون التى لا يجنح لها الإنسان إلا لعذر، ولكنه كره ذكر العذر الذى حمله عليها؛ وإذا ثبتت استقامة رجل كالإمام مالك، وعرف بالمحافظة على آداب الشريعة، ثم روى عنه ترك شىء من هذه الآداب الثابتة، حمل تركه لها على قيام عذر، ولا يكون هذا الترك موضعًا للاقتداء، وكيف يرى مالك للرجل – ولاسيما العالم – أن يخلد إلى العزلة، وهو الذى يقول: «حق على كل مسلم أو رجل جعل الله فى صدره شيئًا من العلم أن يدخل على ذى سلطان، يأمره الخير وينهاه عن الشر حتى يتبين دخول العالم على غيره».

فى الاجتماع مزايا دينية ومدنية لا يدركها المعتزلون، فالمعتزل للناس يفوته العلم إن كان فى حاجة إلى أن يتعلم، ويفوته فضل التعليم إن كان فيه كفاية لأن يعلم غيره من الجاهلين، والمعتزل يفوته ما يقف عليه المشاهد لأحوال الناس من التجارب التى يبلغ بها العقل أشده، ويفوته كسب المال أو نماؤه، والمال وسيلة العفاف وصيانة ماء الوجه، وهو المرقاة التى تصل بها الأمة إلى قمة المنعة والعزة والسيادة، وفى الاجتماع لذة روحية هى الاستئناس لمحادثات المصطفين من العلماء والأدباء، وإلى هذا الاستئناس يشير القائل:

وما بقيت من اللذات إلا مجالسة الأديب إلى الأديب

ثم إن معظم خصال الشرف والحمد التى يفضل بها الإنسان على سائر الحيوان إنما تبلغ كمالها، ويعظم أثرها فيمن سيرته الاجتماع، فسيرة الاجتماع هى التى يتجلى فيها خلق السخاء، إذ يشهد صاحبها حاجات الأفراد أو الجماعة، فتثور فى

نفسه الشفقة أو الإشفاق فيبسط يده إلي سدها جهد المستطاع، وسيرة الاجتماع هى التى يظهر بها خلق الحلم والأناة، حيث يصادف صاحبها طبقات من غير أولى الكياسة، فيقابل خشونة ألسنتهم باللين، وغلظة قلوبهم بالرفق، وسيرة الاجتماع هى التى يستبين بها فضل الشجاعة الأدبية، وهى خلق يهون عليك أن تقول للمخطئ: إن الصواب فى غير ما نطقت، أو تقول للمبطل: إن الحق فى غير ما رأيت، أو تقول للمفسد: إن الخير فى غير ما أتيت، وسيرة الاجتماع هى التى يتبين بها الناس كيف تحدث فتصدق، أو كيف تعد فلا تخلف، أو كيف تؤتمن فلا تخون.

قد يخطر بالبال أن فى العزلة تخلصًا من نحو القدح فى الأعراض، والسعى بالنميمة، والتنابز بالألقاب، ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة، والواقع أن الذى يعلم عاقبة وزر الغيبة والنميمة وما يشاكلها من الأوزار التى قد يسوق إليها الاجتماع، يجد فى نفسه زاجرًا عن ارتكاب شىء منها، وفى يده أن يسدى النصيحة لمن يحوم بها، أو يلوث صحيفته بلطخ من أقذارها، فإن لم يجد للنصيحة فى مجلس سامعًا، تركه إلى مجلس أبعد عن اللغو، وأبرأ من الإثم، وأما مسارقة الطبع فمن الاجتماع ما يقتبس منه الطبع آدابًا سامية، ومن الاجتماع ما يمكنك أن تفيض عليه من حكمتك نورًا، ومن إرشادك ماء طهورًا فينقلب ليله صبحًا، ورجسه طهرًا.

ومن ذا يرضى لك وأنت سليم القلب نقى العرض، أن تتردد على مجامع بضاعتها أقوال لا خير فى سماعها، أو تكثر من لقاء وجوه لا يغبطك أهل الفضل على لقائها، ومن ذا يجهل أن الوقت من ذهب، فيزين لك أن تبذله فى غير حق، أو تشترى به ما ليس بحمد؟

وإذا قلنا: إن الاجتماع خير من العزلة، لا نقصد إلى أن يصرف الإنسان أوقاته فى التردد على البيوت، وغشيان المجالس، والتعرض للقاء كل من يجرى اسمه على الألسنة، كما يفعل بعض من لم يقدروا الوقت حق قدره، فيبذرونه تبذيرًا، فإنه لا بد للإنسان من أوقات يخلو فيها بنفسه، ليؤدى واجبًا أو يتقرب إلى الله بنفل، أو

يحفظ علماً أو يحقق مسألة، وذلك معنى قول عمر بن الخطاب – رضى الله عنه–: «خذوا حظكم من العزلة». ونقرأ فى تراجم كثير من أهل العلم أنهم كانوا يجعلون من اليوم والليلة نصيباً للتقرب من الخالق بصلوات أو ذكر أو تلاوة قرآن، ويقبلون فى جانب عظيم منهما على العلم تأليفاً ودراسة، ويصرفون طائفة من الوقت فى قضاء حقوق اجتماعية. فإن قال الراغب فى العزلة: أريد أن أقضى أوقاتى فى عبادة، قلنا: فى حضور مجالس العلم – مفيداً أو مستفيداً– عبادة، وفى عيادة المريض عبادة، وفى زيارة الإخوان تأكيداً لمودتهم، أو تهنئة بنعمة أو تعزية على مصيبة – عبادة، وفى إرشاد الناس إلى الخير عبادة، وفى مد يد المعونة على ما يسد حاجتهم أو تقوى به شوكتهم عبادة.

وليس ببعيد أن يكون ما يعزى إلى بعض أهل العلم من إيثار العزلة مراداً به صرف معظم الوقت فى علم أو عبادة خالصة، حتى إذا أحس واجباً يدعوه إلى الاجتماع أجاب داعيه فى نشاط، ووضع يده فى أيدى العاملين بإخلاص.

وقد يخطر بالبال أن الشر فى هذا العصر أصبح مستطيراً، وأن للضلال والفساد دعاة لا يملون، وجنوداً لا يتقهقرون، فمن فئة غلبت عليهم أهواؤهم فاتخذوا اسم الدين وسيلة إلى ما تهوى أنفسهم، ومن قوم نبذوا الدين وخرجوا يدعون إلى الإباحية والإلحاد علانية، ومن جماعات يرسلون إلى بلادنا، ويقيمون معاهد ليتصلوا فيها بأبنائنا، ويحاولوا صرفهم إلى ملة غير ملتنا، ومن طوائف ابتدعوا نحلات خاسرة، وانتموا بأفواههم إلى الإسلام وقلوبهم تجحده، ولا شأن لهم إلا اصطياد الغافلين ومن لم تسبق لهم تربية رشيدة، كما تصنع الفرقتان المدفوعتان إلى تقويض أركان الإسلام واستدراج شعوبه إلى احتمال الذلة والهوان، وهما البهائية والحبشية، ومن فرق لا شأن لها سوى أن تضع أمام عين الشبان مناظر اللهو والخلاعة، فتصرفهم عن الطريق السوى، وتمشى بهم فى عوج، فلا يدركوا ما يدركه أولو الجد والعفاف والشهامة من مجد وكرامة. قد يخطر كل هذا ببال الرجل فينحدر فى غم، ويضل سبل التفكير، فلا يرى طريقاً للخلاص من هذا الغم سوى البعد عن المجتمع والعيش فى عزلة لا يسمع فيها صوت الباطل، ولا يبصر فيها منظراً من مناظر الإباحية المتهتكة.

ربما نسمع مثل هذا الخاطر من بعض من نشأوا فى رشد وصلاح، وقد يكون هذا الخاطر وليد سريرة طيبة، ولكن العمل عليه يزيد الضلال صولة، والفساد جلوة، ويجعل المجتمع الذى تستمد منه الأمة حياتها، ظلاماً لا يخلفه ضياء، ودنساً لا يغسله ماء.

أما أصحاب الأهواء والدعايات الزائغة ففى أيدينا مقاومتهم بالحجج التى تكشف عن تمويههم، وتنقذ الناس من مصارع باطلهم، وأما المحترفون بترويج الخلاعة، فمتى قامت التربية على دعائم الحكمة والحزم، خملت سوقهم وكسدت بضاعتهم، ومن أبقى يده فى أيدى الجماعة قام بنصيبه من الجهاد فى هذا السبيل، ومن خطر على باله العيش فى عزلة، فليستعذ بالله من اليأس، ويدع العزلة إلى اليوم الذى يلتحق فيه بأصحاب القبور.

وإذا هان اعتزال من لا يرجوه الناس لعلم أو رأى أو معونة على عمل اجتماعى، فإن عزلة العالم أو المجرب للأمور أو المستطيع لأن يعمل على الجماعة خيراً، ذات خطر كبير، وبالأحرى حيث تظهر المنكرات، أو تكون الأمة غارقة فى جهالة، أو تبتلى بملمات اجتماعية.

واعتزال العالم للجماعة قد يكون له أثر فى قلة إصابته فيما يتعرض له من الفتاوى، فإن للنظر فى الوقائع من ناحية ما يترتب عليها من خير أو شر دخلا فى إصابة الحق.

ولا يستقيم النظر فى الوقائع من تلك الناحية إلا لمن يتصل بالناس ويرسخ فى معرفة أحوال المجتمع، وكيف يدرى هذه الأحوال من هو غائب عنها، بعيد من مصادرها ومواردها؟

وإذا انصرف بعض أهل العلم أو الرأى عن الاتصال بالجمهور أيام كانت راية الإسلام تخفق فى الشرق والغرب، وكانت النفوس فى اطمئنان سائد، فإن الحال فى هذه العصور يدعو إلى بذل كل عناية فى التعارف والبحث عن علل ضعفنا، ثم

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عن الدواء القاطع لهذه العلل، وماذا ينفع البحث عن العلل وأدويتها إذا لم ننهض إلى تركيب الأدوية ونتعاطاها على الوجه الذى يوفر نشاطنا، وتشتد به سواعدنا، ويجرى به دم الحياة أو الحماسة فى صغارنا وكبارنا؟

لا يليق بالفرد أن يعتزل الجماعة، ولا يليق بالجماعة أن ترى نفسها فى غنى عن الاتصال بباقى جماعات الأمة، وإذا كان اتصال أفراد الجماعة باللقاء والتعاون على حاجات بلدهم، فاتصال الجماعات المتباعدة الأوطان يكون بوسيلة أفراد يرحلون فيدلون على مبلغ ثقافتها، ويستطيعون أن يفوا كمالها أو حاجاتها؛ وهؤلاء هم الذين يصلحون لأن يؤكدوا الروابط بين الجماعات حتى تكون كالبنيان يشد بعضه بعضا.

ooooo

شبكة الألوكة - قسم الكتب

التعـــاون

الإسلام فى مقدمة الشرائع المتضافرة على حفظ حقائق، هى : الدين والنفس، والعرض، والعقل، والنسل، والمال. فَمِن قصْده إلى المحافظة على الدين فَرْضُه القيام بالدعوة إليه والدفاع عن حوزته، ومن قصده إلى المحافظة على النفس شَرْعُه القصاص، وفرضه حضانة الأطفال ورعايتهم، ومن قصده إلى المحافظة على العرض تقريره لعقوبة القذف بالزنا، وأمره بتأديب من يتطاول على غيره بلمز أو هجاء، ومن قصده إلى المحافظة على العقل شرعه لعقوبة من يتناول المسكرات أو يسعى فى إزالة عقل شخص بالضرب ونحوه، ومن قصده إلى المحافظة على النسل حثه على النكاح، وسنه لعقوبة من يعتدى على شخص فيبطل منه قوة التناسل، ومن قصده إلى المحافظة على المال شرعه لعقوبة السارق وقاطع الطريق.

وقد يقع بعض هذه الحقائق فى ضياع أو يكون مشرفًا على الضياع، ويتعذر على الشخص الواحد العمل لسلامتها، فكان من مقتضى ثقل أعبائها أو كثرة شعبها، أن يمد إليه أشخاص آخرون أيديهم ليتعاون الجميع على حفظ دين أو نفس أو عرض أو عقل أو نسل أو مال.

ومن المعلوم الماثل أمام كل من تفقه فى الدين أن الإسلام قد راعى عجز الأفراد عن القيام بكثير من المصالح الخاصة أو العامة، فأمر بالتعاون على وجه عام ثم أقام كثيراً من أحكامه وآدابه على القاعدة التى ينتظم بها العمران، وتخف بها متاعب الحياة.

أما الأمر بالتعاون على وجه عام فمن شواهده قوله تعالى: ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾ [المائدة: ٢].

يتناول التعاون على البر والتقوى المؤازرة فى كل عمل ينتج عنه الخير سواء كان القائم به فرداً أم جماعة، وسواء كان الخير عائداً إلى فرد أم إلى الأمة، ولا فرق فى

أصل طلب التعاون بين أن يكون الخير من مصالح الحياة الدنيا التى أذنت الشريعة بإقامتها، وأن يكون من وسائل السعادة فى الأخرى، فمن التعاون على البر والتقوى أن يقوم الرجل للصلاة فتناوله وضوءاً، أو تهيئ له مصلى، ومن التعاون على البر والتقوى أن ينهض القوم لإعلاء كلمتهم بنحو بناء المدارس أو المستشفيات أو الملاجئ أو إقامة مصانع تسد جانباً من حاجاتهم المدنية، فتبذل فى إسعادهم ما تستطيع من قوة .

ويدخل فى الإثم والعدوان كل عمل يعطل شريعة من شرائع الدين، أو يعود على النفس أو العرض أو العقل أو النسل أو المال بالفساد، فمن التعاون على الإثم والعدوان أن تقضى للخصم بقطعة من مال خصمه وأنت تعلم أنه يدعيها زوراً وبهتاناً . ومن التعاون على الإثم والعدوان أن تشهد حفلات ترتكب فيها بعض محرمات كتعاطى المسكرات، أو رقص الفتيان مع الفتيات . ومن التعاون على الإثم والعدوان أن تشترى ورقة من تلك الأوراق التى تصدرها جماعات، ويسمونها « اليانصيب » فإنها من الميسر الذى وصفه الله تعالى بأنه رجس من عمل الشيطان . ومن التعاون على الإثم والعدوان أن تكون كاتب البطاقة التي يأمر فيها الظالم بالاعتداء على نفس أو عرض أو مال .

ومما ورد فى التعاون قوله ﷺ : « **انصر أخاك ظالمًا أو مظلوما** » فإن قصد أحد إلى من بينك وبينه إخاء ليعتدى عليه فى نفسه أو ماله أو عرضه، وجب عليك الانتصار للمعتدى عليه ودفع المعتدى بما يكفى للخلاص من شره، وذلك معنى الانتصار له وهو مظلوم، أما الانتصار له وهو ظالم فقد بينه النبى ﷺ فى نفس الحديث بمعنى الأخذ على يده، ومنعه من الظلم، وفى كفه عن الظلم الذى يذيقه عذاب الهون فى الآخرة، ويلبسه ثوب الخزى فى الأولى انتصار له أى انتصار .

ومن الوجوه التى تدل على قصد الشريعة إلي التعاون تحريم السؤال على مستطيع الكسب ، وفى هذا التحريم باعث له على القيام بجانب من حاجات الأمة ، وفى إخلاد القادر على الكسب إلى السؤال بليتان اجتماعيتان :

أولاهما : فوات الانتفاع بشخص يمكنه أن يكون كقطرة صالحة فى دم حياة الأمة، فتزداد به قوة على قوتها .

ثانيتهما : بقاؤه فى جسم الأمة كعضو يشرب من دمها ويأكل من لحمها، بل كعضو يسرى منه مرض البطالة إلى أشخاص لا تعرف نفوسهم العزة، فيكثر سواد هؤلاء الثقلاء فى البلاد، قال ﷺ : «**والذى نفسى بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير من أن يأتى رجلاً أعطاه الله من فضله فيسأله أعطاه أو منعه**» (١) فحرام على من يستطيع كسب الرزق أن ينكث يده من العمل ويجلس متشوفًا لما سمحت أو تسمح به نفوس المحسنين لمن قعد به العجز عن طريق الاكتساب .

فلو بدا لأولى الأمر أن يهيئوا للعاجزين عن الكسب ملاجئ ويأخذوا على أيدى المتسولين حتى يضطر صحيح البنية إلى مباشرة بعض الأعمال الحيوية، لوجدوا فى الإسلام ما يحثهم على أن يبنوا الملاجئ، ويمنعوا المتكففين من التجول فى الطرق والأسواق .

والعمل على تمكين الشباب الجامعى من أعمال تفيد الأمة وتدفع غائلة الحاجة عنهم حتى يتمكنوا من بناء أسرهم، ويحفظوا ماء وجهها عن ذل السؤال والضياع .

وقد بث الإسلام روح التعاون فى النفوس لأول ظهوره، نرى هذا فى حياة المسلمين بالمدينة عقب الهجرة، فقد ورد فى الصحيح أن المهاجرين قدموا من مكة وليس بأيديهم شيء، فعرض الأنصار على النبى ﷺ أن يقسم النخيل بينهم وبين المهاجرين، فقال : لا، فعرضوا عليه بعدُ أن يكفيهم المهاجرون مؤنة العمل ويشركوهم فى الثمرة، فأجاب لذلك فقاسمهم الأنصار على ذلك وكان الأنصار يؤثرون المهاجرين بما عندهم وإن كانوا فى حاجة إليه، وهو الإيثار الذى مدحهم الله تعالى به فى قوله : ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾ .

ومن قصد الشارع إلى التعاون على وجه عام، أنه نظر إلى الأعمال المنطوية على مصالح فكان منها ما تحصل مصلحته لكل شخص يقوم به، وتوجد هذه المصلحة

---

(١) كتاب الموطأ.

كلما قام به قائم وهو مستوفى الشروط والأسباب والأركان، فجعل الخطاب فيه موجهاً إلى كل من بلغ سن التكليف، كالصلاة والصيام والحج والزكاة، وهذا ما يسميه الفقهاء بالواجب على الأعيان، ومنها ما تحصله مصلحته بفعل شخص أو أشخاص، ولو قام غيرهم من بعدهم ليفعله وجد المصلحة قد تحققت، فجعل الخطاب فيه موجهاً إلى الأمة على أن تقوم به طائفة منها كتجهيز الموتى، وإنشاء ما يكفى حاجة البلاد من المدارس، وهذا ما يسمى فى عرف الفقهاء بفرض الكفاية.

والحقيقة أن الطلب فى فرض الكفاية يتوجه إلى من فيهم الكفاية للقيام بالعمل المطلوب، وإذا قام به بعضهم سقط الطلب عن سائرهم، فولاية القضاء مثلا - يتوجه الطلب فيها إلي من درسوا أحكام الشريعة وكان لهم مقدرة على تطبيق الأصول على الوقائع، وإنقاذ الغرقى يتوجه الطلب فيه إلى من يحسنون السباحة، وإغاثة المضطر يتوجه الطلب فيها إلى من يستطيعون الإغاثة، ونصرة المظلوم يتوجه الطلب فيها إلى من كان قادراً على أن ينصره بانفراده أو بالانضمام إلى غيره، وإنما جعل الخطاب فى فرض الكفاية موجهاً إلى الأمة لأنه يجب على من لم يكن فيهم أهلية للعمل المطلوب أن يهيئوا وسائله لمن فيهم أهلية، أو يجبروهم على القيام به إذا أهملوا أو تباطئوا، فدفع الشبه وتقويم الزيغ واجب على العارفين بأصول الدين، فإذا دخلت الضلالة فى قرية لا يوجد فيها من فيهم الكفاية لتقويم الزائغين، وجب على من فيهم الكفاية ببلد آخر أن ينتقلوا لإرشاد أولئك الضالين، وإن احتاجوا إلى نفقة أو وسيلة غيرها وجب على القادرين على مساعدتهم بالمال أو بتهيئة ما احتجاوا إليه من الوسائل أن يعينوهم على أداء واجب الإرشاد، فيسقط الوجوب عن الجميع، وقيادة الجيوش تجب على من جمع إلى الشجاعة العلم بالفنون الحربية، فإذا امتنع من تحققت فيهم شروط القيادة من الخروج إلى مواقع القتال، لا يتركون وشأنهم بعلة أن الأمر بقيادة الجيش موجه إليهم وحدهم، بل على أولى الشأن إجبارهم على تولى قيادة الجيش، فإن لم يجبروهم كانوا فى العقوبة سواء، بل لولى الأمر أن يعمد إلي من فيهم الكفاية لأمر من الأمور، ويعين من بينهم شخصاً أو أشخاصاً للقيام به، فيصير بهذا التعين فرض عين لا يسوغ لهم التأخر عنه.

ومن المطلوب على الكفاية ما هو دينى محض كالصلاة على الميت، ومنه ما يرجع إلى مطالب مدنية كتعاطى بعض الحرف أو الصنائع المحتاج إليها فى انتظام حال الجماعة، والنوع الأول يبعث على القيام به القصد إلى امتثال أمر الله تعالى، وأما النوع الثانى فقد يبعث عليه داعية فطرية، ذلك لأن همم الناس تختلف فى توجهها إلى ما تستدعيه الحياة من الحرف والصنائع، فيوجد فى أغلب البلاد الحداد والنجار والبناء والصائغ والخائط والحمال والكناس، إلى غير هذا من الحرف والصنائع الضرورية، ومن المحتمل أن لا تطرد هذه السنة فى بلد أو فى عصر، فيزهد الناس فى حرفة أو فى صناعة، فلم يدع الشارع هذه الضروريات أو الحاجيات إلى الدواعى الفطرية وحدها، بل جعل القيام بكل حرفة أو صناعة يحتاج إليها فى الحياة فرض كفاية حتى يستقيم أمر الحياة فإن لم تختلف همم الناس اختلافًا يفى بما تحتاج إليه البلاد من الحرف والصنائع، وجب على أولى الشأن العمل لسد حاجات الأمة، وإقامة الحرفة أو الصنعة المفقودة.

وقد دلنا التاريخ الصحيح لعهد النبوة أن الناس كانوا يتعاونون على مرافق الحياة ووسائل السعادة، فقد روى الإمام البخارى عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أنه قال: «إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق (١) بالأسواق، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل فى أموالهم، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ لشبع بطنه، ويحضر ما لا يحضرون ويحفظ ما لا يحفظون».

فدل الحديث على أن طائفة من المهاجرين كانوا يشتغلون بالتجارة، وطائفة من الأنصار كانوا يشتغلون بالفلاحة والزراعة، وأن أبا هريرة كان منقطعًا لطلب العلم، وعرفنا من طريق غير هذه الرواية أن فى الأمة لذلك العهد طائفة كانت تتعاطى بعض الصنائع كالتجارة والحدادة.

ولم يكن أهل الصفة (٢) إلا بمنزلة الجند المهيأ للدفاع، زيادة على ما كانوا يتلقونه من علم، فلهم من هذه الناحية قسط عظيم من التعاون المطلوب فى قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

---

(١) البيع والشراء.

(٢) موضع مظلل فى مسجد المدينة يأوى إليه المساكين.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ويجرى على شاكلة الحرف والصنائع العلوم والفنون، فقد قرر علماء الشريعة أن كل علم أو فن يحتاج إليه فى الحياة يجب أن تقوم به طائفة من الأمة، فمن التعاون على تنمية العلوم وتحقيقها إقبال كل طائفة على علم يقتلونه بحثًا، ويحيطون به من كل جانب، وإنما اتسعت دوائر العلوم بمثل هذا العمل المسمى بالتخصص. وقد أدرك علماء الإسلام فى القديم فائدة انفراد كل طائفة بعلم تفرغ فيه جهودها، وتصرف فيه جانبًا كبيرًا من أوقاتها، فاختلفت وجهاتهم على قدر ما كان بين أيديهم من العلوم، وظهر النبوغ فى هذه العلوم على اختلاف موضوعاتها وتباعد أغراضها.

وقد يكون اختلاف الناس فى إتقان هذه العلوم من دواعى الفطرة، بأن يقبل كل إنسان على العلم الذى يجد فى نفسه الميل إلى تعاطيه، فإن وجد الرئيس همم الناس منصرفة عن بعض العلوم، اتخذ الوسيلة إلى حمل طائفة منهم على مزاولته.

وأما أن شريعة بنت كثيرًا من أحكامها وآدابها على قاعدة التعاون فشواهده كثيرة، تجد هذه الشواهد فى التعاون على حفظ الدين والنفس والعرض والعقل والنسل والمال.

من شواهد التعاون على حفظ الدين، أن الشريعة نظرت إلى ما ينبنى على التفقه فى الدين من إثارة الجاهلين، وإنذار المسرفين وتنظيم الحياة على وجه أدعى إلى الارتياح والاطمئنان، فلم تتركه لهمم الأفراد التى قد يطرأ عليها ضعف أو انصراف عن التعلم، بل فرضت على كل فرقة من المسلمين أن يرحل منها طائفة إلى المواضع التى يمكنهم أن يتفقهوا بها فى الدين ثم يعودوا إلى قومهم، فتبقى عقائد الدين وواجباته وآدابه محفوظة بينهم.

قررت رحلة طائفة للتفقه فى الدين، وفيه معنى التعاون على حفظه، وورد فى الشريعة الأمر بالتعاون على حفظ الدين من وجه آخر، وهو أن رجال القبيلة أو القرية قد يغفلون عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فتضيع أحكام الدين وآدابه، ففرضت على الأمة أن يقوم طائفة منها بالدعوة إلى الحق والإصلاح، والتحذير من الباطل والفساد، قال تعالى: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ [آل عمران: ١٠٤].

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقد تختلف وجوه التعاون على حفظ الدين اختلاف الأحوال والأزمان، ومما حدث فى هذا العصر أن بعض المخالفين يعملون لزلزلة أركانه وطمس معالمه، بوسيلة ما يفتحونه من مدارس ومستشفيات وملاجئ يزعمون أنهم يخدمون بها العلم والإنسانية، فهنالك يجدون الأطفال والمستضعفين من الرجال والنساء واقعين فى حبائلهم لا شاهد عليهم ولا رقيب، فيحدثونهم عن الإسلام بألسنة تفترى عليه الكذب، ويلقنونهم آراء تجعلهم من أشد الناس عداوة لدينهم وازدراء لآبائهم، فمن التعاون على الدين فى هذا العصر أن ينهض المسلمون نهضة صادقة. فيبسطوا أيديهم بالبذل فى سبيل إنشاء مدارس ومستشفيات وملاجئ تغنى عن تلك المبانى المفتوحة لإغواء الغافلين.

ومن التعاون على حفظ الدين أن ينشط العلماء للإرشاد فيطلقوا ألسنتهم وأقلامهم فى نصح من فى قلوبهم بقية من خير، بأن لا يرسلوا أبناءهم إلى تلك المدارس التى لو غفل عنها الناس اليوم غفلتهم عنها بالأمس لطوى بساط الدين طى السجل للكتاب.

ومن شواهد التعاون على حفظ النفوس أن الشريعة قد نظرت إلى ما يحدث بين الطوائف من التنازع فالتقاتل، فأشفقت من أن تذهب نفوس بريئة، وتراق دماء كثيرة، فأمرت الباقين من المسلمين بالسعى للصلح بين الطائفتين المتقاتلتين.

ومن هذا القبيل فرض إغاثة العطشان والجائع حتى قال الفقهاء: من لقى عطشاناً ومعه ماء أو لقى جائعاً ومعه طعام، فمنع العطشان الماء أو الجائع الطعام، وهو يعلم أنه لا يجوز له منعه، وأنه يموت إن لم يسعده بما عنده حقت عليه عقوبة القصاص.

دعت الشريعة إلى التعاون على حفظ النفوس، وجعلت له من الزكاة النصيب الأوفى، فكان من مصارفها الفقراء والمساكين ليسدوا بها حاجتهم ويصونوا بها ماء وجوههم، ثم ندبت إلى وجوه أخرى من وجوه البر كالصدقة والهبة، فالقصد من الصدقة أوالهبة مواساة من يتصدق عليها أو يوهب له، وإعانته على حفظ نفسه أو نفس من يعوله غالباً.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفى الناس من لا تسمح نفسه برفع يده عن الشيء المنتفع به جملة، فجعل له الشارع طريقًا إلى أن يعين غيره بمنفعة الشيء مع بقاء ذاته تحت ملكه، كالعارية والعمرى (١). ومن الوجوه الراجحة فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٧]: أن المراد ما يتعاوره الناس من متاع البيت كالقدر والجفنة والسكين، وإذا طلب منك إعارة أمثال هذه الأدوات فى حال ضرورة كان منعها حرامًا، فإن طلب منك إعارتها فى حال لا تبلغ حال الضرورة، كان منعها خادشًا فى المروءة، دليلاً على أنك تطوى نفسك على شيء من البخل بما آتاك الله من خير.

ومن شواهد التعاون على حفظ العرض أن الشريعة قد وضعت على القذف بالزنا عقوبة محدودة، وعلى من يتناول غيره بسباب أو هجاء التعزير بما يكفى لردعه، وعهدت بإجراء ذلك الجزاء إلى الرئيس الأعلى أو من يقوم مقامه، وفى إجراء ذلك الجزاء تعاون على حفظ الأعراض، والقاضى الذى لا يحقق النظر فى قضايا السباب والهجاء، ولا يقرر لها جزاء وفاقًا، يعد فيمن لا يقدر حق صيانته الأعراض، ويلحق بمن يجهل أن العرض أعز على الرجل من ماله ونفسه.

ومن مقتضى التعاون على حفظ الأعراض أن لا تترك مجلسك ميدانًا يتسابق فيه الطغام إلى ثلب الأعراض، فإذا حرك أحد لسانه بالقدح فى عرض برىء أو بريئة، ألجمته بالحكمة، وكذلك يفعل الصالحون والمصلحون، قال ﷺ: «**ما من مسلم يخذل امرأ مسلما فى موضع ينتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله فى موضع يحب فيه نصرته، وما من امرئ مسلم ينصر مسلما فى موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله فى موضع يحب نصرته**»(٢) وقال ﷺ: «**من ذب من عرض أخيه رد الله النار عن وجهه يوم القيامة**»(٣).

ومن شواهد التعاون على حفظ العقل أن الشريعة وضعت عقوبة على من يتناول شيئًا من المسكرات، أو يؤذى شخصًا فيزيل عقله، وعقوبة الأول معروفة،

---

(١) أن تعطى شخصًا منفعة شيء مدة حياته أو حياتك أو إلى أجل مسمى.

(٢) أبو داود.

(٣) الترمذى.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وعقوبة الثانى الدية كاملة، وهذه العقوبات يجريها القائمون على المصالح العامة، وإجراؤها من قبيل التعاون على حفظ العقول.

ومن مقتضى التعاون أن تحول بين الإنسان وما يذهب بقوته العاقلة أو يضعفها ما استطعت أن تحول، فإن كان لك سلطان منعته بيدك الغالبة، وإن كنت مرشداً منعته بموعظتك الحسنة، ونصح الطبيب فى معالجة من تصاب عقولهم بشىء من الخلل داخل فى قبيل هذا التعاون المطلوب.

ومن شواهد التعاون على حفظ النسل أن الشريعة رغبت فى النكاح وجعلت من شروط صحته الإشهاد، فمن حضر ليشهد به فقد أخذ بأدب التعاون على حفظ النسل، ومن الآخذين بهذا الأدب المحمود الخاطب، ومن يشفع لدى الزوجة أو وليها فى تخفيف نفقات العرس، أو الرضا بالميسور من المهر.

ومتى ظهر فى الناس قلة الإقبال على الزواج، وجب على حكماء الأمة والقائمين على مصالحها أن يتعاونوا فى البحث عن علل قلة الزواج، ويتخذوا الوسائل إلى علاج هذه العلل حتى تعود الأمة إلى الفطرة السليمة، وتسير فى طهر، وينمو عددها نماء يكفل حياتها، ويكسبها قوة على القيام بنفسها.

ومن شواهد التعاون على حفظ المال بحمايته من التلف أو العمل على نمائه، أن الشارع قرر الإيصاء وهو أن يعهد الأب لمن يعرف فيه الأمانة وجودة الرأى بالنظر فى شئون ابنه من بعده، ومن مقتضيات الإيصاء حفظ مال الطفل والتصرف فيه على ما تقتضيه المصلحة، فقيام الموصى على أمر الطفل بحزم ونصح معونة على حفظ ماله وإصلاح حاله.

ومن هذا الباب تقرير الشارع لباب القراض، وهو إعطاء مال لمن يتجر به على أن له جزءاً من ربحه، فصاحب المال يعين العامل على كسب جزء من المال كانت يده فارغة منه، والعامل يعين صاحب المال على تنمية ماله، ولولا إعانة هذا العامل لبقى المال عند حد، وقد ينقصه الإنفاق حتى يذهب به جملة.

ومن هذا القبيل فتح الشارع لباب عقد الشركات فى الأموال، وهى خلط شخص ماله بمال آخر على أن يتصرف كل منهما فى المالين فى حال حضرة شريكه وغيبته، أو فى حال حضرته فقط.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفي هذا النوع من التعاون فائدة عظمى لا توجد عند عمل كل واحد في ماله منفرداً، فإن ضم القليل إلى القليل يصير كثيراً، وهذ الكثرة تجعل الشركاء قادرين على جلب بضائع مرتفعة القيم، أو مختلفة الأجناس والأصناف، ولولا الشركة لضاق باع كل منهم أن يصل إلى تلك البضائع ذات القيم المرتفعة، أو ذات الأجناس والأصناف المختلفة، فتقل الأرباح ولا يجد أهل البلد على تفاوت طبقاتهم كل ما يقوم بحاجاتهم ويوافق رغباتهم، ونجاح الشركات قائم على تحقق الأمانة والسير على نظم عمل الاقتصاد الصحيح فمن الملائم لروح التعاون في الإسلام تأليف شركات تحتفظ بعهد الأمانة، وتسير على نظم يراعى فيها قواعد الاقتصاد المعقولة وتسعها أصول الشريعة الغراء.

والتعاون بالنظر إلى ما تقع به المعونة إما أن يكون تعاونًا بالنفس، كأن تدفع بيدك أو سلاحك صائلاً على نفس أو مال، وإما أن يكون تعاونًا بالمال، كالقرض والهبة والصدقة وضرب الدية في قتل الخطأ على العاقلة، وإما أن يكون تعاونًا بالرأي كأن تشير على الرجل بما يخرجه من حيرة أو ينقذه من عطب، وإما أن يكون تعاونًا بالجاه، كأن تشفع لذي حاجة عند من يملك قضاءها قال ﷺ: «**اشفعوا تؤجروا**» (١). وقال عليه السلام: «**والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**» (٢). وتتفاوت همم الناس في مصارف الجاه، وأصغرهم همة من يستخدمه في منافعه الخاصة، ولا يوجهه إلى قضاء المصالح العامة؛ وقد دلنا التاريخ على أن كثيراً من زعماء الإسلام وعلمائه يدوسون منافعهم الخاصة بأقدامهم وإذا وجدوا موضعا لنفوذ الكلمة لم يذكروا إلا مصلحة عامة أو مصالح أشخاص يبتغون من السعي لها رضا الله في الدنيا والآخرة.

والخلاصة: أن الإسلام أقام التعاون على أساس محكم، ومد له في كل ناحية من نواحي الحياة بسبب، فإذا وضع المسلمون أيديهم على هذه الأسباب الوثيقة بلغت بهم المكانة المحفوفة بالعزة، المشار إليها بقوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**﴾.

---

(١) النسائي.
(٢) صحيح مسلم.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الإعراض عن الزواج

في الشعوب من يهضم حقوق الزوجة، ويقسو في عشرتها، وفيهم من تكون إرادته تابعة لإرادتها، ورأيه ملغى أمام رأيها. وقلما أخلصت المرأة لمن يهضم حقوقها ويسيء عشرتها، وقلما طاب للرجل عيش مع زوجها تكون كلمتها فوق كلمته، وقلما اغتبط بولد تضعه من لا تحترمه في حضوره فضلا عن غيبته.

أما الإسلام فكان بين ذلك قوامًا: أنقذ المرأة من أيدي الفريق الذين يزدرون مكانها، وتأخذهم الجفوة في معاشرتها، فقرر لها من الحقوق ما يكفل راحتها وينبه على رفعة منزلتها، ثم جعل للرجل حق رعايتها، وإقامة سياج بينها وبين ما يخدش كرامتها.

ومن الشواهد على هذا قوله تعالى: ﴿ **وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ** ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فجعلت الآية للمرأة من الحقوق مثل ما للرجل، وإذا كان أمر الأسرة لا يستقيم إلا برئيس يدبره، فأحقهم بالرياسة هو الرجل الذي شأنه الإنفاق عليها، والقدرة على دفاع الأذى عن ساحتها. وهذا ما استحق به الدرجة المومأ إليها في قوله تعالى: ﴿ **وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ** ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

فالإسلام أصلح الصلة بين الرجل والمرأة، وجعلها بمأمن من أن يلحقها وهن، أو يعلق بها كدر. وبعد أن أحكم صلة الزواج، وهذب حواشيها حث على الزواج، وجعله من سننه التي يعد تاركها من غير عذر مستخفًا بما أمر الله.

وإذا نظرت إلى أن حكمة الله تعالى قد اقتضت بقاء النسل، لإقامة الشرائع، وعمران الكون، وإصلاح الأرض، وأن النسل الصالح لا يبقى إلا بالزواج، رأيت كيف كان الزواج وسيلة إلى تحقيق أمور عظيمة أحب الله أن تكون، وحبب للناس القيام عليها.

وإن كنت من علماء الأخلاق، ونظرت إلى أن هناك فضيلة يقال لها العفاف، وعرفت أن الزواج مما يعين على التحلي بهذه الفضيلة، ظهر لك أن الزواج وسيلة

من وسائل الفضائل، وكثيراً ما تأخذ الوسائل حكم المقاصد فى نظر الشارع، وفى عرف الناس.

وإذا نظرت إلى النساء «الجنس اللطيف» وما فطرن عليه من الضعف وعدم إطاقة الأعمال الشاقة، شهدت فيهن العجز عن أن يهيئن لأنفسهن مرافق الحياة، ويعشن فى شىء من الراحة، والزواج يصل ضعفهن بقوة، ويسوق إليهن جانباً من الهناءة، ولو قصد الرجل بالزواج كفاية المرأة ما يعنيها من مطالب الحياة لقصد لعمل يكسبه شكوراً، وتزداد به صحيفة حياته نوراً.

أو ليس الزواج يكسب الرجل رفيقة تخلص له ودها، وتشمل منزله برعايتها؟ ومثل هذه الرفيقة التى تحمل حبه الطاهر، وتعمل لتدبير منزله فى غير من ولا تباطؤ، لا تتمثل إلا فيمن تربطه بها صلة الزواج.

وليس الزواج صلة مقصورة على الزوجين فحسب، بل تمتد هذه الصلة من الزوجين إلى أسرتيهما، فتكون حلقة واسعة فى سلسلة اتحاد الأمة، وللصلات الخاصة كالقرابة والصهر أثر فى التناصر كبير.

والزواج يكسب الرجل ولداً إن يحسن تربيته، كان له قرة عين فى حياته، وذكراً طيباً بعد وفاته، ومن ذا ينكر أن الولد المهذب من أجل النعم فى هذه الحياة؟

فللزواج مصالح تكثر بكثرته، وتقل بقلته، وتفقد بفقده، وقد عرفت قيمة هذه المصالح، ومكانها فى إعلاء الدين، وبسط أجنحة العمران وتخفيف متاعب الحياة

ويكفى الإعراض عن الزواج شراً أنه علة خراب الديار، واليد القابضة لروح العفاف، والوسيلة إلى ابتذال فتياتنا وعيشهن فى تعب أو فى غير صيانة، فمن واجب من يغارون على الفضيلة، أو على عمارة الأوطان، أو على الفتيات المصونات أن يعملوا للتعاون على مكافحة هذا الوباء المتفشى فى البلاد، وهو انصراف شبابنا عن الزواج.

الزواج صلة بين الرجل والمرأة، تسوق إليه الفطرة السليمة، وتدعو إليه الشرائع الحكيمة، ومازالت نفوس البشر تنساق فيه مع الفطرة، وتجيب به داعى الحكمة، إلا

نفوسًا لم تسلم فطرتها، أو عميت عن حكمة خالقها. وقد كانت هذه النفوس المعرضة عن الزواج لعدم سلامة الفطرة، أو لجهلها بما فى الزواج من حكمة مغمورة بالنفوس الآخذة بسنته، العاملة على تحقيق حكمته، فلم يشعر الناس بالنقص أو الفساد الذى دخل فى المجتمع من ناحية أولئك المعرضين عن الزواج.

أما اليوم، فقد أصبح انصراف شبابنا عن الزواج فى ازدياد، حتى ظهر فى مظهر ينذرنا سوء المنقلب، وما بعد هذا المنقلب إلا الانقراض، فحرام علينا أن نقف أمام هذا الخطر الداهم صامتين، وحقيق علينا أن نبحث عن العلل التي أصبحت بها قلة الزواج ظاهرة ظهور المرئى بالعين الباصرة، وعلينا بعد البحث عن هذه العلل النظر فى طريق معالجتها، لعلنا نقطعها من منبتها، وننقذ فتياتنا، ونحفظ أمتنا، ونطهر أوطاننا من خبائث لا تظهر إلا من إعراض الفتيان عن الزواج.

وإذا بحثنا عما يصح أن يكون سببًا لهذه الأزمة الاجتماعية، وجدناه يرجع إلى علل مختلفة.

وأظهر هذه العلل تبرج كثير من الفتيات تبرج من استولى عليهن الهوى، ونضب من وجوههن ماء الحياء، حتى استوى فى هذا التبرج الممقوت بعض الناشئات فى بيوت غير فاضلة، وبعض المترددات على مدارس لا تعنى بتلقين الفضيلة، ولا يؤلمها أن تذهب الفتاة فى الخلاعة إلى غاية قصوى.

وهذا المظهر الذي ظهر به كثير من فتياتنا اليوم قد جعل الشاب يحجم عن الزواج مخافة أن ينساق إلى قرينة تستخف بجانب الصيانة، كما تستخف به هؤلاء السافرات المتهتكات.

وليس هذا الخوف بحق، فإن البيوت المتحفظة بالحشمة، الآخذة بأدب الصيانة، غير قليلة يهتدى إليها كل من يبتغى الحياة الطاهرة، ولاسيما فتى لا يعنيه من الفتاة إلا أن يرتاح قلبه إذا نظر إليها، ويأمن على عرضه إن غاب عنها.

وإذا أردنا معالجة هذا التبرج الذى أوجس منه الشباب خيفة، فإن تبعته تعود إلى أولياء هؤلاء المتبرجات، إذ لم يأخذوا فى تربيتهم بالحزم، ولا فى الرقابة عليهم

www.alukah.net
شبكة الألوكة

باليقظة، فمن طرق مكافحة الإعراض عن الزواج، مقاومة هذا السفور القاضي على كرامة فتياتنا، وإرشادهن إلى أن الصيانة خير من الابتذال، والحياء أجمل من الصفاقة، وأى صفاقة أكثر من أن تقلب الفتاة وجهها فى وجوه الرجال!

ومن علل قلة الزواج ضعف العقيدة الدينية، فإن الإيمان بما ينال الفاسق من الخزى والشقاء، يقر النفس على العفاف، ويقطع تطلعها إلى ما ليس بحلال، فلا يبقى له إلا الاستمتاع بالزواج المباح، أما مزلزل العقيدة، فلا يجد فى نفسه حرجًا من أن يطلق لشهواته العنان، ويتقلب بها فى الخنا، وذلك ما يصرف قصده عن الزواج وهو يستطيع الزواج.

وإذا أردنا أن نعالج هذه العلة، فإن أكبر جانب من تبعة ضعف العقيدة يقع على المتولين لتربية النشء، حيث لم يعملوا لتلقينهم العقائد الصحيحة تلقينًا يجعلها راسخة رسوخ الشجرة الطيبة، أصلها ثابت، وفرعها فى السماء.

فعلاج هذه العلة أن نسعى لأن يكون نشؤنا على تربية دينية صحيحة، والدين هو الذى يزكى النفوس فلا ترى القبيح حسنًا، ولا الخبيث طيبًا.

ومن علل قلة الزواج تشوف كثير من الشبان للاقتران بذات ثروة، وذوات الثروة اللاتى يقبلن على التزوج بالشبان المقلين غير كثير. فهل لعمداء التربية وخطباء المنابر أن يلقنوا للنشء نصائح فى الزواج ويوجهوا نفوسهم إلى الناحية التى تجىء منها راحة البال، وانتظام الحياة، ودوام العشرة وهى طيب منبت الزوجة، وسماحة أخلاقها، وسمو آدابها؟! وأريد بطيب المنبت أن تنشأ فى بيت يرعاه ذو غيرة وحزم وإن كان قوت أهله كفافا، قال ﷺ: **«الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة»**(١) وقال ﷺ: **«تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»**(٢).

وانظروا كيف عنيت الشريعة الإسلامية بوصف الكفاءة بين الرجل والمرأة؟ ومن

---

(١) صحيح الإمام مسلم.

(٢) رواه الإمامان البخارى ومسلم.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وجوه الكفاءة أن يكون حال الرجل من جهة المال والحسب مناسبًا لحال المرأة من هذه الجهة، وإنما عنيت بالكفاة بين الزوجين، وجعلت المال من مقوماتها لأن أمر الزواج لا ينتظم فى غالب الأحوال إلا أن يكون الرجل محترمًا فى عين المرأة، وشأن المرأة أن لا تحترم من يكون أقل منها مالاً أو حسبًا، فلا يجد منها المعاشرة التي يود دوامها، ولا يطمع أن تطيعه بالمعروف فيكون مرتاح القلب للاقتران بمثلها.

وقد يكون سبب الإعراض عن الزواج اتساع رغبات النساء فى صنوف الملابس والمآكل والفرش، ونحوها من أمتعة البيوت ووسائل الرفاهية، حتى صارت كل طبقة تنظر إلى ما فوقها من الطبقات ثروة، وتجتهد أن تحاكيها فى الترف ومظاهر الأبهة، فإن صممت الفتاة على محاكاة الأسر التى هى أوسع غنى وأنمى ثراء من أسرة زوجها، فإما أن تجد من الزوج غفلة أو ضعف إرادة، فترهقه بما تقترحه من النفقات إرهاقًا، ومصير من ينفق من غير سعة الفاقة والإفلاس، وإما أن يقابل مقترحاتها الخارجة عن مستطاعه بشىء من الحزم والنظر فى العواقب، فينفق بمقدار ما يسعه كسبه، وهى بعد هذا إما أن تجنح إلى الفراق، وإما أن تبقى مع زوجها الحازم فى حالة من ترى أنها مبتلاة بهذا الزوج الذى لا يفى بجميع رغائبها، وماذا ترى فى عيشة صاحبين يعتقد أحدهما أن صحبته للآخر قد جرت عليه شقاء، وإلى عيشه كدراً؟ فهل يقطعان مسافة الحياة فى شىء من الراحة والصفاء؟!

أما التى تعود إلى رشدها وتقنع بالرزق الذى يسوقه الله تعالى إلى زوجها فأمثالها فى هذا العصر، ولاسيما الناشئات فى الدعوة غير كثير.

قد يكون هذا المرض الخلقى المتفشى فى فتياتنا أحد الأسباب التى صرفت الشبان عن الزواج، لأن الشاب يخشى أن يبتلى بزوجة تتعدى بمطالبها وما تشتهيه نفسها حدود المعروف، فإما أن ترهقه عسراً، وإما أن تسل ثوبها من ثوبه جانحة للفراق، وإما أن تبقى معه على غير مودة خالصة، وإذا لم تخلص المودة بين الصاحبين فلا تسل عن كثرة ما يدور من مناقشات ومنغصات.

ونحن لا ننازع فى أن اتساع رغبات النساء فى شئون الحياة قد تجاوز حد

المستطاع، ولكنا لا نسلم أنه نزعة عامة، وطبيعة لا تتحول حتى نتخذ منه للشبان الذين لا يقبلون على الزواج معذرة، بل نرى أن اتساع الرغبات إلى الحد الذى يثبط عن الزواج إنما هو شائع فى طبقات الناشئات فى ترف، أو من يتصلن بهن ولم تسبق لهن تربية نافعة، أما الأسر التى تعيش فى حالة اقتصاد وفيها أثارة من تهذيب، فإن فتاتهم تقنع بما يسره الله لزوجها من رزق، وتغتبط بحسن خلقه ومودته وبذله الوسع فى إنعام بالها، غير ناظرة إلى ما تقصر عنه يده من الأشياء الزائدة على الضروريات والحاجيات، وليست هذه الأسر المهذبات بقليل، فلو وجه الفتيان هممهم إلى لذة الحكمة والعلم، وعرفوا أنهم يجدون مع الفتاة المهذبة من راحة الضمير والتفرغ لاكتساب المجد ما لا يجدونه مع الفتاة الواسعة الرغبات، لكان لهم فى مصاهرة تلك الأسرة الفاضلة ما يجعل ضمائرهم فى راحة، وعيشهم فى هناء.

فمن يبلغ شبابنا هذه الحقائق ليعلموا أن إعراضهم على الزواج قتل لفضيلة العفاف، وحرمان للأوطان من نسل طيب، وإطفاء لمصابيح الحياة الاجتماعية الراقية! ولا أراهم بعد أن يعلموا هذه الحقائق وهم عشاق الفضيلة والغيورون على المصالح العامة، والعاملون لحياة الأمة ورقيها، إلا أن يطهروا نفوسهم من محاكاة الإباحيين فى الإعراض عن الزواج وهم يستطيعونه، فيكونوا بتوفيق الله تعالى أيادى بانية لا هادمة، ومصلحة لا مفسدة ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]

ooooo

النبـــوغ

في الناس من يجمع علماً غزيراً، أو يروى أدباً واسعاً، وقد يؤلف فتعد مؤلفاته بالمئات أو الآلاف من الصفحات، ولكنا لا نجد فيما ألف من مئات الصفحات وآلافها شيئاً زائداً عما كتبه الناس من قبله، ويسوغ لنا أن نسمى هذا العالم أو الأديب « حافظاً » أو « ناقلاً ».

أما العالم أو الأديب الذى يدرس فنسمع منه ما لم نكن قد سمعنا، ويؤلف فنقرأ له ما لم نكن قد قرأنا، فذلك ما يحق لنا أن نسميه نابغة أو عبقرياً.

فالنابغة أو العبقرى هو الذى يحدث علماً أو فناً من فنون الأدب لم يكن شيئاً مذكورا، كما صنع الخليل بن أحمد فى علم مقاييس الشعر، أو ينقله من قلة إلى كثرة، كما صنع عبدالقاهر الجرجانى فى علم البلاغة، ودون هذه الدرجة درجات وسمو كعب العالم أو الأديب فى العبقرية على قدر ما يأتى به من أفكار مبتكرة، أو ما يستطيعه من حل المسائل المعضلة.

أما ابتداع الرجل للعلم أساليب تجعل مأخذه أقرب وتناوله أيسر، فليس بنبوغ فى نفس العلم، وإنما هو نبوغ فى صناعة التأليف فيه.

وإذا كانت العصور قد تبسط يدها بالعلماء الناقلين كل البسط، فإنها لا تسمح بالعبقرى إلا قليلا.

فتية لم تلد سواها المعالى والمعالى قليلة الأولاد

تقوم العبقرية على الذكاء والجد فى طلب العلم، ثم على كبر الهمة، فمن لم يكن ذكياً لم يكن حظه من العلم إلا أن يحفظ ما أنتجته قرائح العلماء من قبله، ومن لم يجد فى طلب العلم، ولم يغذ ذكاءه بثمرات القرائح المبدعة بقى ذكاؤه مقصوراً فى دائرة ضيقة، فلا يقوى على أن يحلق فى سماء العلوم، ليبلغ الغاية السامية وماذا تصنع المرأة الكيسة فى بيت لا مئونة فيه ولا متاع؟ يقولون: إن ابن

سينا لم ينم مدة اشتغاله بالعلم ليلة واحدة كاملة، ولا اشتغل فى النهار بسوى المطالعة، وقالوا: لم يترك ابن رشد النظر ولا القراءة منذ عقل إلا ليلة وفاة أبيه، وليلة بنائه على أهله.

ومن لم تكن همته فى العلم كبيرة، لم يكفه ذكاؤه ولا جده فى الطلب لأن يكون عبقريًا، فقد يكون الرجل ذكيًا مجدًا فى التحصيل، وصغر همته يحجم به أن يوجه ذكاءه إلى نقد آراء قديمة، أو ابتكار آراء جديدة حميدة:

إذا غامرت فى شرف مروم ... فلا تقنع بما دون النجوم

والعبقرى يلذ العلم أكثر مما يلذه الناقلون، وإنا لنرى الرجل يرتاح للعلم ينحدر من سماء فكره أكثر مما يرتاح للعلم الذى ينساق إليه من فكر غيره، ولا يزيد هو على أن يودعه حافظته، قال تقى الدين السبكى فى أبيات أجاب فيها عن سؤال يتعلق بآية من الكتاب المجيد:

لأسرار آيات الكتاب معان ... تدق فلا تبدو لكان معان

إذا بارق قد لاح منها لخاطرى ... هممت قرير العين بالطيران

ولشدة ارتياح النابغة لاستخراج المعانى من معادنها، وتخليص الآراء الراجحة من بين الآراء الواهية، تجده أحرص الناس على العلم، وأشدهم أنسًا به، وأثبتهم على الانقطاع له.

○ مهيئات النبوغ:

للنبوغ مهيئات، منها أن ينشأ الذكى فى درس أستاذ يطلق له العنان فى البحث، ويرده إلى الصواب برفق، ويثنى عليه إن ناقش فأصاب المرمى. نقرأ فى ترجمة العلامة إبراهيم بن فتوح الأندلسى أنه كان يفسح لصاحب البحث مجالاً رحبًا، بل يطلب من التلاميذ أن يناقشوه فيما يقرر، ويحثهم على ذلك، ويختار طريق التعليم به، وشأن العالم العبقرى أن يقبل على التلميذ المتقد ذكاء ويأخذ بيده فى طريق التحصيل حتى يعرف كيف يكون عبقريًا.

ومن مهيئات النبوغ أن يشب الألمعي بين قوم يقدرون النوابغ قدرهم، فإن نظر القوم إلى النابغة بعين التجلة، وإقبالهم عليه باحتفاء، مما يزيد الناشئين الأذكياء قوة على الجد فى الطلب، والسعى إلى أقصى درجات الكمال.

ولا عجب أن يظهر النابغون فى العلم والأدب ببلاد الأندلس، فقد كان أهلها كما قال صاحب نفح الطيب: «يعظمون من عظمه علمه، ويرفعون من رفعه أدبه، وكذلك سيرتهم فى رجال الحرب: يقدمون من قدمته شجاعته، وعظمت فى الحروب مكايده».

وظهر فى عالم الإسلام خلفاء وملوك ووزراء، كانوا يقدرون النوابغ ويحتفون بهم لنبوغهم، مثل المأمون العباسى وعبدالله بن طاهر وسيف الدولة، والصاحب بن عباد فى الشرق، وعبدالرحمن الناصر، والمنصور بن أبى عامر، والمعتمد بن عباد فى الأندلس، وأسوق مثلا لهذا التقدير أن القاسم بن سلام عرض على عبدالله بن طاهر تأليفه فى غريب الحديث فقال عبدالله: إن عقلاً بعث صاحبه على عمل هذا الكتاب، حقيق بأن لا يحوج إلى طلب المعاش، وأجرى عليه عشرة آلاف درهم فى الشهر.

وقد يهيئ الناشئ للنبوغ أن يسبقه أب أو جد بالنبوغ، فإن كثرة تردد اسم سلفه العبقرى على سمعه، ومطالعته لبعض آثار عبقريته يثيران همته، ويرهفان عزمه لأن يظفر بما ظفر به سلفه من منزلة شامخة، وذكر مجيد.

وإذا رأينا كثيراً من أبناء فطاحل العلماء لم يتجاوزوا مرتبة العلماء الناقلين، فلنقص فى ذكائهم الفطرى أو لعل نفسية صرفتهم إلى نواح غير ناحية العبقرية.

ومن مهيئات النبوغ نشأة الذكى فى حاضرة زاخرة بالعلوم والآداب إذ فى الحواضر يلاقى الناشئ جهابذة العلماء، وأعلام الأدباء. وفى الحواضر يشتد التنافس فى العلوم والفنون، ويتسع مجال المحاورات والمناظرات

ومن مهيئات النبوغ قراءة مؤلفات النابغين فى العلم بعد الإطلاع على كتب غيرهم، فلا يرجى من ناشئ النبوغ فى علم متى وقف عند دراسة الكتب التى

تسوق المسائل مجردة من أدلتها غير معينة بالغوص على أسرارها وإنما يرجى منه النبوغ متى وضعت تحت نظره كتب يرى مؤلفيها كيف يستمدون آراءهم من الأصول العالية ولا يوردون مسألة إلا بعد أن يعززوها بالدليل.

ومن مهيئات النبوغ مطالعة تراجم النابغين المحررة بأقلام تشرح نواحي نبوغهم، وتصف آثارهم ومؤلفاتهم المنقطعة النظير، ثم ما يخصه بهم عظماء الرجال من تقدير وتمجيد.

ومن مهيئات النبوغ الرحلة والتقلب فى كثير من البلاد، ولاسيما بلاداً تختلف بعاداتها وأساليب تربيتها ومناهج حياتها العلمية والسياسية. ولعل نبوغ ابن خلدون فى شئون الاجتماع ذلك النبوغ الرائع؛ إنما جاءه من نشأته فى تونس، ثم سياحته فى بلاد الجزئر والمغرب الأقصى والأندلس ثم مصر، سياحة اعتبار، سياحة اتصل فيها برؤساء حكوماتها وأكابر علمائها، بل سياحة كان يقبض فيها أحياناً على طرف من سياسة تلك البلاد.

○ تقدير النبوغ:

يعرف الناس أن زيداً عالم أو أديب، أما بلوغه مرتبة النبوغ فى علم أو فن من فنون الأدب، فإنما يعرفه من درسوا ذلك العلم أو الفن دراسة تمكنهم من الحكم بأن ما يثمره فكر هذا العالم أو الأديب جديد بديع.

فمن لم يدرس علم الطب مثلاً لا يستطيع أن يصف أحداً بالنبوغ فيه إلا أن يقلد فى وصفه بعض كبار الأطباء، ومن لم يدرس علوم اللغة ليس من شأنه أن يشهد لأحد بالنبوغ فى هذه العلوم إلا أن يتلقى تلك الشهادة من أفواه أساتذة اللغة وآدابها، وأعد من تعقل ابن حزم أنه كتب رسالة بين فيها كيف أبدع أهل الأندلس فيما ألفوه فى العلوم والفنون، ولما وصل إلى علم الحساب والهندسة. قال: «وأما العدد (الحساب) والهندسة فلم يقسم لنا فى هذا العلم نفاذ، ولا تحققنا به فلسنا نثق بأنفسنا فى تمييز المحسن من المقصر فى المؤلفين فيه من أهل بلدنا.

وإذا انتشر العلم والأدب فى بلد أو قطر كان أهله أعرف بأقدار النبغاء، وربما

عاش العبقرى فى بلد ويكون ذكره فى بلد آخر أذيع، وشأنه فيه أعلى، نشأ العلامة أبو عبدالله التلمسانى فى تلمسان، وعاش بها، ويقول الكاتبون فى التعريف به: «وكان علماء الأندلس أعرف الناس بقدره، وأكثرهم تعظيماً له».

وأشار إلى هذا المعنى بعض من نشأ أو أقام بين قوم لم يقدروا فضل براعته، فقال:

وما أنا إلا المسك فى غير أرضكم يضوع وأما عندكم فيضيع

○ **أثر النبوغ:**

أثر النبوغ فى العلم: عرفنا أن العلماء الناقلين مزيتهم فى حفظ أقوال من تقدمهم، وليس من شأنهم أن يتقدموا بالعلوم ولو خطوة، وإنما الذى يبتكر العلوم أو تكون له يد فى تلاحق مسائلها قليلاً أو كثيراً هو العبقرى.

ولا يستغنى علم من العلوم عن عبقرى يضيف إليه مسائل، أو يحل منه مشاكل، أو يجيد تطبيق أصوله العالية على فروعها.

فعبقرية الأئمة المجتهدين أورثتنا هذه الثروة العظيمة من أصول الشريعة وأحكامها العائدة إلى حفظ الدين والأنفس والأعراض والأموال، وعبقرية علماء الكلام دخلت فى تفاصيل الإلهيات والنبوات، فخلصت الحقائق من الأوهام، وحفظت أصول الدين من أن تزلزلها عواصف الشبهات، وعبقرية المناطقة استنبطت هذه القوانين التى تساعد العقل السليم على أن تكون آراؤه صائبة، وحججه ساطعة، وعبقرية علماء العربية جعلت مقاييس اللغة ومحاسن بيانها فى متناول نشئنا يجرون عليها فى خطبهم وأشعارهم فيسترعون الأسماع، ويأخذون بالألباب.

وهكذا ننظر إلى كل فن من الفنون التى تقوم عليها المدنية الفاضلة الرائعة فنجده وليد العبقرية التى تخرق القشر وتنفذ إلى اللباب، فحاجة العلم إلى العبقرى لا يقضيها الجماعات التى تقنع بالحفظ وإن كثروا، ومما ينبه لهذا المعنى

قول محمد بن عيسى القوصى يرثى العلامة ابن دقيق العيد :

لو كان يقبل فيك حتفك فدية لفـــديت من علمـــائنا بألوف

أثر النبـوغ فى شـرف الأمـة : للنبـوغ فى عظمـة الأمـة حظ كـبـير، لذلك نرى الشعوب والقبائل يباهى بعضها بعضاً بالنابغين فى علم أو أدب أو سياسة . وانظروا إلى رسالة كتبها أبو الوليد الشقندى فى فضل الأندلس على بر العدوة، وقد ملأها بقوله يخاطب أهل العدوة : هل لكم فى علم كذا مثل فلان وفلان؟ وذكر البارعين فى الفقه والنحو والأدب والشعر والتاريخ والهندسة .

ولابن حزم رسالة نوه فيها بفضل الأندلس، فذكر طائفة من جهابذة تلك البلاد : يقيسهم ببعض علماء الشرق وأدبائه، فيقول مثلاً : فلان نباهى به جريرا أو الفرزدق، وفلان نسابق به محمد بن إسماعيل البخارى، وفلان نناطح به محمد بن الحكم، وفلان وفلان لم يقصروا عن أكابر أصحاب محمد بن يزيد المبرد .

أثر النبوغ فى علو الهمة : أشرنا إلى أن النبوغ يقوم على كبر الهمة فى العلم، ونقول الآن : إن النبوغ ينحو بصاحبه نحو عزة النفس ويرفع همته عن أن تسلك طريق الملق والخضوع لإدراك نحو منصب أو مال، فإن شعور العبقرى برفعة منزلته العلمية، يريه أن كل ما عدا هذه المنزلة أهون من أن تطمح إليه النفوس أو تحرص عليه، وقد نال ابن حزم الوزارة، ولما رأى العلم فوق كل مرتبة انصرفت نفسه عنها، وطلقها ثلاثا من تلقاء نفسه، وانقطع للبحث والتحرير.

ر كيف نصعد بأبنائنا فى مراقى النبوغ :

تختلف نفوس الناشئين فى الميل إلى العلوم، كل نفس تميل إلى ما يوافق طبعها، فنرى نفساً تختار علماً، ونفساً تختار علماً غيره، ولندع الفلسفة تبحث عن سر موافقة هذا العلم لطبع هذه النفس، ونكتفى بأن نعلم أن هذه النفس تميل إلى هذا العلم، لنتوجه بها إلى التخصص به، فتطلبه برغبة زائدة على رغبتها فيه من حيث إنه علم، وقد أدرك هذا علماؤنا من قبل، فنقرأ فى التعريف بحياة العلامة أبى

عبدالله التلمسانى أنه كان يترك كل طالب يتخصص بالعلم الذى تميل إليه النفس.

ومناهج التعليم اليوم تقتضى تخصص كل طائفة بقسم من العلوم، ولا يكفى توجه الطالب إلى التخصص بقسم من العلوم لأن يكون نابغًا فيه، وما فتح أبواب التخصص إلا أحد الهيئات للنبوغ، وقد تفوت الطالب القريحة الوقادة والألمعية المهذبة، أو تفوته الهمة التى تطمح به إلى بلوغ الذروة فى العلم، فعلى القائمين على شئون التعليم العام أن لا يكتفوا بأن تخرج أقسام التخصص فى كل عام فرقًا يؤدون الامتحان، ويحرزون شهادات تخولهم ولاية بعض المناصب، بل واجبهم أن يواجهوا عنايتهم إلى ذوى الذكاء المتقد وإن كانوا من أبناء البيوت الخاملة، ويربوا فيهم الهمة الطامحة إلى أسمى الغايات، ويقووا عزائمهم بكل وسيلة ممكنة حتى يسيروا فى طريق العبقرية، فإن سلامة الأمة وسيادتها على قدر ما تخرجه معاهدها وجامعاتها من أساتذة أجلاء، أساتذة لا يتركون فى العلم الذى يتخصصون به غامضًا إلا استكشفوه، ولا بابًا من أبوابه إلا نفذوا منه.

ooooo

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المـــروءة

خصلة رفيعة القدر، تجرى فى منشآت الأدباء، ويتحدث عن معناها فى علوم اللغة والشريعة والأدب والأخلاق، تلك الفضيلة هى: المروءة.

ننظر فى منشآت الأدباء من منظوم ومنثور، فنجد لفظ المروءة واردًا فى مقامات المدح، كما قال زياد الأعجم يمدح عبدالله بن الحشرج:

إن السماحة والمروءة والندى ... فى قبضة ضربت على ابن الحشرج

أو الفخر كما قال أحد شعراء الحماسة:

عادوا مروءتنا فضلل سعيهم ... ولكل بيت مروءة أعداء

وقالوا فى الذم: فلان زمن المروءة: أى أن مروءته دارسة بالية.

وننظر فى كتب اللغة، فنجدها تقول: المروءة: الإنسانية أو كمال الرجولية، أو الرجولية الكاملة. وكمال الرجولية ينتظم من الأخلاق الحميدة، والآداب السامية. فالمروءة إذًا هى جماع مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب، فمن يفوته جانب من هذه المكارم أو المحاسن، يفوته جانب من العناصر التى تتكون منها المروءة.

ولاشتمال المروءة على جملة الفضائل يقتصر بعض الأدباء عليها فى مقام المديح كما قال سعيد بن حميد يعاتب صديقا له

ولئن سبقت لتبكين بحسرة ... وليكثرن على منك عويل

ولئن سبقت ولا سبقت ليمضين ... من لا يشاكله لدى خليل

وليذهبن بهاء كل مروءة ... وليفقدن جمالها المأهول

وننظر فى كتب الشريعة، فنجد المروءة واردة فيما يروى من الأحاديث النبوية، ونجد الفقهاء يذكرونها فى بعض أبواب الفقه، كباب القضاء، وباب الشهادة، ويقولون: المروءة صيانة النفس عن كل خلق ردىء.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

والسمت الحسن، وحفظ اللسان، وتجنب السخف والمجون. وقال آخرون منهم: المروءة أن لا يأتى الإنسان ما يعتذر منه مما يحط مرتبته عند أهل الفضل، قال ابن سعيد يوصى ابنه:

وكل ما يفضى لعذر فلا   تجعله فى الغربة من إربتك

وما يقوله علماء الشريعة غير بعيد مما يقوله علماء اللغة من أن المروءة كمال الرجولية.

وننظر فى كتب الأدب، فنجدها تسوق لبعض بلغاء الرجال وحكمائهم عبارات تشير إلى بعض الواجبات والآداب التى تقوم عليها المروءة، كما قال الأحنف بن قيس: «المروءة العفة والحرفة»، وقال ميمون بن ميمون: «أول المروءة طلاقة الوجه، والثانى التودد، والثالث قضاء الحوائج»، وقال مسلم بن قتيبة: «المروءة الصبر على الرجال، أى: الصبر على المكاره فى معاشرتهم وقضاء مآربهم»، وقال ابن هبيرة: «المروءة إصلاح المال، والرزانة فى المجلس، والغداء والعشاء فى الفناء، ويريد من إصلاح المال تنميته والتصرف فيه على وجه الصلاح، وكنى بالغداء والعشاء فى الفناء عن الكرم والسخاء»، وقال معاوية: «المروءة ترك اللذة».

واللذات التى يعد تركها مروءة هى اللذات المحظورة على الإطلاق، واللذات الملهية عن الازدياد من الحمد وإن لم تكن من المحظورات.

نوم الغداة وشرب بالعشيات   موكلان بتهديد المروءات

وعبارات هؤلاء البلغاء والحكماء لا تخالف قول اللغويين: المروءة كمال الرجولية، لأن البلغاء قد يتسامحون فى بيان معانى الألفاظ، فيقتصر الواحد منهم على بعض المعنى اهتمامًا بشأنه، وحرصًا على أن يضعه نصب عين السائل ليكون ذلك أدعى إلى عنايته به، ومحافظته عليه.

وننظر فى كتب الأخلاق، فنرى بعضها يفسر المروءة بعظم النفس، ووجه هذا التفسير أن عظم النفس هو المنمى لمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب وعلى هذه المكارم والمحاسن يقوم كمال الرجولية.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولا خلاف بين من تحدثوا عن المروءة أن هناك آدابًا لا يعلو مقام الرجل فى المروءة إلا بالمحافظة عليها، وبين أيدينا منابع للمروءة عذبة صافية هى الكتاب الحكيم، وسيرة النبى الكريم صلوات الله عليه، وإن فى آثار العظماء من السلف بعد ذلك لعبرة.

وها أنا أسوق إلى حضراتكم جملة من تلكم الآداب كأمثلة يزداد بها معنى المروءة وضوحًا، فأقول:

من أدب صاحب المروءة أن يكون ذا أناة وتؤدة، فلا يبدو فى حركاته اضطراب أو عجلة كأن يكثر الالتفات فى الطريق، ويعجل فى مشية العجلة الخارجة عن حد الاعتدال، وأما السرعة بمعنى عدم التباطؤ والتثاقل، فدليل الحزم، والحزم من مقومات المروءة.

ويتصل بهذا الأدب أن يكون الرجل متئدًا فى كلامه: يرسل كلماته مفصلة، ولا يخطف حروفها خطفًا حتى يكاد بعضها يدخل بعضًا.

وحيث كان لحسن البيان دخل فى كمال الرجولية، صح أن يعد فى مظاهر المروءة وينبه لهذا قول عمر بن الخطاب: تعلموا العربية، فإنها تزيد فى المروءة.
ومن أدب صاحب المروءة أن يضبط نفسه عن هيجان الغضب أو دهشة الفرح، ويقف موقف الاعتدال فى حالى الضراء والسراء

ولست بمفراح إذا الدهر سرنى ... ولا جازع من صرفه المتقلب

ومن هنا نرى ذا المروءة لا تطيش به الولاية فى زهو، ولا ينزل به العزل فى حسرة. عدل معاوية عن تولية الأحنف بن قيس ثغر الهند فقال له زياد: إن الأحنف بلغ من الشرف والحلم والسؤدد ما لا تنفعه الولاية، ولا يضره العزل، وقال قاضى قرطبة محمد بن بشير: والله لا أبالى فى الحق من مدحنى أو ذمنى، وما أسر للولاية، ولا أستوحش من العزل.

ومن أدب صاحب المروءة الصراحة والترفع عن المواربة والنفاق فلا يبدى

شبكة الألوكة - قسم الكتب

لشخص الصداقة وهو يحمل له العداوة، أو يشهد له باستقامة السيرة وهو يراه منحرفًا عن السبيل.

فسرى كإعلانى وتلك خليقتى　　　وظلمة ليلى مثل ضوء نهارى

والمراد أن صاحب المروءة لا يتخذ الظهور بخلاف ما يضمر عادة مثل ما يفعل قوم لا تشمئز نفوسهم من الملق والرياء، أما إذا اقتضت الحكمة إخفاء بعض ما يضمر من نحو العداوة والصداقة، فإن اتباع ما تقتضيه الحكمة من مكملات المروءة.

ويتصل بهذا الأدب أدب آخر هو أن لا يفعل الرجل فى الخفاء ما لو ظهر للناس لعدوه من سقطاته، وقد رفع محمد بن عمران التيمسى شأن هذا الأدب حتى جعله هو المروءة، فقال لما سئل عن المروءة: أن لا تعمل فى السر ما تستحى منه فى العلانية.

وعمل القبيح فى السر يدل على أن تجنبه فى العلانية تصنع ورياء، والمروءة أن يجتنب الرجل القبائح لقبحها ووخامة عاقبتها.

وإذا وجد فى الناس من فيه استعداد لأن يعاشر من يحملون له فى أنفسهم عداء واستهانة بشأنه، ولا يبالى أن يلاقيهم صباحًا ومساء لغير ضرورة، فإن صاحب المروء يستطيع أن يلاقى الناس بطلاقة وجه، ولسان رطب، غير باحث عما تكنه صدورهم من مودة أو بغضاء، ولكنه لا يستطيع أن يرافق ويعاشر إلا ودودًا مخلصًا.

وعش إما قرين أخ وفى　　　أمين الغيب أو عيش الوحاد

ويطلق خفيف الوزن لسانه فى أعراض الناس يلتقط معايبهم، أو يختلق لهم معايب، متخيلاً أنه يحظى باسم المروءة من إلصاق العيب بغيره، والعرب تقول: «فلان يتمرأ بنا» أى يطلب المروءة بنقصنا وعيبنا.

أما صاحب المروءة الصادقة فيبخل بوقته عن هذه الطوية الحقيرة، ولا يرضى إلا أن يشغله بما تتقاضاه المروءة من حقوق، قال رجل لخالد بن صفوان: كان عبدة بن

الطيب لا يحسن يهجو، فقال له: لا تقل ذلك فوالله ما تركه من عى ولكنه كان يترفع عن الهجاء، ويراه ضعة، كما يرى تركه مروءة وشرفًا، وأنشد قول أبى الهيذام:

وأجرأ من رأيت بظهر غيب　　على عيب الرجال ذوو العيوب

وربما اضطر ذو المروءة أن يدافع شر خصومه الكاشحين بذكر شيء من سقطاتهم، ولكن المروءة تأبى له أن يختلق لهم عيبًا يقذفهم به وهم منه برآء، فإن الأخبار بغير الواقع يقوض صرح المروءة، ولا يبقى لها عينا ولا أثرًا، قال الأحنف: لا مروءة لكذوب، ولا سؤدد لبخيل.

ويتصل بهذا الأدب أن المروءة تحفظ لسان صاحبها أن يلفظ مثلما يلفظ أهل الخلاعة من سفه القول.

وحذار من سفه يشينك وصفه　　إن السفاه بذى المروءة زارى

ومن الاحتفاظ بالمروءة أن يتجنب الرجل تكليف زائريه ولو بعمل خفيف، كأن يكون بالقرب من الزائر كتاب، فيطلب منه مناولته إياه، أو يكون بجانبه الزر الكهربائى فيشير إليه بالضغط عليه لإنارة المنزل أو استدعاء الخادم، قال عمر بن عبدالعزيز: «ليس من المروءة استخدام الضيف».

والمرءة تنادى صاحبها أن يسود فى مجلسه الجد والحكمة، وأن لا يلم فى حديثه بالمزاح إلا إلمامًا مؤنسًا فى أحوال نادرة، قال الأحنف بن قيس: «كثرة المزاح تذهب المروءة» ووجه ذلك أن الذى يسرف فى المزاح يكثر منه الوقوع فى لغو الحديث، ولا يخلو من أن تصدر منه كلمات تؤذى بعض جلسائه، وكمال الإنسانية لا يلتقى بلغو الحديث، أو إيذاء بعض الإخوان فى مجلس، ومن أدب المروءة حسن إصغاء الرجل لمن يحدثه من الإخوان، فإن إقباله على محدثه بالإصغاء يدل على ارتياحه لمجالسته، وأنسه بحديثه، وجاء فى الحديث الشريف: «**من المروءة أن ينصت الأخ لأخيه إذا حدثه**»، وإلى هذا الأدب الجميل يشير أبو تمام بقوله:

من لى بإنسان إذا أغضبته ... ورضيت كان الحلم رد جوابه
وتراه يصغى للحديث بقلبه ... وبسمعه ولعله أدرى به

وشأن ذى المروءة أن يحتمل ضيق العيش، ولا يبذل ماء حيائه وكرامته فى السعى لما يجعل عيشه فى سعة، أو يديه فى ثراء، قال مهيار:

ونفس حرة لا يزدهيها ... حلى الدنيا وزخرفها المعار
يبيت الحق أصدق حاجتيها ... وكسب العز أطيب ما يمار

وذو المروءة لا يظهر الشكوى من حوادث الدهر إلا أن يتقاضى حقاً:

لا يفرحون إذا ما الدهر طاوعهم ... يوماً بيسر ولا يشكون إن نكبوا

وقال عبدالله بن الزبير الأسدى فى عمر بن عثمان بن عفان:

فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ... ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت

ويعد فى مروءة الرجل أن يكون حافظاً لما يؤتمن عليه من أسرار، قال المتنبى من أبيات جعلها خطاباً لمن أودعه سراً، وخشى منه إذاعته:

كفتك المروءة ما تتقى ... وأمنك الود ما تحذر

يريد أنه ذو مروءة، وذو المروءة لا يفشى سراً اؤتمن عليه، وذو المروءة يحذر أن يؤذى شخصاً ما، وأشد ما يحذر أن يؤذى ذا مروءة مثله:

وأستحيى المروءة أن ترانى ... قتلت مناسبى جلداً وقهراً

○ فى المروءة راحة ولذة:

إذا كانت المروءة تقتضى الإعراض عن كثير من اللذات، فإن فى المروءة نفسها لذة تفوق كل نعيم فى هذه الحياة، وإن كان فى حفظ المروءة ملاقاة كثير من المشاق، فإن راحة الضمير التى يجدها الرجل عندما يبلغ فى المروءة غاية سامية تنسيه كل مشقة، ولا يبقى معها للتعب باقية، **قال المتنبى**:

تلذ له المروءة وهى تؤذى ... ومن يعشق يلذ له الغرام

ولذة المروءة في شعور النفس ببلوغها كمال الرجولية أو قربها منها، وإذابتها لصاحبها بما أشرنا إليه من أن للمروءة تكاليف باهظة لا ينهض بها إلا ذو صبر متين، حتى قال أبو عبدالله الكاتب: «الصبر على حقوق المروءة أشد من الصبر على ألم الحاجة».

○ **ذو المروءة حقيق بالإجلال:**

إذا نظرنا في تفاصيل الأخلاق والآداب التي تقوم المروءة على رعايتها وجدناها تبعث على إجلال صاحبها وامتلاء الأعين بمهابته، ومن الحكم السائرة: «ذو المروءة يكرم وإن كان معدمًا، كالأسد يهاب وإن كان رابضًا، ومن لا مروءة له يهان وإن كان موسرًا كالكلب يهان وإن طوق وحلي بالذهب».

الغرض من هذا الحديث: قد رأينا كيف انتظمت المروءة أخلاقًا سنية، وآدابًا مضيئة، وعرفنا أن رسوخ هذه الأخلاق والآداب في النفس يحتاج إلى صبر ومجاهدة ودقة ملاحظة وسلامة ذوق، فحقيق بنا أن نربي أبناءنا على رعايتها منذ عهد التمييز، حتى لا تسبق إليهم أخلاق غير نقية، وعادات غير رضية، فتحول بينهم وبين الفضائل فلا تجد المروءة إلى نفوسهم مدخلا:

إذا المرء أعيته المروءة ناشئًا ... فمطلبها كهلا عليه عسير

نربي أبناءنا على ما يثبت قواعد المروءة، ويرفع بناءها، ليحمدوا أبوتنا، ويكونوا قرة أعين لنا، وأسوة حسنة لأحفادنا، وزينة لأوطننا، وليفوزوا بالعزة في الدنيا والسعادة في الآخرة.

○○○○○

الحلم

ترغب النفوس فى أشياء، وتنفر من أخرى، وفى النفوس طبيعة غضب تثور عند منعها مما ترغب فيه، أو عند ملاقاتها لما تنفر منه، ومن المخل بنظام حياة الأفراد والجماعات إطلاق العنان لقوة الغضب ، تثور كلما منعت النفوس مما تحب، أو لقيت ما تكره، بل الحكمة أن تكون قوة الغضب خاضعة للعقل خضوعاً يجرى فى النفس مجرى الطبيعة حتى لا تهيج إلا للأمر الذى ينبغى أن تهيج له، وفى الوقت الذى ينبغى أن تهيج فيه ولا تتجاوز الحد الذى ينبغى أن تقف عنده.

ومن بلغ أن تكون قوة غضبه منقادة للعقل، جارية على مقتضى العلم، فهو الحليم بحق.

وليس من شرط الحلم أن يفقد الرجل قوة الغضب بحيث يكون حاله أمام الإساءة وعدمها سواء، وإنما شرط الحلم أن لا يطغى الغضب حتى يدفع الرجل إلى الانتقام، أو يمنعه من الصفح حيث يكون الصفح أولى به.

فالحليم قد يأخذه الغضب لجهل جاهل عليه، لكنه يكظم غيظه حتى لا يكون له أثر فى غير نفسه.

ولربما ابتسم الكريم من الأذى ... وفؤاده من حره يتأوه

وقد يسلم من الغضب للأمر الذى يستشيط له الأحمق غضباً.

والحلم لا يعارض الأخذ بالحزم، شأن الفضائل، يأخذ بعضها بيد بعض وتتلاقى للتعاون على البر والتقوى، فإذا كان الحلم سكون النفس وعدم تهيجها للمكروه الذى يكفى فى دفعه الصفح عنه، فإن من الحزم الغضب للأذى الذى يصدر عن لؤم، ويتمادى ولو مع الإغضاء عنه. قال المتنبى:

إذا قيل رفقا قال للحلم موضع ... وحلم الفتى فى غير موضعه جهل

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقال النابغة:

ولا خيـــر فى حلم إذا لم تكن له ... بوادر تحـــمى صـــفـــوه أن يكدرا

وقال الحسين بن عبدالصمد يمدح بعض الأمراء:

عجبوا لحلمك أن تَحوَّلَ سطوة ... وزلال خلقك كيف عاد مكدرا

لا تعجبوا من رقة وقساوة ... فالنار تقدح من قضيب أخضرا

وقال آخر:

أناة فإن لم تغن عقب بعدها ... وعيداً فإن لم يغن أغنت عزائمه

والحلم لا يشتبه بالذلة فى حال، فإن الذلة احتمال الأذى على وجه يذهب بالكرامة؛ أما الحلم فهو إغضاء الرجل عن المكروه حيث يزيده الإغضاء عن أعين الناس رفعة ومهابة.

سياسة الحلم لا بطش يكدرها ... فهو المهيب ولا تخشى بوادره

ولا يظهر معنى الحلم إلا مع القدرة على دفع الأذى باليد أو اللسان، لهذا نرى كثيراً من الشعراء متى أرادوا مدح شخص بمزية الحلم؛ نبهوا على أنه يصفح وهو قادر على أن يجزى السيئة بمثلها، أو بما هو أكبر منها كما قال ابن زمرك يمدح سلطان غرناطة:

ويغضى على العوراء إغضاء قادر ... ويرجح فى الحلم الجبال الرواسيا

وقال ابن زيدون يمدح بعض الأمراء:

أرى الدهر إن يبطش فمنك يمينه ... وإن تبسم الدنيا فأنت لها ثغر

عطاء ولا مَنٌّ وحكم ولا هوى ... وحلم ولا عجز وعز ولا كبر

ونراهم متى أرادوا الفخر بالحلم أشاروا إلى قدرتهم على مقابلة السوء بمثله كما قال عمرو بن قيس:

وذى ضغن كففت النفس عنه ... وكنت على مساءته قديراً

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وذى ضغن كففت النفس عنه وكنت على مساءته قديراً

وكل الأخلاق فى حاجة إلى أن تتعهد بالتربية والتهذيب، وأشدها حاجة إلى ذلك التعهد الحلم، ولم نسمع أحداً قال: ترددنا على فلان لنأخذ عنه الشجاعة أو الكرم مثلاً - ولكن الأحنف بن قيس يقول: لقد اختلفنا إلى قيس بن عاصم فى الحلم كما نختلف إلى الفقهاء فى الفقه.

وكثيراً ما يشكو الأدباء من قلة الحلم فى الناس. قال بعضهم:

من لى بإنسان إذا أغضبته وجهلت كان الحلم رد جوابه

وقال أبو العتاهية:

عذيرى من الإنسان ما إن جفوته صفا لى ولا إن صرت طوع يديه

وإنى لمشتاق إلى ظل صاحب يرق ويصفو إن كدرت عليه

ويروى أن الخليفة المأمون لما سمع هذين البيتين قال: خذوا منى الخلافة وأعطونى هذا الصاحب.

ومكارم الأخلاق كلها خير، وكل مكرمة ترفع صاحبها فى الشرف درجة أو درجات، ومن أعظمها أثرا فى سعادة حياة الأفراد والجماعات: خلق الحلم؛ ويكفى الحلم شرفًا أن اسمه أخذ من بين أسماء الفضائل، وسمى به العقل، ومن الحكم الذائعة فى كتب الأدب قولهم: ما أضيف شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم، ومن عفو إلى مقدرة.

قد يقطع الحلم شراً إن لم يقابل بالحلم لتمادى أو عظم خطره، قال أيوب: «حلم ساعة يدفع شراً كبيراً» وقال الأحنف: «من لم يصبر على كلمة سمع كلمات، ورب غيظ تجرعته مخافة ما هو شر منه».

وقد يضع الحلم مكان الضغينة مودة؛ ذلك أن الفضيلة محبوبة فى نفسها وتدعو إلى إجلال من يتمسك بها، وقد نبه القرآن المجيد لهذه الحكمة بقوله: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤].

وبالحلم يحفظ الرجل على نفسه عزتها، إذ يرفعها عن مجاراة الطائفة التى تلذ المهاترة والإقذاع، كان عروة بن الزبير إذا أسرع إليه أحد بشتم أو قول سوء لم يجبه وقال: «إنى أتركك رفعًا لنفسى عنك».

ونرى الناس فى جانب الحليم متى كان خصمه أو مناظره ينحدر فى جهالة، ولا يندى جبينه أن يقول سوءًا، قال على بن أبى طالب: «حلمك على السفيه يكثر أنصارك عليه».

ومن فضل الحلم أن الرياسة صغيرة كانت أو كبيرة، لا ينتظم أمرها إلا أن يكون الرئيس راسخا فى خلق الحلم، قال معاوية لعرابة بن أوس: بم سدت قومك يا عرابة؟ قال يا أمير المؤمنين: «كنت أحلم على جاهلهم، وأعطى سائلهم، وأسعى فى قضاء حوائجهم» وذلك أن الناس يكرهون جافى الطبع ولا يجتمعون حول من يأخذه الغضب لأدنى هفوة إلا أن يساقوا إليه سوقًا فمن قل نصيبه من الحلم قل أنصاره، وذهبت من قلوب الناس مودته، والرئيس بحق من يملك القلوب قبل أن يبسط سلطانه على الرقاب.

ثم إن أعز غاية عمل لها الجماعات: التمتع بنعمة الحرية، ولا تظفر الجماعات بهذه البغية إلا أن يكون الماسك بزمام سياستها على جانب عظيم من الحلم، فإن الحليم هو الذى يقدم الناس على نقد تصرفاته، ويصرحون له بآرائهم فيما لا يرضى عنه من أعماله. أغلظ رجل إلى معاوية بن أبى سفيان القول فحلم عنه، فقيل له: أتحلم عن هذا؟! فقال: إنى لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا.

ويعجبنى من الشعر المعبر عن الحلم البالغ أبيات محمد بن عميرة المعروف بالمقنع الكندى التى يقول فيها:

وإن الذى بينى وبين بنى أبى ... وبين بنى عمى لمختلف جدًا

فإن أكلوا لحمى وفرت لحومهم ... وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجدًا

حتى قال :

ولا أحمل الحقد القديم عليهم وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا

ونرى الرؤساء الأذكياء، يقصدون إلى الوسائل التى قد تثير غضبهم على طائفة من الأمة، فيقطعونها . . لما انتهت فتنة ابن المعتز، وعاد المقتدر إلى الخلافة، واستوزر على بن الفرات، حمل إلى هذا الوزير من دار ابن المعتز صندوقان عظيمان فيهما جرائد بأسماء من بايعوا ابن المعتز، فلم يفتحهما الوزير ورمى بهما في النار، وقال : لو فتحتهما وقرأت ما فيهما فسدت نيات الناس علينا . فسد ابن الفرات بهذه السياسة باب الغضب على أشخاص قد يدفع الغضب عليهم إلى فتنة لا يدرى كيف تكون عاقبتها، وإذا وجد الناس فى التغلب على الغضب عسراً، فإن لدى الرؤساء أولى القوة ما يجعلهم أقرب إلى الحلم من غيرهم، وهو القدرة على الانتقام من المسىء متى شاءوا قال ابن المقفع : لا ينبغى للملك أن يغضب فإن القدرة من وراء حاجته .

والشعور بالقدرة على مجازاة المسىء إن لم يؤد إلى الصفح عنه، فإنه يساعد على الأقل على التمهل فى العقوبة، فإن اندفاع الرجل إلى العقوبة عند ثورة الغضب قد يلقى به فى العقاب على السيئة بأعظم منها، قال مروان بن الحكم فى وصيته لابنه عبدالعزيز عندما ولاه عاملا على مصر «إن كان بك غضب على أحد من رعيتك فلا تؤاخذه به عند ثورة الغضب، واحبس عقوبتك حتى يسكن غضبك، ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب، مطفأ الجمرة» .

وأعظم فوائد الحلم : الفوز برضا الخالق جل شأنه، فإنه قد دعا إليه فى آيات كثيرة . قال تعالى : ﴿ **وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٣٤] وقال تعالى : ﴿ **وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا** ﴾ [الفرقان : ٦٣] وكثير من المؤمنين يؤذون فيضبطون أنفسهم عند الغضب ابتغاء رضا الخالق تعالى اسمه . شتم رجل عمر بن ذر فقال له : إنى أمتُّ مشاتمة الرجال صغيراً، فلن أحييها كبيراً، وإنى لا أكافىء من عصى الله فى بأكثر من أن أطيع الله فيه .

وصفوة الحديث أن الحلم يحتاج إليه عميد الأسرة فى منزله، والتاجر فى محل تجارته، والعامل فى مجلس دراسته، والقاضى فى مقطع أحكامه، والرئيس الأعلى فى سياسة رعيته، بل يحتاج إليه كل إنسان مادام الإنسان مدنيًا بالطبع، لا يمكنه أن يعتزل الناس جملة، ويعيش فى وحدة مطلقة.

○○○○○

الفهرس

الموضوع	الصفحة
– المقدمة	٣
الباب الأول	
البعثة وانتشار الإسلام	٥
١ – قضاء البعثة المحمدية على المزاعم الباطلة	٧
٢ – انتشار الإسلام	١٢
٣– ما يثار حول انتشار الإسلام فى شبة	١٩
الباب الثانى	
صلاحية الشريعة الإسلامية لكل زمان ومكان وبيئة	٢٥
١ – الشريعة الإسلامية	٢٧
– الاجتهاد فى أحكام الشريعة	٢٧
– شرائط الاجتهاد	٢٩
– الكتاب	٢٩
– السنة	٣٠
– علوم اللغة العربية	٣١
– أصول الفقه	٣٢
– الفقه	٣٢
– مواقع الإجماع	٣٣
– القياس	٣٤
– العدالة والاستقامة	٣٤
– بناء الشريعة على حفظ المصالح	٣٥
– التفقه فى الأدلة السمعية	٣٦
– الأصولة النظرية الشرعية	٤٣
– القياس	٤٤
– الاستصحاب	٤٩
– مراعاة العرف	٥٥
– سد الذرائع	٦١
– المصالح المرسلة	٦٨
– الاستحسان	٧٤
٢– الرؤيا ليست طريقا للأحكام الشرعية	٧٨
٣– فصل الدين عن السياسة	٨٠
٤– العلماء وأولو الأمر	٩٤
٥– محاكاة المسلمين للأجانب	١٠١
٦– المداراة والمداهنة	١٠٧
٧– سماحة الإسلام فى معاملة غير المسلمين	١١٤
٨– العزة والتواضع	١٢١
٩– الرفق بالحيوان	١٢٨
الباب الثالث	
السنة والبدعة والاستشهاد بالحديث فى اللغة	١٣٧
١– السنة والبدعة	١٣٩
٢– الاستشهاد بالحديث فى اللغة	١٥٢

الموضـــــوع	الصفحة
– ما المراد بالحديث	١٥٢
– الخلاف فى الاحتجاج بالحديث	١٥٣
– وجه نظر المجوزين	١٥٤
– وجهة نظر المانعين	١٥٥
– مناقشتهم لأدلة المانعين	١٥٦
البــاب الرابــع	
أديان وفرق	١٦٥
١ – الإلحاد	١٦٧
– أسبابه	١٦٧
– طبائع الملحدين	١٦٨
– أسباب ظهور الإلحاد	١٧٢
– كيف يُعالج الإلحاد؟	١٧٣
٢ – الانحراف عن الدين	١٧٤
– علل الانحراف	١٧٤
– آثار الانحراف	١٧٨
– دواء الانحراف	١٧٨
٣ – أديان العرب قبل الإسلام	١٨٠
– بعثة هود عليه السلام	١٨٠
– بعثة صالح عليه السلام لثمود	١٨٢
– بعثة إسماعيل عليه السلام للعرب	١٨٥
– بعثة شعيب عليه السلام إلى مدين	١٨٦
– الشرك فى بلاد العرب	١٨٨
– البرهمية فى العرب	١٩٥

الموضـــــوع	الصفحة
– دين الصابئة فى العرب	١٩٦
– المجوسية فى العرب	١٩٧
– الدهرية فى العرب	١٩٩
– اليهودية فى جزيرة العرب	٢٠٠
– النصرانية فى العرب	٢٠٥
– الموحدون من العرب	٢٠٧
٤ – البابية أو البهائية	٢١٠
– ما البهائية؟	٢١٠
– اعتقاد مؤسيسها وأتباعهم	٢١٢
– هل يعتقد البائهيون فى الحشر والجنة والنار؟	٢٢٢
– هل يعترفون بالنبى ﷺ؟	٢٢٣
٥ – القاديانية	٢٢٦
– غلام أحمد: أصله ولادته ونشأته	٢٢٧
– ادعاء غلام أحمد الوحى والنبوة والرسالة	٢٣١
– زعمه أن له آيات على صدقه	٢٣٦
– غروره	٢٣٨
– تكفيره لمن لم يؤمنون برسالته	٢٣٨
– القاديانية فرقتان	٢٤٠
– وجوب مقاومتهم والتحذير من دعاياتهم	٢٤١
٦ – الدين والفلسفة والمعجزات	٢٤٢
٧ – كتاب يهذى فى تأويل القرآن المجيد	٢٤٥

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الموضـــوع	الصفحة
– تأويله لآيات المعجزات	٢٤٧
– دعـوته إلى الفسـوق عن أحكام الشريعة	٢٥٥
– إنكاره للجن	٢٥٦
– إنكاره للشياطين	٢٥٧
– تأويله للملائكة	٢٥٨
– إنكاره لأحكام معلومة من الدين بالضرورة	٢٥٩
– زعـمـه أن المسلمـين يروون الأحاديث النبوية عن اليهود	٢٦٢
البـاب الخامس	
آداب وأخلاق	٢٦٥
١– الصداقة	٢٦٧
٢– الزنا	٢٨٠
٣– المسكرات	٢٨٣
٤– الشجاعة	٢٨٦
٥– قوة التخيل	٢٩٦
٦– المساواة فى الإسلام	٣٠٢
٧– إباءة الضيم	٣٠٥
٨– أثر الرحلة فى الحيـاة العلميـة والأدبية	٣١٠
٩– عظم الهمة	٣٢١
١٠– المدنية	٣٢٩
١١– صدق اللهجة	٣٣١

الموضـــوع	الصفحة
١٢– مقاصد الإسلام فى إصلاح العالم	٣٤٢
١٣– الإخلاص	٣٤٥
١٤– الأمانة	٣٤٩
١٥– التعليم الدينى	٣٥٧
١٦– القضاء فى الإسلام	٣٦٣
١٧– الإنصاف الأدبى	٣٧٢
١٨– العلماء والإصلاح	٣٨١
١٩– عوامل النهوض	٣٨٦
٢٠– سعادة الأمة	٣٩٢
٢١– صدق العزيمة أو قوة الإرادة	٣٩٧
٢٢– الغيرة	٤٠٣
٢٣– الهمة	٤٠٩
٢٤– الدهاء والاستقامة	٤١٥
٢٥– الاجتماع والعزلة	٤٢٢
٢٦– التعاون	٤٢٩
٢٧– الإعراض عن الزواج	٤٣٩
٢٨– النبوغ	٤٤٥
٢٩– المروءة	٤٥٢
٣٠– الحلم	٤٥٩
الفهرس	٤٦٥

www.alukah.net

دار الطباعة والنشر الإسلامية

مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية

العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٢ - تليفاكس : ٣٦٣٣١٤ - ٣٦٢٣١٣

مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانيء الأندلسي ت : ٤٠٣٨١٣٧ - تليفاكس : ٤٠١٧٠٥٣

شبكة الألوكة - قسم الكتب

هذا الكتاب منشور في

شبكة الألوكة

www.alukah.net